إلا من أتى الله

بقلب سليم

بقلم الدكتور

سيد جمعة سلام

مكتبة الإيمان - المنصورة

ت : ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله تعالى نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل لـه ومن يضلل فلا هادي لـه، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك لـه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيراً بين يدي الساعة. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا.

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[١].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[٢].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[٣].

إن الحديث عن القلب وامتحانه وابتلائه حديث بالغ الأهمية في وقت قست فيه القلوب، وضعف فيه الإيمان، واشتغل فيه بالدنيا، وأعرض الناس عن الآخرة.

ونحن نرى في هذا العصر تطورا هائلا في جراحة القلب البشري، حتى كان من آخر ذلك ما نسمع عن زراعة القلب ونقله مع الدقة المتناهية في تحديد الأمراض الحسية التي تنتاب القلب، وبيان طرق معالجتها وتشخيصها.

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب آية: ٧٠.

ولن أتحدث هنا عن الأمراض الحسية، وما ينتاب هذا القلب من أدواء.

لكنني سأتحدث عما يعرض لهذا القلب خلال سيره إلى الله من امتحانات وابتلاءات وما علامات صحته وعلته؟ وما مواطن الابتلاء والامتحان لهذا القلب؟

وسوف أركز خلال الحديث عن القلب على الاستشهاد بكلام الله وكلام رسوله ﷺ وهذا أمر طبيعي؛ لأن الأصل هو الاستقاء من منبع الكتاب والسنة؛ وإنما نصصت على هذا حتى يعلم أن الحديث عن القلب ليس بالأمر الهين ولا السهل، فلا أحد أعلم بأحوال هذا القلب وما ينتابه من خالقه**{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}**[1].**{يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}**[2]**{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}**[3]. ومن أنزل عليه الوحي ﷺ**{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى}**[4].

ولأنبه إلى خطورة دعوى كثير من الناس معرفة المقاصد من أعمال القلوب مما لا يعلمه إلا الله - جل وعلا - وانشغلوا بما نهوا عنه وتكلموا شططا:**{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}**[5] وأنى لنا بمعرفة أسرار القلوب وخواطرها.

* * * * *

(١) سورة الملك آية: ١٤.
(٢) سورة طه آية: ٧.
(٣) سورة غافر آية: ١٩.
(٤) سورة النجم آية: ٣ - ٤.
(٥) سورة الإسراء آية: ٣٦.

أهمية الموضوع وسبب اختياره

لماذا الحديث عن القلب؟؟؟

هذا البحث الموسوم بـ إلا من أتى الله بقلب سليم يندرج تحت التفسير الموضوعي، وقد تكلمنا فيه عن القلب من جميع الجوانب وما يصيبه من أمراض وآفات من خلال آيات القرآن الكريم، السنة النبوية المطهرة.

سبب اختيارنا لهذا الموضوع والحديث عنه بالتحديد هو ما نشاهده في هذا العصر من زيادة الطلب للدنيا والزهد في الآخرة، وكيف أن حبها يُفسد القلب كما يَفسد العسل إذا أُضيف إليه الخل!، وكيف أن القلب هكذا يصبح قلباً قاسياً لضياع الحكمة منه ولا يصلح لسكن معرفة الله ومحبته والإنابة إليه.

ويكتسب الحديث عن القلب أهمية خاصة، لعدة أمور أجملها فيما يأتي:

١ - أن الله - سبحانه وتعالى - أمر بتطهير القلب، وتنقيته، وتزكيته، بل جعل الله - سبحانه وتعالى - من غايات الرسالة المحمدية تزكية الناس، وقدمها على تعليمهم الكتاب والحكمة لأهميتها، يقول الله - تعالى:**{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}**(١).

قال ابن القيم - رحمه الله - في قوله تعالى:**{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}**(٢).

جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا: القلب(٣).

ويقول - سبحانه وتعالى - عن اليهود والمنافقين:**{أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**(٤).

---

(١) سورة الجمعة آية: ٢.
(٢) سورة المدثر آية: ٤.
(٣) رسالة أمراض القلوب ص ٥٢.
(٤) سورة المائدة آية: ٤١.

فهذا سبب بارز ومهم للحديث عن القلب.

٢ - أثر هذا القلب في حياة الإنسان فهو الموجه والمخطط، والأعضاء والجوارح تنفذ.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث القلب خبثت جنوده) [١].

٣ - ومن الأسباب الجوهرية للحديث عن هذا الموضوع غفلة كثير من الناس عن قلوبهم، فتجد - مثلا - بعض طلبة العلم يتوسع في بحث بعض الأعمال الدقيقة، ويتفقه فيها فقها عجيبا: هل تحريك الأصبع سنة؟ ومتى وكيف يحرك؟... إلخ، والبحث فيها نافع ومهم ولا شك، في حين يغفل البحث في أعمال القلب وأحواله، وأدوائه وعلله، وهذا أهمّ وأجلّ.

٤ - أن كثيرا من المشكلات بين الناس، وبالأخص بين طلبة العلم، سببها أمراض تعتري القلوب، ولا تبنى على حقائق شرعية، فهذه المشكلات تترجم أحوال قلوب أصحابها، وما فيها من أمراض مثل: الحسد، والغل، والكبر، والاحتقار، وسوء الظن... إلخ، وسبيل حلها الأمثل هو علاج هذه القلوب.. وإلا فالمرض سيظهر بين حين وآخر كلما ظهرت دواعيه.

ونظرة إلى واقع المجتمع، وما يحدث فيه بين الناس من مشكلات اجتماعية، وخصومات في الحقوق والأموال تثبت صحة ذلك.

٥ - إن سلامة القلب وخلوصه سبب لسعادة الدنيا والآخرة، فسلامة القلب من الغل والحسد والبغضاء وسائر الأدواء سبب للسعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة:**{يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**[٢]، وانظر إلى حال أبي بكر رضي الله عنه وغيره ممن رزق قلبا سليما، خاليا من الضغائن والعلل.

---

(١) التحفة العراقية.

(٢) سورة الشعراء آية: ٨٨ - ٨٩.

٦ - يقول الإمام عبد الله بن أبي جمرة. "وددت أنه كان من الفقهاء من ليس لـه شغل إلا أن يعلم النـاس مقاصـدهم فـي أعمـالهم؛ فمـا أتـي كثير ممـن أتـي إلا مـن قبـل تضـييع ذلك[١].

حيث يبين هذا الإمـام أهميـة تعليم النـاس مقاصـدهم فـي أعـمـالهم، وتنبيههم علـى مفسدات الأعمال. فإنه كما أننا نشهد من يتخصص في أنواع العلوم كالحديث والفقه والتفسير والنحو والفرائض وغيرها، فيتقن هذه العلوم، ويبلغها الناس، فنحن بحاجة إلى من يتقن الحديث عن مقامات القلب وأحواله، وأعماله وعلله وأدوائه، فيعلمها الناس ويصحح مقاصدهم ونياتهم.

٧ - ما أعطي الله لهذا القلب من مكانة في الدنيا والآخرة، وانظر إلى أدلة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

١ - يقول الله - تعالى - على لسان نبيه إبراهيم ﷺ**{وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**[٢]. فلن ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم.

٢ - يقول - جل وعلا -:**{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}**[٣]، فأين القلب المنيب وما صفته؟

٣ - وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ : **«إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[٤].

---

(١) محاضرة الشيخ سلمان العودة عن النية. المدخل لابن الحاج (١/ ٣).
(٢) سورة الشعراء آية: ٨٧ - ٨٩.
(٣) سورة ق آية: ٣١- ٣٣.
(٤) رواه مسلم (١٩٨٧/٤).

٤ - وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعا: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»** (١).

وكفى بهذا الحديث واعظا وزاجرا، وعبرة لأولي الألباب.

٨- أن أقوال القلب - وهي تصديقاته وإقراراته، وأعماله وحركاته من: خوف ورجاء ومحبة وتوكل وخشية وغيرها، هي أعظم أركان الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وبتخلفها يتخلف الإيمان. وها هم المنافقون يقولون الشهادة بألسنتهم، ويشاركون المسلمين في أعمالهم الظاهرة، ولكنهم بتخلف إقرارهم وتصديقهم كانوا**{فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}**(٢).

٩- أن كثيرا من الناس جعلوا جل همهم تفسير مقاصد الناس، وتحميل تصرفاتهم ما لا تحتمل، وتجاهل الظاهر، وترتيب الأحكام على تنبؤ عمل القلوب، مما لا يعلمه إلا علام الغيوب، والغريب أن هناك من يعتبر هذا الأمر ذكاء وفراسة وفطنة، وليس هو من الفراسة الشرعية في شيء. فنحن مأمورون أن نؤاخذ الناس بظواهرهم ونكل سرائرهم إلى الله تعالى، ومن هنا كانت أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره..

* * * * *

---

(١) رواه البخاري (١٢٦/١ فتح) ومسلم (١٢١٩/٣).

(٢) سورة النساء آية: ١٤٥.

منهج إعداد البحث

وسنوجز في السطور القليلة القادمة ما تحدث فيه البحث:

تحدث البحث عن القلوب والأمراض التي تنتابها حتى تصبح ضعيفة رويدا رويداً وتصبح الأجساد التي تحويها أجساد بلا قلوب.

والبحث يتكون من أربع فصول:

الفصل الأول: تكلمت فيه عن القلب فى القرآن وهو من إحدى عشر مبحث.

الفصل الثانى: تكلمت فيه عن أمراض القلوب وشفاؤها وهو فى ثمانية مباحث.

والفصل الثالث: وهو فى عشر مباحث: وهو عبارة عن تفصيل لبعض أعمال القلوب مثل: (الصدق - الاخلاص - المحبة - الخوف - الخشية - الخشوع - التفكر - التسليم - الرضا و....).

وكذلك الفصل الرابع: فى عشر مباحث: تفصيل لبعض أعمال القلوب وأخيرا باقة من بهجة قلوب الأبرار.

ثم الخاتمة متبوعة بالمراجع والفهارس، وفي كل مرض عرضناه لم نهتم فقط بإظهار الأعراض - حتى يتجنبها المؤمن الفَطِن - ولا بالأسباب التي أدت لهذا المرض فقط بل آثرنا أن نعرض طرق العلاج وذلك حتى يتمكن مَن به عَرَض من الأعراض التخلص منه بشكل صحيح ولا يعود إليه هذا المرض من جديد.

تكلمنا عن الشهوتين اللتين هما العاملين الأساسيين في أمراض القلوب وهما شهوتي الفرج والبطن.

وتكلمنا عن أهمية غض البصر لأنه بين العين والقلب منفذ وطريق فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، ولأن إطلاق البصر كذلك يلبس القلب ظلمة، كما أن غَضَّه لله عز وجل يلبسه نورا.

وتكلمنا عن الغضب فكم من بيوت هدمت بسببه وجرائم قد ارتُكِبَت بعذره.

وأيضاً الحسد والحقد اللذان يأكلان القلوب كما تأكل النار الهشيم.

والرياء المحبِط للأعمال الصالحة.

والكبر الذي هو من صفات الله تعالى وحده ولـه عشرة صور.

وغيرها من الأمراض وكيفية العلاج منها كلها بإذن الله تعالى.

وأخيرا: إذا كانت هذه مكانة القلب وأهميته. فهلا وقفنا مع أنفسنا لننظر كيف عملنا بقلوبنا، بل ماذا عملت بنا قلوبنا.

كم ننشغل في أشياء كثيرة من أمور دنيانا ومعاشنا ووظائفنا؟...... وإذا بقي لنا شيء من الاهتمام أعطيناه لأعمالنا الظاهرة.

وأما هذا القلب فقليل منا من ينظر إليه، ويعطيه الاهتمام اللائق به، وعسى أن يكون فيما سبق من ذكر أهمية القلب وأثره في حياة الإنسان ما يدعونا إلى مراجعة هذا القلب، وإعطائه.

فعلينا أن نعمل في طاعة الله لإصلاح القلوب وكذلك البعد عن الذنوب والتزام الطاعة لله عز وجل.

كما قال ابن المبارك رحمه الله.

رأيــت الــذنوب تميــت القلــوب ::: وقـــد يـــورث الـــذل إدمانهـــا

وتـــرك الـــذنوب حيـــاة القلـــوب ::: وخيـــــر لنفســـــك عصـــــيانها

راجي عفو ربه ورضاه

دكتور/ سيد جمعه سلاّم

* * * * *

الفصل الأول:

القلـــب السليـــم

دراسة موضوعية من القرآن والسنة

المبحث الأول:

القلب فى القرآن

خلق الله المخلوقات ومنها: الإنسان والحيوان والنبات والجمادات.

فأما الجمادات: فلا حياة فيها وهي مُسَخَّرَة لخدمة الإنسان والنباتات. والحيوانات خلقها الله وفيها الحياة وجعلت لخدمة الإنسان، فالنبات أرقى من الجمادات لأنها تتميز بنوع من الحياة فيها، والحيوانات أرقى من الجمادات والنباتات لأنها تتحرك وكذلك لأنها قد يكون لها مجتمع ونظام مثلاً كمملكتي النمل والنحل.

{وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} (الأنعام: ٣٨).

وكذلك للحيوانات خاصية الشهوة كشهوة البطن والفَرْج كما هو في الإنسان الذي فضله الله على الجميع.

وأيضاً الإنسان لـه خاصية النمو ويشترك فيها مع النبات كما بينت الآيات القرآنية، فهو يولد وينمو ويزداد قوة ثم يصبح قوياً ثم شيخاً ثم يموت كحال النباتات.

وللإنسان أيضاً الخاصية الشهوانية الحيوانية - شهوة البطن وشهوة الفرج - ولكنها تختلف في الإنسان عن الحيوان بأنها محكومة بالإدراك والتمييز الذي منحه الله تعالى به وهو العقل، لذلك عندما وهبه الله نعمة العقل كَلَّفه بالشرائع فخاطبه الله تعالى في القرآن بالأوامر والنواهي.

ولكون الإنسان مكون من جسم وروح ونفس وعقل - قلب -:

١ – **فالجسم**: هو عبارة عن المركب أو الجوارح (اليدان والرجلان والعينان واللسان والبطن والفرج والرأس) فقد ذكره الله في القرآن ولكن ليس لـه أهمية تماثل أهمية الروح أو النفس أو القلب.

قال ﷺ : **«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»** وأشار إلى صدره [1].

وفي حديث آخر قال ﷺ : **«التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات»** [2].

وقال الله سبحانه وتعالى مخبرا عن المنافقين واصفاً إياهم:**{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** (المنافقون: ٤)

٢ – الروح: لا يعلم حقيقة الروح إلا الله فالروح ببساطة هي الطاقة المحركة لهذا الجسم التي لا نراها مثل الكهرباء للثلاجة والمايكروفون والسيارة.

فبدون الروح الجسم عبارة عن جسد ميت. قال تعالى:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} (الإسراء: ٨٥).

٣ – النفس: لقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم وبين أنها ثلاثة أنواع

* النفس المطمئنة: وهي التي تأمر صاحبها بعمل الخير دائماً وهي المطمئنة بثواب الله عز وجل، وهي النفس المؤمنة الموقنة وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى حيث

قال:**{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}**(الفجر: ٢٧ - ٣٠).

* النفس الخبيثة: وقد ذكرها الله تعالى في القرآن**{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** (يوسف: ٥٣)

(١) صحيح مسلم.
(٢) صحيح مسلم.

{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} من الزلل{إِنَّ النَّفْسَ} النفس هنا للجنس{لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} كثيرة الأمر به[1].

* النفس اللوامة: وهي التي تلوم نفسها وإن اجتهدت بالإحسان وهي التي تأمر صاحبها بعمل الشر ثم تأمره بالعودة إلى الله والتوبة وكلما همت بعمل السوء تلومه.

٤ – **العقل**: وهو المدبر الحاكم الآمر الناهي (المَلِك) العام للجسم الذي يعرف الخطأ والصواب وهو منشأ الإدراك والتمييز وهو المفرق بين الحق والباطل والنور والظلام والهدى والضلال.

انتبه: أين محل العقل إذاً؟

محل العقل هو القلب ذلك الجوهر الموجود في الصدر والذي لـه نوع من التعلق بالقلب العضوي - العضلة التي تضخ الدم - ولا يعرف سره إلا الله كالروح والنفس فهو المخاطب وهو المعاتب وهو المحاسب.

كما قال تعالى في القرآن الكريم:**{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}** (الزمر: ٢٢).

والمعنى:**{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}** أفمن فتح الله صدره لمعرفته والإقرار بوحدانيته والإذعان لربوبيته والخضوع لطاعته**{فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ}** فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين بتنوير الحق في قلبه**{فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ}** أي فويل للذين جَفَّت قلوبهم ونأَتْ عن ذكر الله وأعرضَت، أولئك في ضلال مبين [2].

إذا نفهم من ذلك أن الله تعالى لم يخاطب جوارحنا ولكن يخاطب قلوبنا وعقولنا فالجوارح ما هي إلا أدوات تأتمر بأوامر القلب فإذا صَلُحَ القلب ظهر أثر صلاحه نور على الجوارح، ولكن إذا كان القلب مظلماً يعلوه الران - السواد - فهو كالصدأ.

---

(١) الجلالين، بتصرف.

(٢) الطبري، بتصرف.

قال تعالى:**{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** (المطففين: ١٤).

قال**{كَلاَّ}** ردع وزجر لقولهم ذلك**{بَلْ رَانَ}** غَلَبَ**{عَلَى قُلُوبِهِم}** فغشيها**{مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** من المعاصي؛ فهو كالصدأ [١].

فحقيقة القلب أنه هو الطائع حقيقة أو العاصي إلا من أتى الله بقلب سليم**{إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** (الشعراء: ٨٩).

ولذا يقول ﷺ : **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»** [٢].

وصدق القائل: المرء بأصغريه بقلبه ولسانه.

وإليك أخي وحبيبي ما جاء في القرآن من آيات تتكلم عن القلب ومنها:

١ – فى قلوبهم مرض...).

{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} (البقرة: ١٠)

بين - سبحانه - العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال :**{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}**.

والمرض : العلة في البدن ونقيضه الصحة، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه، كسوء العقيدة والحسد، والبغضاء والنفاق، وهو المراد هنا.

وسمي ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل.

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض، للإشعار بأنه تمكن منها تمكناً شديداً كما يتمكن الظرف من المظروف فيه.

---

(١) الجلالين.

(٢) البخاري ١٢٦/١، مسلم ٢٧، ١١/٢٨.

ثـم أخبـر - سـبحانه - بـأنهم بسـبب سـوء أعمـالهم قـد زادهـم الله ضـلالا وخسـراً فقال:**{فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً}**.

لأنهم استمروا في نفاقهم وشكهم، ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد لا محالة مرضه، إذ المرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد.

والمعنـى : أن هـؤلاء المنـافقين قـد زادهـم رجسـاً علـى رجسـهم، ومرضـا علـى مرضهم، وحسدا على حسدهم، لأنهم عموا وصموا عن الحق، ولأنهم كانوا يحزنون لأي نعمة تنزل بالمؤمنين. كما قال - تعالى :**{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}** (آل عمران: ٢٠) ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال :**{وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}**.

{أَلِيمٌ} أي : مؤلم وموجع وجعاً شديدا. من ألم - كفرح - فهو ألم، وآلمه يؤلمه إيلاما، أي : أوجعه إيجاعاً شديدا.

والكـذب : الإخبـار عـن الشـيء بخـلاف الواقـع. ولقـد كـان المنـافقون كـاذبين فـي قولهم:**{آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ}** وهم غير مؤمنين.

وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتبا على كذبهم مع أنهم كفرة، والكفر أكبر معصية من الكذب، للإشعار بقبح الكذب، وللتنفير منه بأبلغ وجه، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخستين، الكفر الذي توعد الله مرتكبه بالعذاب العظيم، والكذب الذي توعد الله مقترفة بالعقاب الأليم.

وعبر بقوله :**{كَانُوا يَكْذِبُون}** لإفادة تجدد الكذب وحدوثه منهم حيناً بعد حين، وأن هذه الصفة هي أخص صفاتهم، وأبرز جرائمهم.

٢ – ولكن بما كسبت قلوبكم...

{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (البقرة: ٢٢٥)

المؤاخذة : مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإِلزام بالوفاء بها.

واللغو من الكلام : الساقط الذي لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية، مصدر لغا يلغو ويلغى.

والمعنى : لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية، فضلا منه - سبحانه - وكرماً.

واليمين اللغو هو التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادة من غير قصد، وقد ذكر العلماء صوراً لها منها - كما يقول ابن كثير :

ما رواه عطاء عن عائشة أنها قالت : (اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله) وفي رواية عن الزهري عن عروة عنها أنها قالت : (اللغو في اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارسون في الأمر - أي يتناقشون ويتذاكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم) أي تجري على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين:

ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله - تعالى - :**{لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ}** وتقول : (هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه).

ثم بين - سبحانه - اليمين التي هي موضع المحاسبة والمعاقبة فقال :**{ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}**.

أي : لا يؤاخذكم الله في اليمين التي لم تصدر عن روية ولكن يؤاخذكم أي يعاقبكم في الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب في اليمين، بأن يحلف أحدكم على شيء

كذب ليعتقد السامع صدقه، وتلك هي اليمين الغموس - أي التي تغمس صاحبها في النار - ويدخل فيها الأيمان التي يحلفها شهود الزور والكاذبون عند التقاضي ومن يشابههم في تعمد الكذب.

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة، ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم بباطل.

ويرى الإمام الشافعي أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة.

والباء في قوله :**{بِمَا}** للسببية، وما مصدرية أي، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب، أو موصولة والعائد محذوف أي ولكن يؤاخذكم بالذي كسبته قلوبكم.

وقوله :**{والله غَفُورٌ حَلِيمٌ}** تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة في اللغو. أي والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة.

٣ – وليمحص ما فى قلوبكم...

{وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}(آل عمران: ١٥٤)

ثم بين - سبحانه - بعض الحكم من وراء ما حدث للمسلمين فى أحد فقال :**{وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور}** (آل عمران: ١٥٤).

والابتلاء : الاختبار وهو هنا كناية عن أثره، وهو إظهاره للناس ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه.

والتمحيص تخليص الشيء مما يخالطه مما فيه عيب له.

والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق. والتقدير : نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن، وليعاملكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر، حتى يتبين الخبيث من الطيب

وليخلص ما فى قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من أدران، ويطهرها مما يخالطها من ظنون سيئة - فإن القلوب يخالطها بحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة وحب الشهوات. ما يضاد ما أودع الله فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى.

فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص من الآثام فاقتضت حكمة الله - تعالى - أن ينزل بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء الكريه لمن عرض له داء.

وقوله**{والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور}** أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التى لا تفارقها فهو القائل:**{إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السماء}** (آل عمران: ٥) وهو القائل**{وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى}** (طه: ٧) ثم أخبر - سبحانه - عن الذين لم يثبتوا مع النبى ﷺ يوم أحد، وبين السبب فى ذلك وفتح لهم باب عفوه فقال :**{إِنَّ الذين تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ التقى الجمعان إِنَّمَا استزلهم الشيطان بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ}** (آل عمران: ١٥٥).

٤ – أولئك هم الغافلون.....

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ}(الأعراف: ١٧٩)

قوله**{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن}** كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله ومفصل له.

و " الذرء " الخلق. يقال : ذرأ الله خلقه يذرؤهم ذرءًا، أى : خلقهم. واللام فى**{لِجَهَنَّمَ}** للعاقبة والصيرورة.

أى : ولقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب بها كثيراً من الجن والإنس وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها، الذين علم الله منهم أزلا اختيارهم الكفر فشاءه منهم وخلقه فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك.

ثم بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال.**{لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا}** أى : لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى الكمالات مع أن دلائل الإيمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب المتفتحة، والبصائر المستنيرة.

وجملة**{لَهُمْ قُلُوبٌ}** فى محل نصب صفة أخرى لقوله**{كَثِيراً}** وجملة**{لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا}** فى محل رفع صفة لـ (قلوب).

وقوله**{وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا}** أى : لهم أعين لا يبصرون بها ما فى هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار، فهم كما قال - تعالى -:**{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}** (يوسف: ١٠٥) فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو اعتبار، فكأن وجودها وعدمه سواء.

وقوله**{وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا}** (الأعراف: ١٧٩) أى : لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، أى أنهم لا ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية.

قال صاحب الكشاف : (هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم، وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون واستماع الآذان، وجعلهم - لإعراقهم فى الكفر وشدة شكائمهم فيه، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم فى الموبقات، وتوغلهم فيما يؤهلهم لدخول النار).

وقوله**{أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ}** أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات المذكورة كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية.

وقوله**{بَلْ هُمْ أَضَلُّ}** تنقيص لهم عن رتبة الأنعام، أى : بل هم أسوأ حالا من الأنعام، إذ أن الأنعام ليس لها الاستعدادات الفطرية التى تهديها، أما الإنسان فقد زود إلى

جانب الفطرة بالقلب الواعى، والعقل المدرك، والعين المبصرة، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال، فإذا لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية.

وقوله**{أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ}** أى أولئك المنعوتون بما ذكرهم الكاملون فى الغفلة عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم، بسبب استحواذ الهوى والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحدا.

٥- وطبع على قلوبهم....

{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}(التوبة: ٩٣)

فهذه الآيات الكريمة بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا فى المدينة بدون عذر، بعد أن يرجع الرسول ﷺ إليهم والمؤمنون من تبوك.

والمعنى : إذا كان الضعفاء والمرضى ومن فى حكمهم، لا إثم ولا عقوبة عليهم بسبب تخلفهم عن الجهاد، فإن " السبيل " أى الإثم والعقوبة**{عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ}** فى التخلف " وهم أغنياء " أى يملكون كل وسائل الجهاد من مال وقوة وعدة.

وقوله :**{رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ}** استئناف تعليلى مسبوق لمزيد مذمتهم.

أى : استأذنوك مع غناهم وقدرتهم على القتال، لأنهم لخلو قلوبهم من الإيمان، ولسقوط همتهم وجبنهم، رضوا لأنفسهم أن يبقوا فى المدينة مع الخالف من النساء والصبيان والعجزة.

وقوله :**{وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}** بيان لسوء مصيرهم

أى : وبسبب هذا الإصرار على النفاق، والتمادى فى الفسوق والعصيان، ختم الله - تعالى - على قلوبهم، فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية ودنيوية وأخروية.

٦ – صرف الله قلوبهم.....

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ}(التوبة: ١٢٧)

والمعنى : إذا ما أنزلت سورة من سور القرآن عليك يا محمد : تساءل المنافقون عنها فى حذر وريبة**{فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ}** (التوبة: ١٢٤) لأشباهه فى الكفر والنفاق على سبيل الاستهزاء والتهوين من شأن القرآن الكريم**{أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَانا}** (التوبة: ١٢٤) أى: واحد منكم زادته هذه السورة النازلة إيمانا؟

وهنا يجىء الرد الحاسم الذى يخرس ألسنتهم، من جهته - تعالى - فيقول :**{فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** (التوبة: ١٢٤).

أى : فأما الذين آمنوا فزادهم نزول السورة القرآنية، إيمانا على إيمانهم، وثباتا على ثباتهم، ويقينا على يقينهم، " وهم " فوق ذلك " يستبشرون " ويفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية.

هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية، وأما المنافقون، فقد صور القرآن حالهم بقوله:**{وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ}** (التوبة: ١٢٥).

أى : وأما الذين فى قلوبهم شك ونفاق وارتياب، فزادهم نزول السورة كفرا على كفرهم السابق.

وسمى - سبحانه - الكفر رجسا، لأنه أقبح الأشياء وأسوؤها.

وقوله :**{وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ}** (التوبة: ١٢٥) تذييل قصد به بيان سوء عقابتهم فى الآخرة بعد بيان سوء أعمالهم فى الدنيا.

أى : لقد قضى هؤلاء المنافقون حياتهم فى الكفر والفسوق والعصيان، ثم لم يتوبوا عن ذلك ولم يرجعوا عنه، بل ماتوا على الكفر والنفاق.

وقوله :**{أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ}** (التوبة: ١٢٦) توبيخ لهم على قسوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ.

أى : بلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين؟!

ومن هذه الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق اطلاع رسول الله ﷺ على ما يضمرونه من سوء، وما يقولونه من منكر، وما يفعلونه من أفعال خبيثة، وحلول المصائب والأمراض بهم، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين.

قال الآلوسى : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم - مجرد التكثير، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور.

وقوله :**{ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ}** (التوبة: ١٢٦) بيان لرسوخهم فى الجهل والجحود.

أى : ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم، لا يتوبون من نفاقهم**{وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ}** (التوبة: ١٢٦) ويتعظون، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة، وأعمالهم القبيحة، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير.

ثم تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا، مشهدهم عندما تنزل السورة القرآنية على الرسول ﷺ وهم حاضرون فى مجلسه فتقول :**{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ}** (التوبة: ١٢٧) أو آيات منها، على الرسول ﷺ وهم موجودون فى مجلسه**{نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ}** (التوبة: ١٢٧) فى ريبة ومكر، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم فى لؤم وخسة ثم تساءلوا :**{هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ}** (التوبة: ١٢٧) أى : هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس، قبل أن يتلو الرسول ﷺ هذه السورة أو الآيات التى قد تفضحكم وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم.

{ثُمَّ انصَرَفُوا} من مجلس الرسول ﷺ متسللين فى حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين.

وقوله :**{صَرَفَ الله قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ}** (التوبة: ١٢٧) ذم لهم لإيثارهم الغى على الرشد، والضلالة على الهداية.

أى : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما فيه خيرهم ونفعهم، وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم.

هذا، وإن الناظر فى هذه الآيات الكريمة يتدبر وبإمعان، ليراها قد صورت أحوال المنافقين وأخلاقهم وحركاتهم تصويرا دقيقا معجزا، حتى إنه ليخيل إلى القارئ لهذه الآيات الكريمة أو السامع لها، أنه يشهد المنافقين مشاهدة حسية وهم على تلك الحالة من التحرك المريب والنظرات الخبيثة، والخروج من مجلس النبى ﷺ فى حذر وريبة..

وهذا كله مما يشهد بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله العليم بخفايا الصدور، وبطوايا النفوس.

٧ – فلن يهتدوا إذا أبدا...

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}(الكهف: ٥٧).

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}.

والاستفهام هنا للنفى والإنكار والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم، لقوله - تعالى - بعد ذلك :**{أَن يَفْقَهُوهُ}.**

والمراد بالنسيان : الترك والإهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب.

أى : ولا أحد أشد ظلما وبغيا من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله ﷺ فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها، بل نبذها وراء ظهره، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى، نسيان ترك وإهمال واستخفاف.

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال :**{إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً}** (الكهف: ٥٧).

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء، والوقر الثقل والصمم. يقال فلان وقرت أذنه، أى : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم.

أى : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمما وثقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى، وإيثارهم الكفر على الإيمان.

{وَإِن تَدْعُهُمْ} أيها الرسول الكريم**{إِلَى الهُدَى}** والرشد فلن يستجيبوا لك، ولن**{يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً}** إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، بسبب زيغ قلوبهم، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها.

والضمير فى قوله**{أَن يَفْقَهُوهُ}** يعود إلى الآيات، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى، إذ المراد منها القرآن الكريم.

وجاءت الضمائر فى أول الآية بالإفراد، كما فى قوله، **{ذُكِّرُ}** و**{فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** باعتبار لفظ " من " فى قوله**{وَمَنْ أَظْلَمُ}** وجاءت بعد ذلك بالجمع كما فى قوله سبحانه - :**{إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً}** باعتبار المعنى.

وهذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم، ومنه قوله - تعالى - :**{وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ الله له رِزْقاً}** (الطلاق: ١١) فالضمير فى قوله : " يؤمن ويعمل ويدخله " جاء بصيغة الإفراد باعتبار لفظ " من "، وفى قوله :**{خَالِدِينَ فِيهَا}** جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى "من".

٨ – سوء عاقبة الفريقين...

{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} (الحج: ٥٣).

أى : فعل ما فعل - سبحانه - ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه فى القلوب فتنة واختبارا وامتحانا، للذين فى قلوبهم مرض، أى : شك وارتياب، وهم المنافقون، وللذين قست قلوبهم، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد.

فقوله - تعالى - :**{لِّيَجْعَلَ}** متعلق ب**{أَلْقَى}** أى : ألقى الشيطان فى أمنية الرسل والأنبياء ليجعل الله - تعالى - ذلك لإلقاء فتنة الذين فى قلوبهم مرض.

ومعنى كونه فتنة لهم : أنه سبب لتماديهم فى الضلال، وفى إصرارهم على الفسوق والعصيان.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الفريقين فقال :**{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ}**، وهم من فى قلوبهم مرض، ومن قست قلوبهم**{لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}** أى لفى خلاف للحق شديد؛ بسبب نفاقهم وكفرهم.

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس فى القلوب فقال :**{وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}** (الحج: ٥٤).

والضمير فى**{أَنَّهُ}** يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم.

أى : وفعل ما فعل - سبحانه - أيضا، ليعلم العلماء من عباده، الذين حبب - سبحانه - إليهم الإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك، فيزدادوا إيمانا به**{فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}** أى : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم.

و{وَإِنَّ اللهَ} - تعالى -{لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا} به وصدقوا أنبياءه ورسله{إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الحج: ٥٤) يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة.

هذا، وقد أبطل العلماء - قديما وحديثا - قصة الغرانيق، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازى، فقد قال ما ملخصه : قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول.

٩ – أولئك هم الظالمون...

{أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(النور: ٥٠)

ثم يعقب القرآن الكريم على تصرفاتهم القبيحة بإثبات نفاقهم، وبالتعجب من ترددهم وريبهم، وباستنكار ما هم عليه من خلق ذميم فيقول :**{أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ}** (النور: ٥٠) ؟!.

وقوله :**{يَحِيفَ}** من الحيف، وهو الميل إلى أحد الجانبين، يقال : حاف فلان فى قضائه، إذا جار وظلم.

أى : ما بال هؤلاء المنافقين يعرضون عن أحكام الإسلام ولا يقبلون على حكم الرسول ﷺ إلا إذا كانت لهم حقوق عند غيرهم أسبب ذلك أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان؟ أم سبب ذلك أنهم يشكون فى صدق نبوته ﷺ ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟

لا شك أن هذه الأسباب كلها قد امتلأت بها قلوبهم الفاسدة، وفضلا عن ذلك فهناك سبب أشد وأعظم، وهو حرصهم على الظلم ووضع الأمور فى غير مواضعها، ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة - بقوله :**{بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**.

أى : بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، حيث وضعوا الأمور فى غير موضعها، وآثروا الغى على الرشد، والكفر على الإيمان.

١٠- ولكن ما تعمدت قلوبكم...

{ادْعُوَهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الأحزاب: ٥).

{ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ} أى انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى -.

قال الآلوسى : أخرج الشيخان " عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد. حتى نزل القرآن :**{ادْعُوَهُمْ لآبَائِهِمْ}** فقال ﷺ : **«أنت زيد بن حارثة بن شراحيل»**.

وكان زيد قد أسر فى بعض الحروب، ثم بيع فى مكة، واشتراه حكيم بن حزام، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة، ثم أهدته خديجة - رضى الله عنها - إلى النبى ﷺ وصار الناس يقولون : زيد بن محمد، حتى نزلت الآية.

وقوله - سبحانه - :**{فَإِن لَّمْ تعلموا آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدين وَمَوَالِيكُمْ}** إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأدعياء فى حالة عدم معرفة آبائهم.

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آباءهم الحقيقيين لكى تنسبوهم إليهم، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم فى الدين والعقيدة، وهم مواليكم، فقولوا لهم، يا أخى أو يا مولاى، واتركوا نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين.

وفى الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تخلخل فى العلاقات الجنسية، ومن اضطراب فى الأنساب، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة، المبنية على الطهر، والعفاف، ووضع الأمور فى مواضعها السليمة.

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال :**{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولكن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً}** (الأحزاب: ٥).

أى : انسبوا - أيها المسلمون - الأبناء إلى آبائهم الشرعيين، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يا مولاى. ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما، فيما وقتعم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء والأدعياء إلى غير آبائهم، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم.

{وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً} - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء عن عباده.

هذا، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص شريعة الإِسلام على إعطاء كل ذى حق حقه، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذى كان يجعل المرأة محرمة على الرجل، ثم تبقى بعد ذلك معلقة، لا هى مطلقة فتتزوج غير زوجها، ولا هى زوجة فتحل له فشرع الإِسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة، وحرصا على كرامتها.

ومن مظاهر ذلك - أيضا - : إبطال عادة التبنى، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية.

ولقد حذر الإِسلام من دعوة الابن إلى غير أبيه تحذيرا شديدا، ونفر من ذلك.

قال القرطبى : جاء فى الحديث الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكرةرضى ال عنهما له، كلاهما قال : سَمعته أذناى ووعاه قلبى، محمدا ﷺ يقول : «**من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**» وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى ﷺ يقول: «**ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر**».

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ﷺ ونحو أزواجه، وما يجب للأقارب فيها بينهم، فقال - تعالى - :**{النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**...

١١- قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ.....

{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} (الأحزاب : ٢٦)

ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب، ببيان ما حل ببنى قريظة من عذاب مهين، بسبب نقضهم لعهودهم فقال :**{وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ}**.

والصياصى : جمع صيصة وهى كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها. ومنه قيل لقرن الثور صيصة لأنه يدفع به عن نفسه.

أى : وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم، وهم يهود بنى قريظة، أنزلهم من حصونهم، ومكنكم من رقابهم.

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} الشديد منكم، بحيث صاروا مستسلمين لكم، ونازلين على حكمكم.

{فَرِيقاً} منهم**{تَقْتُلُونَ}** وهم الرجال.**{وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً}** آخر وهم الذرية والنساء.

١٢ – صاحب القلب السليم...

{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الصافات)

{وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} (الصافات: ٨٣) يعود على نوح - عليه السلام - وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة، والجمع شِيعَ مثل سِدرة وسِدَر.

قال القرطبى : الشيعة : الأعوان، وهو مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذى يقود مع الكبار حتى يستوقد.

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة شريعته..

وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -اللاحق منهم يؤيد السابق، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات، فهى متحدة فى الأصول والأركان.

وكان بين نوح وإبراهيم، نبيان كريمان هما : هود، وصالح - عليهما السلام - والظرف فى قوله - تعالى - :**{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** (الصافات: ٨٤) متعلق بمحذوف تقديره : اذكر أى: اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والخديعة والرياء.

والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص لقلبه لدعوة الحق، واستعداده لبذل نفسه وكل شىء يملكه فى سبيل رضا ربه - عز وجل -.

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث فى كل ما يرضيه.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجىء بقلبه ربه؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه، وعرف ذلك منه فضرب المجىء مثلا لذلك.

وقوله :**{إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ}** (الصافات: ٨٥) شروع فى حكاية ما دار بينه وبين أبيه وقومه. والجملة بدل من الجملة السابقة عليها، أو هى ظرف لقوله**{سَلِيمٍ}** أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب، نقى السريرة، صادق الإيمان، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - تعالى - ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم :**{أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ}** (الصافات: ٨٦) والإفك أسوأ الكذب. يقال أفِكَ فلان يأْفِكُ إفكا فهو أفوك.. إذا اشتد كذبه.

١٣ – أم على قلوب أقفالها...

{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}(محمد: ٢٤)

{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} والفاء للعطف على جملة محذوفة، والاستفهام للإنكار

والزجر. أى : أيعرضون عن كتاب الله - تعالى - فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهى.

{أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ} أى : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التى حالت بينهم وبين التدبر والتفكر، والأقفال : جمع قفل - بضم فسكون - وهو الآلة التى تقفل بها الأبواب وما يشبهها، والمراد : التسجيل عليهم بأن قلوبهم مغلقة، لا يدخلها الإِيمان، ولا يخرج منها الكفر والنفاق.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟

قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك. أو يراد على بعض القلوب وهى قلوب المنافقين. وأما إضافة الأقفال، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - :**{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً}** (النساء: ٨٢) وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها، وجوب التدبر والتفكر فى آيات القرآن الكريم، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات، وأوامر ونواه، وآداب وأحكام، لأن عدم الامتثال لذلك يؤدى إلى قسوة القلوب وضلال النفوس، كما هو الحال فى المنافقين والكافرين.

١٤ – فعلم ما فى قلوبهم...

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} (الفتح: ١٨)

{لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة} هى الموطئة للقسم، وتسمى هذه البيعة ببيعة الرضوان.

والشجرة : كانت بالحديبية، وقد جلس ﷺ تحتها ليبايع أصحابه على الموت أو على عدم الفرار، فبايعوه على ذلك - ما عدا بعض المنافقين، وقد كان الناس بعد ذلك

يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحتها، ويدعون الله - تعالى - فأمر عمر - رضى الله عنه - بقطعها خشية الافتتان بها. أى : والله لقد رضى الله - تعالى - عن المؤمنين الذين بايعوك - أيها الرسول الكريم - تحت الشجرة، على الموت من أجل إعلاء كلمة ربهم.

وفى هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان، وهو رضا الله - تعالى - عنه ودخوله فى زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته - سبحانه - ورحمته.

قال الآلوسى - رحمه الله - : والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة. وقوله - سبحانه - :**{تَحْتَ الشَّجَرَةِ}** متعلق بيبايعونك.. وفى التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة فى النفوس. ولذا استوجبت رضا الله - تعالى - الذى لا يعادله شىء، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال.

ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر رضى الله عنه، ومسلم عن أم بشر، رضى الله عنها، عن النبى ﷺ أنه قال : **«لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»**.

وصح برواية الشيخين وغيرهما فى أولئك المؤمنين من حديث جابر، أنه ﷺ قال لهم: **«أنتم خير أهل الأرض..»**.

وقوله - تعالى - :**{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}** بشارة أخرى لهؤلاء المؤمنين الصادقين.

أى : لقد رضى - سبحانه - عن الذين بايعوك تحت الشجرة - أيها الرسول الكريم - حيث علم ما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص وإيثار الآخرة على الأولى، فأنزل السكينة والطمأنينة والأمان عليهم، **{وَأَثَابَهُمْ}** أى : وأعطاهم ومنحهم فتحا قريبا، وهو فتح خيبر، الذى كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين.

وقيل المراد به : فتح مكة، والأول أرجح، لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة.

١٥ – فطبع على قلوبهم...

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ}(المنافقون: ٣)

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا} يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب، ومن الصد عن سبيل الله، ومن قبح الأقوال والأفعال.

أى : ذلك الذى ذكر من حالهم الذى دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله... سببه أنهم**{آمَنُواْ}** أى : نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم، ثم كفروا، أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه، وظهر منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا، كقولهم :**{أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السفهآء}** (البقرة: ١٣) وكقولهم للمجاهدين :**{لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر}** (التوبة: ٨١)**{فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ}** (المنافقون: ٣) أى : فختم الله - تعالى - عليها بالكفر نتيجة إصرارهم عليه، فصاروا، بحيث لا يصل إليها الإيمان.

{فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} أى : فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا، ولا يشعرون به، ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم.

وقوله :**{ذَلِكَ}** مبتدأ، وقوله:**{بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا}** خبر : والباء للسببية.

و**{ثُمَّ}** للتراخى النسبى، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح، وأشد ضررا وقبحا.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم، فما معنى قوله :**{بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا}** ؟.

قلت : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : آمنوا : أى نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام، ثم كفروا. أى : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقا فنحن حمي.

والثانى : آمنوا، أى : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام، كقوله - تعالى - :**{وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ}** (البقرة: ١٤).

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم.

١٦- إلا من أكره...

{مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(النحل: ١٠٦)

{مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمَانِهِ} روايات منها قول الآلوسى : " روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه : ياسرا، وسمية، على الارتداد فأبوا، فربطوا سمية بين بعيرين... ثم قتلوها وقتلوا ياسرا، وهما أول شهيدين فى الإسلام. وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يارسول الله : إن عمارا قد كفر. فقال ﷺ : **«كلا، إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»**.

فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال له : **«مالك، إن عادوا فعد لهم بما قلت»**. وفى رواية أنه قال له : **«كيف تجد قلبك؟»** قال: مطمئن بالإيمان قال ﷺ: **«إن عادوا فعد»**. فنزلت هذه الآية.

ثم قال الآلوسى : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازا للدين ولو تيقن القتل، كما فعل ياسر وسمية، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة، بل هو كالقتل فى الغزو كما صرحوا به.

و (من) فى قوله:**{مَن كَفَرَ بالله}** مبتدأ أو شرطية، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من الله، أو فله عذاب شديد، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك :**{ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً}**.

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله ﷺ فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا، يستحق من أجله العذاب المهين.

وقوله :**{إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}** استثناء متصل من الجملة السابقة أى : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان، ثابت عليه، متمكن منه.. فإنه فى هذه الحالة لا يكون ممن يستحقون عقوبة المرتد.

قال بعض العلماء : وأما قوله :**{إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}** فهو استثناء متصل من " مَنْ " لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقادا فقط، أو قولا فقط، أو اعتقادا وقولا... وأصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج، والمراد به هنا : السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه.

وقوله :**{ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** (النحل: ١٠٦) بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره ورضاه.

و" من " فى قوله**{مَّن شَرَحَ}** شرطية، وجوابها**{فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ}**.

أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتدا، ولكن حكم من طابت نفوسهم بالكفر، وانشرحت له صدورهم، واعتقدوا صحته، أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو، ولهم يوم القيامة عذاب عظيم الهول، يتناسب مع عظيم جرمهم.

هذا، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التى حكت ما تعرض له المسلمون الأولون من فتن وآلام. فقال ما ملخصه : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد، أحد، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها.

وقوله - سبحانه - :{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ} (النحل: ١٠٧) بيان للأسباب التى جعلتهم محل غضب الله ونقمته.

واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم، أو إلى ما توعدهم الله - تعالى - به من غضب عليهم، وعذاب عظيم لهم.

أى : ذلك الذى جعلهم يرتدون عن دينهم، ويكونون محل غضب الله ونقمته، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة وما فيها من ثواب.

{وَأَنَّ اللَّهَ} - تعالى -**{لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ}** (النحل: ١٠٧) إلى الصراط المستقيم، لأنهم حين زاغوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم.

ثم أضاف - سبحانه - إلى رذائلهم رذيلة أخرى فقال :**{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ}** (النحل: ١٠٨).

والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشيء، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه. أى : أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر، وطابوا به نفسا، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها، وعاجزة عن الانتفاع به، وأولئك هم الكاملون فى الغفلة والبلاهة، إذ لاغفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية.

١٧ – وختم على سمعه وقلبه....

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} (الجاثية: ٢٣).

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} للتعجب من حال هؤلاء المشركين، ولتسلية النبى ﷺ عما أصابه منهم من أذى.

والمراد بهواه : ما يستحسنه من تصرفات، حتى ولو كانت تلك التصرفات فى نهاية القبح والشناعة والجهالة.

والمعنى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم، مهما كان قبح تصرفهم، وانحطاط تفكيرهم، وخضعوا له كما يخضع العابد لمعبوده.

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا. فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول.

وقوله :**{وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}** أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى، بأن خلق فيه الضلالة، على علم منه - سبحانه - بأن هذا الشقى أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى.

فيكون قوله**{عَلَى عِلْمٍ}** حال من الفاعل، أى أضله - سبحانه - حالة كونه عالما بأنه من أهل الضلال.

ويصح أن يكون حالا من المفعول، أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى، والحال أن هذا الشقى عالم بطريق الإيمان، ولكنه استحب الغى على الرشد.

وقوله**{وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ}** والختم : الوسم بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشىء، وطبعه فيه للاستيثاق، لكى لا يخرج منهما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه.

أى : وطبع على سمعه وقلبه، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده.

{وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} أى : وجعل على بصره غطاء، يحجب عنه الرؤية السليمة للأشياء وأصل الغشاوة ما يغطى به الشئ، من غشاه إذا غطاه.

والاستفهام فى قوله - تعالى - :**{فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ}** للإنكار والنفى.

أى : لا أحد يستطيع أن يهدى هذا الإنسان الذى اتخذ إلهه هواه من بعد أن أضله الله

- عز وجل -.

{أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} أى : أفلا تتفكرون وتتأملون فيما سقت لكم من مواعظ وعبر، تفكرا يهديكم إلى الرشد، ويبعثكم على الإيمان.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة، تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من المشركين، وتعجيب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الجهالة والضلالة. ودعوة لهم إلى التذكير والاعتبار، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان.

١٨ – وجاء بقلب منيب...

{مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}(ق: ٣٣).

{هذا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} (ق: ٣٢) يعود إلى الجنة التى قربت لهم.. والجملة على تقدير القول، أى : قربت الجنة ممن هم أهلها، ويقال لهم عند دخولها : هذا الذى ترونه من نعيم، هو ما سبق أن وعد الله - تعالى - به كل**{أَوَّابٍ}** أى رجاع إليه بالتوبة**{حَفِيظٍ}** أى : حافظ لحدوده وأوامره ونواهيه بحيث لا يتجاوزها، وإنما ينفذها، ويقف عندها.

{مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} أى : من خاف مقام ربه دون أن يراه أو يطلع عليه، والجملة بدل أو عطف بيان من قوله :**{لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ}** وقوله :**{بِالْغَيْبِ}** متعلق بمحذوف حال من الرحمن، أى : خَشِيَه وهو غائب عنه لا يراه ولا يشاهده.

{وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} أى : وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه، مخلص فى طاعته، مقبل على عبادته..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك فى دنياهم، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم :**{ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ}** (ق: ٣٤) أى ادخلوا الجنة التى وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان.

{ذَلِكَ} اليوم وهو يوم الثواب والعطاء الجزيل من الله - تعالى -**{يَوْمُ الخُلُودِ}** الذى لا انتهاء له، ولا موت بعده.

{لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا} (ق: ٣٥) أى : لهؤلاء المتقين ما يشاءون ويشتهون.. فى الجنة.

{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} (ق: ٣٥) أى : وعدنا - فضلا عن كل هذا النعيم الذى يرفلون فيه - المزيد منه، مما لم يخطر لهم على بال، ولم تره أعينهم قبل ذلك.

قال ابن كثير : وقوله :**{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** كقوله - تعالى - :**{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ}** (يونس: ٢٦) وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان، أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

١٩ – لمن كان له قلب....

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}(ق: ٣٧).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الإهلاك للأمم المكذبة السابقة**{لذكرى}** أى : لتذكرة وعبرة**{لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** أى : لمن كان له قلب يعى ما يسمع، ويعقل ما يوجه إليه، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم.**{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}** أى : فيما سقناه عبرة وعظة لمن كان له قلب يعى الحقائق، ولمن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات، وهو حاضر الذهن صادق العزم لتنفيذ ما جاءه من الحق.

قال صاحب الكشاف :**{لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ}** أى قلب واع، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له، وإلقاء السمع : الإصغاء.**{وَهُوَ شَهِيدٌ}** أى : حاضر بفطنته، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.. أو هو مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحى الله.

٢٠– ومن يؤمن بالله يهد قلبه...

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (التغابن: ١١).

{وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أى : ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا يهد قلبه إلى الصبر الجميل، وإلى الاستسلام لقضائه - سبحانه - لأن إيمانه الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والله - تعالى - عليم بكل شىء، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - :**{وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ}** أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضائه - تعالى - هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا.

وفى الحديث: «**عجبا للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**» [1].

ومن هذه الآيات الكريمات نفهم أن القلب هو المخاطب في القرآن ودل على ذلك قول الله تعالى:**{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** (الصافات: ٨٤).

وعن قوله تعالى:**{بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**: قال ابن عباس رضى الله عنه: يعني شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال محمد بن سيرين: يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وقال الحسن: سليم يعني من الشرك.

وأما عروة فقال: لا يكون قلباً لعانا [2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) ابن كثير، بتصرف قليل.

وقولــه تعــالى:**{أَفَلَـمْ يَسِـيرُوا فِـي الأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُـمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ}**(الحج: ٤٦).

يعني:**{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ}** بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، **{فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ}**: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويرونها بل يبصرون ذلك بأبصارهم ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن معرفة الحق والانتصار له.

وقيل**{وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ}** والقلوب لا تكون إلا في الصدور، توكيداً للكلام[1]، كما قيل:**{يَقُولُونَ بَأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}** (آل عمران: ١٦٧).

وكما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار: أن مالك بن دينار حَدَّث قال: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الأرض ثم اطلب الآثار والعِبَر حتى يتخَرَّق النعلان وتنكسر العصا.[2]

فالله يؤاخذ الإنسان بما يتعمد قلبه ويقصد وذلك مُبَيَّن في آيات**{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}**(البقرة: ٢٢٥).

وقال:**{وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}** (الأحزاب: ٥).

وهذه القلوب تنفتح وتنشرح بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي والسيئات ولكن إذا انغمست في معاصي ربها وتركت أمره وما زجر القرآن عن معصية الله فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة فهي القلوب المقفلة والله المستعان.

قال تعالى:**{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}** (محمد: ٢٤).

---

(١) الطبري، بتصرف.

(٢) ابن كثير.

{أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}: أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون. وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم، وقيل أن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها وأصل القِفل أو القَفل معناها اليبس والصلابة ويقال لما يَيْبَس من الشجر: القَفْل. [١]

وقد ورد أيضاً أنه: حَدَّث خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربعة أعين؛ عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه الذين في قلبه، وإذا أراد به غير ذلك طمس عليهما [٢].

* * * * *

(١) القرطبي، بتصرف.

(٢) القرطبي.

المبحث الثاني:

حيـاة القلـب وموتـه

فالحياة حياة القلب، والموت موت القلب، والمرض مرض القلب.

ولذلك نجد آيات عظيمة وكثيرة تتحدث عن أعمال القلوب، وأعظم هذه الأعمال بلا ريب هو الإيمان الذي هو الدين كله، ونحن الذين خاطبنا الله تبارك وتعالى باسم الإيمان حيث قال:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}**[1] والمقصود به: الذين استجابوا لله تبارك وتعالى، وأذعنوا ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً، فالإيمان عند أهل السنة والجماعة هو - كما تعلمون - (قول وعمل).

فالقول: قولان. والعمل عملان:

فالقول: قول القلب وهو: إقراره وتصديقه، وقول اللسان وهو: إقراره وتصديقه، أي: نطقه.

والعمل عملان: عمل القلب، وعمل الجوارح.

فلا أحد من المسلمين يجهل أنه لا بد من عمل الجوارح كالصلاة والصيام والزكاة وما أشبه ذلك، والأوضح عند المسلمين عامة الإقرار باللسان أي: (قول اللسان)، لكن ما يتعلق بالقلب - وهو الأهم - قد يخفى على كثير من المسلمين.

ولهذا نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطبنا بذلك ويبين لنا أهمية القلب فمثلاً: لما جاءت الأعراب، وقالوا - كما حكى الله عنهم -:**{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}**[2] فالأعراب أسلموا بمعنى أنه: حصل منهم الانقياد الظاهر، وأصل الإقرار والتصديق الذي يكون بالقلب، ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

---

(١) البقرة: ١٠٤.

(٢) الحجرات: ١٤.

فالقلب لم يصل بعد إلى أن يكون قد آمن حقاً، وهذه درجة لا يجوز لأحد أن يدعيها، فالإيمان في الحقيقة هو إيمان القلب، ولهذا قال:**{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ}**(١) وذلك في مخاطبة المؤمنين، فهكذا يكون تزيينه في القلب، ودخوله فيه، أما المؤمنون السابقون فقد زينه في قلوبهم، وأما الأعراب فهو لما يدخل قلوبهم بعد، مع أن الجميع مع رسول الله ﷺ، مثلما نكون نحن الآن في الصلاة - مثلاً - في المسجد، وفي الجهاد، فكلنا في مسجد واحد وفي معركة واحدة، لكن بين هذا وذاك من التفاوت مثل ما بين السماء والأرض، بقدر الإيمان وبقدر أعمال القلوب من الإخلاص والخشوع والإنابة والإخبات وغير ذلك من أعمال القلب.

أما أعمال الجوارح فإنها لا تكفي من دون أعمال القلب كما حصل في عهد الرسول ﷺ، الرجل الذي كان يبلو بلاءً شديداً ضد المشركين، ومع ذلك يقول الرسول ﷺ : **«هو من أهل النار»**، ربما يكون ذلك مع وجود من هو من أهل الإيمان والتقوى ومن أهل الجنة في الجيش، ولم يبل ذلك البلاء ولم يقتل مشركاً واحداً ولم يَصُلْ ولم يجل في المعركة، وكذلك في الإنفاق والصدقة والإحسان وسائر أعمال الخير التي إنما نريد أن نعبد ونتقرب إلى الله تبارك وتعالى بها.

إذاً: الإيمان هو: إيمان القلب، والتقوى - أيضاً - هي: تقوى القلب، كما قال الله:**{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}**(٢) ويقول ﷺ : **«التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ»** (٣)، فمحل التقوى هو القلب، والتقوى تشمل كل أعمال الخير والبر والصلاح، ولاسيما إذا أفردت، وقد بحث هذه المسألة شَيْخ الإِسْلامِ في أول كتاب الإيمان عند كلامه على لفظ البر ولفظ التقوى، وأمثالها من الألفاظ التي تأتي في القرآن والتي إذا جاءت فهي تشمل كل أعمال الإيمان الظاهر منها والباطن.

---

(١) الحجرات: ٧.
(٢) الحج: ٣٢.
(٣) رواه مسلم، وأحمد.

المبحث الثالث: وجـــل القلــوب

حياة القلوب لها أعمال ولها صفات وأحوال، والأعمال القلبية كثيرة جداً منها:

{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} (1) وفي قوله تعالى:**{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}**(2).

قال الحسن: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، وقال لقمان لابنه: يا بني ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته وخف الله خوفا لا يؤيسك من رحمته يقول إني أحسن الظن بربي كذب ولو أحسن الظن بربه لأحسن العمل.

ومدح الله تعالى أهل الخوف وأثنى عليهم فقال تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}**(3) هذه الآيات من سورة المؤمنون آيات عظيمة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسياقها يبين ما جاء في تفسيرها، وأنه تفسير حق ودلالته صحيحة.

وسياق الآيات هذه في بيان المحسنين السابقين كما ذكر في آخرها:**{أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}**(4) فالذي يسارع في الخيرات ويسابق هو في درجة الإحسان والتقوى، وأما حال الفريق الآخر فقال تعالى:**{فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}**(5) وبين شعورهم ونظرتهم واعتقادهم فيما ينعم الله تبارك وتعالى به عليهم:**{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ}**(6)

---

(1) المؤمنون: ٦٠.
(2) الأنفال: ٢.
(3) المؤمنون: ٥٧ - ٦١.
(4) المؤمنون: ٦١.
(5) المؤمنون: ٥٤.
(6) المؤمنون: ٥٥، ٥٦.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر صنفين: صنف معرض عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وغير مؤمن به، فهو في غمرة ولهو، وعندما يرزق ويعطى يظن أنه مسارعة من الله تبارك وتعالى له بالخيرات لفضله وخيره وصلاحه.

والصنف الآخر: هم المؤمنون.

وعندما يذكر الله تبارك وتعالى أحوال أهل الكفر مقابل أحوال أهل الإيمان فإنه يذكر أعلى صفاتهم، فعندما يذكر الكفار يذكر أعلى درجاتهم في الكفر، وكذلك عندما يذكر صفات أهل الإيمان يذكر أعلى درجاتهم في الإيمان، ولا يذكر ضعاف الإيمان في هذا المقام المقابل للكفر، إنما يذكر في مقابل الكفار أهل الإيمان وما هم فيه من الفضل والسابقة والمسارعة والخير، وفي هذا دليل على أن الآيات هي في هؤلاء، ولذلك ما جاء فيها من الحديث؛ ولكن التفسير صحيح قالت: قلت يا رسول الله، **{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}**[1] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟، فكان مقصودها - رضي الله عنها - أن هؤلاء العباد من إيمانهم وفضلهم وخيرهم إذا أتوا منكراً أو فعلوا فاحشة فإنهم يفعلونها وهم خائفون؛ لكن الأمر أجل وأعظم من ذلك، فقال النبي ﷺ : **«لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه»** [2] فهم يؤتون ويعطون ويبذلون من القربات والطاعات وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، فلسان حاله يقول: نعم صمت وصليت وحججت واعتمرت وأحسنت إلى الفقراء والمساكين، وحفظت لساني عن غيبة إخواني المسلمين، وحفظت يدي عن حقوقهم، لكني والله لا أدري أتقبل مني هذه العبادة أم لا، وربما كان في الحج من الرفث واللغو والفسوق والجدال أو الرياء ما أحبط الحج، فلربما كان في الصلاة والزكاة ما يحبطهما، وربما انتفت بعض الشروط أو بعض الواجبات، أو فسدت النية فلم تقبل هذه الطاعة، فالمؤمن يعمل الطاعة وهو يخاف أن لا تقبل منه.

---

(١) المؤمنون: ٦٠.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح في (٢٩٩/٨).

فهذه هي الدرجة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، لكن الواقع من كثير من الناس أنهم يعملون المعاصي، ويرتكبون المحرمات ولا توجل قلوبهم، ولا يخافون من الله، والله تعالى يقول:**{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}**[1] فالإنسان إذا عمل طاعةً أو معصيةً فعليه أن يتقي الله، ويشعر أنه راجع إلى الله، فإن كان ما عمله طاعةً فيخاف ألا تقبل وإن كان ما عمله معصيةً أو منكراً أو فاحشةً، فهو أحرى وأجدر أن يخاف الله، فليتب وينزجر عن معصية الله تبارك وتعالى.

* * * * *

---

(١) البقرة: ٢٨١.

المبحث الرابع:

صـــلاح القلـــوب

إن الله جل ذكره بعث الرسل وأنزل الكتب لإصلاح القلوب وتطهيرها، وتزكيتها وتطييبها، كيف لا؟

وبالقلب يعرف العبد ربه فيتعرف على أسمائه وصفاته، وبالقلب يعلم العبد أمر الله ونهيه، وبالقلب يحب العبد ربه ويخافه ويرجوه، وبالقلب يفلح العبد وينجو يوم القيامة، قال الله تعالى: **{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**(١) أي أتى الله بقلب سليم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره ونبأه.

وبالقلب يا عباد الله يقطع سفر الآخرة فإن السير إلى الله تعالى سيرُ القلوب لا سيرُ الأبدان.

قطـــع المســـافة بـــالقلوب إليـــه لا ::: بالســـير فـــوق مقاعـــد الركبـــان

قال ابن رجب رحمه الله: فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاجتهاد في الأحوال القلبية فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان.

والقلب يا عباد الله هو موضع نظر الله سبحانه وتعالى من عبده، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» (٢).

فيا لله العجب، من أقوام صرفوا جلّ اهتمامهم في تحسين ظواهرهم، وغفلوا عن قلوبهم وأفئدتهم، وما أصدق ما قاله ابن القيم رحمه الله:

فالفضـــل عنـــد الله لـــيس بصـــورة ال ::: أعمـــال بـــل بحقـــائق الإيمـــان

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة برقم (٢٥٦٤).

وبصلاح القلب تصلح الأجساد، ففي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير مرفوعاً: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» [1].

يا من ترجون الله والدار الآخرة، عليكم بحفظ قلوبكم وإصلاحها وحسن النظر فيها وبذل المجهود في استقامتها، واعلموا أنه لن يتم لكم ما ترجونه من صلاح قلوبكم حتى تسلم قلوبكم من أربعة أمور:

الأمر الأول: أن تسلم من الشرك صغيره وكبيره فإنه من أعظم مفسدات القلوب، قال ابن القيم رحمه الله: ولا صلاح له - أي للقلب - إلا بتوجيه محبته وعبادته وخوفه ورجائه.

الأمر الثاني: أن تسلم من البدعة ومخالفة السنة، فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار فإذا امتلأ القلب بالبدع أظلم وإذا أظلم مرض ولم يصح.

الأمر الثالث: أن تسلم من الشبهات التي تزيغها وتحملها على اتباع الهوى والتكذيب بالحق.

الأمر الرابع: أن تسلم من الشهوات التي تمرضها وتفسدها.

أيها المؤمنون إن السلامة من هذه الآفات الكبرى، لا تتأتى إلا بأسباب لابد من الأخذ بها ومقدمات لابد من تحصيلها.

فمن أسباب صلاح القلوب واستقامتها الأخذ بالقرآن العظيم تلاوة وحفظاً وتدبراً وتعلماً فإن الله سبحانه وتعالى أنزله شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قال الله تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}**[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان من حديث النعمان بن بشير (٥٢) ومسلم في المساقاة (١٥٩٩).

(٢) يونس: ٥٧.

فالقرآن أبلغ موعظة لمن كان لـه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو أنفع الأدوية لما في الصدور من أمراض الشبهات والشهوات، قال ابن القيم رحمه الله: (جماع أمراض القلوب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين). فأقبلوا على كتاب الله يا عباد الله فإنه لا صلاح لكم ولا سعادة إلا بالتمسك به فاعتصموا به ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

ومن أسباب صلاح القلوب واستقامتها إعمارها بمحبة الله تعالى فلا فلاح ولا صلاح ولا استقامة ولا لذة ولا طيب إلا بمحبة الله تعالى، قال النبي ﷺ : «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَ إليه مما سواهما**» [1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فالمحبة أعظم واجبات الدين وأكثر أصوله وأجل قواعده بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين). فاجتهدوا يا عباد الله في تحصيل محبة الله تعالى واعلموا أن طريقها الأكبر أداء الفرائض والواجبات والاجتهاد في النوافل والمستحبات، قال الله تعالى في الحديث الإلهي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**» [2].

ومن أسباب صلاح القلوب وتطييبها ذكر الله تعالى:**{أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}**[3]. وقال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت**» [4].

فذكر الله تعالى أيها المؤمنون جلاء القلوب فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤه ذكر الله تعالى فأكثروا أيها المؤمنون من ذكر الله تعالى في جميع الأوقات لا سيما في أدبار الصلوات وفي الصباح والمساء وغير ذلك من المناسبات فإنها من أعظم ما يصلح القلوب.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم (١٦) ومسلم في الإيمان برقم ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٦٥٠٢).

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه برقم (٦٤٠٧).

وإن من أسباب صلاح القلوب تطهيرها من الآفات والأمراض التي تفسدها وتعطبها كالحسد والغل والعجب والرياء والشح فإن هذه الأمراض تفسد القلب وتصرفه عن صحته واستقامته فاحرصوا بارك الله فيكم على تطهير قلوبكم من هذه الآفات فإنه لا نجاة للقلب إلا بالنجاة منها.

و إن من أهم أسباب صلاح القلوب دعاء الله سبحانه وتعالى وسؤاله إصلاح القلب فإن سؤال ذلك من أنفع الدعاء، ومن دعاء النبي ﷺ : **«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»** [(١)] ومن دعائه أيضاً: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** [(٢)] فأكثروا من سؤال الله التثبيت وإصلاح القلوب.

وإن الذنوب فساد القلوب وخرابها، ففي الصحيح قال النبي ﷺ: **«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير القلوب على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»** [(٣)] فبين هذا الحديث أثر الذنوب على القلب وأنه يطمسها ويختم عليها فلا تعرف معروف ولا تنكر منكرا.

وفي الحديث أيضاً أثر التوبة في تصفية القلب وتطهيره وتنقيته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (القلب إذا تاب من الذنوب كان ذلك استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه) وقال ابن القيم رحمه الله: (فإذا عزمت التوبة وصحت ونشأت من صميم القلب أحرقت ما مرت عليه من السيئات حتى كأنها لم تكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له).

---

(١) أخرجه مسلم في القدر من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه برقم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه الترمذي في القدر من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه برقم (٢١٤٠).
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان من حديث حذيفة رضي الله عنه برقم (١٤٤).

فأكثروا أيها المؤمنون من التوبة والاستغفار فإن التوبة تجلو القلب وتزيل عنه أوضار المعاصي والسيئات، ففي الصحيح من حديث الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليران على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**» [1].

و إن من أسباب استقامة القلب وصلاحه تعظيم الله تعالى الذي ينشأ عنه تعظيم أمره ونهيه، قال الله تعالى:**{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}**[2]. وشعائر الله هي أوامره ونواهيه فعظموا الله سبحانه وتعالى يصلح لكم قلوبكم ويغفر لكم ذنوبكم.

ومن أسباب صلاح القلوب وتطييبها الحرص على البعد عن أسباب فسادها وخرابها قال تعالى:**{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}**[3]. قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: (وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر فإنه أسلم له وأطهر لقلبه)[4].

فكل شيء يفسد قلبك أيها العبد فاحرص على تجنبه والبعد عنه فإن قلبك أعظم ما تملكه وإذا فسد عليك فسدت عليك حياتك وآخرتك.

وصفة لإصلاح القلوب:

جاء رجل للإمام سفيان الثوري، فقال له: يا إمام إنِّي أجد ألم البعد عن الله فما العمل؟

فقال له سفيان: يا هذا!! عليك بعروق الإخلاص، وورق الصبر، وعصير التواضع، ضع ذلك في إناء التقوى، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد عليه نار الحزن على المعصية، وصفه بمصفاة المراقبة وتناوله بكف الصدق، وأشربه من كأس الاستغفار وتمضمض بالورع وابعد نفسك عن الحرص والطمع تشفى من مرض قلبك بإذن الله.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم (٢٧٠٢).
(٢) الحج: ٣٢.
(٣) الأحزاب: ٥٣.
(٤) التفسير ١٦٦/٤.

المبحث الخامس:

اقترب من الله عز وجل وابتعد عن الشيطان

نصائح:

١- الصحبة الصالحة: بادر وثابر وحاول إلى أن تتخذ أخداناً ورفقاء ناصحين، يبيِّنون لك طريق الهداية، ويحفظونك من سبل الضلالة، ولك أن تتأمَّل قوله تعالى:**{الأخلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلاَّ المتقين}**[1].

فالناس يوم القيامة في عداوات ومشاحنات إلاَّ من تحابُّوا في ذات الله، ولأجل الله، وكانوا ناصحين وصادقين في صحبتهم، وقد قيل: صديقك من صَدَقَك لا من صدَّقك!

أمَّا أصدقاء السوء ففرَّ منهم فرارك من الأسد، وأعرض عنهم خصوصاً في بداية توبتك حتَّى لا يستجرُّوك وأنت في بداية طريق التوبة إلى ما حرَّم الله، وقد قال - تعالى:**{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ}**[2].

٢- الانخراط في مشاريع خيريَّة سواء أكانت إغاثيَّة أو دعويَّة، والاندماج في تلك المشروعات الحيويَّة التي تحيي القلوب، فإنَّ هذا من صفة المؤمن العامل لدينه، ويا لله ما أحسن وأروع كلمة مالك بن دينار حيث قال: (إنَّ صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإنَّ صدور الفجَّار تغلي بأعمال الفجور، والله - تعالى - يرى همومكم فانظروا ما همومكم رحمكم الله)[3].

إنَّ هذه الأعمال الخيرية تجعل النفس قريبة من الناس بالإحسان إليهم، والعمل على قضاء حوائجهم، وقد جاء في الحديث: **«لأن أمشي مع أخي**

---

(١) الزخرف: ٦٧.

(٢) الأنعام: ٧٠.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٤٥١).

المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً» [1].

٣- زيارة المستشفيات وخصوصاً المستشفيات المعروفة بأنَّ أكثر من فيها مرضى مزمنون، ومرضهم لا يبرأ، فستعلم كيف هي نعمة الله عليك، وستشعر قطعاً بفضله ومنَّته عليك فتزداد شكراً لله تعالى.

٤- زيارة المقابر وتذكر الآخرة، وقد كان بعض السلف الصالح يضع نفسه في قبر ويتخيَّل أنَّه مكان ذلك الرجل المقبور، وكيف أنَّ الديدان تحتوشه يميناً ويساراً وتنهش من جسمه الطري، فيستعد للقاء الله، ويقبل على الله كثيراً، ولهذا فقد قال ﷺ: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنَّها تذكركم الآخرة»** [2].

٥- قراءة قصص التائبين إلى الله والعائدين إلى حياض الإيمان، ففيها ما فيها من تقوية النفس، ومعرفة سعة رحمة الله، وعلو الهمَّة في الازدياد من الطَّاعة والالتجاء إلى الله.

٦- قراءة سير الصالحين وعلماء المسلمين ومثال ذلك الاطِّلاع على سير الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وغيرهم من الأئمَّة مثل عبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وابن تيميَّة.

٧- حاول بقدر الإمكان حين تعصي الله تعالى، تقوم وتصلِّي صلاة التوبة، أو على الأقل تصلي ركعتين ستجد حينها طمأنينة عجيبة، وإلحاق تلك المعصية بالاستغفار والتوبة.

٨- لا تنسى الأذكار عموماً، وأذكار الصلاة والصباح والمساء والنوم ودخول الخلاء خصوصاً.

---

(١) أخرجه الطبراني وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم(١٧٦).

(٢) أخرجه أحمد بسند جيد.

٩- الارتبــاط بحلقــات تحفـيظ القــرآن، والبــدء بمشــروع حفــظ القــرآن، وكفــاك فخــراً وبشــارة بــأن تكــون مــن خيــار هــذه الأمَّــة حيــث قــال ﷺ : **«خيـركم مـن تعلـم القرآن وعلمه»** [١].

١٠- اجلـــس جلســـات إيمانيَّـــة مـــع أصـــحابك، واحضـــر دروس العلمـــاء ومحاضـرات الـدعاة والمـربين، وقـد كـان معـاذ بـن جبـل يقـول لأصـحابه: (تعـالوا بنا نؤمن ساعة)[٢].

١١- مـا أجمـل أن تخصـص لـك عبـادة لا يعلـم بهـا أحـد إلاَّ الله، وقـد كـان يقـول أبـو الـدرداء رضـي الله عنـه: ينبغـي أن يكـون للعبـد خبيئـة لا يعلـم بهـا أحـد إلاَّ الله فإمَّــا أن تصــوم الاثنــين والخمـيس، أو تصــوم الأيــام البـيض وهــي الثالــث عشــر والرابـع عشـر والخـامس عشـر مـن كـل شـهر، أو تقـوم الليـل ولـو مـرَّة فـي الأسـبوع، أو تصلِّي صلاة الضحى.

١٢- حــاول قــدر الإمكــان أن تبتعــد عــن أمــاكن الشــبهات، ومــواطن الإثــارة للشـــهوات، مـــن صـــديق أو مـــذياع أو تلفـــاز أو نـــادي، خصوصـــاً إن علمـــت أنَّـــك قريب من المعصية في هذه الحالة.

١٣- لا بــأس بــأن تجعـل لـك جلسـات محاسـبة تحاسـب فيهـا نفسـك، ولا بــأس بــأن تضــع لــك جــدولاً تكتــب فيــه كــم مــن معصــية عصــيت الله تعــالى فيهــا، وهــل أدَّيــت جميــع الطاعــات، حتَّـــى تعــرف قــدر معاصــيك، وتحاســب نفســك عليهــا، وتزداد من الطاعات.

١٤- مــن الحســن أنَّ يكــون لــك جلســات تفكُّــر فــي مخلوقــات الله، والتــدبر فــي عجيـب وجميـل صـنع الله فـي مخلوقاتـه، وفـي هـذا الكـون الفسـيح، وأنـت إذا فعلـت ذلـك فسـتدرك كيـف هـي قـوَّة الإيمـان التـي تشـعر بهـا فـي قلبـك، وتكـون بـذلك متأسِّياً

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان بسند صحيح.

بقولـــه تعــالى:**{إِنَّ فِـي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْـتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـاتٍ لأُوْلِـي الأَلْبَـابِ * الَّـذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّـهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَـى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِـي خَلْـقِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَــا مَــا خَلَقْــتَ هَــذَا بَــاطِلاً سُــبْحَانَكَ فَقِنَــا عَــذَابَ النَّارِ}**[1].

١٥- قـراءة الكتــب التــي تتحـدَّث عـن الإعجــاز العلمــي فــي القـرآن وفــي الكــون الفسـيح وفــي خلـق الإنسـان، ومـن أكثـر مـن أبـدع فـي ذلـك الـدكتور مصـطفى محمـود والدكتور زغلول النجار و...

١٦- اجعـل العمـل الـذي تعمـل فيـه بمرضــاة الله، واجعلـه طريقـاً للعبـادة ولـيس مجرد مصدراً للرزق، واستشعر فيه الأجر من الله.

١٧- اعمـل مـع جماعـة صــالحة فـإنَّ العمـل فـي جماعـة يعطيـك زاداً قويـاً فــي الطاعـة، وأمـا أن تعمـل لوحـدك فـإنَّ هـذا قـد يـؤدِّي بـك للفتـور والارتخـاء، وقـد قـال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية**» [2].

* * * * *

---

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

المبحث السادس:

علامـات القلـب السليــم

قال الله تعالى:**{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** [(١)].

قال ابن القيم - رحمه الله - في علامات القلب السليم حتى نعلم هل قلوبنا من تلك القلوب التي تنطبق عليها تلك العلامات؛ فنحمد الله، ونسأله حسن الخاتمة، والمزيد من فضله، أم أننا على العكس من ذلك فنسأله أن يرزقنا قلوباً فإنه لا قلوب لنا.

فمن علامات القلب السليم:

١- أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، وقد جاء إلى هذه الدار غريباً يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: **«كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»**[(٢)].

٢- ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة لـه ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، ولـه يخاف، فذكره قوته، وغذاؤه محبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، وقد قال بعض العارفين: "مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته"، وقال آخر: "إنه ليمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"، وقال آخر: "والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته".

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) رواه البخاري.

٣- ومن علامات صحة القلب: أنه لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

٤- أنه إذا فاته ورده - من ليل أو نهار - وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

٥- أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرَّة عينه، وسرور قلبه.

٦- أن يكون همه واحداً، وأن يكون في الله.

٧- أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً من أشد الناس شحاً بماله ومنعاً.

٨- أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منَّة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا من حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، وقرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها:

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}[1]، فيردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فيصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية محبة محبوبه لخدمته وقضاء أشغاله.

فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقاً ينطق: لبيك وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك علي المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك، وإذا أصابه قدر وجد

---

(١) سورة الفجر٢٧، ٢٨.

من قلبه ناطقاً يقول:، أنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبِّرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوِّني؛ ولا ملجأ إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك، فينظر بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهديت إليّ، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شراً صرفه عني، فكلما مسّه من السراء والضراء اهتدى بها طريقاً إليه، وانفتح له بابا يدخل منه عليه، كماقيل:

ما مسني قدر بكره أو رضى ::: إلا إذا اهتديت به إليك طريقاً
أمضى القضاء على الرضى مني به ::: إني وجدتك في البلاء رفيقاً

ويقول ابن القيم مادحاً ومثنياً على صاحب القلب السليم: فَلِلَّهِ هاتيك القلوب، وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، والله طيب أسرارها ولاسيما يوم تبلى السرائر

ستبدي لها طيب ونور وبهجة ::: وحسن ثناء يوم تبلى السرائر

تالله لقد رفع لها علم عظيم فشمرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها إلى ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه واختارته على ما سواه، وآثرت ما لديه"[1]

٩ - أَنْ يرتَحِلَ عن الدُّنيا حتى ينزلَ بالآخرةِ، ويَحِلَّ فيها، حتى يَبْقَى كأَنَّهُ مِن أهلِها وأَبنائِها، جاءَ إلى هذه الدَّارِ غريباً يأْخُذُ منها حاجَتَهُ، ويعودُ إلى وطنِه كما قال عليه السلام لعبدِ اللَّهِ بنِ عُمَر: **«كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريبٌ أَو عابرُ سبيلٍ، وعُدَّ نفسَكَ مِن أهلِ القُبورِ»**.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنّ الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإنّ الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب، ولا عمل.

---

(١) إغاثة اللهفان: (٧٠/١). وما بعدها. الناشر: دار المعرفة - بيروت. الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ). تحقيق: محمد حامد الفقي. موقع إمام المسجد.

وكلما صحَّ القلبُ مِن مرضِه؛ تَرَحَّلَ إلى الآخرَةِ، وقَرُبَ منها، حتى يصيرَ مِن أهلِها، وكلَّما مَرِضَ القلبُ واعتَلَّ؛ آثَرَ الدُّنيا واستوطَنَها، حتى يصيرَ مِن أَهلِها.

١٠ - أَنْ يُنِيبَ إلى اللَّهِ ويُخْبِتَ إليهِ، فلا فلاحَ، ولا نعيمَ، ولا سرورَ؛ إلاَّ برضاه وقُرْبِهِ والأُنْسِ بِهِ، فبهِ يطمئِنُّ، وإليهِ يسكُنُ، وإليهِ يأْوي، وبهِ يفرَحُ، وعليهِ يتوكَّلُ، وبهِ يَثِقُ، وإِيَّاهُ يرجو، ولهُ يخافُ.

فذِكْرُهُ غذاؤهُ وحياتُه ونعيمُهُ ولَذَّتُهُ وسُرورُهُ والالتفاتُ إلى غيرِهِ والتعلُّقُ بسواهُ: داؤهُ، والرُّجوعُ إليهِ: دواؤهُ.

قالَ أَبو الحسينِ الورَّاقُ: حياة القلبِ في ذِكرِ الحيِّ الذي لا يموتُ، والعيشُ الهنِيُّ الحياةُ مع اللهِ تعالى لا غير.

١١ - أَنْ لا يَفْتُرَ عن ذِكْرِ ربِّهِ، ولا يسأَمَ مِن خِدْمَتِهِ، ولا يأْنَسَ بغيرِهِ؛ إلاَّ بِمَنْ يدلُه عليه، ويُذَكِّرُهُ بهِ، ويُذاكِرُهُ بهذا الأمرِ.

١٢ - أَنَّهُ إذا فاتَهُ وِرْدُهُ وَجَدَ لفواتِه أَلماً أعظمَ مِن تألُّمِ الحريصِ بفواتِ مالِهِ وفَقْدِهِ؛ كمن يحزن على فوت الجماعة، ويعلم أنّه لوْ تُقُبِّلتْ منه صلاته منْفرداً، فإنّه قدْ فاته سبعة وعشرون ضعفاً.

ولو أنّ رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون ديناراً؛ لأكل يديه ندماً وأسفاً، فكيف وكلّ ضعفٍ مما تضاعف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألف، وألف ألف، وما شاء الله تعالى؟!

فإذا فوَّت العبد عليه هذا الربح قطْعاً، وهو بارد القلب، فارغ من هذه المصيبة، فهذا من ضعف الإيمان.

وكذلك إذا فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته عليه، ولوْ يعلم العبد فضيلته؛ لجالد عليه، ولكانت قرعة.

١٣ - أَنَّهُ يشتاقُ إلى طاعة ربه؛ كما يشتاقُ الجائعُ إلى الطَّعامِ والشرابِ.

١٤ - أَنَّهُ إذا دَخلَ في الصّلاةِ ذَهَبَ عنهُ همُّهُ وغَمُّهُ بالدُّنيا، واشتدَّ عليهِ خروجُهُ منها، ووجَدَ فيها راحتَهُ ونعيمَهُ، وقُرَّةَ عينِه وسُرورَ قلبِهِ، كما قال النبي ﷺ لبلال: **«يا بلال، أرحْنا بالصلاة»** ولم يقلْ: أرحنا منها كما يقول المبْطلون الغافلون. وقال ﷺ : **«جعلت قرة عيني في الصلاة»** [(١)].

فصاحب القلب السليم راحته وقرّة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك؛ بل الصلاة كبيرة شاقة عليه، إذا قام فكأنّه على الجمر حتّى يتخلص من واجب الصلاة، وعجّلها وأسْرعها، فهو ليس له قرّة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، فهي كبيرة على هذا، وقرّة عين وراحة لذلك.

١٥ - أَنْ يكونَ هَمُّهُ واحداً، وأَنْ يكونَ في اللهِ تعالى. فهمّه طاعة ربه، ورضا ربه، وعفو ربه، ومغفرة ورحمة ربه **{وَعَجِلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}**[(٢)].

العلامة الثامنة: أَنْ يكونَ أَشَحَّ بوَقْتِهِ أَنْ يذهَبَ ضائِعاً مِن أشدِّ النّاسِ شُحّاً بمالِهِ؛ لأنَّه يرى عزّةَ وقتهِ وخطره وشرفه، وأنّه رأس مال سعادته فيبخل به أنْ يضيعه فيما لا يقربه إلى ربّه؛ فإنّ في إضاعته الخسران والحسرة والنّدامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة. فيشح بأنفاسه أنْ يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

١٦ - أَنْ يكونَ اهتمامُهُ بتصحيح العملِ أَعظمَ منهُ بالعملِ، فيحْرِصُ على الإخلاص فيهِ والنَّصيحةِ والمُتابعةِ والإحسانِ، ويشهَدُ مَعَ ذلك منَّةَ اللَّهِ عليهِ وتقصيرَهُ في حقِّ اللّهِ.

فهذه المشاهدَ لا يشهَدُها إلا القلبُ الحيُّ السليمُ.

١٧ - أنْ يكون سالماً من محبة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي - كبائرها وصغائرها - الظاهرة والباطنة، كالرياء، والعجب، والغلّ، والغش، والحقد، والحسد، وغير ذلك.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) طه: ٨٤.

عنْ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: لرسول الله ﷺ أيّ النّاس أفْضلُ؟ قال: **«كلُّ مخْمومِ القلب، صدوقِ اللسانِ»**. قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخمومُ القلب؟ قال: **«هو التّقيّ النّقيّ لا إثْم فيه، ولا بغي ولا غلّ ولا حسدْ»** [١].

١٨ - اتباع هدي المصطفى ﷺ؛ عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال لي: **«يا أبا أمامة! إنّ من المؤمنين من يلين لي قلبه»** [٢].

ومعنى (يلين لي قلبه) أي يسكن ويميل إليّ بالمودّة والمحبّة.

وليس ذلك إلا بإخلاص الاتباع له ﷺ دون سواه من البشر، لأن الله تعالى جعل ذلك وحده دليلاً على حبه عزوجل، فقال: **{قلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْببكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}** [٣].

أفلم يأن للذين يزعمون حبه ﷺ في أحاديثهم وأناشيدهم، أن يرجعوا إلى التمسك بهذا الحب الصادق الموصل إلى حب الله تعالى، ولا تكونوا من هؤلاء:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ::: هذا لعمرك في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ::: إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

١٩ - الوجل عندْ ذكر الرحمن. والوجل خوف مقْرونٌ بهيبةٍ ومحبّةٍ.

قال سبحانه وتعالى: **{وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجلَتْ قُلُوبُهُمْ}** [٤].

وقال سبحانه وتعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** [٥].

وقال عز وجل: **{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}** [٦].

---

(١) شرح سنن ابن ماجه للسندي.
(٢) رواه أحمد في مسنده.
(٣) آل عمران ٣١.
(٤) الحج: ٣٤، ٣٥.
(٥) الأنفال: ٢.
(٦) المؤمنون: ٦٠.

وعن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إنّ لله آنية في الأرض، وآنية ربّكمْ قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها»**.

والمعنى أنّها ذات خشية واستكانة سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير سالمة من الشدّة والقسْوة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية:**{وَالذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}**[1] قالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»** وهم لها سابقون.

ومن تأمَّل أحْوال الصحابة رضي الله عنهمْ وجدهمْ في غاية العملِ مع غايةِ الخوفِ، ويعدُّون أنفسهم من المقصِّرين المفرِّطين المذْنبين، ونحن مع إساءتنا نعدُّ أنفسنا من المحسنين.

وبالجملة؛ فالقلبُ الصَّحيحُ: هو الذي همُّهُ كلُّهُ في اللَّهِ، وحُبُّهُ كلُّهُ لـه، وقصدُهُ لـه، وبَدنُهُ لـه، وأَعمالُه لـه، ونومُهُ لـه، ويقظتُهُ لـه، وحديثُهُ، والحديث عنهُ أشْهى إليهِ مِن كُلِّ حَدِيثٍ، وأَفكارُهُ تحوم على مراضيه ومحابِّه. فكلُّه بالله، وكلُّه لله، وكلُّه مع الله، وسيرهُ دائماً إلى الله، فهو مع الله مجرَّدٌ عن خلقهِ، ومع خلقهِ مجرَّدٌ عن نفسه.

* * * * *

---

(١) المؤمنون: ٦٠.

المبحث السابع:

النجاة وصاحب القلب السليم!!!

القلب السليم هو الطاهر من أدناس المخالفات، فأما المتلطخ بشيء من المكروهات فلا يصلح لمجاورة حضرة القدس - أو القدوس، "حضرة القدس" هذه العبارة، وبهذه العبارة الدارجة في اللسان من يتكلم بهذه الكلمة -.

ومن لم يحرق اليوم قلبه بنار الأسف على ما سلف، أو بنار الشوق بلقاء الحبيب - فنار جهنم له أشد حرا، ما يحتاج إلى التطهير بنار جهنم إلا من لم يكمل تحقيق التوحيد والقيام بحقوقه، فلا ينجو من عذاب الله يوم القيامة إلا صاحب القلب السليم.. نعم، قال الله - سبحانه وتعالى:**{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**(١).

هذا جاء في ثنايا قصة إبراهيم ودعاء إبراهيم:**{وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**(٢).

و الله عز وجل أخبر عن إبراهيم عليه السلام أيضا بسلامة القلب:**{وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** (٣) فالقلب السليم جاء في هذين الموضوعين كليهما، يعني: الأولى في كلام إبراهيم، والثانية في وصف الله لإبراهيم.

والقلب السليم، **سليم**: صيغة تدل على السلامة، ضد العليل وضد المريض، سليم سالم، يقول النسائى: القلب السليم هو السالم من المخالفات، المخالفات: مخالفات الأوامر والنواهي، بترك مأمور، أو فعل محذور، هذه هي المخالفات.

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) الشعراء: ٨٥ - ٨٩.

(٣) الصافات: ٨٣، ٨٤.

فلا ينجو من عذاب الله نجاة مطلقة بحيث لا يناله عذاب إلا صاحب القلب السليم، من أتى الله بقلب سليم فهذا هو الذي ينجو، لا يتعرض للعذاب، لا يتعرض لشيء من العذاب لسلامة قلبه، وعلى هذا فيدخل الجنة من أول وهلة.

والقلب السليم: هو السالم من فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الشهوات التي تعارض أمر الله، الشهوات تعارض الأمر والنهي، وفتن الشبهات التي تعارض خبر الله، ففتن الشهوات تحمل على المعصية والمخالفة، بترك المأمور وفعل المحذور، والشبهات تضعف اليقين، أو تورث الشك فيما أخبر الله به ورسوله.

إذن فالقلب السليم لا بد أن يسلم اعتقاده من عوارض الشبهات، وتسلم إرادته من عوارض الشهوات، فالقلوب أقسام: فيها القلب السليم، والقلب المريض، والقلب الميت، الميت الذي لا حس ولا إرادة ولا حركة - ميت - وهو قلب كافر و.... إلخ.

القلب الميت هو القلب الكافر، والقلب السليم هو القلب المؤمن كامل الإيمان، والمريض هو القلب المخلط الذي فيه مادتان: مادة الحياة، ومادة مرض أو مادة موت، وهو لما غلب عليه منهما.

ففي الحديث الصحيح: **«تعرض الفتن على القلوب عودا عودا كعرض الحصير، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب إلى قلبين: قلب أبيض فيه السواد، وقلب أسود مرباد كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه»**.

* * * * *

المبحث الثامن:

القلب السليم.. وسعادة الدنيا والآخرة

لسلامة القلب عظيم الأثر في سعادة المرء في الدنيا والآخرة؛ فلا يكاد العبد ينتفع بشيء في دنياه وأخراه أعظم من انتفاعه بسلامة قلبه، سلامته من الشرك والنفاق والرياء والكبر والعجب وسائر الأمراض التي تعتريه، ولا أعني أمراض البدن التي منها أمراض القلوب، وإنما أعني تلكم الأمراض التي تعتري القلب مما يتعلق بدينه؛ فهي أعظم الأمراض فتكا على الإطلاق وأشدها تدميرا وأسوأها أثرا؛ بل وليست هناك مقارنة على الإطلاق بين مرض بدني يعتري القلب ويحتاج إلى بعض الأدوية والمسكنات، وبين مرض يجرح دينه ويذهب تقواه.

فالأخير يجلب على العبد نكدا وهما وغما وعذابا في الدنيا والآخرة.

أما الأول فقد يثاب عليه العبد المؤمن إذا صبر واحتسب كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم – حتى الشوكة يشاكها – إلا كفر الله بها من خطاياه»** [1].

ولكن من قصور نظر الخلق وقلة أفهامهم وضيق مداركهم لا يولون الأهم والأخطر - وهو المرض المتعلق بالدين - أدنى أهمية، وفي المقابل إذا شعر أحدهم بأي مرض عضوي يعتري قلبه من قلة نبضات أو سرعتها أو أي نوع من تلكم الأمراض فإنه يبادر وبسرعة بالذهاب إلى الأطباء، ويسأل عن أعلم أهل الطب بطب القلوب، ويبحث عن أكثرهم مهارة وأحذقهم تطبيبا، ولم يدخر وسعا في الذهاب إليه، ولو كلفه ذلك الغالي والنفيس من دنياه وخفي على هؤلاء

(١) سنن الترمذي.

أن هذه الحياة الدنيا إنما هي سنوات قليلات وأيام معدودات، وبعد ذلك فهنالك الدار الآخرة التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون،

تلكم الدار التي يحتاج القرار فيها إلى سلامة القلب من الشرك والنفاق والعجب والرياء وسائر الأمراض التى سأتحدث عنها لخطورتها وسوء أثرها.

* قال خليل الله إبراهيم ﷺ :**{وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**(1).

* قلب سليم من الشك والشرك والشقاق والنفاق!!، سليم من الغل وسليم من الرياء - سليم من الأحقاد.

سليم لم يصب بالقسوة ولم يختم عليه بالأختام!

سليم لم يتلوث بآثار الجرائم والذنوب والمعاصي.

ولم يتدنس بالبدع والخرافات والأوهام وظن السوء.

* قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:**{إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**(2). القلب السليم: أن يشهد أن لا إله إلا الله.

وقال مجاهد والحسن وغيرهما: بقلب سليم. يعني: من الشرك.

وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة.

ولا تنافي بين هذه الأقوال فإنها متلازمة فإن الاعتقاد الصحيح بلا إله إلا الله يقاضي التوقي من الشرك كله والبعد عن البدعة والتحقق من السنة.

---

(1) الشعراء: ٨٧ - ٨٩.

(2) الشعراء: ٨٩.

قال الله تعالى:**{فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}**[1].

أي: مرض الشهوات المفرطة.

كما أن سلامة القلب تقتضي السلامة من الأوصاف الذميمة: كالغل - والحقد - والحسد - والبغضاء.

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل يابني وذلك من سنتي»**.

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: يارسول الله أي الناس أفضل؟

قال: **«كل مخموم القلب. صدوق اللسان»**. قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟

فقال ﷺ : **«هو التقي النقي لا أثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد»** [2]، فالخير كل الخير والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة في سلامة القلب من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته – أي: طريقته – مستقيمة وجعل أذنه مستمعة وعينه ناظرة فأما الأذن فقمع والعين مقرة بما يوعي القلب وقد أفلح من جعل قلبه واعيا»** [3].

---

(١) الأحزاب ٣٢.

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وغيره.

(٣) قال المنذري رواه أحمد والبيهقي.

روى الترمذي عن رجل من بني حنظلة قال: صحبت شداد بن أوس رضي الله عنه فقال لي: ألا أعلمك ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول؟: **«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك لسانا صادقا وقلبا سليما وأعوذ بك من شر ما تعلم وأسألك من خير ما تعلم وأستغفرك مما تعلم إنك علام الغيوب»** (١).

ومن الواجب على المسلم أن يكون سليم القلب من الحقد والحسد والضغينة والغل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»** (٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»** (٣).

سليم يحمل كل هذه المعاني:

* هذا هو القلب الذي ينفع صاحبه يوم القيامة، كما انتفع الخليل إبراهيم عليه السلام**{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}**(٤)، إبراهيم الذي ابتلاه الله بكلمات فأتمهن فجعله الله للناس إماما**{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**(٥).

* بصلاح هذا القلب يصلح سائر الجسد، كما قال النبي ﷺ : **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»** (٦).

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه مسلم.
(٤) النجم: ٣٧.
(٥) الصافات: ٨٤.
(٦) صحيح مسلم / أخذ الحلال وترك الشبهات.

* هذا القلب المنيب الذي يورث صاحبه الجنان وتقرب له وتدنى، قال الله تبارك وتعالى :**{وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}**(١).

أسأل الله أن يصلح قلبي وقلوب عباده المؤمنين، وأن يقذف فيها الهدى والتقى والعفاف والغنى، وأن يزيد فيها الإيمان وأن يثبتها على دينه، وأسأل الله أن يجازينا والمؤمنين على الإحسان إحسانا وعلى السيئات مغفرة وعفوا، كما نسأله سبحانه أن يحل علينا رضوانه فلا يسخط علينا بعده أبدا (٢).

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

* * * * *

(١) ق: ٣١ - ٣٥.

(٢) من كتاب /شفاء القلوب للشيخ/ مصطفى بن العدوي.

المبحث التاسع:

ماهى الأسباب التى تساعدنى على سلامة قلبى؟

١ – الدعاء.

فإنه من أعظم الأسباب لتحقيق المقصود، وكان من دعاء نبينا ﷺ: «**وأسألك قلبًا سليمًا**»، فمن رزق الدعاء فإن الإجابة معه. كما أثنى الله على المؤمنين لدعائهم:**{وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا}**[1].

٢ – حُسن الظن وحمل الكلمات والمواقف على أحسن المحامل.

قال عمر: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وقال الشافعي: من أراد أن يقضي لـه الله بخير فليحسن ظنه بالناس.

ولما دخل عليه أحد إخوانه يعوده قال: قوّى الله ضعفك، فقال الشافعي رحمه الله: لو قوى ضعفي لقتلني، قال الزائر: والله ما أردت إلا الخير، فقال الإمام: أعلم أنك لو سببتني ما أردت إلا الخير.

٣ – التماس الأعذار وإقالة العثرات والتغاضي عن الزلات.

يقول ابن سيرين: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس لـه عذرًا فإن لم تجد فقل: لعل لـه عذرًا لا أعرفه.

أخي من منا المعصوم عن الخطأ والزلات؟ قال بعضهم: الفتوة التجاوز عن زلات الإخوان.

---

(١) سورة الحشر: ١٠.

تـذكَّر سـوابق الإحسـان لأخيـك فإنــه ممـا يعـين علـى التمـاس العـذر وسـلامة الصدر واعلم أن الرجل من عُدَّت سقطاته.

استحضر أن المؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يلتمس العثرات.

٤ – ادفع بالتي أحسن.

لـيس هـذا مـن العجـز، بـل مـن القـوة والكياسـة قـال الله تعـالى:**{وَلا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلا السَّـيِّئَةُ ادْفَـعْ بِـالَّتِي هِـيَ أَحْسَـنُ فَـإِذَا الَّـذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}**(١).

٥ – البعد عن الغيبة والنميمة وتجنب كثرة المزاح.

٦ – الهدية والمواساة بالمال فإنها من دواعي المحبة.

٧ – الإيمان بالقدر.

فـإن العبـد إذا آمـن أن الأرزاق مقسـومة مكتوبـة رضـي بمـا هـو فيـه ولـم يجـد في قلبه حسدا لأحد من الناس على خير أعطاه الله إياه.

٨ – تذكر حال النبي ﷺ.

الـذي كـان يشـكر ربـه علـى الـنعم التـي أنعـم بهـا حتـى علـى غيـره مـن الخلـق حين يصبح وحين يمسي.

رزقنا الله وإياكم قلوبا سليمة لا تحمل غلا ولا حسدا ولا حقدا... أمين.

ومما ورد مسنداً إلى القلب غير السليم:

١ - الإنكـار:**{فَالَّـذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالآخِرَةِ قُلُـوبُهُمْ مُنْكِـرَةٌ وهُـمْ مُسْـتَكْبِرُونَ}**(٢).

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) النحل: ٢٢.

٢ - الكبر:**{إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}**[١].**{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}**[٢].

٣ - الإعراض واللهو:**{مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}** [٣].

٤ - الاشمئزاز:**{وإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ}**[٤].

٥ - الزيغ:**{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}**[٥]...**{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}**[٦].

٦ - العمى:**{فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}**[٧].

٧ - القفل وعدم الفقه وعدم العقل: وقد تقدم ما يدل عليها.

٨ - المرض:**{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً}** [٨].

٩ - القسوة:**{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}**[٩].

---

(١) غافر: ٥٦.
(٢) غافر: ٣٥.
(٣) الأنبياء: ٢، ٣.
(٤) الزمر: ٤٥.
(٥)الصف: ٥.
(٦) آل عمران: ٧.
(٧) الحج: ٤٦.
(٨) البقرة: ١٠.
(٩) البقرة: ٧٤.

١٠ - الغمرة:**{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا}**[1].

١١ - الران:**{كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**[2].

١٢ - العداوة للحق وأهله:**{قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ}**[3]. والآيات في ذلك وعلاقته بأعمال الجوارح كثيرة أيضاً، وأكثر مما ذكرنا الآيات الواردة في أعمال القلوب، لكن لم يُذْكَر فيها لفظه؛ كآيات الخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والرضا وغيرها.

* * * * *

---

(١) المؤمنون: ٦٣.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) آل عمران: ١١٨.

المبحث العاشر:

فضل سلامة القلب ومنزلتها عند الله تعالى

يا صاحب القلب السليم أنت من صفوة الله المختارة!!!

فقد سألوا رسول الله ﷺ عن أفضل الناس، فقال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**». قالوا: صدوق اللسان نعرفه؛ فما مخموم القلب؟ قال: «**التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**» (١).

ثم نقول: إن سلامة القلب سببٌ من أعظم أسباب قبول الأعمال الصالحة.

قال ﷺ : تعرض الأعمال كل يوم إثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا". فانظر كم يضيع على نفسه من الخير من يحمل في قلبه الحقد والحسد والغل؟!!

سلامة القلب طريق إلى الجنة:

فأول زمرة تدخل الجنة:... لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد(٢).

وقصة عبد الله بن عمرو مع ذلك الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ : «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» معروفة فقد عاشره عبد الله ثلاث ليال فلم يجده كثير التطوع بالصلاة أو الصيام فسأله عن حاله فقال الرجل: "ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًا ولا أحسُد أحدًا على خير أعطاه الله إياه".

فأعلنها ابن عمرو صريحة مدوية: هذه التي بلغت بك...

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح والبيهقي وغيره.

(٢) البخاري.

وقد أخبر الله تعالى عن حال أهل الجنة فقال:**{وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}**(١).

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ}(٢)، **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}**(٣).

فهيا لنطهر قلوبنا من الحقد والغل والحسد حتى نسعد بصحبة الأبرار الصالحين، ونفوز بالقرب من رب العالمين، فإن النبي ﷺ أخبر عن عبادٍ ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء، على مجالسهم وقربهم من الله، فلما سئل عنهم أخبر أنهم أُناس لم تصل بينهم أرحام متقاربة.. لكنهم تحابوا في الله، وتصافوا..

فهلا سلمت صدورنا للمسلمين وصفت؟

* * * * *

---

(١) الحشر: ٩، ١٠.

(٢) الأعراف: ٤٣.

(٣) الحجر: ٤٧.

المبحث الحادي عشر:

قسوة القلب

يقول الله تعالى:**{فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**(١) فقد أصبحت قلوبنا فيها قسوة عجيبة، خلق الله تعالى القلب مهيئا لقبول المعارف والعلوم بأنواعها وعلى اختلافها ومنها العلوم العقلية الدنيوية كالطب والهندسة والحساب وهذه المعارف وما شابهها تساعد الإنسان على تسخير ما خُلِقَ له كي ينتفع به، وكذلك معارف أخروية كالعلم بوجود الله وتوحيد الله وكالعلم بربوبية الله وصفات الله وأسمائه كل هذه المعارف تورث القلب الخضوع والخوف والخشية لله تعالى، ومنها العلوم الشرعية التي تختص بالأحكام وبيان الحلال والحرام والعبادات

وغيرها وهي علوم مكتسبة ومحل هذه العلوم القلب.

ولكن إذا فُرِّغَ القلب من هذه العلوم يحل محلها الجهل واتباع الهوى والميل إلى النزوات والشهوات وعدم الإدراك والتمييز وكذلك عدم السيطرة على الجوارح فيصبح القلب تابعاً لهواه غارقاً في ذنوبه غافلاً عما يدور في مملكته فيضل عن طريق مولاه. قال تعالى:**{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}** (الجاثية)

فالذي ختم على سمعه وقلبه يعني طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى قال مقاتل: أنزلت في أبي جهل وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم إنه لصادق! فقال مه! وما دَلَّك على ذلك؟ قال كنا نسميه في صباه الصادق الأمين فلما تمَّ عقله وكَمُل رشده نسميه الكذاب الخائن؟ والله إني لأعلم إنه لصادق،

---

(١) الأنعام: ٤٣.

قال فما يمنعك أن تُصدِّقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب واللاتِ والعزى لن أتبعه أبداً فنزلت:**{وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ}** [(١)].

وكذلك قوله تعالى:**{وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}**(ص: ٢٦).

أسباب قسوة القلب:

١ - البعد عن طاعة الله والاشتغال بمعصيته.

٢ - التعلق بالدنيا والحرص عليها، وطول الأمل.

٣ - نسيان الآخرة وما فيها من النعيم.

٤ - الاشتغال بما يفسد القلب، ومفسدات القلب خمسة هي: كثرة المخالطة، والأماني الباطلة، والتعلق بغير الله، وكثرة الطعام، وكثرة النوم.

٥ - التكاسل عن أداء الطاعات وإضاعتها.

٦ - عدم التأثر بآيات القرآن، لا بوعده ولا بوعيده.

٧ - الغفلة، وهي داء وبيل، ومرض خطير.

٨ - مصاحبة أصدقاء السوء والجلوس في الأجواء الفاسدة.

٩ - نسيان الموت وسكراته، والقبر وأهواله.

علاج قسوة القلب:

١ - الاشتغال بذكر الله جل وعلا وملازمة الاستغفار.

٢ - النظر في آيات القرآن والتفكر في وعده ووعيده، وأمره ونهيه.

٣ - تذكر الآخرة والتفكر في القيامة وأهوالها والجنة والنار.

٤ - الخلوة بالنفس ومحاسبتها ومجاهدتها.

---

(١) الطبري.

٥ ـ البعد عن مخالطة أصدقاء السوء، والحرص على مجالسة الصالحين

مفسدات القلب الخمسة:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وأما مفسدات القلب الخمسة، فهي التي أشار إليها من كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

١ – كثرة المخالطة:

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود ويوجب له تشتتاً وتفرقاً وهماً وغماً وضعفاً وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وتقسيم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من نعمة وأنزلت من محنة وعطلت من منحة وأحلت من رزية وأوقعت في بلية وهل آفة الناس إلا الناس؟

وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة ويعض المخلط عليها يديه ندما كما قال تعالى:**{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً}**[١]، وقال تعالى:**{الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ}**[٢].

---

(١) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) الزخرف: ٦٧.

وقال خليله إبراهيم لقومه: (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين)[1].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنا وألما وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنةً وذماً من بعضهم لبعض.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات.

فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر

الحذر أن يوافقَهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن لـه قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبُه عزٌّ ومحبة لـه وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذُلٌّ وبُغْضٌ لـه، ومقتٌ وذمٌّ منهم، ومن المؤمنين ومن رب العالمين. فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً.

وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه.

٢ – ركوبه بحر التمني:

وهو بحرٌ لا ساحل لـه. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية. ليست لها همّة تنال بها الحقائق الخارجية. بل اعتاضت عنها بالأمانيّ الذهبية. وكلٌّ بحسب حالـه: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب فى الأرض والتطواف في البلدان، أو

(١) العنكبوت: ٢٥.

للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبة في نفسه وقد فاز بوصولها، والتَذَّ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال، إذا استيقظ، فإذا يده والحصير!!

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره.

فأماني هذا إيمان ونور وحكمة وأماني أولئك خِدَعٌ وغرور.

وقد مدح النبي ﷺ متمنيَ الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله. كالقائل: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان الذي يتقي في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويخرج منه حقه وقال: هما في الأجر سواء وتمنى ﷺ في حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحل ولم يسق الهدي وكان قد قرن فأعطاه الله ثواب القران بفعله وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته فجمع له بين الأجرين.

٣ – التعلق بغير الله تبارك وتعالى: ***وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.***

فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه فإنه إذا تعلق بغير الله وكَلَه الله إلى ما تعلّق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلَّق به وصل. قال الله تعالى:**{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداًّ}**(١)، وقال تعالى:**{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ}** (٢).

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله. فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلّق به. وهو مُعَرَّض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظلِّ من الحرِّ والبرد ببيتِ العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها: التعلق بغير الله. ولصاحبه الذمُّ

---

(١) مريم: ٨١، ٨٢.

(٢) يس: ٧٤، ٧٥.

والخذلان، كما قال تعالى:{لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً}[1].

مذموماً: لا حامد لك، مخذولاً: لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذي قُهِرَ بباطل، وقد يكون مذموماً منصوراً كالذي قهر وتسلط بباطل، وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكَّن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قِسمُه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

٤ – الطعام:

والمفسد لـه من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات وهي نوعان:

الأول: محرمات لحق الله كالميتة والدم ولحم الخنزير وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرمات لحق العباد كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما أخذ بغير رضى صاحبه إما قهراً وإما حياءً وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حده، كالإسراف في الحلال والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذى بثقلها وقوى عليه مواد الشهوة وطرق مجاري الشيطان ووسعها فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقها والشبع يطرقها ويوسعها ومن أكل كثيرا شرب كثيرا فنام كثيرا فخسر كثيرا وفي الحديث المشهور: ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ويحكى أن إبليس لعنه الله عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لـه يحيى: هل نلت مني شيئا قط قال: لا إلا أنه قدم إليك الطعام ليلة فشهيته إليك حتى شبعت منه فنمت عن وردك فقال يحيى: الله علي أن لا أشبع من طعام أبدا فقال إبليس: وأنا لله علي أن لا أنصح آدمي أبدا.

---

(١) الإسراء: ٢٢.

٥ – النوم:

فصل المفسد الخامس كثرة النوم فإنه يميت القلب ويثقل البدن ويضيع الوقت ويورث كثرة الغفلة والكسل ومنه المكروه جدا ومنه الضار غير النافع للبدن وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران ومن المكروه عندهم النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق وحصول القسم وحلول البركة ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير وهو مقدار ثمان ساعات وهذا أعدل النوم عند الأطباء وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافا بحسبه ومن النوم الذي لا ينفع أيضا: النوم أول الليل عقيب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء وكان رسول الله ﷺ يكرهه فهو مكروه شرعا وطبعا وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ويورث أمراضا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها وما قام الوجود إلا بالعدل فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير والله المستعان..

أعداء القلب:

قد علمنا أن القلب هو مَلِك الجسد والجوارح وما من ملك إلا وله أعداء وما من مملكة إلا ويتربص بها أعداؤها فعدو الإنسان القديم الجديد هو الشيطان كما تعلمون فقد أخبرنا بذلك ربنا تعالى في قوله:**{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً}**(فاطر) وخطورة هذا العدو تكمن في أنه يرانا ولا نراه**{إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ}** (الأعراف ٢٧) فلذلك كان من السهل عليه أن يقتحم أسوار مملكة القلب

بأساليبه المتعددة التي لا تخفى على أحد إذ يُبين ذلك الحق تبارك وتعالى حكاية عن إبليس وأعوانه**{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**(الأعراف ١٧)

أي أنه يأتي من أربعة جوانب فقط من بين ستة فلم يأت من فوق ولا تحت فأما الفوق فهو طريق صلة العبد بربه من خلال العبادة والذكر قال تعالى:**{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}** (فاطر: ١٠).

ولذلك أخي وحبيبي كانت النية سراً بين العبد وبين ربه لا يَطَّلِع عليها مَلَك فيكتبها ولا يطلع عليها شيطان فيفسدها، فإذا حافظ العبد على صدق نيته وسريرته مع الله ومع الناس وأطاب الكلام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام وأحسن في عبادته لله تعالى فهو الفلاح بعينه ولابد للإنسان ألا يتكبر كما تكبر الشيطان لأنه امتنع عن الجهة السفلى فلابد للإنسان أن يكون متواضعا وأن ينظر دائما إلى التراب ويتذكر أنه خُلق من تراب وأنه سيعود إلى التراب مرة أخرى، فلا يتكبر ولا يتجبر كما فعل الشيطان فطرد من رحمة الله تعالى بسبب الكِبْر، هذا وقد بين لنا النبي ﷺ في الحديث الذي روته صفية رضي الله عنها حيث قال: **«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»** [(١)].

لذا كان واجب علينا أن نضيق مجاريه بالجوع... فكثرة الطعام تؤدي إلى الترهل والخمول والكسل عن ذكر الله تعالى وأداء الواجبات، وإذا تمكن الشيطان من القلب بوساوسه خرجت الشهوات عن حد الاعتدال فقد ينسى الإنسان ذكر الله بسبب استحواذ الشيطان على قلبه**{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}** (المجادلة: ١٩).

ولكن إذا اتجه العبد المؤمن إلى ربه وتملك شهواته هنا يصبح الشيطان ذليلا ليس له أي سيطرة على قلب الإنسان إلا مجرد وساوس ليس لها أي تأثير بمجرد ذكر الله تعالى يصبح ليس لها وجود قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}

---

(١) متفق عليه.

(الأعراف: ٢٠١).

وكأن الشيطان يعميهم ويغشي أبصارهم ولا يعيدهم للإبصار إلا ذكر الله تعالى.

لمّة الملَك ولمّة الشيطان:

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء»**[١].

وهذا ما يسمى بالخواطر التي ترد على القلب فإذا كانت من الملك وفيها لخير فعلى العبد أن يمتثل لها ويشكر الله على ذلك وأما إذا كانت من الشيطان فعليه أن يتعوذ بالله من شره حتى لا يمتلئ القلب بالرغبة والقبول لها فيهيج شهوته ويقع في المحظور.

لذلك يبشرك الحبيب ﷺ قائلاً فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: **«... وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»** [٢].

فالحمد لله تعالى بمجرد أن العبد المؤمن يبصر بقلبه ويدرك ويفرق بين السيئة والحسنة فيبتعد عن فعل السيئة بعد أن هم بفعلها فيذكر ربه ويتوقف عن ذلك هنا يرجع مأجورا كالرجل الذي أراد أن يزني بامرأة وعندما هم بارتكاب الفاحشة نظر إلى السماء فقال لها: لا يرانا إلا هذه الكواكب فنظرت إليه المرأة قائلة له: وأين مُكَوكِبُها؟ فامتنع الرجل عن فعله وخاف فهنا رجع مأجوراً ولكن الشيطان يعود محسورا فقد أراد الإضلال ولكن الرحيم بعفوه ومغفرته ونصره للمؤمنين كان مع عبده فأرجعه مأجورا ولله الحمد والمنة.

* * * * *

---

(١) رواه الترمذي وحسنه والنسائي.

(٢) رواه الشيخان عن ابن عباس.

الفصل الثانى:

أمراض القلوب وشفاؤها

المبحث الأول:

في قلوبهـــم مـرض

هو نوع فساد يحصل لـه يفسد به تصوره وإرادتـه فتصوره بالشبهات التـي تعرض لـه حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار؛ فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب، كما فسر مجاهد وقتادة قولـه:**{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** أي شك. وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر بـه قولـه:**{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}**. ولهذا صنف الخرائطي " كتاب اعتلال القلوب " أي مرضها وأراد بـه مرضها بالشهوة والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض. والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه. ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك. وإن حصل لـه ما يقوي القوة ويزيل المرض كان بالعكس. و" مرض القلب " ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب. قال الله تعالى:**{وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ}{وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ}** فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم ويقال: فلان شفي غيظه وفي القود استشفاء أولياء المقتول ونحو ذلك. فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل في النفس.

وكذلك " الشك والجهل " يؤلم القلب"

قال النبي ﷺ : **«هلا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال»**. والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل لـه العلم واليقين ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب. والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت

مرضه وإن حصلت لـه حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه.

قال تعالى:**{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم ليبسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان فصار فتنة لهم. وقال:**{لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}** كما قال:**{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك**{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** وهو مرض الشهوة فإن القلب الصحيح لو تعرضت لـه المرأة لم يلتفت إليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض لـه من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

والقرآن شفاء لما في الصدور ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح. يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة لـه ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا.

والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب. قال الله تعالى:**{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}** وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب. وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه.

فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل. قال تعالى:**{وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً}** وقال تعالى:**{وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}** وقال:**{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}** وقال تعالى:**{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** وقال تعالى:**{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}** وقال تعالى:**{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}** وقال تعالى:**{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى}{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}** فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا. وقال:**{وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ}{الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}** وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله. وهذا أصل ما تزكو به القلوب.

والتزكية جعل الشيء زكيا: إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر؛ كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالى:**{فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ}** أي تخبروا بزكاتها وهذا غير قوله:**{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** ولهذا قال:**{هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}** وكان اسم زينب برة فقيل تزكي نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب. وأما قوله:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ}**

أي يجعله زاكيا ويخبر بزكاته كما يزكي المزكي الشهود فيخبر بعدلهم. و" العدل " هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه؛ بل ظلمها؛ فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر. قال تعالى:**{لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}**. والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى:**{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}** وقال تعالى:**{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}** قال بعض السلف: إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق.

وقال تعالى:**{كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** وقال تعالى:**{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** وقال:**{وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا}** وتبسل أي ترتهن وتحبس وتؤسر؛ كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو بإخراج المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه لكن الأمثل؛ فالأمثل؛ فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف. والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا ولكن الأمثل فالأمثل؛ ولهذا يقال: هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية: الطريقة المثلى. وقال تعالى:**{وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ}** وقال تعالى:**{وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}**. والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط.

وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس.

والظلم " ثلاثة أنواع ": والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها. قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب. وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى:**{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}**. لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع. كقوله:**{لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}** وقوله تعالى**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}** ثم قال:**{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** وقال تعالى:**{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}**. ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

وفي الحديث الصحيح: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**» وفي الصحيح أيضا: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا**».

وقد قال تعالى:**{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ}** وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال:**{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ}** فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال:**{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۞ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}**.

فالأول: مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال.

والثاني: مثل للجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئا؛ فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم. قال تعالى:**{إن الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}** وقال تعالى.**{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}** وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب لـه حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرا ولم يفعل سيئة. وقال تعالى:**{لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** وقال:**{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}** وقال:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ}**.

ولهذا ضرب الله للإيمان " مثلين ". مثلا بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد ومثلا بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد. وكذلك ضرب الله للنفاق "مثلين " قال تعالى:**{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ}** وقال تعالى في المنافقين:**{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}**

{يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. فضرب لهم مثلا كالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفأها الله والمثل المائي كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى. ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر. وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها وفي الدعاء المأثور: **«اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا»**.

و" الربيع " هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبي ﷺ : **«إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم»**.

والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء؛ فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار. والقلب الحي المنور؛ فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر. قال تعالى:**{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}** وقال تعالى:**{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ}{وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ}** وقال تعالى:**{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}** الآيات. فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار كما أخبر عنهم حيث قالوا:**{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}**. فذكروا الموانع على القلوب، والسمع والأبصار وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص؛ لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ولهذا قال تعالى:**{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً}**.

فشبههم بالغنم الذي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء. كما قال في الآية الأخرى:**{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}** وقال تعالى:**{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}** فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله:**{وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ}** وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار،

والمراد بالإنسان هنا الكافر فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب؛ بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرا للشرك من العرب أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند. ونحو ذلك فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده. فيقال: - أولا -: المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

ويقال: " ثانيا " الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وإن كان معه إيمان كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا أؤتمن خان وإذا عاهد غدر. وإذا خاصم فجر**» فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق. وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

وأبو ذر - رضي الله عنه - من أصدق الناس إيمانا وقال في الحديث الصحيح: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم**» وقال في الحديث الصحيح: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**». قالوا: اليهود والنصارى قال: «**فمن**» وقال أيضا في الحديث الصحيح: «**لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع**». قالوا: فارس والروم قال: «**ومن الناس إلا هؤلاء**». وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه وعن علي - أو حذيفة - رضي الله عنهما ما - قال: القلوب " أربعة ".

قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذاك قلب الكافر وقلب منكوس. فذاك قلب المنافق وقلب فيه مادتان: مادة تمده الإيمان ومادة تمده النفاق فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر وهذا كما يقول بعضهم في

قولـه:**{اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ}**.

فيقولون المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم فأي فائدة في طلب الهدى ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك أو يقول بعضهم ألزم قلوبنا الهدى فحذف الملزوم ويقول بعضهم زدني هدى وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه؛ فإن المراد به العمل بما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور.

والإنسان وإن كان أقر بأن محمدا رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص به كل عبد ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم. والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ويتناول إلهام العمل بعلمه فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية:**{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً}{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}** وقال في حق موسى وهارون:**{وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ}{وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ}** والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدا حق والقرآن حق فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين.

قال سهل بن عبد الله التستري: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديا حتى يعمل في المستقبل بالعلم وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب وإن حصل فقد لا يحصل العمل فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة والله أعلم.

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسن البصري. قالوا: إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية وهي أيضا مستلزمة لذلك فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة وكل ما له علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي. والحياء مشتق من الحياة؛ فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي ﷺ : **«الحياء من الإيمان»** وقال: **«الحياء والعي شعبتان من الإيمان. والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»** فإن الحي يدفع ما يؤذيه؛ بخلاف الميت الذي لا حياة فيه [فإنه] يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضرة.

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبح بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك. فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها.

ولهذا قال تعالى:**{وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ}** وقال تعالى:**{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ}** مع أنهم موتى داخلون في قوله:**{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ}** وفي قوله:**{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}** وقوله:**{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** فالموت المثبت غير الموت المنفي. المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن. وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وإن كانت الحياة موجودة فيهما. قال الله تعالى:**{اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}**. وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» وفي حديث آخر: «**الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا**» وإذا أوى إلى فراشه يقول: «**اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» ويقول: «**باسمك اللهم أموت وأحيا**».

والقلب إنما خلق لأجل " حب الله تعالى ".

وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ : «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه اقرؤوا إن شئتم:**{فِطْرَةَ اللَّهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}**(١).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا لـه عابدا لـه وحده لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها وإن كانت بقضاء الله وقدره - كما يغير البدن بالجدع - ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة. والرسل صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها وإذا كان القلب محبا لله وحده مخلصا لـه الدين لم يبتل بحب غيره - أصلا - فضلا أن يبتلى بالعشق. وحيث ابتلي بالعشق فلنقص محبته لله وحده. ولهذا لما كان يوسف محبا لله مخلصا لـه الدين لم يبتل بذلك بل قال تعالى:**{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}**. وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها فلهذا ابتليت بالعشق وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفان عن العشق:

أحدهما: إنابته إلى الله ومحبته لـه فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

والثاني: خوفه من الله فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه وكل من أحب شيئا بعشق أو غير عشق فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه إذا كان يزاحمه وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفا منه وترك المعصية حبا لـه وخوفا منه قوي حبه لـه وخوفه منه فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل وهو ما يورث القلب إيمانا من العلم النافع والعمل الصالح فتلك أغذية لـه كما في حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا: «**إن كل أدب يحب أن تؤتى مأدبته وأن مأدبة الله هي القرآن**» والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده. مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وفي أدبار الصلوات ويضم إلى ذلك الاستغفار؛ فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى. وليتخذ وردا من " الأذكار " في النهار ووقت النوم وليصبر على ما يعرض لـه من الموانع والصوارف فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال. ولا يسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يستجاب لـه ما لم يعجل فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي وليعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولم ينل أحد شيئا من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر. والحمد لله رب العالمين ولـه الحمد والمنة على الإسلام والسنة حمدا يكافئ نعمه الظاهرة والباطنة وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وسلم تسليما كثيرا[١].

* * * * *

١ شبكة مشكاة الإسلامى/ابن تيمة في مرض القلوب وشفائها.

المبحث الثاني:

مــرض القلــب فســـاد

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله البقرة في قلوبهم مرض أي شك وارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله في سورة الأحزاب :**{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** ولهذا صنف الخرائطي كتاب اعتلال القلوب أي مرضها وأراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤذيه مالا يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوى والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وزاد ضعف قوته حتى ربما يهلك وإن حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس.

و مرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فإن ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى التوبة ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم ويقال فلان شفى غيظه وفي القود استشفاء أولياء المقتول ونحو ذلك فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل في النفس وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبي ﷺ هلا سألوا إذا لم يعلموا فإن شفاء العي السؤال والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذي اجاب بما يبين

الحق قد شفاني بالجواب والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفاءه قال تعالى في سورة الحج:**{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم ليبسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان فصار فتنة لهم وقال الأحزاب لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة كما قال في سورة المدثر:**{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** لم تمت قلوبهم كموت قلوب الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك في الأحزاب:**{فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** وهو مرض الشهوة فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض والقرآن شفاء لما في الصدور.

ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذي القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده

كماي يتغذى البدن بما ينميه ويوقمه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن والزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى في سورة التوبة:**{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}**.

وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى في سورة النور:**{وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً}** وقال تعالى في سورة النور:**{وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}**وقال في سورة النور:**{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}** وقال تعالى في سورة الأعلى:**{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** وقال تعالى في سورة الشمس:**{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**.

وقال تعالى في سورة عبس:**{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}** وقال تعالى في سورة النازعات:**{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}** فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر فلهذا

صار التزكي يجمع هذا وهذا وقال في سورة فصلت:{وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إلهية الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالى في سورة النجم:{فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} أي تخبروا بزكاتها وهذا غير قوله في سورة الشمس:{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}.

ولهذا قال في سورة النجم :{هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} وكان اسم زينب برة فقيل تزكى نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب وأما قوله في سورة النساء:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} أي يجعله زاكيا ويخبر بزكاته كما يزكى المزكي الشهود بعدلهم والعدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب في العدل وفساده في الظلم وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى البقرة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى في سورة فصلت:{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} وقال تعالى في سورة الإسراء:{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}.

قال بعض السلف (إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق) وقال تعالى في سورة الطور:{كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} وقال تعالى في سورة المدثر:{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} وقال في سورة الأنعام:{وَذَكِّرْ بِهِ

أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا} وتبسل أي ترتهن وتحبس وتؤسر كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ولكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا ولكن الأمثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى في سورة النساء:**{وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ}** وقال تعالى في سورة الأنعام:**{وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا}** والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس والظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها

قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى في سورة الأنعام**{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}** لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله في سورة ياسين**{لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ}** وقوله تعالى في سورة الأنفال**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}**.

وقال تعالى في سورة الروم:**{يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ}** ومن أنواعه أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفي الحديث الصحيح: «**مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه**

كمثل الحي والميت» وفي الصحيح أيضا: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا»** وقد قال تعالى الأنعام: «**والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات»**

وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال في سورة النور:**{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ}** فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال في سورة النور:**{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}**.

فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال والثاني مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئا فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم قال تعالى الأعراف إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وقال تعالى يوسف ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة إذ فعل خيرا ولم يفعل سيئة وقال تعالى فى سورة إبراهيم:**{لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** وقال فى سورة البقرة**{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}** وقال فى سورة الحديد:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ}**.

ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين مثلا بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد ومثلا بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين قال تعالى فى سورة الرعد:**{وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ}**.

وقال تعالى في المنافقين فى سورة البقرة:**{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** فضرب لهم مثلا بالذي أوقد النار كلما أضاءت أطفاها الله والمثل المائي كالماء النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها وفي الدعاء المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبي ﷺ : إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تمسيه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذي يلي الشتاء فإن منه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار والقلب الحي المنور فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر قال تعالى فى سورة البقرة:**{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}** فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بآذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النار كما أخبر عنهم حيث قالوا فصلت قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك

حجاب فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار وأبدانهم حية تسمع الأصواب وترى الأشخاص لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم لها سمع وبصر وهي تأكل وتشرب وتنكح ولهذا قال تعالى فى سورة البقرة:**{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً}** فشبههم بالغنم التي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء كما قال في الآية الأخرى فى سورة الفرقان:**{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}** وقال تعالى فى سورة الأعراف:**{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}** فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله فى سورة يونس:**{وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ}** وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها فيقول هؤلاء هذه الاية في الكفار والمراد بالإنسان هنا الكافر فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرا للشرك من العرب او إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند ونحو ذلك فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده فيقال أولا المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق والمنافقون كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الأسفل من النار ويقال ثانيا الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وإن كان معه إيمان كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: **«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا أوتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»** فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر: **«إنك امرؤ فيك جاهلية»** وأبو ذر رضي الله عنه

من أصدق الناس إيمانا وقال في الحديث الصحيح: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والنياحة والاستسقاء بالنجوم»**

وقال في الحديث الصحيح: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»** قالوا اليهود والنصارى قال: **«فمن»**.

وقال أيضا في الحديث الصحيح: **«لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع»** قالوا فارس والروم قال: **«ومن أناس إلا هؤلاء»** وقال ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه وعن علي أو حذيفة رضي الله عنهما قال القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذاك قلب الكافر وقلب منكوس فذاك قلب المنافق وقلب فيه مادتان مادة تمده الإيمان ومادة تمده النفاق فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الايمان من مدح شعب الايمان وذم شعب الكفر وهذا كما يقول بعضهم في قوله اهدنا الصراط المستقيم فيقولون المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم.

فأي فائدة في طلب الهدى ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم نم حتى آتيك أو يقول بعضهم ألزم قلوبنا الهدى فحذف الملزوم ويقول بعضهم زدني هدى وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه فإن المراد به العمل بما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور والإنسان وإن كان أقر بأن محمدا رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه

وما عرفه فكثير منه لم يعمله ولو قدر أنه بلغه كل امر ونهى في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك لا يذكر ما يخص به كل عبد ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلا ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ويتناول إلهام العمل بعلمه فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية أول سورة الفتح إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وقال في حق موسى وهارون الصافات وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدا حق والقرآن حق فلو حصل لك منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الاعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين

قال سهل بن عبد الله التستري ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول ثبتنا واهدنا لزوم الصراط وقول من قال زدنا هدى يتناول ما تقدم لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديا حتى

يعمل في المستقبل بالعلم وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب وإن حصل فقد لا يحصل العمل فالناس كلهم متضطرون إلى هذا الدعاء ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة.

واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسين البصري قالوا إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والارادة والقدرة على الأفعال الاختيارية وهي أيضا مستلزمة لذلك فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهو حي والحياء مشتق من الحياة فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ولهذا قال النبي ﷺ : **«الحياء من الإيمان»**.

وقال الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق فإن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف الرطوبة الحياة فإذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيه وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضر ولهذا كان الحيي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح بخلاف الوقح والذي ليس بحيي فإنه لا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها ولهذا قال تعالى في سورة البقرة:**{وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ}**.

وقال تعالى في سورة آل عمران :**{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ}** مع أنهم موتى داخلون في قوله فى سورة آل عمران:**{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ}** وفي قوله فى سورة الزمر:**{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}** وقوله في سورة الحج:**{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** فالموت المثبت غير الموت المنفي المثبت هو فراق الروح البدن والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن وهذا كما أن النوم أخو الموت فيسمى وفاة ويسمى موتا وكانت الحياة موجودة فيهما قال تعالى الزمر الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول الحمد الله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور وفي حديث آخر الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا وإذا أوى إلى فراشه يقول اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ويقول باسمك اللهم أموت وأحيا وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده الإسلام علانية والإيمان في القلب ولهذا قال النبي ﷺ : **«الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لك ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد وهي القلب»**.

وعن أبي هريرة: (قال القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث خبثت جنوده)[1].

---

(١) ابن القيم الجوزية / أمراض القلوب وشفائها بتصرف.

الغفلة ومرض القلوب:

من هم الغافلون؟؟؟ كَثِير مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وما هو مصيرهم؟؟؟ جَهَنَّمَ.

قال الله تعالى:**{ولَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}**[1].

ما هى صفات الغافلون؟

١- لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ٢- لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا

٣- لَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا و لكن**!!!** هل قلوبنا تفقه؟ هل أعيننا تبصر؟ هل آذاننا تسمع؟

أولا: القلب :

ماذا فى القلب؟ أهو حب الله ورسوله ﷺ

أم؟ دنيا وشهوات، ماذا تشعر فى قلبك اذا فعلت معصية؟

أهو الندم والرغبة فى التوبة وعدم الوقوع فى المعصية؟

أم؟ ران على القلب ما كسبت من السيئات**!!!**

قال تعالى:**{إِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**[2].

لماذا قال ربنا تبارك وتعالى عن إبراهيم أن قلبه سليم؟؟؟

{اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الصافات: ٨٤.

أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِين * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[1].

إن إبراهيم لم يعبد الأصنام مثل قومه بل عبد الله الواحد القهار الذى لا إله إلا هو وأمر قومه بعبادته ولكنهم أصروا على عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم وقالوا:**{بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}**.

و لكن إبراهيم لم يفعل كأباه بل إن إبراهيم عندما علم الحق اتبعه ولم يخف شيئا لم يخشى من مجتمعه الذى يعيش فيه!!!

لم يخش من رد فعل والده!!! لم يقل مثلهم:**{بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}**.

بل اتبع الحق لأنه علم أن مصيره إلى الله ولأنه خاف يوم:**{يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**.

لقد علم أن القلب السليم هو الذى سينفعه يوم القيامة فأنكر ما يدعون من دون الله وعبد الله حق عبادته واعترف بنعم الله عليه واستغفر الله على خطيئته

ثم دعا ربه فاستجاب له وأتاه القلب السليم

ثانيا: العيـــن ماذا تبصر عينك؟ أتبصر إعجاز الله فى خلقه؟

أتبصر عظمة الخالق فتخشاه؟ أتبصر نعمته فتحمده؟ وتجدها تدمع من خشية خالقها

أم! تنظر بها الى ما حرم الله إلى أفلام ومسلسلات و.... إلى نساء ومحرمات...

ثالثا: الأذن ما الذى تسمعه أذنك؟ أهو القرآن والمحاضرات الدينية؟

أم! هو الأغانى واللهو و... أم! هو الغيبة والنميمة و....

{لنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[2].

---

(١) الشعراء.

(٢) الحاقة: ١٢.

المبحث الثالث:

أمراض لا يراها أصحابها

إن من أكبر النعم أن يعيش المرء سليماً في بدنه معافاً في صحته، وأن يحيا في سلامة من الأمراض التي انتشرت في هذا الزمن.

والإنسان بطبيعته لا يحب أن يعلم الناس بمرضه، ويحاول إخفاء كل علامة تدل على أنه مريض.

ولكني تأملت في أحوال بعض الناس، فعلمت أنهم قد أصيبوا بأمراض ولكن الناس لا يرونها، ولا تظهر للطبيب في المستشفيات، ولا يستطيع الصيدلي أن يصف لك علاجها.

إنها أمراض خفية، لا تظهر على الوجه، ولا على الجلد، ولا تسبب الصداع أو السرطان.

إنها أمراض سكنت في قلوب بعض الرجال والنساء، واستقرت، وبدأت تتغلل في الجسد.

لعلك تتسائل وتقول: وما هي هذه الأمراض؟ أريد معرفتها؟ وما هي حقيقتها؟

إن البغضاء والحقد والكراهية جروح في القلب، وعيوب في نفس المؤمن.

قال زيد بن أسلم: دخلنا على أبي دجانة وهو مريض، ووجهه يتهلل فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟

فقال: مامن عمل أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليما.

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولاينا ل العلا من طبعه الغضب

فوصيتي إليك طهر قلبك بماء السلامة، والبس ثياب الحب، واركب قافلة العفو،

لتصل إلى دار السلام.

ومن أمراض القلوب "البغضاء":

إن البغضاء داء مهلك، وسرطان القلوب، وصاحبه يتقلب في أودية الهموم.

لا يعرف للنوم طعماً، ولا للحياة معنى، حياته مليئة بالكراهية للآخرين، فالموت أجمل لـه من الحياة.

إنه يحمل في قلبه أثقالاً من البغضاء لعباد الله، فهو يكره الصالحين ويكره من يلتزم بالدين، ولا يحب رؤيتهم.

ولعله يبغض بعضاً من شعائر الدين، فهو يبغض الحجاب الشرعي ويتمنى لو أن لـه سلطة أن يزيله من الوجود.

ويكره ويبغض بعض العلماء أو الدعاة الصادقين فيا عجبا لـه.

إنه يبغض من يتفوق عليه في الدنيا، ويكره النعم التي تنزل بغيره ويتحسر على أي خير يناله فلان.

والله إنه يعذب نفسه ولكنه لا يشعر بهذا العذاب.

ومنها مرض الكبر:

إنه مرض ينتشر عندما يغفل الإنسان عن معرفته بنفسه الضعيفة ويرى أنه فوق الناس، وأنه أفضل منهم.

وقال الحكماء: إن المتكبر كأنه على جبل يرى الناس صغار، وينسى أنهم أيضاً يرونه صغيراً.

إن هناك من يتكبر على دينه وشريعة ربه فهو يتكبر على أن يسجد لله أو يؤدي واجباً وجبه الله عليه.

وقد يتكبر على الحقوق فيرفض النصيحة ويستمر على الباطل الذي يهواه فهو كما قال تعالى:**{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}**.

لقد نصحه الناصحون ولكنه لا يستجيب استكباراً:**{يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا}**.

- **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** [١].

- **«ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»** [٢].

- **«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته، إذا خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»** [٣].

فيا أيها المتكبر أرفق بنفسك قليلاً

وهذ الشاعر يتعجب ويقول:

عجبت من معجب بصورته	:::	**وكان بالأمس نطفة مذرة**
وفي غدٍ بعد حسن صورته	:::	**يصير في اللحد جيفة قذرة**
وهو على تيهه ونخوته	:::	**مابين ثوبيه يحمل العذرة**

كن متوضعاً لربك وللناس، وامش على طرقة الحبيب صلى الله علية وسلم الذي كان سيد المتواضعين، وكن على يقين أن تواضعك هو طريق إلى العزة والرفعة عند الله وعند الناس، فقد ثبت في الحديث: **«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»** [٤].

اعرف قدر نفسك، فأنت لاشيء لولا فضل الله عليك، (وكان فضل الله عليك عظيماً).

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه مسلم.

ومنها: مرض الحسد:

الذي لا يسلم منه أحد، كما قيل: ماخلا جسد من حسد.

لقد تعجبت من الحاسد، لا يفرح لنعمة تنزل عليك، ولا يحب أن يراك مسروراً، وأسعد لحظاته عندما تصاب بمصيبة أو تفقد تلك النعمة.

دخل علينا الحسد في مدارسنا، فهذا طالب يحسد صاحبه لأنه متفوق في دراسته.

ودخل الحسد علينا في وظائفنا، فهذا الموظف يحسد صديقه لأنه على مرتبة أحسن منه.

ودخل الحسد حتى بين الصالحين والدعاة والعلماء حتى أغرى الشيطان بينهم وأدخلهم في متاهات عظيمة.

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : **«دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»** [(١)].

ودخل الحسد بين أصحاب الأموال فتحاسدوا وتباغضوا، ودخل الحسد بين النساء، فهذه تحسد جارتها لأن زوجها يحبها أو لأنهم يتفوقون عليهم مادياً..

ولعلها تحسدها لأنها أجمل منها أو أحسن منها في عمل المنزل، ونحو ذلك.

فعجباً من الحسد وعجباً لأهله!!!

إن الحسد نار في قلب الحاسد، لا تنطفئ إلا بزوال النعمة عن المحسود، والحاسد عدو للنعم التي يمنحه الله لمن يشاء من عبادة..

قالوا: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك.

وقيل الحسد جرح لا يبرأ.

ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود، هم لازم، وقلب هائم.

---

(١) رواه الترمذي وهو حديث حسن.

إني لأرحم حاسدي من حر ما ضمت صدورهم من الأوغاد.

نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنة وقلوبهم في النار.

إن الحسد داء قاتل، ومرض خبيث، يفسد العلاقات، ويوقع العداوات، إن الحسد آفة موجودة بيننا... وللأسف فإننا نرى آثارها وصورها.

والحسد له أسباب فمنها:

١- بغض المحسود والكراهية لـه.

٢- ضعف الإيمان وقلة التقوى لدى الحاسد.

٣- عدم الرضا بقضاء الله وقدره، لأن الله هو الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء:**{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}**.

إليك هذه الوسائل التي تدفع شر الحاسد عنك بإذن الله تعالى:

١- تقوى الله، فمن حفظ الله حفظه الله.

٢- الاستعاذة بالله من شره، كما قال تعالى:**{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}**.

٣- التوكل على الله وعدم الالتفات إلى كيد الحاسد.

٤- الصدق والإحسان إلى الناس، فإن لذلك تأثير عجيباً في دفع شر الحاسد.

٥- الإحسان إلى الحاسد ومقابلته بالحسنى:**{فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}**.

٦- فرغ قلبك من التفكير فيه، ولا تبال به.

طهر قلبك وسريرتك من نار الحسد، وكن راضياً بما قسمه الله لك وكن محباً لغيرك، تفرح لأخيك عندما تنزل عليه نعمة وتحزن لـه عندما تحل به مصيبة.

إنها القلوب النقية التقية، قلوب بيضاء، تحب الخير للجميع، قلوب سليمة ستنجو يوم القيامة:**{يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**.

المبحث الرابع:

من نتائج مرض القلوب وموتها

هناك ألفاظ قريبة من القسوة أو شبيهة بها تدل على موت القلب - والعياذ بالله - إذا كان صاحبه ممن أهمله حين مرض، ولم يتنبه له ولم يعالجه بذكر الله؛ فأوصله إلى نتائج مرض القلب مثل:

١ - أن يقفل عليها، كما قال تعالى: **{أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}**[١] فيقفل على هذه القلوب.

٢ - الران، قال تعالى: **{كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**[٢].

٣ - أو التغليف، كما قال تعالى: **{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ}**[٣].

٤ - عدم الفقه، كما قال تعالى: **{لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا}**[٤].

٥، ٦ - الطبع والزيغ، كما قال تعالى: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}**[٥].

٧ - العمى، قال تعالى: **{فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}**[٦]، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من نتائج موت القلب من مثل هذا، ولو تدبرنا في القرآن حق التدبر لوجدنا الكثير من هذه المواضع، فيما يتعلق بمرض القلب وموته، وأكثر من ذلك أو مثله فيما يتعلق بأعمال القلوب[٧].

---

(١) محمد: ٢٤.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) البقرة: ٨٨.

(٤) الأعراف: ١٧٩.

(٥) الصف: ٥.

(٦) الحج: ٤٦.

(٧) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

٨ - يجب على المؤمن الذي يريد تنقية قلبه، ويحرص على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينتبه إلى هذه الحقيقة، والأدلة عليها كثيرة جداً، مما ثبت وصح في الوحي، وكثيرة من واقع الناس، وهو المشاهد من أحوال الناس الذين كانوا على ذنوب وفجور ثم تابوا واستقاموا، والذين كانوا على طاعة وخير وعلى طلب علم ودعوة ثم انحرفوا وحاروا، نسأل الله العفو والعافية.

* * * * *

المبحث الخامس:

كيف يمرض القلب

١ - القلب يمرض.. ومرض القلب هو أن يخرج عن حد الاعتدال ويدخل في التيه والشتات وعدم الإدراك والمعرفة وعدم التمييز بين الحق والباطل والنور والظلام... فيكون في شك وريبة من معرفة ربه كحال المنافقين المذبذبين كما بين الله تعالى:**{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}**(البقرة)

فهم في شكهم بعيدين عن معرفة الله تعالى حق معرفة والسعي لمرضاته والشوق للقائه فإذا تتلى آيات الله على هؤلاء فلا يزدادون إيماناً ولكن يزدادون رجساً إلى رجسهم وضلالاً إلى ضلالهم فأما المؤمن عندما يُقرأ عليه القرآن يزداد إيماناً وتصديقاً في قلبه وخشية في قلبه، وكذلك يستمع إلى آيات الله مستبشرا بها قال تعالى:

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} (التوبة).

٢ - ومن الأسباب الرئيسية لمرض القلب شهوة البطن لذلك حذر النبي ﷺ قائلاً: **«ما ملأ أدمي وعاءً شراً من بطنٍ حسب الآدمي لقيماتٌ يقمن بها صلبه...»** [١].

فشهوة البطن والإفراط فيها قد تجعل الإنسان يجمع ماله من أي باب لا يبالي أمِن حرام جَمَعه أم من حلال حتى يُشبع نفسه وكذلك قد تؤدي إلى حدوث الأمراض الكثيرة كما نرى هذه الأيام من السكر والكولسترول فضلا عن أنها تجعل الجسم يتوقف عن الطاعات وتحجب القلب عن فهم الحكمة والعلوم وأيضاً قد تعمل على تحفيز وتقوية شهوة الفرج.

---

(١) سنن ابن ماجه.

كيف السبيل للوقاية؟

خير وقاية لنا ألا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع. فلا إفراط ولا تفريط ديننا وسط في كل شيء فجميلٌ حد الاعتدال.

وكما قال صاحب الإحياء: على المسلم ألا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد الفطن لا يشاهد بلاء غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عُرُصاتِ القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار حتى أنهم لَيُجَرَّعون فيُطعَمون الضريع والزقوم ويُسقَون الغثاء والمهل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فإنه هو الذي يهيج الخوف فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا غلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة أو مشاهدة بلاء، وأَوْلى ما يقاسيه من البلاء الجوع؛ فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذه أحد الأسباب التي اقتضت اختصاص الابتلاء للأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل(١).

ولذلك قيل ليوسف عليه السلام؟ لِمَ تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله ومن ذلك البعد عن المعاصي والآثام فإن القوم إذا ما شبعت بطونهم جنحت بهم نفوسهم إلى معصية الله.

٣ ـ شهوة الفرج: كذلك من أسباب أمراض القلوب الهامة:

فإذا خرجت من حد الاعتدال وتصريفها في محلها الشرعي يكون هناك الفساد

(١) إحياء علوم الدين للشيخ الغزالي.

الكبير الذي نراه اليوم بأعيننا وخير وقاية كما قال تعالى:

{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(النور).

قال الآلوسى : قوله - تعالى -**{قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ}** شروع فى بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخول البيوت اندراجا أوليا.

وقوله - تعالى - :**{يَغُضُّواْ}** من الغض بمعنى الخفض. يقال : غض الرجل صوته إذا خفضه. وغض بصره إذا خفضه ومنعه من التطلع إلى مالا يحل له النظر إليه. قال الشاعر :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى ::: حتى يوارى جارتى مأواها

وهو جواب الأمر " قل " أى : قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم عما يحرم أو يكره النظر إليه وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم، فإن ذلك دليل على كمال الإيمان! وعلى حسن المراقبة وشدة الخوف من الله - تعالى -.

وجمع - سبحانه - بين غض البصر وحفظ الفرج، باعتبارهما كالسبب والنتيجة، إذ أن عدم غض البصر كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفواحش، ولذا قدم - سبحانه - الأمر بغض البصر، على الأمر بحفظ الفرج.

وجاء التعبير بقوله - سبحانه -**{قُلْ}** للإشعار بأن المؤمنين الصادقين، من شأنهم إذا ما أمرهم الرسول ﷺ بأمر، فإنهم سرعان ما يمتثلون ويطيعون، لأنه ﷺ مبلغ عن الله - تعالى - الذى يجب الامتثال لأمره ونهيه.

وخص - سبحانه - المؤمنين بهذا الأمر، لأنهم أولى الناس بالمخاطبة. وبالإرشاد إلى ما يرفع درجاتهم، ويعلى أقدارهم.

قال صاحب الكشاف : و" من " للتبعيض... فإن قلت : كيف دخلت فى غض البصر، دون حفظ الفروج؟ قلت : للدلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن... والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها... وأما أمر الفرج فمضيق.

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - :**{ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ}** يعود إلى ما ذكر من الغض والحفظ.

أى : ذلك الذى كلفناك بأمر المؤمنين به - أيها الرسول الكريم - أزكى لقلوبهم، وأطهر لنفوسهم، وأنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم.

وقوله - سبحانه - :**{إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}** تحذير من مخالفة أمره - سبحانه -.

أى : مرهم - أيها الرسول الكريم - بالتزام ما أمرناهم به وما نهيناهم عنه، لأننا لا يخفى علينا شىء من تصرفاتهم، ولأننا أعلم بهم من أنفسهم، وسنحاسبهم على ما يصنعون فى دنياهم، يوم القيامة.

ثم أرشد - سبحانه - النساء إلى ما أرشد إليه الرجال فقال :**{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا}**.

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنات - أيضا - بأن الواجب عليهم أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى مالا يحل لهن، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه، ولا يظهرن شيئا مما يتزين به، إلا ما جرت العادة بإظهاره، كالخاتم فى الإصبع، والكحل فى العين.

وما يشبه ذلك من الأمور التى لا غنى للمرأة عن إظهارها.

ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب، إلا أن الله - تعالى - خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال، لتأكيد الأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة - إلا فى حدود ما شرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن تنظر إلى الرجل، لأن علاقتها به، ومقصده منها كمقصدها منه، ونظرة أحدهما للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدى إلى مالا تحمد عقباه.

وقوله - تعالى - :**{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ}** بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها.

والخُمُر - بضم الخاء والميم - جمع خمار. وهو ما تغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها، والجيوب جمع جيب، وهو فتحة فى أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها.

والمراد به هنا : محله وهو أعلى الصدر، وأصله : من الجَب بمعنى القطع.

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شىء من ذلك.

قالوا : وكان النساء فى الجاهلية يسدلن خمرهن من خلف رءوسهن، فتنكشف نحورهن وأعناقهن وقلائدهن، فنهى الله - تعالى - المؤمنات عن ذلك.

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث، منها : ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول - لما أنزل الله - تعالى - :**{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ}** أخذن أزرهن فشققنها فاختمرن بها.

وفى رواية أنها قالت : إن لنساء قريش لفضلا، وإنى - والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل، لما نزلت هذه الآية. انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذى قرابة، فما منهم امرأة إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من

صوف - فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ فى صلاة الصبح معتجرات كأن رءوسهن الغربان.

والمقصود بزينتهن فى قوله - تعالى - :**{وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ}** الزينة الخفية وهى ما عدا الوجه والكفين، كشعر الرأس والذراعين والساقين.

فقد نهى الله - تعالى - النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل أحد، إلا من استثناهم - سبحانه - بعد ذلك، وهم اثنا عشر نوعا، بدأهم بالبعول وهم الأزواج لأنهم هم المقصودون بالزينة، ولأن كل بدن الزوجة حلال لزوجها.

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام فى مظهرهن، ولا يبدين مواضع زينتهن الخفية إلا " لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن " فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرهم الله - تعالى - بعد الأزواج، كلهم من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم، وقد جرت العادة باحتياج النساء إلى مخالطتهم، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم، فمن طبيعة النفوس الكريمة أنها تأنف من التطلع إلى المحارم بالنسبة لها. ويلحق بهؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع. والأصول وإن علوا، والفروع وإن سفلوا.

وقوله - تعالى - :**{أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء}** بيان لبقية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدى زينتها الخفية أمامهم.

أى : ويجوز للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن - أيضا - أمام نسائهم المختصات بهن الصحبة والخدمة، وأما ما ملكت إيمانهن من الإيماء لا من العبيد البالغين، وأمام الرجال التابعين لهن طلبا للإحسان والانتفاع، والذين فى الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن، ولا حاجة لهم فى النساء، ولا يعرفون شيئا من أمورهن، ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة، ولا يصفونهن للأجانب.

فقوله - سبحانه - :{غَيْرِ أُوْلِي الإربة} أى : غير ذوى الحاجة من الرجال فى النساء يقال : أَرِب الرجل إلى الشىء يأرَبُ أربا - من باب تعب إذا احتاج إليه.

ويجوز لهن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، أى: الذين لم يعرفوا ما العورة، ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها وبين غيرها، ولم يبلغوا السن التى يشتهون فيها النساء.

يقال : ظهر على الشىء إذا اطلع عليه وعرفه، ويقال : فلان ظهر على فلان إذا قوى عليه وغلبه.

فهؤلاء اثنا عشر نوعا من الناس، ليس عليهم ولا على المرأة حرج، فى أن يروا منها موضع الزينة الخفية، كالرأس والذراعين، والساقين، لا نتفاء الفتنة التى من أجلها كان الستر والغطاء. فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها.

ثم نهى - سبحانه - النساء عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة، بل عليهن أن يلتزمن من خلال خروجهن من بيوتهن الأدب والاحتشام والمشى الذى يصاحب الوقار والاتزان، فقال - تعالى - :**{وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ}**.

أى : ولا يصح للنساء المؤمنات أن يضربن بأرجلهن فى الأرض، ليسمعن غيرهن من الرجال أصوات حليهن الداخلية، بقصد التطلع إليهن، والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها.

فالمقصود من الجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة، عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة كالمشية المتكلفة، والتعطر الملفت للنظر، وما إلى ذلك من ألوان التصنع الذى من شأنه تهييج الغرائز الجنسية.

ثم ختم - سبحانه - تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى، بدعوة المؤمنين إلى التوبة الصادقة. فقال - تعالى - :**{وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**.

أى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والمؤمنات، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تخشونه - سبحانه - فى السر والعلن، لكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخراكم.

قال القرطبى : " ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضمائر من هذه الآية. جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات ما بين مرفوع ومجرور... ".

هذا، ومن الأحكام والآداب التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى :

١ - وجوب غض البصر وحفظ الفرج، لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس، نظيف من الخنا، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى مالا يحل لها التطلع إليه، فالله - تعالى - يقول :**{إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}** ويقول :**{يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور}** وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : **«كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناهما الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»**.

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة - أى البغتة من غير قصد - فقال : **«اصرف بصرك؟»**.

٢ - أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب، إلا ما ظهر منها، لأن الله - تعالى - يقول :**{وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا}**.

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : " أمر الله - تعالى - النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية، حذارا من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة، واختلف الناس فى قدر ذلك.

فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب... وقال سعيد بن جبير والأوزاعى :

الوجه والكفان والثياب... وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب.. ونحو هذا، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس.

وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى، وأن لا تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك،

" فما ظهر " على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه.

قلت : أى القرطبى - : وهذا قول حسن، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما، عادة وعبادة، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما.

يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة، " أن أسماء بنت أبى بكر، دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال : **«يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه»**.

وقال بعض علمائنا : " إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك ".

هذا، وفى هذه المسألة كلام كثير للعلماء فارجع إليه إن شئت.

وإلى هنا ترى السورة الكريمة قد نهت عن الزنا، ووضعت فى طريقه السدود الوقائية والنفسية. حيث حرمت الاختلاط، وأمرت بالاستئذان، وبغض البصر، وبحفظ الفرج، وبعدم التبرج، وبالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى -.

و في الحديث عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: **«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه»** (١).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

فلا يجوز مجالسة النساء (غير المحارم) أو النظر إليهن بشهوة وإنما جاز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم تحت ضوابط شرعية ولأجل عموم الحاجة، وأما من المصائب الكبرى في هذه الأيام التي انشغل بها شباب وشابات المسلمين عن كلام الرحمن ألا وهي مزامير الشيطان[١] المحرمة والشعر الهابط الذي لا يتكلم إلا في غزل النساء والمحرمات فهذا من المحرمات.

كيف السبيل للوقاية؟

يجب على كل مسلم أن يجتنب هذه المحرمات لأن كل هذا من مقدمات الزنا كما بين الحديث السابق.

وعلينا بكلام الرحمن الذي هو شفاء للصدور.

وكذلك أوصي أخواني وأخواتي الشباب بوصية الرسول ﷺ وذلك لمن لا يملك الباءة[٢] والزواج قال: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[٣]»**[٤].

إذاً نخرج بنتيجة:

أن التحكم في شهوتي البطن والفرج توقظ القلب وتجعله يدرك ويميز بين المتضادات (النور والظلام - الهدى والضلال - الحق والباطل.. الخ)

ويسد مسالك الشيطان وطُرُقه وإلا تعرض القلب لأمراض كثيرة وخطيرة واختلطت عليه الأمور فهلك وأهلك.

وسأورد على سبيل المثال لا الحصر بعض أهم أمراض القلوب وكيفية علاجها.

---

(١) الغناء.

(٢) الصداق.

(٣) وقاية وحماية.

(٤) متفق عليه.

المبحث السادس:

أمراض القلوب وكيفية علاجها

١ - الحسد:

من أمراض القلوب الخطيرة ومعناه تمني زوال النعمة عن الغير وهذا من خُلق المنافق والكافر قال تعالى:

{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة).

وقال تعالى:**{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}** (النساء ٥٤).

قال ابن كثير: أي أنهم جحدوا الرسالة ورفضوا تصديقها بغياً وحسداً وجحوداً فالحسد حملهم على الجحود ولننظر هذه الأيام لصناديد الكفر يؤذون المسلمين في كل مكان وانظروا لحسدهم وجحدهم القرآن الكريم فهم لا يستطيعون أن يقابلوه بالحجة ولكنهم أرادوا الانتقام فمزقوه وداسوه لضعفهم وضعف حجتهم والله المستعان، فالعفو الصفح حتى يأتي الله بأمره والله دائما مع المؤمنين، وهذه وصية الله لهذه الأمة ولكن لابد وأن نتمسك بكتاب الله تعالى قولا وعملا.

واعلم أن الحسد لا يجلب في قلب الحاسد إلا الهم والحسرة على ما فاته، وكذلك من مضاره أنه يجلب العداوة في قلوب الناس ليس هذا وفقط بل إن الحاسد يعترض على قضاء الله سبحانه وتعالى على ما آتى الناس من فضله وقد نهانا الرسول ﷺ عن الحسد فقال: **«لا تحاسدوا ولا تدابروا** (١) **ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا»** (٢).

---

(١) التدابر: المعاداة والمقاطعة.

(٢) متفق عليه.

وخطورة الحسد كبيرة جداً ولنا فيها مثالين فلننتبه:

فأول كبيرة: كانت عندما حسد إبليس آدم فكان سببا في تكبره وعصيان ربه وعدم السجود لآدم فظل الحسد في قلبه بتمني زوال النعمة عن آدم وزوجِه في الجنة فوسوس لهما قال تعالى:**{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى}** (طه).

فوسوس له إبليس:**{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى}**.

ولا يزال الحسد يملأ قلب إبليس وجنوده إلى قيام الساعة.

أول جريمة: وقعت في الأرض كانت بسبب الحسد أيضاً.

فقد حسد ابن آدم أخيه؛ قال تعالى:**{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقِينَ}** (المائدة).

وللحسد أسباب فما هي أسبابه:

١ – الكبر: عندما تنظر للناس من فوق وتظن أنك خلقت من ذهب وهم من حديد وأنك أفضل منهم وترد الحق ولا تعمل به وتحتقر الغير فإن أصاب أحد منهم نعمة كنت حاقداً متكبراً كما جاء في القرآن عن فرعون:

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} (المؤمنون).

وحسد أبو جهل وغيره من صناديد مكة الرسول ﷺ قالوا يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي وقال تعالى عنهم:

{وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً} (الفرقان).

كما حكى قولهم عن المؤمنين:**{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}** (الأنعام).

٢ – التنازع على مقصود واحد يسبب الحسد:

إذا تبارى اثنان وتنازعا على شيء واحد وفاز به أحدهما تملك الحسد.

قلب المغلوب والقرآن بَيَّن لنا هذا في قصة يوسف مع إخوته:

{إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}(يوسف).

فكانت النتيجة التفكير في قتله بأي وسيلة كانت فكان من أمرهم ما كان.

والحسد وإن تعددت صوره وأشكاله (حسد بين العلماء - طلاب العلم - وبقية أصناف البشر...) الأصل فيه هو حب الدنيا، والله المستعان، ولكن الأصل في المؤمن أن يطهر قلبه من هذه الآفات والأمراض.

علاج القلب من الحسد:

كيف نعالج الحسد شرعا؟: نص السؤال

يقول النبي ﷺ : **«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»** فتخليص المؤمن نفسه منه مهم حتى يحفظ عليه زاده للدار الآخرة، وعلاجه فيما يلي: -

١ - الإيمان بالقضاء والقدر: بل تقوية الإيمان بهما فيدرك الإنسان أن الأمور كلها بيد الله عز وجل وهو الذي قدرها وكتبها وشاءها ويعلم بها فلم لا يرضى المؤمن بما قدره ربه.

٢ - التخفيف من التعلق بالدنيا: فالذي جر الحسد للنفوس ما أوتوه من متاع الدنيا الزائل والطمع فيه أما إذا تعلق القلب بالآخرة وزهد في الدنيا زهد فيما عند الناس فعلى أي شيء يحسدهم؟ والنبي ﷺ يقول: **«لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**.

٣ - تقوية الصلة بين الناس واستشعار الجسد الواحد بين المسلمين فإذا رزق أخوك المؤمن بنعمة فلك منها نصيب بل ينبغي أن تفرح بعلو أخيك ورفعته وما آتاه الله تعالى من فضله:**{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}**.

٤ - الارتباط بالآخرة وإنها مجال التنافس على العمل وفيها تنبغي الغبطة لا الحسد على الدنيا كما ذكر آنفاً:**{لا حَسَدَ إِلا عَلَى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}**.

٥ - التعلق بالله عز وجل واكتساب التقوى فإن الإيمان يعصم القلب من الوقوع فيما.

٧ - استشعار أن سلامة الصدر للمؤمن طريق عظيم للجنة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول لله ﷺ فقال: «**يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، وقد تعلق بعلقة بيده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع الرجل على مثل حالته الأولى**»، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو، فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني عليك حتى تمضي، فعلت، قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعار وتقلب في فراشه ذكر الله - عز وجل - وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليالي، وكدت أن احتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب، ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث ليالي، فأردت أن آوي إليك فأنظر: ما عملك، فاقتدي بك فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت. غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين

غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق.

- الأصل في المؤمن: طهارة القلب وعدم البغضاء والكراهية.

ولابد أن تعلم أنه لا ينالك من جَرَّاء حسدك للغير إلا الهم والحزن الحسرة على ما فاتك كما قال الشاعر:

اصبر على صبر الحسود فإن صبرك قاتله ::: فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

واعلم أنك لن تمنع قضاء الله فلا تحسد أحد على النعمة التي حباه الله بها لأن هذا يخرج عن أمر استطاعتك أن تزيلها منه قال تعالى:**{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}**(فاطر).

ولابد للحاسد أن يعلم أن الحسد معصية فعليه أن يقتل وينزع جذور الحسد من قلبه والأهم لكل مسلم ومسلمة العلم بأن حب المسلم للمسلم يجعله يشارك في الخير أخاه وبهذا تتآلف القلوب بكثرة الإحسان والدعاء بالبركة لمن طرأ عليه النعمة وقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله وعليك أن تترك الألفاظ التي يقولونها بألسنتهم عفوياً عندما يَرَون على أخيهم نعمة يقولوا: (يخرب بيته من أين له بهذا الشيء)!؟.

وكما قال الشافعي: إذا تصدق عليك أحد فقل: آجرك الله على ما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت.

٢- الرياء:

المرض الثاني من أمراض القلوب:

معناه: طلب المنزلة في قلوب الناس بأي وجه من الوجوه وخصوصاً في العبادة وهذه الكلمة مشتقة من كلمة "رؤية": تحب أن يراك الناس ويشيرون إليك ببنانهم، والرياء: هو الشرك الخفي الذي قد ذَمَّه الله تعالى قال:**{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ}** (الماعون).

وقال أيضاً:**{إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}**(النساء).

وصفة الرياء تكون في المنافقين فلا إخلاص عندهم ولا معاملة مع الله بل يُشهِدون الناس تقية لهم ومصانعة ولهذا فهم دائما متخلفون (متأخرون) وخصوصا عن صلاة العُتَمَة وهي أثقل الصلاة على المنافقين كما بين الرسول ﷺ.

عن جندب رضى الله عنه قال: قال ﷺ : **«ومن يراءِ يراءِ الله به ومن يُسَمِّع**[١] **يُسَمِّع الله به»** [٢].

انظر عندما رأى عمر رضى الله عنه رجلاً في الصلاة يطأطئ رقبته فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب.

احذروا الرياء:

أول ما تسعر به النار من الموحدين العّباد المراءون بأعمالهم، وأولهم العالم والمجاهد والمتصدق للرياء؛ لأن يسير الرياء شرك، ما ينظر المرائي إلى الخلق في عمله إلا لجهله بعظمة الخالق، المرائي يزوِّر التواقيع على اسم الملك؛ ليأخذ البراطيل لنفسه، ويوهم الخلق أنه من خاصة الملك.

---

(١) يعمل طلباً للسمعة.

(٢) متفق عليه.

هذه أمثال - يعني - تضرب للمرائي، أولا إن المرائي إنما أوتي من جهله بربه، من عرف ربه وأنه المستحق لأن يُعلى ويُعبد، ويتقرب إليه بأنواع القرابين - لا يبالي بالخلق ولا يعبأ بهم، فعمله الظاهر وفي الغيب والشهادة واحد، لا يبالي بالناس إنما يعمل لربه، ويتقرب إلى ربه، فإنما أوتي بجهل لعظمة الخالق.

والمرائي يظهر الصلاح، وهذا هو الذي ضَرب لـه مثلين؛ لأنه يزور التواقيع، ويظهر أنه من خواص الملك، وينقش اسم الملك على الدرهم الزائف، كل هذه أمثال بحال المرائي من جهة أنه يظهر الصلاح والقرب من الله وهو بخلاف ذلك، وكل - يعني - عمل المرائي تزوير، فليس باطنه كظاهره. نعم.

نقش المرائي على الدرهم الزائف اسم الملك ليروج، والبهرج ما يجوز إلا على غير الناقد، وبعد أهل الرياء يدخل النار أصحاب الشهوات وعبيد الهوى، الذين أطاعوا هواهم وعصوا مولاهم، فأما عبيد الله فيقال لهم:**{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}**.

وعاقِبة الرياء الخوض إلى جهنم سحباً على الوجوه ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ : **«إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به فعَرَّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أُمر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار....»** (١).

هذا حديث يدلنا على أصل عظيم: أن الأعمال لابد أن تكون جميعها لله بدون أي شريك**{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}**(الأنعام).

فالمقاتل والمنفق والعالم أو القارئ لكتاب الله - وهذه من أعظم وأجل الأعمال كما بَيَّن الحديث - إن لم يكن عمله لله خالصاً فلا ينتظر سوى العذاب الأليم، قال تعالى:**{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ**

---

(١) صحيح مسلم.

الْقَيِّمَةِ}(البينة).

والرياء: صفة من صفات الكفار والمنافقين فقد قال تعالى:**{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** (المنافقون).

وقال تعالى: **وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** (آل عمران).

ومن أنواع الرياء أيضا أن يرائي في العبادة كإطالة الركوع والسجود في الصلاة أو في المظهر كإطالة اللحية والإمساك بالمسبحة أو تقصير الثوب أو التشدق ببعض آيات القرآن أو مصاحبة أهل العلم والصلاح والله أعلم بالنوايا، كحال هذا الشاب الذي كان يصلي في المسجد وكان يطيل في صلاته فرآه رجلان في المسجد فأخذا يتكلمان عن حسن صلاته وسَمْته وهيئته في الصلاة وهو يطيل ويطيل حتى إذا انتهى من الصلاة قالوا له: ما أعجب صلاتك وما أحسنها، فقال لهم: (وأني صائم أيضاً اليوم)...**!!** فالله المستعان.

أو أن يرائي بالطاعة للحصول إلى أمور نفعية مثلاً بالنصب على الناس بإسم الدين كإطالة اللحية أو إظهار الخشوع في الكلام أو الاستشهاد ببعض الأحاديث أو الآيات من القرآن.

انتبه: قد يظن القارئ أني متخذ موقفاً من إطالة اللحية مع أنها واجبة في الإسلام ولكن الذي أقصده - حتى يُفهم كلامي فهماً صحيحاً - هو الذي يتخذ شعائر الدين باباً للرياء أو لجلب المصالح مع عدم الإخلاص لله تعالى في طاعته فهذا الصنف من الناس يتعامل معه الآخرون بحسن النية وحسن القصد على أنه رجل متدين ولكنه غاشاً لهم فهؤلاء من المرائين ويكون حسابهم عن الله أليم فالرياء محبط للأعمال ولو كانت مثل الجبال.

كيفية العلاج من الرياء:

لابد أن يراقب المسلم نفسه حق المراقبة فمدح الناس أو ذمهم لا يفيد ولا يضر طالما أن العمل خالصاً لوجه الله تعالى.

أخلِص العمل فإن الناقد بصير واجعل همك الوحيد هو رضا الله عنك.

واعلم أخي وحبيبي أن رضا الناس غاية لا تدرك فأرح قلبك واجعل همك هماً واحداً هو رضاء الله تعالى عنك.

وإن مدحك أحد فقل كما قال سيد المتواضعين أبو بكر الصديق رضى الله عنه: اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون... اللهم آمين.

وأن تدعو وتقول في أعمالك لتجديد النية وتصحيحها: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه**».

٣ – الغضب :

المرض الثالث من أمراض القلوب:

جند من جنود الشيطان في القلب وهو يعني: غليان الدم في القلب فيرتفع الدم في أعالي الجسم فيحمر الوجه وتحمر العينان وتنتفخ الأوداج وعلى المؤمن ألا يفرط في الغضب لأنه إذا فعل يخرج عن حد الاعتدال فتخرج أفعاله عن نطاق الترتيب والانتظام كما تخرج أقواله عن حدود الأدب واللياقة وما رسمه الإسلام من حدود للكلام والحديث؛ فينطلق اللسان بالسب والشتم واللعن وتندفع الجوارح للضرب والتمزيق والتكسير وقد يؤدي في النهاية للقتل وقد يهرب المغضوب عليه فينقلب السحر على الساحر فيمزق الغاضب ثوبه ويلطم وجهه أو يكسر شيئاً أمامه وعندها يمتلئ القلب حقداً وغلاً وإضماراً بالسوء والله المستعان والغلبة يومئذ تكون للشيطان.

قال تعالى{**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**} (آل عمران).

إن الجنة التي أعدها الله تعالى قد أعدها لمن اتقاه، وأنفق من مال الله الذي أعطاه، وكذلك الذي يتجرع غيظه عند امتلاء نفسه منه؛ يقال كظم فلان غيظه إذا تجرعه فحفظ نفسه من أن تُمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها وانتصارها ممن ظلمها. وفلان كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً همّاً وحزناً ومنه قوله تعالى:**{وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}** يعني: ممتلئ حزناً[1].

وقوله تعالى:**{وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}**(التوبة).

والمعنى أن الله يذهب غيظ قلوب المؤمنين وهمهم وحزنهم وحنقهم ويشفي صدورهم بقتال من حارب الله ورسوله وهذا من محبة الله للمؤمنين حيث جعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم [2].

وقوله تعالى:**{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}**(فصلت).

فإذا ألقى الشيطان في قلبك ونفسك وسوسة لحملك على مجازاة المسيء والرد عليه فاستجر بالله واعتصم به فهو السميع باستعاذتك به والعليم بأمور خلقه جميعا [3].

فهذا النوع من الغضب الغير مرغوب فيه إذا كان لدوافع شخصيه وأما إذا كان غضب المسلم المؤمن بربه لحد من حدود الله انتهك فهو المطلوب قال ﷺ : **«أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغْيَر منه والله أغْيَرُ مِنِّي»** [4].

---

(١) تفسير الطبري بتصرف.

(٢) تفسير السعدي.

(٣) تفسير السعدي.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٤٠) كتاب الحدود.

فلابد للمؤمن ألا ينعدم شعوره للغضب لتغيير المنكر والفساد في الأرض إذ الغضب مباح وواجب ولكن في حدود معينة.

أما أن يخلو المؤمن من المروءة ويكون خسيساًَ يرضى بالفحشاء والمنكر والذل ولا يثور ويترك اللئام يجترئون عليه فهو كما قال الشافعي: من استُغضِب فلم يغضب فهو حمار ومن استُرضِي ولم يرضى فهو شيطان**!!!**

كيف أعالج نفسي من الغضب؟

بسهولة إذا تذكر الإنسان قبره وتذكر يوم البعث والحساب وتذكر الجنة والنار وتذكر الآخرة التي ذكرها الله في القرآن ١٥٠ مرة وتذكر أمرها وأهوالها وما فيها هان عليه كل شيء.

ولابد أن يعلم ويوقن أن الأمور كلها بيد الله تعالى وأن يرضى باختيار الله تعالى له من خير أو شر فالمؤمن مأجور لأن أمره كله له خير.

وعلينا الاقتداء كذلك بالصالحين من قبلنا وبصحابة رسول الله ﷺ فقد شتم رجل سلمان الفارسي فرد عليه قائلاً: إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول.

ورد أحد الصالحين على من شتمه قائلاً إن كنت صادقا فغفر الله لي وإن كنت كاذبا فغفر الله لك.

وعلى المؤمن العاقل أن يتذكر عاقبة الغضب التي تورث العداوة والبغضاء والصراع بين الناس وكذلك أن يتذكر قدرة الله تعالى عليه.

وأن نتذكر وصية الحبيب ﷺ حينما سأله رجل أوصني يا رسول الله فأجاب ﷺ : **«لا تغضب لا تغضب فردد مراراً لا تغضب»** (١).

(١) صحيح البخاري.

وأيضا قال الرسول ﷺ حينما سأل أصحابه عن معنى الصُّرَعَة [1] فلما جاوبه بمعناها قال ﷺ: **«إنما الصُّرَعَة الذي يملك نفسه عند الغضب»** [2].

وعليك بالعفو عن الناس فما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً.

وعليك بالرفق فإذا حُرِمت الرفق حرمت الخير كله؛ فالرفق ما كان في أمر إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه.

وإذا غضبت قاوم الشيطان وغير الحالة التي أنت عليها إذا كنت قائم فاجلس أو اتكئ أو اضطجع وإن لم يذهب الغضب عنك واستولى على قلبك توضأ أو اغتسل.

واعلم يا أخي وحبيبي أن الناس في الغضب أربعة نفر؛ فانظر في نفسك وفكر أي نوع من هؤلاء أنت؟

١ - بطيء الغضب بطيء الرضا: فهذه بتلك.

٢ - سريع الغضب سريع الرضا: فهذه بتلك.

٣ - سريع الغضب بطيء الرضا: وهذا أشر الناس.

٤ - بطيء الغضب سريع الرضا: وهذا خير الناس.

وعلينا أن نتذكر دائما وأبدا قول الله سبحانه وتعالى في سورة النور ونملأ قلوبنا نوراً ورحمة وحلماً على العباد:**{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}**.

فنرد ونقول: بلى يارب نسألك المغفرة، نسألك الصفح، نسألك العفو.

---

(١) الذي يصرع الناس ويغلبهم.

(٢) صحيح البخاري.

٤ – الحقد :

المرض الرابع من أمراض القلب:

إذا زاد مرض القلب في قلب الإنسان وتملك هذا الغضب مملكة القلب يصبح الإنسان حقوداً بسبب كثرة الخصوم والحقد حقيقة ينبع من ارتداد الدم مرة أخرى بعد فورانه للقلب فيكمد فيه الهم والحزن ويعرض صاحبه للأمراض الكثيرة فيكون دائما مشدود الأعصاب ناقماً على كل شيء حوله فلا هو أراح ولا استراح وتعتريه الأمراض العضوية كالضغط والذبحة الصدرية والسكر وضيق الشرايين وقد تأتيه جلطه فيموت فضلاً عن ضعف الإيمان في القلب لاشتغاله بهذه الأمراض.

أخي وحبيبي إذا كانت خصومتك مع أحد المسلمين فقد وقعت في المحظور والمحرم فعن أبي أيوب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث...»** (١). وإذا كانت خصومتك وقطيعتك مع أولي الأرحام كانت المصيبة والخطورة أشد عليك من الأولى فقد تكون ممن لا يدخلون الجنة وقد تحرم من رحمة الله تعالى فعن جبير ابن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«لا يدخل الجنة قاطع رحم»** (٢).

من الآثار السيئة التي يقع فيها الحقود أنه يتكلم في حق المحقود عليه بما لا يحل كالغيبة والنميمة والكذب والافتراءات وغيرها وبهذا يقع الحاقد فيما لا تحمد عقباه وكل هذه الأشياء من أمراض القلوب والله المعافي.

كيف أعالج نفسي من الغضب؟:

طهارة القلب من الأمراض المهمة في حياة المسلم، كيف لا والرسول ﷺ قال الطهور نصف الإيمان فبالإيمان والإحسان للآخرين وتصرف صديقين المؤمنين ندفع السيئة بالحسنة، قال تعالى:

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

{وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (فصلت).

فهذا هو عمل الصالحين ولكن إذا منعت الإحسان عن الناس فلابد ألا تسيء إلى أحد منهم على الأقل.

ولا تُشغِل قلبك بالأحقاد والوساوس فتلهيك عن ذكر الله.

وفوض الأمر لله تعالى وسَلْهُ العون والثبات والأجر في الآخرة على صبرك الجميل.

٥ – البخل وحب المال:

البخل: هو منع الواجب؛ أي الامتناع عن إنفاق المال فيما يجب.

والبخيل عندما يضع يده في جيبه لينفق في أي وجه من وجوه الخير ساءته عطيته وهذا البخيل يتضرر ويظن أنه سيموت جوعاً إذا أنفق، قال تعالى:

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}(البقرة).

ولابد لإخواني أن يعلموا أن المال كالحية لا تؤذي الصائد الماهر والمتخصص ولا تضره.. بل يستطيع أن يستخرج منها الترياق.. أما من لا يعرف كيف يتعامل معها لسعته فمات بسمها وكذلك المال لـه وجهان وجه في الخير ووجه في الشر فيه النفع والضر.

واعلم أخي وحبيبي أن الناس في حب المال صنفان.

الأول: صنف يحب المال باعتباره وسيلة.

والثاني: صنف يحب المال باعتباره غاية.

أما الصنف الأول: فاتَّخَذه وسيلة للملذات والشهوات مع ترك الواجبات مع ظنه أنه لن يموت أبداً فيكنزه، وإذا علم يقيناً أنه سيموت لا يبخل بالإنفاق أبداً أو أنه يقول: حتى

أومن أولادي فلا ينفق فيعتقد بظنه الخاطئ أنه بذلك أمَّن مستقبلهم، وكذلك عندما يكنز المال ويعدده يظن أنه في مأمن فيثق بما في يده أكثر من ثقته بما في يد الله لـه وهذا الصنف كثرة وحدث ولا حرج، والله المستعان.

أما الصنف الثاني: الذي اتخذ المال غاية يُجَّمِّع ويَكنِز ويعد ويحصي فيحرص على المال ويسعد بجمعه حتى أنه قد يبخل على نفسه فلا ينفق في ضرورياته كالغذاء والدواء، قال تعالى:**{الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}** (الهمزة).

فهذا الصنف مكروه من الناس وخصوصا من أقرب الناس إليه الذين ينتظرون موته العاجل حتى يرثوه وذلك بسبب بخله وشحه فهو عدو لنفسه وجاهل بأمره فكيف يجمع مالاً ويعدده ويحرم نفسه ليستفيد غيره مما حَرَّم على نفسه في حياته وهم كُثُر وهذا الصنف أشد خطراً من الأول، والله المستعان.

الناس طرائق في إنفاق المال:

أما الناس في هذا المرض الفتَّاك الذي يفتك بالقلب لهم طرق شتى في إنفاق المال:

الصنف الأول: يبذر وينفقه في غير موضعه قال تعالى عنهم:**{إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}**(الإسراء).

الصنف الثاني: صنف بخيل (ميت على الدنيا كما يقولون) قال الله تعالى فيهم:**{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}** (النساء).

فحد الاعتدال والوسطية جميل في كل شيء وخصوصاً في النفقات أنه على المسلم أن تكون نفقته عدل قال تعالى:**{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}**(الإسراء).

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}(الفرقان).

واعلم أن الرسول ﷺ حذر ونهى عن البخل فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق**» [1].

فالبخل يقدح في الإيمان فعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مهلكات شح مطاع وهوىً متبع وإعجاب المرء بنفسه...**» [2].

وعن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**... واتقوا الشح فإنه أهلَكَ من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» [3].

سبحان الله انظرا أخي وأختي في الله إلى عاقبة البخل وحب المال فهما من المهلكات في هذه الأمة اليوم، التي أحبت الدنيا وعملت وجمعت لها وكرهت لقاء الله إلا من رَحِمَ ربي منهم فهذا هو الهلاك بعينه استخدمتهم الدنيا فانتقلوا من عز الإسلام إلى الذل والهوان ولتعلموا أن المؤمن كريم النفس، قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة وبعيد عن النار، والبخيل خبيث النفس، بعيد عن الله، عن الناس، عن الجنة وقريب جداً من النار؛ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

كيف أعالج نفسي من مرض البخل؟

علينا دائما بدعاء النبي ﷺ سائلين الله أن يعافينا من هذا المرض القلبي العضال: «**اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا يعني فتنة الدجال وأعوذ بك من عذاب القبر**» [4].

وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى:**{وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}** (محمد).

---

(١) رواه الترمذي وضعَّفه الألباني.

(٢) رواه البزار والبيهقي في الشعب.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري من حديث سعد.

ومن المهم لعلاج هذا المرض القلبي العضال أن يتذكر البخيل أنه سيموت والموت نهاية حتمية لكل حي ونحن لا نضمن أعمارنا فقد تنتهي فجأة وبدون أي إنذار، والحياة مجرد أنفاس معدودة في أماكن محدودة فاللهم اختم لنا بخاتمة الحسنى آمين.

قال الله تعالى:**{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ}**(المنافقون).

وكذلك إذا كنا نظن أن في جمع المال تأمين لحياة أولادنا بعد الموت فعلينا بالتأمين الرباني بنص القرآن حتى نضمن لأولادنا حياة سعيدة قال تعالى:

{وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}(النساء).

واعلم أنه: **«ما نقص مال من صدقة»** (١).

وقال تعالى:**{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}**(سبأ).

ولنعلم جميعا أنه إذا كنا نحب المال لعدم الثقة بما سوف يأتينا في المستقبل فعلينا أن نتذكر أننا ولدنا عراة فكسانا الله وضعفاء فقوانا الله وجوعى فأطعمنا الله وسقانا وإذا كنا نحب المال من أجل المال كما فعل بعض الإخوان في بلاد الغربة، فقد جمعوا وعددوا المال وسجدوا للدولارات من دون الله وما حضروا صلاة الجماعة فضاعوا وأضاعوا أولادهم فهؤلاء مهما جمعوا فلن يشبعوا فليعودوا وليتوبوا إلى ربهم، وكفى ثم كفى ثم كفى.

ولنعلم جميعا أن ما عند الله خير لنا من ذلك وذاك قال تعالى:**{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}**(يونس).

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وفـي حـديث بـن عبـاس وأنـس رضـى الله عنـه قـالا: قـال ﷺ : **«لو كـان لابـن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»**[1].

فالتوبـة يـا إخـواني والعـودة إلـى مـا عنـد الله فالـدنيا سـاعات معـدودة وظـل زائـل ولنتذكر أننا سنموت وسنرجع إلى التراب ونتذكر هذا اليوم الذي سنقف فيه أمام الله:**{يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**.

٦ – الكبـر:

أشد وأخطر أمراض القلب:

معناه أن تشعر أن منزلتك أعلى من غيـرك وأنـك فوق النـاس بظنـك الخـاطيء أنـك أفضل منهم ومتميزاً عنهم وتعتقد ذلك بقلبك وتستريح لـه نفسك فتظهر آثار هذا المرض على الجوارح فتختال وتصعر خدك للنـاس وتتطـاول عليهم بلسـانك إمـا لكثـرة علمك أو نسبك أو عبادتك أو لمالِك... إلخ.

والمتكبر مهدد بسوء نهايته ومصيره قال تعالى:**{فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}**(الزمر).

وقـال تعـالى:**{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}** (الأعراف).

ولنعلم أن للكبر درجات تتفاوت حسب تَمَكُّن هذا المرض من القلب.

١ - يكون الكبر في الإنسان ولا يدريه إلا الله: بحيث لا يظهر علـى الجـوارح لعـوام الناس قال تعالى:**{إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}** (غافر).

---

(١) متفق عليه.

وقال صلى ﷺ : **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»**[1].

٢ - الكبر يظهر على جوارح الإنسان فيراه الناس ويشعروا بتكبره يختال ويمشي في الأرض مرحاً قال تعالى:

{وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (لقمان).

وقال أيضاً:**{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً}** (الإسراء).

واعلم رحمك الله أن الكبر تتعدد صوره وأشكاله فمثلاً:

١ – المتكبر على الله خالقه: وهذا النوع من أفحش أنواع الكبر وقد قص القرآن علينا أخبار هؤلاء الطغاة الذين تكبروا على خالقهم كفرعون وهامان وقارون والنمروذ وما شابههم وهذا الصنف من الناس يستنكف أن يكون عبداً لله قال الله تعالى عن فرعون:**{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}**(القصص).

وقال أيضاً:**{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}** (النازعات).

فظن المعتوه أنه الإله وأنه المستحق للعبادة من دون الله والله المعافي.

و النمروذ قال الله تعالى عنه:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ}**(البقرة).

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود.

٢ – التكبر على الرسل: والأمثلة كثيرة في القرآن تتكلم عن المرضى بهذا الداء قال تعالى:**{وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}**(الزخرف).

وقال عنهم:**{إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ}**(يس).

فهؤلاء وأمثالهم لم يستكبروا على الله ولم ينكروا وجوده بل استكبروا على رسل الله فأصمهم الله وأعمى أبصارهم فما كانوا من المهتدين وهم في الحقيقة قسم يمتنع ويتكبر أن يستمع من البداية مثلا:

قال تعالى عنهم:**{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}**(فصلت).

وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام:**{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً}**(نوح).

٣ – الذين يستمعون القرآن ولكنهم لا يتبعونه استكبارا: قال تعالى:**{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً}** (النمل: ١٤).

وقال أيضاً عز من قائل:**{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**(البقرة).

فالمتكبر بغيض لا يحبه الله وعقاباً لهذا الصنف قال الله سبحانه وتعالى:**{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ}**(الأعراف).

فكان العقاب أنهم ممكن يقرأون آيات الله ولكن لا يفهمونها ولا يعملون بها فصرف الله قلوبهم عنها بسبب تكبرهم.

٤ – من يتكبر على الناس: فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ : **«بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»** [١].

---

(١) رواه مسلم.

لقد حرموا أخلاق المؤمنين كالتواضع والعفو وبسط الوجه وكظم الغيظ وعدم الغضب إلا لحرمات الله واعتلت الأمراض قلوبهم.

ومن تكبرهم وعَبَطهم يريدون أن ينازعوا الله حقه ويشاركوه سلطانه.

ففي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني فيهما قصمته**» [1].

٥ – المتكبر بعلمه: فهذا الصنف ممن عَلم قشور العلم يُعَّنِّف الناس إذا تحدث معهم ظانّاً انه أفضل منهم وهو دونهم فنقول لهذا الصنف من المسلمين هذب نفسك وزكي قلبك قبل أن تحفظ العلم فهذا العلم نزل من السماء صافياً على القلوب؛ فتحويه القلوب وتفهمه على قدر نقائها وسلامتها أو مرضها وخبثها فيزداد الحلو حلاوة ويزاد المر مرارة كالأرض الطيبة والأرض الخبيثة عندما ينزل عليها المطر.

ومثال ذلك قول الله تعالى:**{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}** (التوبة).

والنبي ﷺ صاحب الخلق العظيم أوصاه الله تعالى بالتواضع للمؤمنين فقال:**{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}** (الحجر).

وقال تعالى:**{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ}** (آل عمران: ١٥٩).

فعلى العلماء وطلاب العلم أن يتواضعوا للناس ولا يجعلون فجوة بينهم وبين المتعلمين وليعلموا جميعاً أن المانح هو نفسه المانع فالله المانح لعلمهم قد يأخذه ويمنعهم عنه وعليهم ألا يغفلوا عن قوله تعالى للحبيب صلى الله**{وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً}** (الإسراء).

---

(١) صحيح الجامع (٤٢٨٧).

وليعلم كل من تكبر بعلمه أنه كمثل الحمار يحمل أسفارا أو كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

٦ – التكبر بكثرة العبادة والعمل الصالح: وهذا الصنف من المسلمين ينظر إلى نفسه وعمله ويظن أن أحداً لم يعمل سواه أو مثله فيصاب بالكبر فيحبط الله عمله فليعلم أن الله هو مانح الهداية والوقت والصحة لأداء هذه الصالحات من الأعمال ولو شاء الله لشتت قلبه وأكثر عليه همه أو لأصابه بالأمراض والأسقام فينظر إلى الناس وما اقترفوه من ذنوب ويعتبرهم هلكى وهو العبد الناجي الوحيد وقد قال صلى الله: **«إذا سمعتم الرجل يقول هَلَك الناس فهو أهلكهم أو فهو أول الهالكين»** [١].

فلا تسخر من أخيك فيعافيه الله ويبتليك ولا تستطل بالعبادة على خلق الله وكذلك فلنقرأ ولنتفكر في قوله ﷺ : **«لن يدخِل أحدكم الجنة عمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»** قالوا ففيم العمل يا رسول الله**!**؟ قال: **«تدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمونها بأعمالكم»** [٢].

فلا نجاة إلا برحمة الله عز وجل ولكي ننال هذه الرحمة لابد أن نكثر من العمل الصالح وأن نرحم عباد الله ونتواضع لهم فالعبرة بالخواتيم ونسأل الله أن يحسن خاتمتنا أجمعين.. اللهم آمين.

٧ – الكبر بالحسب والنسب: فمهما علا شأن الإنسان لابد أن يفكر مم خلق؟ خلق من نطفة مَذره وآخرة إلى جيفة قذرة وهو يحمل بين جانبيه العَذَره.

وقد ورد أن رجلاً افتخر على آخر عند موسى عليه السلام فقال أنا ابن فلان ابن فلان حتى عد تسعة من آبائه فأوحى الله إلى موسى قل للذي افتخر بآبائه إن التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) متفق عليه لأبي هريرة واللفظ لمسلم.

وإذا كان الإنسان جاهلا وخسيساً وكذاباً ومنافق وقلبه مريض فكيف يرفع ذكره النسب أو الحسب وقد قال أحد الشيوخ لرجل افتخر بأصله أنا أعلم بأصلك وفصلك.. أما أصلك فَيُداس بالأقدام.. وأما فصلك فتغسل منه الأبدان.

فنجد الآن بعض أثرياء المسلمين في الدول العربية وفي غيرها لا يزوجون بناتهم وأبناءهم مثلاً إلا لمن يعادلهم في الثراء والغنى وإذا ذَكَّرته بكلام النبي ﷺ باختيار صاحب أو صاحبة الدين قال: هذا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا وإنا على آثارهم مقتدون فنسأل الله أن ينهض المسلمون من غفلتهم وانشغالهم بأمور الجاهلية الأولى وكنت أقصد أن أقول الثانية والأَوْلى أن يدعوها كما قال ﷺ : **«فإنها نتنه»** (المعنى القلبية والعصبية).

٨ – التكبر بالجمال: وهذا المرض القلبي أغلبه في النساء دون الرجال وهذه هي طبيعة المرأه أن تتفاخر بجمالها أمام الأخريات وحُقَّ لها أن تعلم أنه ليس جمال الجميل بفعله فيُحمَد عليه ولا قبح القبيح بذنبه فيُلام عليه وإنما الخالق هو الذي صور وخلق في أحسن تقويم.

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}(آل عمران ٦).

وسبحان الله قد يمرض الجميل أو يموت أو يحترق وجهه ويشوه فأمراض العصر خطيرة وفتاكة فالتقوى والخوف من الله خير حفيظ.

{وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} وإن لم تسقم من الأمراض فسيأتيها العجز ويذهب الجمال ثم تعود إلى التراب مرة أخرى.

٩ – التكبر بالمال: الذي هو صفة عارضة يأتي ويذهب ويزول في لحظة والقرآن أعطانا أمثلة كثيرة منها قصة قارون في سورة القصص وصاحب الجنتين في الكهف وكذلك أصحاب الجنة في سورة القلم فبدل أن يشكروا نعمة الله عليهم قابلوها بالكفر والتكبر.

قال تعالى:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ}** (إبراهيم).

وقوله عن قارون:**{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ}** (القصص).

وقوله عن صاحب الجنتين:**{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً}** (الكهف).

أما أصحاب الجنة:**{فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ}** (القلم).

١٠ – الكبر بالبطش والظلم والقوة: وهذا نجده في هذه الأيام بين الأقطار والبلدان فنجد الموت الجماعي للأبرياء بدون ذنب ولا سبب وكذلك الفساد في الأرض بسبب هذا الجبروت ولكن دائما علينا أن نتذكر كمؤمنين أن الله هو أعلى وأكبر فسرعان ما تنتهي هذا الدول بظلمهم فردا وجماعات... والله المستعان على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

قال تعالى:**{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** (الفجر).

كيف أعالج نفسي من مرض الكبر؟

- بأمر واحد هو أن الإسلام لابد أن يعرف نفسه فإذا عرف انه مخلوق ضعيف لا يملك من أمر نفسه شيئا وعلم أن لـه ربا لا يليق الكبر إلا به فهنا يبدأ يفكر في الآخرة كيف نشأ وكيف سينتهي نشأ من تراب وسيعود إلى التراب والنهاية سيقف أمام الله للحساب والجزاء والدليل على ذلك كلام الرحمن عز وجل:

{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً} (الإنسان).

{قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ} (عبس).

فالإنسان الضعيف الذي يعتمد في وجوده على أشياء بدونها قد يأتيه الهلاك مثلاً إنه يحتاج إلى الطعام والشراب والهواء والدواء والنوم وهو في هذا الاحتياج الكبير معرض للأمراض والأسقام والأوجاع فهو مخلوق ضعيف.

قال تعالى:**{يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً}** (النساء).

فلذلك طالما أنه ضعيف فهو محتاج إلى الله سبحانه وتعالى فلماذا يتكبر؟ ألا يخاف أن يسلب الله سمعه وبصره ويختم على قلبه فلا يرى ولا يسمع ولا يفقه فلماذا التكبر إذاً!؟

- فعلينا إخواني أن نزكي أنفسنا وأن نحاسب أنفسنا على ما قدمت من صغير أو كبير فالكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وعلينا أن نتذكر دائماً أن المرء بأصغريه بقلبه ولسانه فاللهم اغفر ذنوبنا واستر عيوبنا وزكِ أنفسنا وطهر قلوبنا ونَوِّر قبورنا واجعلنا هادين مهتدين لا ضالين ولا مُضلين برحمتك يا أرحم الراحمين.. آمين.

* * * * *

المبحث السابع:

بعض أعمال القلب وأهميتها في الإيمان

والقلوب ليست دائماً على حال واحد، إنما القلوب كالدواب كما قال بعض السلف رضي الله تعالى عنه، وهم يمثلون بالدواب لأنهم كانوا يعيشونها يومياً، أحياناً يركب الإنسان على هذه البغلة فتمشي وتهرول وتهملج، وأحياناً تستعصي وتقف فيضربها ويحركها، فلا تمشي بسبب ما من الأسباب، والقلوب كذلك، في يوم من الأيام، ولحظةٍ من اللحظات، وساعةٍ من الساعات تجد نفسك تقرأ القرآن بانشراح وانفتاحٍ وطمأنينة، وتجد نفسك منشرحةً لعبادة من العبادات، أو لطاعة من الطاعات، أو لذكر من الأذكار، أو لعمل من أعمال الخير، مهما استكثرت منه؛ فالنفس منشرحة تقول: يا ليتني أستمر على هذا العمل! ويا ليتني لا انقطع عن حلاوته!.

ولما كان إيمان القلب من الأهمية بمكان، كان لا بد أن يكون حظ الحديث عنه من الذكر الحكيم الذي أنزله الله لإصلاح حياة العالمين وتزكيتها هو الحظ الأوفر، وهكذا جاء في القرآن آيات كثيرة تبين أعمال القلب وأهميتها في الإيمان - أصلاً وجوباً أو كمالاً - ولو ذهبنا في جمعها واستقصائها لطال المقام جداً.

وحسبنا أن نورد ما يتجلى به صحة مذهب أهل السنة والجماعة وشذوذ المرجئة المنكرين لدخول أعمال القلب في الإيمان - عدا التصديق القلبي - ويتضح أن مصدر القوم في التلقي لم يكن الكتاب والسنة، وإلا فكيف يضربون صفحاً عن هذه الآيات المحكمات ويعتمدون - أكثر ما يعتمدون - على آية واحدة ليست في مورد الإيمان الشرعي، بل حكاها الله تعالى عن قوم قالوها في التصديق الخبري المجرد وهو قوله تعالى على لسان إخوة يوسف:**{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا}**[1]!!.

---

(١) يوسف: ١٧.

وهذه بعض أعمال القلب مقرونة بما يدل عليها من الآيات، منها ما هو في حق المؤمنين ومنها ما هو في حق الكفار دالاً على أمور سوى التكذيب - الذي لم يقر المرجئة بغيره - ونظراً لكثرتها اكتفيت بما ورد فيها العمل مسنداً إلى القلب - أو الصدر - بالمنطوق الصريح:

١ - الوجل:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}**[١].

٢ - الإخبات:**{ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ له قُلُوبُهُمْ}**[٢].

٣ - السلامة من الشرك دقيقه وجليله:**{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**[٣].

وقال في إمام الموحدين:**{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**[٤].

٤ - الإنابة:**{مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}**[٥].

٥ - الطمأنينة:**{وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}**[٦]**{أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}**[٧] واشتراطها في المكره:**{إِلا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالأِيمَانِ}**[٨] فكيف بغيره.

٦ - التقوى:**{ذَلِكَ ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}**[٩]..**{أولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}**[١٠].

---

(١) الأنفال: ٢.
(٢) الحج: ٥٤.
(٣) الشعراء: ٨٨، ٨٩.
(٤) الصافات: ٨٤.
(٥) ق: ٣٣.
(٦) البقرة: ٢٦٠.
(٧) الرعد: ٢٨.
(٨) النحل: ١٠٦.
(٩)الحج: ٣٢.
(١٠) الحجرات: ٣.

٧ - الانشراح:**{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}**[١]..**{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}**[٢].

٨ - السكينة:**{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}**[٣].

٩ - اللين:**{ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}**[٤].

وقد أسنده للقلب والجوارح هنا.

١٠ - الخشوع:**{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}**[٥].

١١ - الطهارة:**{ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلُوبِهِنَّ}**[٦].

وهي في آية الحجاب، فدلت على التلازم بين عمل القلب وعمل الجوارح.

١٢ - الهداية:**{ومَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}**[٧].

وهي مما يدل على تلازم أعمال القلب.

١٣ - العقل:**{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}**[٨].

١٤ - التدبر:**{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}**[٩].

١٥ - الفقه:**{لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا}**[١٠].

١٦ - الإيمان:**{مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ولَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}**[١١].

---

(١) الأنعام: ١٢٥.
(٢) الزمر: ٢٢.
(٣) الفتح: ٤.
(٤) الزمر: ٢٣.
(٥) الحديد: ١٦.
(٦) الأحزاب: ٥٣.
(٧) التغابن: ١١.
(٨) الحج: ٤٦.
(٩) محمد: ٢٤.
(١٠) الأعراف: ١٧٩.
(١١) المائدة: ٤١.

وفي الإيمان الخاص:**{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}**(1) ولهذا كان فيهم الصنف الذي سماه الله:**{والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ}**(2).

١٧ - السلامة من الغل للمؤمنين:**{ولا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا}** (3).

١٨ - الرضا والتسليم:**{فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**(4).

ويلاحظ أن الإسناد فيها للنفس لا للقلب أو الصدر؛ لحكمة دقيقة هي أن النفس مكمن الهوى والاعتراض.

فوائد تتعلق بأعمال القلوب:

إحداهما: تتعلق بتلك الأعمال عامة.

والأخرى: تختص بموضوع المرض الأكبر الذي يعتري القلوب وهو مرض النفاق.

فالأولى: هي أن من تأمل ما سبق شرحه من أعمال القلوب المعدودة شروطاً للشهادتين - أعني الرضا واليقين والمحبة والصدق والإخلاص - كما وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطابق ذلك بأحوال المخلوقين وطرائق العابدين يجد أن كل شرط من هذه الشروط يخرج طائفة من طوائف الضلال بخصوصها عن الصراط المستقيم وإن كان قد يعم سائرها؛ إذ التلازم بينها لا يخفى وهذا يشمل أمم الكفر والشرك والطوائف الملحقة بها من هذه الأمة.

---

(١) الحجرات: ١٤.
(٢) التوبة: ٦٠.
(٣) الحشر: ١٠.
(٤) النساء: ٦٥.

* فالرضا: يخرج المستكبرين عن أمر الله وشرعه ودينه، إما بسبب الحسد والمنافسة، كحسد أبي جهل أن تكون النبوة في بني عبد مناف، وكحسد اليهود أن تكون النبوة في ذرية إسماعيل، وما حصل لعبد الله بن أبي بن سلول حين أضاع قدوم النبي ﷺ إلى المدينة أحلامه في الملك ونحو ذلك، وأصل ذلك كله حسد إبليس لآدم عليه السلام.

وإما بسبب التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد وما ورثوه من الشأن والأمجاد واستكبار النفوس أن تتركه لأجل أناس من البشر لا سلطان لهم ولا أبهة: **{إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * ويَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}**(1).

وإما الاعتداد بما هم عليه من الحضارة والرقي والعلم، الذي يحملهم على احتقار دين الله واستصغاره: **{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}**(2).

وغير ذلك من الأسباب المانعة من الانقياد والاستسلام والقبول، الذي عبرنا عنه بالرضا كما عبر الشارع.

ومن أعظم مظاهر ذلك في المنتسبين للإسلام اتباع المناهج الفلسفية - والتحاكم إلى القوانين الوضعية والتماس الهدى والعدل من غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله، ونحوها مما يعلن عن عدم الرضا بما أنزل الله والاكتفاء به.

* والمحبة: تخرج الكارهين لأمر الله وشرعه ودينه كله أو بعضه والمشركين في محبته المعظمين لغير الله وغير شرعه الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله واتخذوا من غير الإسلام مناهج يعظمونها كتعظيمه - كما كان الفلاسفة كابن سينا وابن رشد يعتقدون أنه ما طرق العالم ناموس أعظم من ناموس الإسلام، لكن ما عند الحكماء والفلاسفة القدماء من الناموس فيه خير عظيم وهدى مبين وأن رسول الله ﷺ من أعظم الحكماء والمصلحين كأرسطو وأفلاطون وكما قال طاغوت التتار زمن شَيْخ الإِسْلامِ

---

(1) الصافات: ٣٥، ٣٦.

(2) غافر: ٨٣.

ابن تيمية: رجلان عظيمان محمد وجنكيزخان!!

وكما يعتقد كثير من المعاصرين ويرددونه - المنتسبين للإسلام وغيرهم - من أن الإسلام من أعظم العوامل في بناء الحضارة الإنسانية في القرون الوسطى وما يزال فيه كثير من الإيجابيات التي يمكن أن تسهم في الحضارة المعاصرة، أو أنه ميزة ما يسمونه العالم الثالث، الذي يمكن أن يصل بشعوبه إلى ما وصل إليه المعسكران الكبيران والالتحاق بركب الحضارة والتقدم.

والمتحذلقون منهم يقولون: إن ما في الإسلام من نظم ومبادئ تغني المسلمين عن الاقتباس من الشرق أو الغرب، لكن لا يغضون من قيمة ما عند الشرق والغرب من النظم والمبادئ ولا يرونهم في حاجة إلى الإسلام.

وأمثال ذلك كثير وخصوصاً على أفواه رجال الضرار ومنابره، ومن المظاهر العادية للتسوية في التعظيم - إن لم يكن تعظيم الكفر أعظم - أن هؤلاء الناس يتحرجون من تسمية الأمم المتحضرة كفاراً، وبل ربما نفروا ممن يطلق عليهم ذلك - حتى لقد قام بعض كتاب المدرسة العصرية بالسخرية العلنية ممن يزعمون أن المسلمين وحدهم سيدخلون الجنة وأن أديسون، وباستور وفلان وفلان من رواد الحضارة والعلم سيدخلون النار!!

* واليقين: يخرج الفلاسفة والملاحدة والمتعمقين في الكلام وأصحاب النظريات عن الكون ونشأته والإنسان ومهمته ومن يلحق بهم من علماء ما يسمى علم الاجتماع أو علم النفس السائرة على غير هدى الله، فهؤلاء لا يصلون إلى اليقين ولا يستقر لهم قدم بحال في كل ما يبحثون فيه مما ليس داخلاً في نطاق العقل البشري، وحسبك أن الله تعالى قال فيهم:**{مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً}**[1].

---

(١) الكهف: ٥١.

ولولا خشية التطويل لذهبنا في سرد اعترافاتٍ من اعترافات هؤلاء بالعجز والجهل والشك والحيرة، سواء الكفار منهم أو المشتغلون بذلك من المسلمين؛ كالرازي والجويني والشهرستاني.

ويلحق بهؤلاء جهال الأرض وهم أكثر العالم الذين لا دين لديهم ولا هدى.

* والصدق: يخرج الكاذبين في دعوى الإيمان؛ وهم المنافقون وهم كثير في هذه الأمة ومرضهم وبيل، ولذا سنخصه بالحديث في الفقرة التالية.

* والإخلاص: يخرج المشركين العرب وأهل الكتاب وكل من يزعم أن دينه خير الأديان وهو لا يخلص التوحيد لله تعالى - إلا في حال الشدة والكرب - ويلحق بهم من المنتسبين للإسلام كل من تعلق بالأموات من الأنبياء والصالحين ودعاهم ورجاهم ونذر لهم معتقداً أنهم يقربونه إلى الله زلفى - كما كان المشركون يعتقدون في آلهتهم ومن يعتقد من الشيعة والصوفية أن أئمتهم وأولياءهم يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب ويسبغ عليهم ما هو من خصائص الألوهية.

كما يخرج به المشركون في الطاعة والاتباع، الخارجون على مقتضى قوله تعالى:**{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُو وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}**[1] من المتبعين للمناهج البشرية والقوانين الوضعية، فكل هؤلاء لم يخلصوا لله ولم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله.

كما يلحق بهم - من وجه - المشركون في الإرادة كأصحاب الأهواء والحظوظ العاجلة وهو الشرك الخفي الذي قل من ينجو منه.

فلا عجب إذن أن يكثر الحديث في الكتاب والسنة عن هذه الأعمال، منبهاً أصحاب الصراط المستقيم على أهميتها ومبيناً هلاك من ضل فيها أو أعرض عنها، ولا عجب أن يكون من أعظم عوامل انتشار الإرجاء بل عوامل تقهقر الأمة وانحطاطها وإخفاق الدعوات الإسلامية وفشلها، إهمالها في تحقيق هذه الأعمال وتفريطها فيها.

---

(١) الأنعام: ١٠٦.

الفائدة الأخرى: وهي تنبيه ضروري يتعلق بأعظم مرض من أمراض القلوب وهو النفاق، فكما أخطأ كثير من الناس في مفهوم الكفر ومعناه وحصروه في صورة واحدة هي إنكار وجود الله، أو إنكار أنه الخالق الرازق المدبر ونحو ذلك - أخطأ كثير من الناس أيضاً - في مفهوم النفاق الأكبر وحصروه في صورة واحدة كذلك؛ هي أن يظهر الإسلام وهو يبطن اعتقاد كذب الرسول ﷺ في كل ما جاء به وعدم الإيمان بدين الإسلام كله وعدم الرضا بشيء منه.

وهذه - وإن كانت أجلى صورة وأكبرها - ليست الصورة الوحيدة، بل النفاق الأكبر كالكفر الأكبر له صور كثيرة جداً، فكما أن الإنسان قد يكون مؤمناً ويخرج من الإسلام بكلمة أو فعل، فكذلك قد يكون منافقاً النفاق الأكبر بسبب قول أو فعل من أقوال القلب وأعماله مع اعتقاده بقية الدين وإظهاره للشرائع والشعائر.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في كتابه للمنافقين أحوالاً متفاوتة في النفاق الأكبر؛ فمنها الصورة الكاملة - كحال المذكورين أول البقرة:**{ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وبِالْيَوْمِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ والَّذِينَ آمَنُوا ومَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرُونَ}**(١).

أو أول المنافقون:**{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**(٢).

ومنها صور دون ذلك، كحال المذكورين في سورة القتال (محمد):**{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ}**(٣) أو حال المستهزئين بقراء الصحابة يوم تبوك، الذين أنزل الله فيهم:**{ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وآيَاتِهِ ورَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ**

---

(١) البقرة: ٨، ٩.

(٢) المنافقون: ١.

(٣) محمد: ٢٥، ٢٦.

عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً} [١].

فلا شك أن بين من يبطن الكفر بالله واليوم الآخر جملة واحدة - المتضمن تكذيب الرسول وبطلان القرآن - وبين من يقول للكفار سنطيعكم في بعض الأمر أو يستهزئ بشيء مما عظمه الله فرقاً وإن اتحد الحكم عليهما بالردة والكفر، فإن بعض الكفر أغلظ من بعض، كما قال الله تعالى:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}[٢].

وقال:{الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفَاقاً}[٣].

فجعل بعض الكفر والنفاق أشد من بعض.

والمقصود أن نعلم أن الرجل قد يكون في باطنه مؤمناً بالدين في الأصل والجملة ولكنه يكره شيئاً مما أنزل الله، أو لا يقر به في قلبه ولا يعتقد الالتزام به، فيكون حكمه حكم الكافر بالدين كله، وذلك كمن يكره بقلبه تحريم الربا ويرى ذلك مخالفاً للمصلحة وغير مستقيم مع العقل إذا كان الطرفان متراضيين عليه ونحو ذلك.

ومن يكره ما أنزل الله بشأن الحجاب وستر النساء عن الاختلاط بالرجال ويراه نوعاً من الظلم والامتهان للمرأة، أو يراه عائقاً عن التنمية مخالفاً لمصلحة المجتمع.

أو من يعتقد أن أحكام الجهاد ومقاتلة الكفار وسبي نسائهم وغنم أموالهم لا يليق بكرامة الإنسان وحريته ولا يتناسب مع المساواة الإنسانية.

ومن يكره أن يقول أو يعتقد أن هؤلاء الكفار العصريين، أو أصحاب الحضارات المنقرضة - ومنهم الحكماء والأدباء والمخترعون - يحاسبهم الله يوم القيامة ويعذبهم بالنار ولا يقبل منهم أي عمل أو إحسان.

ومن يعتقد أن من حق أتباع أي دين أن يدعوا إلى دينهم وأن ينشروه في كل مكان بتفاهم مع دعاة الإسلام ووئام بين جميع الأديان.

---

(١) التوبة: ٦٥، ٦٦.
(٢) التوبة: ٣٧.
(٣) التوبة: ٩٧.

ومن يكره ما أنزل الله بشأن معاملة الكفار وأحكام العلاقة بهم ويعتقد أن الأوفق والأصلح هو مداهنتهم ومجاملتهم - بمقتضى الاتفاقيات الدبلوماسية والأعراف الدولية التي ارتضاها العالم المتحضر والأمم المتحدة.

ومن يكره ما شرعه الله من أحكام أهل الذمة ويرى أنه آن الأوان لإلغاء الجزية وتحقيق الأخوة الوطنية.

ومن يكره ما جاء في القرآن والسنة من أخبار الأمم الكافرة وذمها وهلاكها بسبب معاصيها، أو يرى أن تاريخ الحضارات يجب أن يدرس وفق المنهج الذي يسير عليه المنهج الغربي تحليلاً واستنتاجاً.

وصور كثيرة مشابهة كلها تفصح عما في قلب صاحبها من نفاق أكبر، وإن كان لا يكره بقية الأحكام ومظهراً لشعائر الإسلام.

ضرورة الاهتمام بأعمال القلوب:

إنَّ علينا جميعاً - نحن طلبة العلم - أن نراجع أول ما نراجع موقف قلوبنا مع ربنا تبارك وتعالى، وحال هذه القلوب من التزكية والطهارة والتصفية والنقاوة، وأن نتعرف على أعمال القلوب، ونعلم مقدار ما لدينا منها، وماذا ينقصنا، وكيف فهمنا لها، ومعرفتنا وعلمنا بها، أهي كما يرضي الله عز وجل وكما كان السلف الصالح، أم هنالك شيء من الخلل فيها فيتدارك، فإذا صلحت هذه القلوب؛ فإن الحال يكون كما في الحديث الصحيح: **«ألا وإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»** [١].

إنَّ هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها، ولهذا يقول ﷺ : **«أنا دَعْوَةُ أبي إِبْرَاهِيمَ»** [٢].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة والدارمي وأحمد.

(٢) رواه أحمد.

ودعوة أبينا إبراهيم هي ما في قوله تعالى:**{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}**[١].

فإبراهيم عليه السلام دعا الله لما بنى هذا البيت العظيم "العتيق" أن يبعث في هذه الأمة هذا الرسول ﷺ وبهذه الأهداف والأغراض، وقد استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى:**{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [٢].

فنلاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة المدعو بها اختلف ترتيبها، فتقدمت التزكية على التعليم، ولاشك أن الإنسان لا يمكن أن يتزكى إلا بأن يتعلم الكتاب والسنة، فيتعلم الهدى الذي جاء به النبي ﷺ؛ لكن عندما تتقدم التزكية فهي من باب تقديم الغرض والغاية على الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية.

فالأصل هي: تزكية هذه القلوب التي هي موضع نظر الله من العبد كما في الحديث: **«إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»** [٣]، وهذه القلوب هي محل الابتلاء والتمحيص ومحل الأعمال التي لو استعرضناها؛ لعجبتم ولعلمتم أن لهذه القلوب شأناً عظيماً عند الله تبارك وتعالى، كيف لا والقلب هو الذي إذا كان حياً فإن الجسد يحيا معه، وإذا مات مات الجسد[٤].

* * * * *

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) رواه مسلم.

(٤) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

المبحث الثامن:

وقائع تبين أهمية القلب في أعمال العبد

يجب على المؤمن الذي يريد تنقية قلبه، ويحرص على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينتبه إلى هذه الحقيقة، والأدلة عليها كثيرة جداً، مما ثبت وصح في الوحي، وكثيرة من واقع الناس، وهو المشاهد من أحوال الناس الذين كانوا على ذنوب وفجور ثم تابوا واستقاموا، والذين كانوا على طاعة وخير وعلى طلب علم ودعوة ثم انحرفوا وحاروا، نسأل الله العفو والعافية.

١ – الرجل الذي أوصى عند موته بأن يحرق:

كمثل حديث الرجل الذي أوصى بنيه عند موته، وقد رأى نفسه مسرفاً في المعاصي، فخاف من الله تعالى أن يلقاه بهذه الحال، فأوصى أن يحرقوه ويسحقوه، ويذروه في الريح، مع أن هذا الرجل ارتكب ذنباً أكبر ووقع في إثم عظيم، ولكن بسبب هذا الاستعظام والخوف والحياء غفر الله ذنوبه المتأخرة والمتقدمة، وهذا الذنب العظيم والخطأ الجليل هو ظنه أن الله لا يقدر عليه إذا هو مات.

يقول: (إذا أنا مت فاجمعوا الحطب واحرقوني، ثم ذروني في الهواء، وضعوا نصفي في البحر، والنصف الآخر في البر، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، ثم جاءه السؤال من رب العالمين: لم فعلت ذلك؟ - ولم يكن السؤال عن الموبقات ولا عن الذنوب الأولى، إنما كان عن هذا الخطأ الكبير - فقال: خوفك يا رب، أو خشيتك يا رب، فغفر الله تبارك وتعالى له).

إذاً، إذا اقترن بالذنوب والمعاصي خوف وتعظيم، وهيبة لله تبارك وتعالى، فإن هذه الذنوب: إما أن تمحى أو تكفر، أو تكون - كما قال الشيخ وهي كبائر -

صغائر، أو كالصغائر، فتأخذ حكمها، كما قال الله تعالى:**{إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}**(١) تكفر لما اقترن بها من خوف وخشية وذلة، وهذا الدليل الأول.

٢ – توبة الرجل الذي قتل مائة نفس:

والدليل الآخر هو دليل الرجل قاتل المائة نفس، وقد كان قتل في أول الأمر تسعة وتسعين، فذهب إلى العابد فلم تعجبه فتواه فقتله.

وهذا الحديث - على كثرة ما فيه من الحكم والدلالات - يدل على فضل العالم على العابد، فقد قال هذا القاتل لذلك العابد: «**إني رجل قتلت تسعة وتسعين نفساً فهل لي من توبة؟ فاستعظم الراهب ذلك، فقال: لا أجد لك توبة**».

وهذا من قلة العلم والفطنة - كما ذكر العلماء - فإذا قلت له: لا أجد لك توبة؛ فكيف تأمنه على نفسك، وعلى غيرك من الناس؟! على أقل القليل كان من الحكمة أن تقول له ما تدفع به شره في هذه الحياة الدنيا.

«**فلما قال له ذلك أكمل به المائة، وبعد ذلك ذهب إلى العالم، فأخبره بأن له توبة، وأرشده أن يذهب إلى القرية الصالحة ليعبد الله تبارك وتعالى فيها، ثم كان من أمره: أن قبضه الله تعالى واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وهذا فيه دليل على أن الملائكة تجتهد في أمر الله تبارك وتعالى، كما نجتهد بني آدم، فأخذوا ينفذون أمر الله تعالى، فملائكة الرحمة تقول: رجل تائب مقبل على الله، كيف ندعه لكم؟ وملائكة العذاب تقول: وأي توبة حصلت لرجل قتل مائة نفس، فحكم الله بينهم وهو الحكيم العليم أن انظروا إلى أي القريتين أقرب فألحقوه بأهلها**».

---

(١) النساء: ٣١.

وجاء في بعض الروايات، من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**أنه أمر هذه أن تتباعد * وأمر هذه أن تتقارب * فقاسوا فوجدوه إلى أرض التوبة أقرب فغفر الله تبارك وتعالى له * وتولته ملائكة الرحمة**».

وعندما نستعرض موضوع التوبة - إن شاء الله - سنتعرض مسألة هل تقبل توبة القاتل أم لا؟

وهذا الرجل القاتل لما اقترن به الخوف من الله دفعه إلى أن يبحث عمن يرى له توبة، فقام بقلبه من ذلك الخوف والإنابة ما دفع تلك الكبيرة العظيمة.

٣ – ماعز والغامدية:

ومن الأدلة على ذلك قصة ماعز والغامدية رضي الله عنهما حيث إنهما أتيا إلى النبي ﷺ يريدان أن يطهرهما وغيرها كثير.

وقد أحببت بهذه المناسبة أن أدل على مرجع مفيد في هذا الباب، ومفيد في جوانب عدة، وهو كتاب التوابين للإمام ابن قدامة - رحمه الله - بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، مع العلم أن المحقق لم يعلق عليه في مواضع كان ينبغي أن يعلق عليه فيها، منها أن أغلب من يتوب كما في هذا الكتاب يترك الدنيا بالكلية، ويذهب في البراري والجبال أو في المساجد، ويترك كل شيء، وليس هذا من صفة التوبة الشرعية، ولكن في الكتاب فوائد، ودرر عظيمة جداً، ولا سيما الذين يتوبون من الطرب والغناء، ومن الفسق والفجور كحال العالَم اليوم والله المستعان!

ونقتصر على ذكر أو عرض بعض التوبات التي تتعلق بحال العاصي الذي من خلال معصيته اهتدى، وقد ذكر صاحب الكتاب قاتل المائة وتوبته.

٤ – الصحابي الجليل أبي خيثمة:

ومن التائبين الذين كانت ذنوبهم سبباً لتوبتهم الصحابي الجليل أبو خيثمة.

وقد نقل الإمام ابن قدامة توبته بالسند، وهو عالم مُحدِّث فقيه بارع كما هو معروف، ولذلك يورد القصص التي يوردها بالأسانيد إلى منتهى السند، سواء أكان إلى النبي ﷺ أم إلى أحد العلماء من المؤلفين، أو إلى كتب رواة الإسرائيليات، أو أخبار بني إسرائيل إن كان السند ينتهي إليهم.

وكان ابن قدامة رحمه الله تعالى من الأئمة المجاهدين مع صلاح الدين الأيوبي في معاركه، ومع ذلك كتب المغني الذي هو من أعظم وأنفع كتب الفقه المقارن، وغير ذلك من المؤلفات النافعة، فذكر بإسناده إلى ابن إسحاق صاحب السيرة.

يقول: تخلف أبو خيثمة أحد بني سالم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله.

والتخلف عن الغزو كبيرة، قال تعالى:**{مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ}**(١) فاستخدم أقوى أنواع التعبير في التحذير والنهي، فلا يصح، ولا يليق أن يتخلف أحد عن رسول الله ﷺ، ولا يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ، فيذهب رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على الله في الحر والرمضاء والحرب وهذا في الظل الظليل مع الأهل والبنين، وهذا هو الذي وقع فيه أبو خيثمة رضي الله عنه.

فعاد إلى امرأتين له في عريشين له في حائطه - أي: في مزرعته - وقد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماءً، وهيأت له طعاماً، فالزوجة، والعريش، والماء البارد والطعام، كلها في غاية المغريات المثبطات في زمانهم، فلما دخل قام على باب العريش ينظر، وهنا اشتعل حر الذنب، ثم قال: رسولُ الله ﷺ في الضحي والريح والحر - والضحي: حر الشمس وأبو خيثمة في ظل، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، ما هذا بالنَّصَف!، أي

(١) التوبة: ١٢٠.

ليس هذا من العدل والإنصاف، ولا يليق ذلك أبداً، ولا يحق أن يكون الرسول ﷺ كذلك، وأن يتخلف عنه أبو خيثمة ويرغب بنفسه عن نفسه، ويتمتع ورسول الله ﷺ في تلك الحال، قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ، فأدركه حين نزل تبوك، فلما رآه الرسول ﷺ راكباً من بعيد قال: **«كن أبا خيثمة»**، فذهبوا فإذا به هو، فقالوا يا رسول الله**!** هو أبو خيثمة فقال رسول الله ﷺ : **«أولى لك أبا خيثمة»**، ثم أخبره الخبر؛ فدعا له رسول الله ﷺ.

ولو أن أبا خيثمة خرج أول الأمر مع رسول الله ﷺ ما كان ليقع في قلبه من الإيمان والأثر والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والحرص على الجهاد، والرغبة فيه مثل ما وقع بعدما غلبه الضعف البشري، وتراخى وضعف، ثم ذهب الناس، وذهب هو وحده، وتصور راكباً يذهب وحده في هذه البراري، وهو مستشعر للذنب في شدة الحر، وكل أمله أن يلحق برسول الله ﷺ، كيف يكون همه وحاله وشعوره في هذه الحالة؟**!**

إذاً قام بقلبه من حقائق الإيمان، والتوبة والندم، والاستغفار، والحياء من الله تبارك وتعالى، ومحبة رسول الله ﷺ، ومحبة اللحاق به أمور عظيمة جداً، فكان في هذا الذنب، وهذا التأخر، والتخلف خير له، وفعلاً: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

٥ – قصة الصحابي الجليل أبي لبابة:

ومثال آخر: مثال أبي لبابة رضي الله عنه، وهذا حال المتقين دائماً، كما قال تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}**[١] وهذا ما حدث لأبي لبابة رضي الله عنه، فيقول عن نفسه: لما

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم حين اشتد عليهم الحصار، دعاني رسول الله ﷺ، فقال: اذهب إلى حلفائك، فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس.

وقد كانوا حلفاء لهم في الجاهلية، وقاتل الله اليهود في كل زمان ومكان، فاليهود هم اليهود، فلا يصدق أن منهم متطرفون ومعتدلون، فكلهم أخباث أنجاس فأرسلوا يريدون أبا لبابة لأنه حليفهم.

قال: فدخلت عليهم، وقد اشتد عليهم الحصار فهشوا إلي، ورحبوا بي، وقالوا: يا أبا لبابة! نحن مواليك دون الناس كلهم، فقام كعب بن أسد وقال: قد عرفت ما صنعنا في أمرك، وأمر قومك يوم الحدائق ويوم بعاث، وكل حرب كنتم فيها - يذكره بأيام الجاهلية - وعملنا معكم الجمائل والفعائل، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنا للحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نكثر عليه جمعاً أبداً، فما ترى؟ قال: نعم فانزلوا.

لأنه صحابي مؤمن لا يمكن أن يشير عليهم بغير ما قال رسول الله ﷺ، وهل يمكن أن يخالف حكم الله وحكم رسول الله ﷺ ؟!

أو يطلب منهم غير ما طلب رسول الله ﷺ ! لكن في آخر لحظة أخذته وقعة - وهو الضعف البشري الذي يقع فيه حتى الصحابة الأجلاء - فقال: انزلوا على حكمه، ثم أومأ بيده هكذا أي: حكمه فيكم الذبح.

وهنا علم أنه قد وقع في الذنب، وبدأ يؤنب نفسه على ما فعله مع أنه لم يره أحد من الصحابة، ورسول الله لا يعلم الغيب، فيقول رضي الله عنه: فندمت واسترجعت، فقال كعب: مالك يا أبا لبابة؟ فقلت: خنتُ الله ورسوله، فنزلت وإن لحيتي لمبتلة بالدموع من لحظتها، والناس ينتظرون رجوعي إليهم، حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً آخر، فما استطاع أن يواجه النبي ﷺ.

ثم عاد حتى أتى المسجد فأخذ رباطاً من الشعر القوي وربط ذراعيه ونفسه في سارية من سواري المسجد وأحكمه قال: وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعت، فقال: «**دعوه حتى يُحدث الله فيه ما يشاء**»؛ لأنه هو الذي ربط نفسه، أي: لو كان جاءني لاستغفرت له، فأما إذ لم يأتني وذهب،

فدعوه فإنه هو الذي جنى على نفسه فأنزل الله في شأنه:**{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً}**(١)، وهذه قيلت فيمن هو أعظم جرماً وذنباً من أبي لبابة وهم المنافقون الذين أعرضوا عن حكم الله.

قال الزهري: وارتبط أبو لبابة سبعاً في حر شديد لا يأكل ولا يشرب، وقال: لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ.

فلم يزل كذلك حتى لا يكاد يسمع صوتاً من الجهد، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشياً، ثم تاب الله عليه، فنودي: إن الله قد تاب عليه، وأرسل رسول الله ﷺ إليه ليطلق عنه رباطه، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ.

قال الزهري: وحدثتني هند بنت الحارث عن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ قالت: "رأيت رسول الله ﷺ يحل رباطه، وإن رسول الله ﷺ ليرفع صوته يكلمه ويخبره بتوبته، وما يدري كثيراً مما يقول له من الجهد والضعف وقد كان الرباط حز في ذراعه، وكان من شعر، وكان يداويه بعد ذلك دهراً لتلوثه ".

فهذا الذنب والخطأ اقترن به من الخوف والحياء والمهابة والتعظيم، ما جعل صاحبه يفعل ذلك الفعل، فكانت التوبة من الله تبارك وتعالى عليه، وكان ذلك خيراً له فيما نرجو له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مما لو لم يفعل شيئاً من ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) النساء: ٦٤.

٦ – أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان

وذكر توبة قريبة من هذه، وهي توبة أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وهذه لها قصة مشهورة في كتب الأدب، وإن كانوا يذكرونها في كتب الأدب على أنها طرفة،

أو ملحة من الملح أو النوادر؛ لكنها عند أهل الإيمان واليقين تدل على ما ذكره الشيخ - رحمه الله - راوياً بالسند.

قال: دخلت عزة صاحبة كثير عزة - نسبة إلى المرأة التي عشقها، وكان هذا الرجل باطنياً خبيثاً كان على عقيدة الباطنية، وهو ممن كانوا يعتقدون أن الإمام في جبل رضوى، وأنه في أعلى الجبل، وأن عنده نمور تحرسه، وأن عنده عسل وعنده ماء، وسيخرج في آخر الزمان، وكان هذا في القرن الأول.

الشاهد أن عزة دخلت على أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز وكانت تسمع من الشعراء، كأي امرأة مترفة ذات ملك وجاه ومال، فلما دخلت عزة سألتها أم البنين - لأنها تعرف خبرها مع كثير، كما يتناقل الناس الحكايات - فقالت لها أم البنين

- وهذا السؤال من فضول الكلام، وذلك كما دخل بعض الناس على أحد السلف فقال: إني أرى خشبة في سقف البيت تريد أن تسقط، فقال له: يا رجل! إن لي عشرين سنة في هذا البيت ما نظرت إلى السقف، وكانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام - فقالت لها: ما هذا الدين الذي يذكره، قالت: اعفيني. فقالت أم البنين: لا أعفيك حتى تخبريني؟ فقالت: كنت وعدته قبلة فأتاني يطلبها، فتحرجت عليه ولم أفِ له.

وعشاق العرب عندهم العشق على نوعين: نوع إباحي، ونوع عذري، أو الهوى العذري - بزعمهم - وهو فقط الحديث والمزح والكلام دون أي شيء آخر... وهكذا كان كثير وعزة، وطائفة من العشاق.

والنـوع الآخـر هـو: الإبـاحي، وهـو الـذي يـؤدي - والعيـاذ بـالله - إلـى ارتكـاب الفاحشـة، وهـؤلاء كـانوا مـن الموصـوفين بـالفجور، فهـذه المـرأة لـم تعطـه مـا وعدتـه لحيائهـا، أو لعروبتهـا، أو لقبيلتهـا رغـم أنـه يخلـو بهـا ويواعـدها، ويتحـدثان ويخبرها بما قال فيها من شعر، ثم يرجع كل منهما إلى مكانه، وقد قال بعضهم: كـان العشـق فيمـا مضـى أن الرجـل يلاقـي المـرأة فيحـدثها وتحدثـه، ويناشـدها وتناشـده، أمـا اليـوم فـلا يكـاد يخلـو بهـا حتـى يفعـل بهـا الفاحشـة، وكأنـه أشـهد علـى نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه وهذا الكلام قالوه في القرن الأول.

أقـول: حتـى المجـرمين فـي ذلـك الـزمن كـانوا أخـف جرمـاً مـن مجرمـي زماننـا، فـالمهم أن الشـيطان جـاء أم البنـين، فقالـت: "أنجزيهـا منـه وعلـي إثمهـا" فأوبقهـا الشـيطان، ثـم راجعـت نفسـها مـن وقتهـا واسـتغفرت الله، وأعتقـت لكلمتهـا هـذه أربعـين رقبـة، وكانـت إذا تـذكرت هـذه الكلمـة بكـت حتـى تبـل خمارهـا، وتقـول: "يـا ليتنـي خـرس لسـاني عنـدما تكلمـت بهـا" وتحولـت أم البنـين مـن تلـك التـي تسـتقبل الشـعراء، وتسـمع أخبـار العشـاق، إلـى امـرأة عابـدة مجتهـدة صـالحة فاضـلة، قـال: فرفضـت فـراش المملكـة، وقامـت تحيـي ليلهـا، وكانـت كـل جمعـة تحمـل علـى فـرس في سبيل الله، أي: تجهز فرساً يخرج في سبيل الله عز وجل.

وكانـت تبعـث إلـى نسـوة عابـدات يجـتمعن عنـدها، ويتحـدثن معهـا فتقـول أم البنين: "أحب حديثكن! فإذا قمت إلى صلاتي لهوت عنكن".

سـبحان الله! كيـف رسـخ الإيمـان فـي قلبهـا إلـى هـذا الحـد، وكانـت تقـول: "البخيل كل البخيل من بخل على نفسه بالجنة".

وكانـت تقـول: "جعـل لكـل إنسـان نهمـة فـي شـيء، وجعلـت نهمتـي فـي البـذل والإعطـاء، والله للعطيـة والصـلة والمواصـلة فـي الله؛ أحـب إلـي مـن الطعـام الطيـب على الجوع، والشراب البارد على الظمأ".

سبحان الله!! جعل الله نهمتها في العطاء والبذل والإحسان، وهذا خير عظيم فتح عليها، قالت: "وهل ينال الخير إلا بالاصطناع"، وكانت على مذهب جميل حتى توفيت رحمها الله.

فالشاهد أنها وقعت في ذنب، ولكن أعقب ذلك هذه التوبة، وهذه الاستقامة، وهذا الخير، وربما لم تكن لتنال ذلك الخير ولا تحصل عليه لو لم تقع في تلك الكلمة.

٧ – عبد الرحمن القارئ:

ومثال آخر: رجل من شيوخ القراء، كان اسمه عبد الرحمن، وكان يلقب بالقس أو القسيس، أو العابد، فكان عبد الرحمن القارئ عند أهل مكة من أفضلهم عبادة، وأظهرهم تبتلاً، فمر يوماً بسلامة - وهي جارية كانت لرجل من قريش، فسمع غناءها، فأطل مولاها وعبد الرحمن عند الباب، فقال له: هل لك أن تدخل فتسمع، فأبى عليه، فألح عليه الرجل، فلم يزل به حتى وافق ودخل، فقال: أقعدني في موضع لا أراها ولا تراني - وذلك خشية أن يفتتن بها - قال: فدخل، فتغنت فأعجبته، فقال مولاها: هل لك أن أحولها إليك، فأبى وامتنع، فلم يزل به أيضاً حتى وافق، فجاءت فجلست أمامه، فلم يزل يسمع غناءها حتى شُغف بها وشُغفت به، وعلم ذلك أهل مكة وانتشر الخبر بأن العابد الراهب تعلق بهذه المغنية، حتى إنها ذات مرة قالت: أنا والله أحبك! فقال: وأنا والله أحبك! قالت فما يمنعك من الوصال! فوالله إن الموضع لخال، فقال: إني سمعت الله تعالى يقول:**{الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ}**[1] وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول بنا إلى عداوة يوم القيامة، قالت: يا هذا! أتحسب أن ربي وربك لا يقبلنا إذا تبنا إليه، قال: بلى، يتوب علينا لو تبنا، ولكني لا آمن أن أفاجأ بالموت، ثم نهض وعيناه تذرفان، فلم يرجع بعد.

---

(١) الزخرف: ٦٧.

٨ – وهيب بن الورد:

ويذكر ابن قدامة - رحمه الله تعالى - مثالاً آخر، وهو قصير لكنه عظيم جداً، قال وهيب بن الورد أحد العباد المشهورين المعروفين، بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول: "يا رب! ذهبت اللذات، وبقيت التبعات" والتبعة هي المسئولية، فتبعات اللذات مكتوبة، والإنسان يلقى الله يوم القيامة وقد انقضت اللذات ولكن بقيت عليه التبعات، قالت: "يا رب ذهبت اللذات وبقيت التبعات، يا رب سبحانك وعزتك إنك أرحم الراحمين، يا رب مالك عقوبة إلا النار؟ ".

لأنها تذكرت أنه ليس بعد هذه الدار من دار إلا الجنة أو النار.

وكان معها امرأة أخرى صالحة تمشي معها قالت: "يا أُخية! دخلت بيت ربك اليوم؟ - تقصد الكعبة - قالت: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي، فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا".

سبحان الله العظيم! تذكرت أن هاتين القدمين مشتا إلى فجور وإلى معاصٍ، والآن جاءها الندم، فكان تذكرها لتلك المعاصي والذنوب، أعظم دافع لتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها أن تستقيم وأن تستشعر، وفي هذا الكتاب فوائد قيمة ولو علق عليه لاكتمل جماله. [١]

٩ – علاقة العلم بأعمال القلوب:

العمل الذي تبدأ به أعمال القلوب جميعاً هو العلم. ولذلك الإمام البخاري رحمه الله جعل ترجمة في صحيحه: " باب العلم قبل القول والعمل وقول الله - تبارك وتعالى -:**{فَاْعلَمْ أَنَّهُ لاْ إِلَه إِلاْ الله وَاْسْتَغْفِرْ لِذَنْبِك}**[٢] " فأول ما يطرق

---

(١) الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي من محاضرة: من أعمال القلوب (اليقين) .

(٢) محمد: ١٩.

قلب المؤمن من معرفة الرب تبارك وتعالى والإيمان به هو العلم، وهو أن يعلم أنه لا إله إلا الله، وهذه هي شهادة الحق التي فسر بها بعض السلف قول الله تبارك وتعالى:**{إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**(١) وهي: الصدق الذي فسر به بعض السلف أيضاً قول الله تبارك وتعالى:**{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ}**(٢) وهي أيضاً الكلمة الباقية التي يفسر بها قول الله تبارك وتعالى:**{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}**(٣).

العلم بأنه لا إله إلا الله، والعلم بأن الله تبارك وتعالى حق، وأن النار حق، وأن الجنة حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الرسل حق، وكل ما أخبر الله تبارك وتعالى به أو أخبر به رسوله ﷺ من أمر الغيب حق.

لكن هذا العلم أو هذه المعرفة بالله تبارك وتعالى، تخرج الإنسان إذا اعتقدها اعتقاداً جازماً عن الشك وعن الريب، كما قال الله تبارك وتعالى:**{الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}**(٤) فهذه تخرج الإنسان عن حد الريب والشك والظن ليصبح مؤمناً بالله تبارك وتعالى.

* * * * *

---

(١) الزخرف: ٨٦.

(٢) الزمر: ٣٣.

(٣) الزخرف: ٢٨.

(٤) البقرة: ١ - ٢.

الفصل الثالث:

تفصيـــل الكـــــلام

عن بعض أعمال القلوب

المبحث الأول:

الصـــدق والإخـــلاص

هذان عملان قلبيان من أعظم أعمال القلوب وأهم أصول الإيمان.

فأما الصدق فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق، وأما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك، في قول القلب واعتقاده، أو في إرادته ونيته.

والأعمال - التي رأسها وأعظمها شهادة أن لا إله إلا الله - لا تقبل إلا بتحقيق الصدق والإخلاص.

ومن هنا كانا شرطين من شروطها وأكذبَ الله المنافقين في دعوى الإيمان وقول الشهادة؛ لانتفاء الصدق، فقال:**{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ واللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}** (1).

وقال:**{ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}**(2).

ثم قال بعد آيات:**{ولَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}** (3).

وقال:**{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}**(4).

كما أبطل سبحانه زعم أهل الكتاب والمشركين أن دينهم هو الحق بانتفاء الإخلاص، فقال:**{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}**(5).

---

(1) المنافقون: ١.

(2) العنكبوت: ٣.

(3) العنكبوت: ١١.

(4) الأحزاب: ٢٤.

(5) البينة: ١.

إلى أن يقول:**{ومَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ وذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}** [١].

وقال:**{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ومَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً واحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[٢].

وكرر منافاة الشرك للإخلاص في مواضع كثيرة، منها ما في سورة الإخلاص الكبرى سورة الزمر:**{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً له الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}**[٣].

ثم قال:**{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً له الدِّينَ * وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً له دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ}**[٤].

ثم قال:**{قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * ولَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}**[٥].

فعلى محك الصدق والإخلاص بطلت أكثر دعاوى العابدين وهلك أكثر الثقلين، فالصدق يخرج كل من ادعى الإيمان - أو شيئاً من أعماله - وأظهره وهو يبطن خلافه والإخلاص يخرج كل من عبد مع الله غيره أو أراد غيره معه في عمل من أعمال العبادة كما في الحديث الصحيح: قال الله تبارك وتعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**.

---

(١) البينة: ٥.
(٢) التوبة: ٣١.
(٣) الزمر: ١ - ٣.
(٤) الزمر: ١١ - ١٥.
(٥) الزمر: ٦٤ - ٦٦.

ومن هنا كانت شهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة الصدق، وكلمة الإخلاص واقتران الصدق والإخلاص وحل كل منهما محل الآخر في الأحاديث، كأحاديث الشفاعة التي وردت بها روايات كثيرة، منها: **«أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصة من قبل نفسه»**.

وفي رواية: **«شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»**.

وفي رواية: **«رب من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله مصدقاً لسانه قلبه أدخله الجنة»**.

وفي رواية: **«ثم يشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً فيخرجونهم، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها، فما يترك فيها عبداً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا أخرجه منها»**.

وكحديث مالك بن الدخُشم الذي كان متهماً بالنفاق، فأخبر النبي ﷺ بما يخالف ذلك في روايات، منها: **«أَمَا شهد أن لا إله إلا الله بها مخلصاً؟ فإن الله حرم على النار من شهد بها»**.

وفي رواية البخاري: **«يبتغي بذلك وجه الله»** (١) مكان - مخلصاً - وفي رواية: **«والذي بعثني بالحق لئن قالها صادقاً من قلبه لا تأكله النار أبداً»** وهي تقيد الإطلاق الوارد في رواية مسلم: **«أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»** (٢).

والصدق والإخلاص - مع تقاربهما ومع ترادفهما أحياناً - يعرف التمييز بينهما بضد كل منهما؛ فالصدق ضده انتفاء إرادة الله بالعمل أصلاً كمن آمن أو صلّى كاذباً، لم يرد الإيمان والصلاة وإنما فعل ذلك لسبب آخر، كما فعله المنافقون حفظاً لأنفسهم وأموالهم من السيف وجبناً عن تحمل أعباء المواجهة الصريحة للإيمان.

---

(١) البخاري.
(٢) مسلم.

والإخلاص ضده انتفاء إفراد الله بالإرادة والتوجه، كمن آمن أو صلّى صارفاً ذلك لأحد من دون الله، وهذا هو الشرك الذي وقع فيه أكثر العالمين ومنهم أهل الكتاب والمشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ من الأنبياء أو غيرهم وعبدوهم زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى.

ومما يميز بينهما أن الصدق لا يختص بالاعتقاد، بل يكون في الأعمال أيضاً، بخلاف الإخلاص فإنه عمل قلبي محض، لكن تظهر آثاره على الجوارح، كما سبق فيما أوضحنا في العلاقة بين عمل القلب وعمل الجوارح، وهذا يشبه ما سبق من القول في اليقين والإحسان والله أعلم.

وعلى قدر تحقيق العبد لشعب الإيمان وأعماله يكون حظه من الصدق، حتى يصل إلى درجة الصديقين، يقول الله تعالى:**{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ولَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ والْكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}(١).

وقال:**{والَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}**(٢).

كما أن الإخلاص بالنسبة للأعمال كالروح للجسد، فالفرق بين عمل بإخلاص وعمل(٣) لا إخلاص فيه، كالفرق بين البشر السوي والتمثال الشاخص.

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) الحديد: ١٩.

(٣) البقرة: ١٧٧.

وعلى قدر ما يحقق العبد في الإخلاص لربه يكون ترقيه في (الْمُخْلَصِينَ)، الذين صرف الله عنهم غواية الشيطان وأثنى عليهم في كل أمة وبين نجاتهم حين هلاك أممهم.

قال تعالى حكاية عن إبليس: **{إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}**[1] وقال في سورة الصافات تعقيباً على إهلاك الأمم عامة: **{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}**[2] وعن قوم إلياس خاصة، قال فيها: **{فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}**[3].

وكرر ذلك في مواضع من هذه السورة وغيرها، كقوله عن يوسف لما عصمه من الفاحشة: **{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}**[4].

ولهذا كثر الحديث عن الصدق والإخلاص في كتاب الله، وجاء الحديث عن الصدق في السور التي تعرضت للنفاق وأهله؛ كسورة براءة والأحزاب والمنافقون والقتال (محمد) والحجرات والحشر.

وجاء الحديث عن الإخلاص في السور التي تحدثت عن الشرك والمشركين؛ كسورة الأعراف والزمر وغافر والبينة والكافرون، بل في سورة الأنعام وإن لم يذكر فيها صريحاً.

وارتباط عمل الجوارح بالصدق والإخلاص - كارتباطه بالرضا والمحبة واليقين - أمر محسوس ظاهر، يدل على ارتباط أجزاء الحقيقة الإيمانية الواحدة كما أسلفنا.

والإخلاص عمل عظيم، وبه يكون الفارق بين المؤمنين والمنافقين، لأنَّ المنافقين حتى وهم يشهدون شهادة الحق، فإنهم يشهدون وهم كاذبون، فإذا أردنا أن نفرق بين المؤمنين والمنافقين فالصدق والإخلاص هما أساس ذلك، وهما من أعظم أعمال القلوب إضافة إلى المحبة واليقين،

---

(١) ص: ٨٣.

(٢) الصافات: ٧٣، ٧٤.

(٣) الصافات: ١٢٧، ١٢٨.

(٤) يوسف: ٢٤.

قال تعالى:**{وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}**(١) نعم هكذا أمروا، فلو عبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير إخلاص، لما قبل منهم ولما نفعهم ذلك في شيء، لا سيما إذا فقد الإخلاص كله، أما إذا كان الإخلاص ناقصاً أي غير مفقود فشابته شوائب؛ فهذا له حكم أهل الوعيد والعصاة.

الإخلاص: هو أن تكون عاملاً بعمل البر أي عمل الخير ابتغاء مرضاة الله.

وأما الرياء: فهو أن تعمل عمل البر لمحمدة الناس أي من أجل أن يمدحك الناس عليه.

والرياء ذنبه عظيم، فمن أراد أن يكون له ثواب في صلاته أو في صيامه أو في حجّه أو في زكاته أو في جهاده أو في صدقاته أو في قراءته للقرآن أو في اعتكافه في المسجد أو في ذكر لله فليعمل هذه الأعمال طالباً للأجر والثواب من الله ولا يحب أن يمدح عند الناس.

ثم الذي يعمل أيُ عمل من أعمال الخير والبر من أجل أن يمدحه الناس فهذا الإنسان ليس له ثواب عند الله في هذا العمل وعليه ذنب من الكبائر.

والإنسان الذي يتصدق على الفقراء فلينوي لله رب العالمين وليخلص في هذا العمل أما إن فعل كما يفعل بعض الزعماء أو بعض الأغنياء يتصدقون ويوزعون حتى يقال عنه: أبو الفقراء، فلان معين الأرامل، فلان معين المساكين فإن تصدق لهذه النية فهذا ليس له ثواب ولو وزع جبالاً من ذهب بل ويخرج من العمل وعليه ذنب من الكبائر الذي هو ذنب الرياء.

والرسول حذرنا منه ولعظم ذنبه قال: "فإنه الشرك الأصغر" أي هو ذنب كبير ولخطورته شبهه بالشرك الأصغر، وليس معناه أن المرائي يكون مشرك خارج من الدين لا وإنما المرائي يكون عليه ذنب من الكبائر.

---

(١) البينة: ٥.

وسئل النبي ﷺ عن الإنسان الذي يقاتل يبتغي الأجر والذكر ما لـه؟ أي يبتغي الأجر من الله والذكر من الناس أن يقولوا عنه فلانٌ بطل مقدام في الحرب فسألوا الرسول ما لـه؟ قال: **«لا شيء له»** فاستعظم ذلك الناس فقالوا للرجل لعلك لم تفهم المسألة، أعد المسألة على النبي فرجع للرسول وسأله ثانية فقال: **«لا شي له»** لأن هذا العمل لم يكن خالصاً لوجه الله.

إذاً الإخلاص هو إكسير العمل أي روح العمل، فإن كان هذا العمل أي عمل من أعمال الخير كان فقد الإخلاص فهو بلا ثواب وفاعله عليه ذنب من الكبائر وعليه معصية كبيرة ويستحق العذاب في الآخرة، ثم النبي عليه الصلاة والسلام قال لهم: **«لا شيء له إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»**، وما هو هذا الإتقان؟ فسألوه عنه فقال: **«يخلصه من الرياء والبدعة»**، أما الذي يكون مرائياً في عمله فهذا يكون عليه وزر كبير ولم يكن لـه ثواب في هذا العمل.

وهنا يوجد ملاحظة أن بعض الناس المغفلين يظنون أن الذي يفعل عمل البر لأجل الثواب ولأجل محمدة الناس يولون أن لـه نصف الأجر هذا كلام يخالف الشريعة والدليل على ذلك حديث الرجل الذي يقاتل ويبتغي الأجر والذكر فقال الرسول: **«لا شيء لـه»**. لو كان لـه نصف الثواب لكان الرسول أعلم بذلك ولكن الرسول قال لـه ثلاث مرات: **«ا شيء له»**، لأنه كان مرائياً في هذا العمل.

والله تعالى أمرنا بالإخلاص وحذرنا من الرياء:**{فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}** معناه فليعمل عمل البر والخير والطاعة مبتغياً بذلك وجه الله لا يريد محمدة الناس لأن ما عند الناس يزول وما عند الله باق لا يزول ما عند الله خير وأبقى ولذلك كان حال السلف رضي الله عنهم هو: إذا أصلحت ما بينك وبين ربك فلا تبالي بالناس يعني إذا كنت أنت مرضيا عند الله ماذا يؤثر عليك غضب الناس لا شيء كالعدم، من أرضى الله في سخط الناس فقد رضي الله عنه.

يعني لو إنسان أرضى رب العالمين بطاعة الله وسخط الناس عليه لا يضره ذلك في

شيء، فأنت اعمل عمل البر والتقوى مبتغياً الأجر والثواب من الله عز وجل، لو كان معك تمرة وأردت أن تعطيها لطفل صغير أنوي لله تعالى وليس لأجل أبيه، رسول الله ﷺ كان إذا لقي اليتيم مسح له على رأسه ليدخل السرور على قلبه فيكسب الثواب من الله، يمسح على رأس اليتيم ليتقرب إلى الله ليس لأجل أم اليتيم بل يبتغي الثواب من الله.

ثم شؤم الرياء خطير، يعني بعض الناس بسبب هذه المعصية وصلوا إلى الكفر قبل الموت نعم المعاصي لها شؤم، المعاصي لها سواد يكون على القلب ثم الإنسان يخلص لله رب العالمين يرى أسرار العبادات والأنوار والبركات، من أخلص أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، لذلك بعض الأولياء والصالحين لمَّا يتكلمون بالموعظة تحس بأن الأنوار تخرج معهم وبأنها خرجت من الفم إلى قلبك فوراً، أما نحن نتكلم فيخرج من الفم إلى الأذن لماذا؟ حسب الحال، لو كان الشخص حاله صادقً وكان مخلصاً لله فإن هذه الموعظة تنفع وتسري موعظتها بعد ذلك أيضاً لأن الإنسان الذي يستفيد من الموعظة هو الذي تدخل من أذنه إلى قلبه ويجمع بين القلب والعقل وليس يدخل من هذه الأذن ويخرج من الأخرى.

فهنيئاً لمن أخلص لله في عمله، لذلك بعض الأولياء والعلماء من شدة حرصهم على الإخلاص الله تعالى رزقهم العلم اللدني وهذا العلم غير مكتسب لا يدرك في الكتب ولا في المدارس ولا في الجامعات ولا الجوامع، وإنما الله تعالى يعطيه لمن يشاء من عباده الصالحين.

١ – أهمية الإخلاص:

١- النجاة تكون بسببه في الآخرة.

٢- اجتماع القلب في الدنيا وزوال الهم لا يكون إلا به: **«من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر عليه»**.

٣- مصدر رزق عظيم للأجر وكسب الحسنات «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليه حتى ما تجعل في فم امرأتك**» [1].

٤- ينجي من العذاب العظيم يوم الدين فقد أخبرنا ﷺ عن أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة وهم متصدق أنفق ليقال جواد، وقارئ تعلم العلم وعلمه ليقال عالم، ومجاهد قاتل ليقال جريء..، وهذا الحديث حدث به أبو هريرة فكان يغشى عليه من هوله كلما أراد التحديث به، ويمسح وجهه بالماء حتى استطاع التحديث به. وفي مجال عدم الإخلاص في طلب العلم يقول ﷺ : «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لم يتعلمه إلا ليصيب به عرض من عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»، وقال: «**من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار**».

الإخلاص يريح الناس يوم يقول الله للمرائين اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء.

الإخلاص ينجي الإنسان من حرمان الأجر ونقصانه ولذلك فإن النبي ﷺ جاءه رجل غزى يلتمس الأجر والذكر فقال: «**لا شيء له** - ثلاثاً - **إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه**».

ابن مكرز رجل من أهل الشام قال: يارسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال ﷺ : «**لا أجر له**». فأعظم ذلك الناس فقالوا عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه فقال له: «**لا أجر له**».

قال ﷺ : «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

---

(١) رواه البخاري.

كذلك الإخلاص هو أساس أعمال القلوب، وأعمال الجوارح تبع ومكمل له، الإخلاص يعظم العمل الصغير حتى يصبح كالجبل، كما أن الرياء يحقر العمل الكبير حتى لا يزن عند الله هباء:**{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً}**.

قال ابن المبارك: (رب عمل صغير تكثره النية ورب عمل كبير تصغره النية).

الإخلاص مهم جداً لأن أغلب الناس يعيشون في صراعات داخلية ويعانون من أشياء فحرموا البركة والتوفيق إلا من رحمه الله، فكيف يكون النصر وتعلم العلم إلا من المخلصين، الإخلاص مهم في إنقاذنا من الوضع الذي نعيش فيه، فقد أصبح عزيزاً نادراً قليلاً، مشاريع ودعوات تلوثت بالرياء، حركات إسلامية دمرت بسبب افتقاد الإخلاص وبعد أن أريد بها الرئاسة والجاه والمال..

يقول ابن أبي جمرة وهو من كبار العلماء: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتى على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

ومن فوائد الإخلاص أنه يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات، قال أحد السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله. لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب للمهمات مطلوب شرعاً.

النية عند الفقهاء: تمييز العبادات عن العادات وتمييز العبادات عن بعضها البعض، إرادة وجه الله عزوجل.

الإخلاص ينقي القلب من الحقد والغل ويسبب قبول العمل لأن النبي ﷺ قال: **«إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»**.

الإخلاص سبب للمغفرة الكبيرة للذوب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه فيغفر فيه كبائر، وإلا فأهل الكبائر كلهم يقولون لا إله إلا الله. كالبغي التي سقت كلباً فقد حضر في قلبها من الإخلاص ما لا يعلمه إلا الله فغفر الله لها.

تنفيس الكروب لا يحدث إلا بالإخلاص، والدليل على ذلك حديث الثلاثة الذين حبستهم صخرة ففرج الله همّهم، وكان منهم الرجل الذي وفى عاملاً أجره ونماه وصبر على ذلك سنين، وقد كان يقول كل واحد منهم اللهم إنك إن كنت تعلم أننا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه.

وبالإخلاص يرزق الناس الحكمة، ويوفقون للصواب والحق**{إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}**[١]، وبالإخلاص يدرك الأجر على عمله وإن عجز عنه بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه**{وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ}**[٢].

وقال ﷺ : «**إن أقواماً خلفنا في المدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر**» [٣].

بالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ كالمجتهد والعالم والفقيه، وهو نوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك.

---

(١) الأنفال ٢٩.

(٢) التوبة ٩٢.

(٣) رواه البخاري وفي مسلم: ((إلا شاركوكم في الأجر)).

فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويجعل لـه حرز من الشهوات ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، لذلك نجى الله يوسف عليه السلام من امرأة العزيز: **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}**(١) **{إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}**(٢).

- الإخلاص في التوحيد: قال ﷺ : **«ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر»**.

- في السجود: قال ﷺ : **«ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط بها عن خطيئة»**.

- في الصيام: قال ﷺ : **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، «من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً»**.

- في قيام الليل: قال ﷺ : **«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)**.

- الإخلاص في ترك الحرام، المحبة في الله، الصدقة.... (حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله).

- الإخلاص في الخروج إلى المساجد: **«خرج للمسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطو خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت به خطيئة، فإن صلى ما دامت الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»**.

- الإخلاص في طلب الشهادة: **«من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»**.

---

(١) سورة يوسف: ٢٤.

(٢) الصافات: ٤١.

- الإخلاص في اتباع الجنائز: **«من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط كأحد ومن صلى ثم رجع قبل أن يدفن فإنه يرجع بقيراط»**.

- الإخلاص في التوبة: (قصة قاتل المائة نفس وملائكة الرحمة).

الإنسان يحتاج أن يبين لنفسه بالكلام أشياء مما ينويه حتى يزداد أجره كرجل ليس لديه مال فيقول لو كان لي مثل هذا عملت مثلما يعمل. قال ﷺ : **«فهما في الأجر سواء»**.

لقد مر في الأمة كثير من المخلصين كانت سيرتهم نبراساً لمن بعدهم وقدوة وخيراً، لذلك أبقى الله سيرتهم وذكرهم حتى يقتدي بهم من بعدهم وعلى رأس هؤلاء الأنبياء، النبي محمد ﷺ وحواريو الأنبياء والصحابة الذين فتحوا البلاد بإخلاصهم ومن بعدهم من التابعين.

يقول عبدة بن سليمان: كنا مع سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فلما التقى ساعة فطعنه ازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو فإذا هو يلثم وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارك فقال لائماً أءنت يا أباعمر ممن يشنع علي.

يقول الحسن: إن كان الرجل جمع القرآن ولما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لينفق النفقة الكثيرة ولما يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ولم يشعر الناس به، ولقد أدركت أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملونه في السر فيكون علانية أبداً.

لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم:**{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً}**.

يقول علي بن مكار البصري الزاهد: (لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى فلاناً أخاف أن أتصنع لـه فأسقط من عين الله) فقد كان السلف يخشون من قضية المجاملات.

قال الذهبي: يقول ابن فارس عن أبي الحسن القطان: (أصبت ببصري وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أثناء الرحلة).

قال الذهبي: صدق والله فإنهم كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالباً يخافون من الكلام وإظهار المعرفة.

قال هشام الدستوائي: (والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل).

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وما بين الناس»**.

ومن عجائب المخلصين ما حصل لصاحب النفق، حاصر المسلمون حصناً واشتد عليهم رمي الأعداء، فقام أحد المسلمين وحفر نفقاً فانتصر المسلمون، ولا يُعرَف من هو هذا الرجل، وأراد مَسْلَمَة يريد أن يعرف الرجل لمكافأته، ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه، فأتاه طارق بليل وسأله شرطاً وهو أنه إذا أخبره من هو لا يبحث عنه بعد ذلك أبداً، فعاهده، وكان يقول: (اللهم احشرني مع صاحب النفق).

وعمل الخلوة كان أحب إلى السلف من عمل الجلوة.

يقول حماد بن زيد: كان أيوب ربما حدث في الحديث فيرقّ وتدمع عيناه، فيلتفت وينتخط ويقول ما أشد الزكام!!، فيظهر الزكام لإخفاء البكاء.

قال الحسن البصري: (إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام وذهب وبكى في الخارج).

يقول محمد بن واسع التابعي: (إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم).

للإمام الماوردي قصة في الإخلاص في تصنيف الكتب، فقد ألف المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك ولم يظهر شيء في حياته لما دنت وفاته قال لشخص يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي وإنما إذا عاينت الموت ووقعت في النزع

فاجعل يدك في يدي فإن قبضت عليها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليل وإذا بسطت يدي فاعلم أنها قبلت مني وأني ظفرت بما أرجوه من النية الخالصة، فلما حضرته الوفاة بسط يده، فأظهرت كتبه بعد ذلك.

كان علي بن الحسن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين بالظلمة، فالصدقة تطفيء غضب الرب، وكان أهل بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات عرفوا، ورأوا على ظهره آثاراً مما كان ينقله من القرب والجرب بالليل فكان يعول مائة بيت.

تلك الأحوال والقصص أظهرها الله ليكون أصحابها أئمة**{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}**[١].

وهكذا كان أحدهم يدخل في فراش زوجته فيخادعها فينسل لقيام الليل وهكذا صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله فكان يأخذ إفطاره ويتصدق به على المساكين ويأتي على العشاء.

وهذا أعرابي كان مع النبي ﷺ وقال له أهاجر معك، فغنموا بعد خيبر وقسم للأعرابي وأصحابه وكان يرعى دوابهم فلما جاءوه قال للنبي ﷺ ما هذا الذي وصلني؟ ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا بسهم فأموت فأدخل الجنة. قال ﷺ : **«إن تصدق الله يصدقك»**، فلبثوا قليلاً وهاجموا العدو وأثاب الله الأعرابي كما طلب فقيل أهو أهو قال ﷺ : **«صدق الله فصدقه»** فكُفِّن في جبة النبي ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من دعاء النبي ﷺ في الصلاة: **«اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك وقتل شهيداً أنا شهيد على ذلك»**.

---

(١) الفرقان: ٧٤.

٢ – شجرة الاخلاص:

يقول ابن القيم: السنة شجرة والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه فى طاعة فثمرة شجرته طيبه. ومن كانت فى معصية فثمرته حنظل (غير طيبة). وإنما يكون الجداد (الحصاد) يوم المعاد (يوم القيامة)، فعند الجداد (الحصاد) يتبين حلو الثمار من مرها.

والإخلاص والتوحيد شجرة فى القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص فى الدنيا كذلك.

و الشرك والكذب والرياء شجرة فى القلب ثمرها فى الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر، وظلمة القلب، وثمرها فى الآخرة الزقوم والعذاب المقيم، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين فى سورة ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ماذا قال بعض العلماء في الإخلاص...؟

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبداً أحب الشهرة.

قال بعضهم: ينبغي للعالم أن يتحدث بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت وإن أعجبه الصمت فلينطق. فإن خشي المدح فليصمت ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء.

سُئِل سهل بن عبد الله التستوري: أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب. فمع الإخلاص تنسى حظوظ النفس.

قال سفيان: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي إنها تنقلب علي. إذا أراد أن يجاهد نفسه يجد تقلبات، ولا يدري أهو في إخلاص أم رياء، وهذا طبيعي أن يشعر أنه في صراع لا تسلم لــه نفسه دائماً فهو يتعرض لهجمات من الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وهذا فيه خير، أما من اطمأنت نفسه بحاله فهذه هي المشكلة.

قال ابن يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

قال الزبيد اليامي: إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب.

عن داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم تنضب. أي حتى وإن لم تتعب فإن ما حصلته من اجتماع نفسك لله وإخراج حظوظ النفس من قلبك، هذا أمر عظيم.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما سبق الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصيام بل بشيء وقر في قلبه.

قال داود: البر همة التقي، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يوماً نيته إلى أصلها.

قال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

قيل لنافع بن جبير: ألا تشهد الجنازة فقال: كما أنت حتى أنوي. أي انتظر حتى أجاهد نفسي.

قال الفضيل: إنما يريد الله عز وجل منك نيتك وإرادتك.

ومن أصلح الله سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وما بين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه.

والمخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ومن شاهد في إخلاصه الإخلاص فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

ومما قيل في الإخلاص:

- نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.
- إفراد الحق سبحانه بالقصد والطاعة.
- استواء عمل الظاهر والباطن.
- من تزين للناس فيما ليس منه سقط من عين الله.
- إنه سر بين الله والعبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده والله قد يعلم الملائكة ما يشاء من أحوال العبد.
- الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً إلا الله، وإذا داوم عليه الإنسان رزقه الله الحكمة.

قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

قال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوساوس والرياء.

كان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم عنها زوجة ولا غيرها. وأعز شيء في الدنيا الإخلاص.

يقول يوسف بن الحسين: كم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي فينبت لي على لون آخر.

وكان من دعاء مطرف بن عبدالله: اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفِ لك به، وأستغفرك مما زعمت أنني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمته.

- علامات الإخلاص:

١- الحماس للعمل للدين.

٢- أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.

٣- المبادرة للعمل واحتساب الأجر.

٤- الصبر والتحمل وعدم التشكي.

٥- الحرص على إخفاء العمل.

٦- إتقان العمل في السر.

٧- الإكثار من العمل في السر.

٨- شرطا قبول الأعمال.

٩- هذا من جهة علاقة هذا العمل القلبي بغيره من أعمال القلب، وأما عن أهميته وضرورته للمؤمن، فلا شك أن من تأمل كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، علم علم اليقين أن الإخلاص لا بد منه، وذلك أول ما يشترط في أمر العقيدة والإيمان، ثم إنه لا بد أن يدخل في كل عمل من الأعمال التي يعملها الإنسان يريد بها وجه الله، ويريد بها الثواب والأجر من عند الله.

حتى لو أنك عملت عملاً من المباحات المجردة وليس من الطاعات المفروضة المشروعة وجوباً أو استحباباً، أو أي عمل من الأعمال التي يفعلها الناس بطبيعتهم كالأكل أو الشرب أو إتيان المرء أهله أو ما أشبه ذلك، كل من فعل ذلك ويريد الأجر من الله، ويريد أن يحتسبه عند الله، فلا بد أن يحقق فيه الإخلاص لله تبارك وتعالى؛ لأن شرطي قبول أي عمل من الأعمال هما المتابعة والإخلاص.

ا

لشرط الأول: المتابعة:

أولاً: الشرط الأول: المتابعة والموافقة لما شرع الله تبارك وتعالى، فالبدع مردودة على أهلها، فمهما اجتهدوا وتعبدوا وأخلصوا في نظرهم، فالبدع مردودة، كما قال ﷺ : **«كل بدعة ضلالة»** وقال: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**، وقال: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»** أي: مردود لا يقبل.

وإن ظن أنه فعله لوجه الله تبارك وتعالى، كما فعل الثلاثة النفر الذين عزموا على أنفسهم، فقال الأول: أقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: لا أتزوج النساء، وقال الثالث: لا آكل اللحم، وما أشبه ذلك، فكل عملٍ يعمله العبد ويظن أنه مخلص ويتعبد به، لن يكون فيه أكثر عبادةً من الخوارج، ولن يكون أكثر عبادةً من رهبان اليهود والنصارى والهندوس ممن تَرَهَب منهم.

ولذلك فإن النبي ﷺ بعد أن ذكر الخوارج وعبادتهم قال: **«تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وعبادتكم إلى عبادتهم»** - ثم قال: **«يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»** والرمية: هي ما يرمى من الصيد كظبيٍ أو نحوه، فيدخل السهم فيخترقه ويخرج، فلا يكاد يرى راميه فيه شيئاً من أثر، ومعنى ذلك أنهم يأتون الدين، ويخرجون منه بلا شيء، أو بما لا يكاد يُرى.

ليس لأنهم لم يتوفر لديهم شرط الإخلاص؛ ولكن لأنه لم يتوفر لديهم شرط الموافقة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وهذا الذي ذكر الله تبارك وتعالى في قوله: **«فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»** (١)، فالعمل الصالح هو الموافق لما جاء به النبي ﷺ.

---

(١) الكهف: ١١٠.

الشرط الثاني: الإخلاص

ثانياً:{وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[1] أي: فليجعله خالصاً لوجه الله الكريم، وهذا هو شرط الإخلاص، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قول الله تبارك وتعالى:**{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [2]، قال: (أصوبه وأخلصه) والصواب هو الموافقة، والإخلاص: هو الشرط الثاني كما تقدم.

فإذا كان الإخلاص بهذه المثابة فإن أهميته لا تخفى، ولا سيما في أصل الدين، فهو أعظم اشتراطاً منه في الفروع؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول - كما في الحديث القدسي -: **«من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك»**، وفي رواية: **«تركته وشركه»** ومعنى ذلك: أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، وأما غير ذلك فهو غنيٌّ عنه تبارك وتعالى.

فإذا لم يقبل الله تعالى من العبد طاعةً من الطاعات إلا أن لديه أصل التوحيد والدين، فإنه يخسر تلك الطاعة ويظل معه الإيمان والتوحيد، أما إذا كان الإخلاص مفقوداً وكان الشرك في أصل الإيمان والدين، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة.

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى:**{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً له الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** [3]، هذا الذي يقبله الله تبارك وتعالى من عباده، ولا يقبل منهم غير ذلك. [4]

٥ – حقيقة الإخلاص:

قال تعالى:**{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً له الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ**

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) هود: ٧.

(٣) الزمر: ٢ - ٣.

(٤) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي/ من أعمال القلوب.

الْمُسْلِمِينَ}(١)، **{قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً له دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ}**(٢).

هذه الآيات الكريمات من سورة الزمر، وأيضاً ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها ما يدل على ذلك:**{قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}**(٣)، وهذه السورة اشتملت على معانٍ عظيمة في الإيمان من أبرزها - لمن قرأها وأظهرها -: أنها كررت اشتراط الإخلاص في غير ما آية، وأوضحته وأجلته.

وكذلك نجد بعض السور القرآنية العظمى التي تتحدث عن التوحيد تشترط ذلك، وإن لم تنص عليه نصاً، كما في سورة الأنعام، فإن أكثر معانيها وموضوعاتها تتعلق بتوحيد الله وتجريد العبادة لـه، ونفي الشرك عنه.

وهذه هي حقيقة الإخلاص وإن لم يرد في السورة بالنص نفسه، ولهذا تسمى سورة "الصمد"، أو سورة "قل هو الله أحد" سورة الإخلاص؛ لأنها في إخلاص العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من جهة توحيد المعرفة، إخلاص التوحيد من جهة المعرفة والإثبات، فهي تثبت:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ له كُفُواً أَحَدٌ}**(٤) تثبت وحدانية الله تبارك وتعالى، وتنفي عنه ما يزعمه المبطلون، الذين يدَّعون أن لله تبارك وتعالى ولداً، أو أن لـه كفؤاً أو شبيهاً أو نظيراً، تعالى الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين.

وكذلك تسمى سورة الكافرون سورة الإخلاص؛ لأنها تضمنت حقيقة الإخلاص من جهة الولاء والبراء والهجر، هجر كل ما يعبد من دون الله تبارك وتعالى:**{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** (٥)، وفي آخرها:**{لَكُمْ**

---

(١) الزمر: ١١، ١٢.
(٢) الزمر: ١٤، ١٥.
(٣) الزمر: ٦٤، ٦٦.
(٤) الإخلاص: ١ - ٤.
(٥) الكافرون: ١ - ٣.

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[1].

فهذه براءة أو مفاصلة ومقاطعةٌ كاملة بين العبادتين وبين المنهجين، ومن هنا كان الذي أخذه وعده الله تبارك وتعالى وسجَّلَه على أهل الكتاب وعلى المنافقين أنهم كانوا غير مجردين للصدق، وغير مجردين للإخلاص لله تبارك وتعالى، بل إن ذلك - ولا سيما الإخلاص - يشمل أيضاً المشركين، وذلك أن الجامع بين الجميع هو دعوى أنهم يعبدون الله وأنهم يتقربون إليه.

٦ – المشركون أبعد الناس عن الإخلاص:

فالمشركون - مثلاً - وهم أبعد الناس عن الإخلاص يدَّعون أنهم يعبدون الله، وأنهم يُعظِّمون حرمات الله، ويُعظِّمون بيت الله، وأنهم أتباع نبي الله إبراهيم عليه السلام، ثم إنهم يقرون لله تبارك وتعالى بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمر، وغير ذلك**{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}**[2]، أو:**{لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}**[3].

إذاً: هم يثبتون هذا، بل إنهم حتى في دعائهم يخلصون لله تبارك وتعالى، ولكن وقت الشدة فقط، فإذا كان وقت الرخاء ونجّاهم الله تبارك وتعالى إلى البر - وكان من أشق الأمور عليهم أن يركبوا البحر، ولذلك يأتي هذا المثال كثيراً في القرآن فلما نجاهم إلى البر - أشركوا بالله ما لم ينزل عليهم سلطاناً.

إذاً: المشركون أيضاً يكذبهم الله تبارك وتعالى، ويبطل عبادتهم في دعواهم، لماذا؟

لأنهم لم يحققو الإخلاص، وإن كانوا يزعمون أو يظنون أنهم على شيء من الدين، ولذلك كما جاء في أول الزمر:**{أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا**

(١) الكافرون: ٦.
(٢) الزخرف: ٩.
(٣) الزمر: ٣٨.

نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}[1].

فهم يظنون أنهم بهذا يعبدون الله، ويتقربون بهم إلى الله، فيظنون أن عبادتهم هذه لله، وأنهم لم يشركوا بالله، فكأنما ينفون ما يدَّعي أو يزعم عليهم من أنهم لا يعبدون الله، أو أنهم يشركون بالله تبارك وتعالى، فأبطل الله تبارك وتعالى عبادتهم، وأنها لا تنفعهم؛ لأن الدين الذي يقبله الله هو الدين الخالص الذي لا شرك فيه، ولا شائبة معه.

أمَّا أن يتخذ من دونه أولياء - وإن كان قصد القائل أنها تقرب إلى الله - فإنه لا يقبل منه ذلك، وهذا الزعم أنهم أولياء، أو كما ذكر في الآية الأخرى:**{وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}** [2]، فقد أبطل الله تبارك وتعالى ذلك كله بأن جعل الشفاعة له جميعاً، وجعل الشرطين اللذين لا بد منهما لمن يشفع لتحقيق الشفاعة يوم القيامة هما: أن يأذن الله تبارك وتعالى للشافع، وأن يرضى عن المشفوع له.

وهؤلاء المشركون لا يرضى الله تبارك وتعالى عنهم، ولا يرضى أن يشفع فيهم أحد؛ لأنه لا يرضى لعباده الكفر تبارك وتعالى، هذا في حق المشركين وهو واضح.

٧ – إخلاص أهل الكتاب:

وأمَّا أهل الكتاب فإنهم يزعمون أنهم هم أهل الإيمان، وأنهم كما ذكر الله تبارك وتعالى عنهم:**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}**[3] ويزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى.

إذاً: هم يرون أنهم أصحاب الصراط المستقيم، وأنهم الذين يعبدون الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، ولو سألت إلى هذه اللحظة أي يهودي أو نصراني: من الذي يعبد الله تعالى حق العبادة خالصة له في هذه الحياة الدنيا؟ لقال اليهودي: إنهم اليهود، وقال النصراني: إنهم النصارى، وهذا باطل.

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) يونس: ١٨.

(٣) المائدة: ١٨.

وقد أبطله الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه، كما في سورة البينة:**{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}**(١).

وبين ذلك قال:**{وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}**(٢)، هذا دين القيمة وهو الذي قال الله فيه:**{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ}**(٣) وقال:**{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** (٤).

فهؤلاء أمروا أن يعبدوا الله مخلصين لـه الدين، ولكنهم أبوا إلا أن يشركوا بالله تبارك وتعالى بأنواعِ وألوانٍ من الشرك، منها: دعواهم أن لـه ولداً - تبارك وتعالى وتقدس عن ذلك - وهذا الزعم قد أبطله الله تعالى في أكثر من موضع كما في الأنعام والكهف ومريم وغيرها من الآيات العظيمة في استنكار ذلك، وكما في قولـه:**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}**(٥).

وهذه الدعوى واضح بطلانها وإفكهم فيها، ثم إنهم يشركون بالله ولا يجردون الإخلاص لله تبارك وتعالى في ما يتعلق بالتحليل - في التشريع - والتحريم، في توحيد الطاعة والاتباع، وهذا أيضاً ذكره الله تبارك وتعالى في قولـه:**{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}**(٦).

---

(١) البينة: ١ - ٤.
(٢) البينة: ٥.
(٣) آل عمران: ١٩.
(٤) آل عمران: ٨٥.
(٥) الاخلاص: ١.
(٦) التوبة: ٣١.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرهم وأن يعبدوا إلهاً واحداً، فعبدوا من دونه آلهةً أخرى، وأشركوا به تبارك وتعالى في التحليل والتحريم الأولياء - كما يزعمون - أو الأحبار أو الرهبان.

والأحبار هم: علماء أهل الكتاب.

والرهبان هم: عبادهم.

والضلال لا يخرج عن هذين، فكل ضلال وقعت فيه الملل فهو بسبب أحد هذين الأمرين، بأن يشرك الناس أحد من اتصف بهاتين الصفتين.

وهذا واقع في هذه الأمة، إما أن يشركوا بالله تبارك وتعالى، أو لا يجردون الإخلاص - وإن كان دون الشرك - لا يجردون هذا المبدأ، وهذا العمل القلبي العظيم لله تبارك وتعالى في طاعة واتباع أهل العلم، الذين يجمعون المسائل العلمية الكثيرة، ولكنهم غير مؤمنين حق الإيمان، فليسوا هم العلماء الذين وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**(١)، أي: هم الذين يخشون الله ويتقونه، أو كان العلماء كذلك، ولكن أخطأوا فجاء الأتباع فأشركوا بجعلهم آلهة، وألَّهوهم بتقديم ما أخطأوا فيه على ما يعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهؤلاء هم العلماء.

وأما العبَّاد: فإن كثيراً من الناس يفتنون بالعبَّاد في أي ملة كانت، فيقدمون أعمالهم وآرائهم وما يعبدون أو يتقربون به على ما في كتاب الله، وعلى ما في سنة رسول الله ﷺ، وهذا يقدح في إخلاصهم ويجعلهم بذلك مشركين.

ومن هنا فإن الله تبارك وتعالى اشترط ذلك، وذكر أنه طلب من أهل الكتاب الإخلاص لله تبارك وتعالى، وهو الذي جاء في آية آل عمران:**{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ}** (٢).

---

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) آل عمران: ٦٤.

فهذا - أيضاً - هو تجريد العمل والإخلاص الكامل لله تبارك وتعالى، أما أن تتخذ - مفهوم الآية - أن يعبد بعضكم بعضاً، أو يعبد بعضنا بعضاً الملوك أو الأحبار أو الرهبان أو ما أشبه ذلك، فإننا بذلك لا نكون مؤمنين ولا موحدين، بل نشترط ونطلب ذلك منهم، فهذا بالنسبة لأهل الكتاب.

٨ – إخلاص المنافقين:

أما بالنسبة للمنافقين فإن الأمر في حقهم أوضح وأجلى، فالمنافقون من أخص أعمالهم وصفاتهم الكذب، كاذبون في دعوى الإيمان، كاذبون في الشهادة بالرسالة - كما في أول سورة المنافقون - كاذبون في عبادتهم، وهم في الحقيقة كما ذكر الله تبارك وتعالى عنهم:**{يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً}**(١).

فهذا الرياء والكذب في دعواهم أنهم مؤمنون وليسوا كذلك، وأنهم كما ذكر الله تبارك وتعالى من صفاتهم في أول البقرة:**{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ}**(٢)، وغير ذلك.

هم بهذه الصفات قد جانبوا وضادوا معنى الإخلاص الذي طلبه الله تبارك وتعالى واشترطه من عباده، وكذلك معنى الصدق.

ولذلك نجد أن الآيات التي تتحدث عن المنافقين، وعن أعمالهم يأتي فيها هذان الأمران العظيمان، مثلاً: سورة التوبة، الفاضحة المشقشقة المخزية التي فضحت المنافقين، وأخزتهم وأظهرت بواطنهم وكشفتها، هذه السورة العظيمة يقول الله تبارك وتعالى بعد أن فضحهم، وبيَّن أعمالهم ومنهم، ومنهم، ومنهم، ويقولون، وفعلوا، وفعلوا... مما ذكر الله تبارك وتعالى، قال في آخرها موجهاً الخطاب للمؤمنين:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}**(٣)؛ لأن ما تقدم في حق المنافقين يشمله أنهم كاذبون فلم يكونوا من الصادقين.

---

(١) النساء: ١٤٢.
(٢) البقرة: ٩.
(٣) التوبة: ١١٩.

وأما إخلاص الدين لله تبارك وتعالى، فإن الله عز وجل ذكر ذلك في قوله تبارك وتعالى:**{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا * إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً}** (1).

فقد جعلهم الله تبارك وتعالى في الدرك الأسفل من النار، فهم أشد الناس كفراً وإظهاراً لمعاندة ما جاء من عند الله، وتكذيباً لرسل الله، فلا ينفعهم أبداً دعوى الإيمان وزعمه إلا بأن يحققوا هذه الشروط، وهي التوبة والإصلاح، والاعتصام بالله تبارك وتعالى.

إخلاص الدين لله عز وجل، وهذا دليلٌ على أن من أعظم ما يشوب أعمالهم هو ترك الإخلاص، وهو الشرك - وإن كان النفاق درجات وإن كانت الأعمال درجات - والناس درجات في هذا، لكن مثل هؤلاء الموصوفين بأنهم في الدرك الأسفل من النار، هؤلاء هم أهل النفاق الأكبر، فشركهم أو تركهم الإخلاص؛ لأنهم لم يخلصوا لله تبارك وتعالى في أصل الإيمان وفي أصل الدين.

أما ما عدا ذلك، وهو من يشرك بالله تبارك وتعالى ولا يخلص له في عملٍ من الأعمال، فإن ذلك العمل يحبط ويبطل؛ لأنه كما تقدم في الحديث القدسي: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً** - وهذا مطلق سواء كان في أصل الدين عملاً كبيراً عظيماً أو أياً كان - **أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**.

وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يحذر من الشرك دقيقه وجليله، وأن يحذر من الرياء؛ لأنه ضد الإخلاص، ولأن الرياء هو نوع من أنواع الشرك الأصغر، نسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من الشرك ما علمنا منه وما لم نعلم (2).

---

(1) النساء: ١٤٥، ١٤٦.

(2) الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

٩ – ثمرة الإخلاص في العلم والوقت:

ما أعظم ثمرات الإخلاص، وما أحوج المسلمين، وما أحوج المتقين، وما أحوج العباد الذين يريدون الله والدار الآخرة، ويعلمون حقارة وتفاهة هذه الحياة الدنيا، أن يخلصوا أعمالهم لله عز وجل، فيرون الثمرات ويرون البركات، ويرون أموراً لا يمكن أن يصدقها أحد في حدود المنظور المادي، والواقع العادي عند الناس.

ومن ذلك أن العلماء الذين كتبوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وطلبوا العلم بإخلاص؛ جعل الله تبارك وتعالى لهم من البركة في أوقاتهم وأعمارهم وعلومهم، ونفع بهم كثيراً.

ومن ذلك - مثلاً - صحيح البخاري، فكم من الكتب كتبت وألفت؟! لكن هذا الكتاب لما أخلص صاحبه لله، وكان لا يكتب الحديث إلا بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، وكان فيه من العبادة والزهد في الدنيا، ما هو معلوم من سيرة الإمام البخاري رحمه الله.

لما كان كذلك بارك الله له في وقته، وبارك له في علمه، وجعل هذا الكتاب بهذه الدرجة والمنزلة، فهو أصح كتابٍ بعد كتاب الله، وتلقاه المسلمون قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة بالقبول، وهذه كرامة عظيمة، وإلا فكم، وكم أُلِّف من كتب، لكن ليس لها ما لهذا الكتاب.

كذلك حياة الإمام أحمد رضي الله عنه وأرضاه، وما أعطاه الله تبارك وتعالى من القبول، فإنه شيء مدهش، حيث كان الإمام أحمد رحمه الله إذا أشار بيده لرجل أن ينعم، أو إذا ذكر فلان وقال: نعم، فقط: نعم، أثنى عليه بأنه نعم، أو نِعْم الرجل، أو ما أشبه ذلك، رفعه الله عند الأمة قاطبة، فيرتفع هذا الرجل، وتنقل هذه التزكية من بغداد إلى خراسان إلى مصر إلى الأندلس وإلى كل مكان، وتسجل وتكتب، أن أحمد قال فيه: نعم الرجل أو أثنى عليه أو ذكره

بخير، فتكون تزكية لـه وقبولاً لروايته وعلمه، وتصحيحاً لعقيدته.

وإن قـال فـي أحـدٍ: لا، أو نحـو ذلـك، سـقط مهمـا كـان علمـه ومهمـا كانـت قيمتـه، وينتشـر هـذا الجـرح فـي الآفـاق حتـى لا يكـاد أن تجـده عنـد أحـد إلا وقبلـه حتى وإن زكاه غيره لا بد أن يقول: ولكن أحمد قال فيه كذا.

والخليفـة المتوكـل مـن شـدة حرصـه علـى أن يزكـى لـدى الأمـة كعـادة الحكـام فـي كـل زمـانٍ ومكـان، طلـب مـن الإمـام أحمـد أن يـأتي إليـه؛ لأن النـاس يعلمـون أن الإمـام أحمـد لا يأكـل إلا مـن طعـامٍ حـلال، فيريـد أن يـأتي إليـه ويطعـم مـن طعامـه، فيتحـدث النـاس بـذلك، فيتزكـى المتوكـل عنـد الأمـة بـأن الإمـام أحمـد أكـل مـن طعامـه فقط، ولو لم يثن عليه ولا بكلمة.

فـأبى الإمـام أحمـد، ثـم لمَّـا ألـحَّ عليـه الخليفـة، وهـو المتوكـل الـذي أحيـا الله بـه السـنة وقمـع بـه البدعـة، ولـه فضـل علـى أهـل السـنة والجماعـة، وهـو إمـام المسلمين، فلم ير بداً من أن يطيعه، فذهب إليه ولكنه واصل الصيام.

حتـى يقـول ابنـه عبد الله وابنـه صـالح: أشـفقنا وخشـينا علـى الإمـام مـن المـوت، واصـل الأيـام والليـالي، وكـان لا يشـرب إلا المـاء؛ لأن المـاء لـيس لأحـد فيـه فضـل، والمتوكـل يظـن أنـه يطعـم مـن طعامـه، لأنـه لـم يقابلـه ولـم يجالسـه علـى مائـدة، فلِمَ كانت لهم هذه المنزلة؟! إنما هي بإخلاصهم لله تبارك وتعالى.

ثـم مـن ناحيـة البركـة فـي الوقـت: انظـر مؤلفـات شَـيْخ الإِسْـلامِ ابـن تيميـة رحمـه الله، ومؤلفـات الـذهبي، ومؤلفـات ابـن كثيـر، ومؤلفـات النـووي تـرى عجبـاً، عنـدما تـرى هـذه المؤلفـات مـع مـا تعرضـوا لـه - ولا سـيما مثـل ابـن تيميـة رحمـه الله - مـن النفـي والسـجن والأذى والمحاكمـات وحـرق الكتـب، وحـبس مـا يكتـب بـه، والاشتغال مع ذلك بالعبادة،

بـل حتـى بالجهـاد، شَـيْخ الإِسْـلامِ رحمـه الله جاهـد البـاطنيين، وجاهـد التتـار، جهـاد وعلـم، تحصـيل للعلـم وتنقيـب فـي الكتـب، وعبـادة، ثـم يؤلـف هـذه الكتـب،

كيف كان ذلك؟!

نحن الآن كما ترون نسأله عز وجل البركة في أوقاتنا وأعمارنا، وأن يرزقنا الإخلاص الذي به تحل البركة، الطالب يظل خمس سنوات في الدكتوراه ثم يخرج كتاباً إذا قرأته وجدت أنه نُقول فحسب، لو جدَّ فيها لجمعها في أشهر، ولو كان من السلف لجمعها في أيام وأسابيع؛ فإنها مجرد نقول فحسب، ولم يفن هذا العمر؟

إن هذا بقدر ما لدينا من إخلاص، فكيف هذه؟

حتى قال بعضهم: لو قسمت عمره على كتبه لوجدت أنه كان يكتب في كل يومٍ كراسة من عشرين لوحة، فهل يمكن لأحد أن يكتب هذه، ومتى يحققها؟

ومتى يحررها؟

وإذا طلبنا من أخ مقالاً في صفحة واحدة فإنه سيكتبها الليلة ويراجعها في اليوم الذي بعده، وينقحها بعد ذلك، وقد يمضي الأسبوع ولم يأت بها، سبحان الله!! كيف يكتب هؤلاء، إذا كتب عشرين لوحة محررة منقحة بأقوال معزوة إلى أصحابها، وأمانة في النقل، ودقة في الاستنباط، لا يمكن أن يكون هذا إلا ببركة من الله تبارك وتعالى في عملهم، وذلك بسب إخلاصهم لله عز وجل.

ولذلك أوتوا الهمة العليا، فعندما قال الإمام الطبري رحمه الله لتلاميذه: سأُملي عليكم التفسير في ثلاثمائة مجلد، قالوا: هذا كثير - ثلاثمائة كثير لا يستطيعونها - فقال: الله أكبر!! ضعفت الهمم، فجعله في ثلاثين بدلاً من الثلاثمائة، فهذه الثلاثون جزءاً، كانت على قدر الهمم، فسعة تفسير الطبري، وما فيه من الأقوال والأسانيد، وأقوال له في اللغة رواية ودراية معاً، فهذا كتبه رحمه الله لضعيفي الهمم، ونحن الآن نقول: الطبري يحتاج أن نختصره، وبالفعل يختصر؛ لأن ما عليه الهمة الآن هي عُشر ما كانت عليه في أيام تلاميذ الطبري... وهكذا، فلماذا تضعف الهمة؟

تضعف الهمة بقلة الإخلاص، ومع الإخلاص تكون أعلى، ويكون اليقين أكثر، وإذا اجتمع للإنسان الإخلاص واليقين والمحبة وسائر ما ذكرنا، وما سنذكر من أعمال القلب، فإنه يكون في غاية الهمة.

والصحابة رضوان الله تعالى عليهم لما تحقق لهم ذلك لم يفكروا على الإطلاق في قوى الدنيا كلها مهما كانت، بل ترسل الجيوش شرقاً وغرباً، براً وبحراً ولا يبالون، ولا ينظرون إلى العدو - نعم يعدون العدة تماماً - ويستطلعون أموره كأدق ما يكون من الدراسات الاستراتيجية أو الاستخبارات العسكرية، لكن يعلمون أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فلم تقم أمامهم أية قوة، إنما هم انتصروا بإيمانهم وبتقواهم وبإخلاصهم وبصدقهم مع الله تبارك وتعالى.

ثم بقيت مسألة نختم بها وهي: أن الإخلاص يورث العبد بأن يكون من المخلصين؛ وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإذا أخلص العبد وصدق مع الله تبارك وتعالى، فإنه يجعله الله تبارك وتعالى من المخلصين، والمخلَصون هم صفوة وخيرة من خلق الله تبارك وتعالى، وهم الذين يعرفون الله، ومن أهم صفاتهم - وهي كثيرة - أنهم يعرفون الله تبارك وتعالى، كما في سورة الصفات، بعد أن ذكر الله عز وجل حال المشركين وأمثالهم الذين نسبوا إلى الله تعالى الولد، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، قال عقب تلك الآيات:**{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}**[1]، **{إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}**[2].

فكل ما يصفه به الواصفون فهو منزه عنه، إلا ما يصفه به من يعرفونه ويقدرونه حق قدره، ويصفونه بصفات الكمال والثناء والمحامد المرضية.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من المخلَصين المخلِصين، وأن يتقبل منا أعمالنا جميعاً، وأن لا يجعل فيها شيئاً لأحدٍ غيره إنه سميع مجيب.

---

(١) الصافات: ١٥٩.

(٢) الصافات: ٤٠.

المبحث الثاني:

التوكـل

إنَّ أعمال القلوب كثيرة، والقاعدة في ذلك: كل ما نسب إلى القلوب أو إلـى الصدور في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهي من أعمال القلوب، وهي أحيانـاً لا تنسب إلـى القلب أو إلى الصدر ولكن هي محلُ ذلك، كالتوكل مثلاً، فهو من أعظم أعمال القلب؛ لأن التوكل يدخل في الاستعانة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فـي سورة الفاتحـة التـي هـي أم القرآن والسبع المثاني يقول:**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**(١)، وكل الـدين داخـل فـي هذه الآيـة وهذه، كمـا قـال الله تعـالى:**{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}**(٢)، فـ**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**(٣) هـي**{آمَنَّا بِهِ}**(٤) و**{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**(٥) هي**{وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}**(٦).

فهناك أمران: أن يكون الله تبارك وتعالى وحده هو المعبود والغاية وهو المراد الذي نسعى إليـه، وأن يكـون هـو المستعان بـه وحـده علـى تحقيق هذه الغايـة، والمتوكل عليـه وحده في أمورنا وحدها، فأعمال القلوب كثيرة نستطيع أن نستخلصها من كتاب الله.

أولاً: التوكل لغة:

يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان: أي ألجأته واعتمدت عليه فيه.

ووكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسـه وأصـله الوكول (٧).

---

(١) الفاتحة: ٥.
(٢) الملك: ٢٩.
(٣) الفاتحة: ٥.
(٤) الملك٢٩.
(٥) الفاتحة: ٥.
(٦) الملك: ٢٩.
(٧) فتح الباري ١١/٣٠٥.

ويقال: فلان وكلة تُكلَة، أي عاجز يكل أمره إلى غيره ويتكل عليه وواكلت الدابة إذا أساءت السير.

والوكيل في لغة العرب: هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره [١].

وفرس واكل يتكل على صاحبه في العدو ويحتاج إلى الضرب[٢].

قال الأزهري: الوكيل في صفة الله جل وعز: الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق [٣].

ثانياً: حقيقة التوكل:

ذكر ابن القيم - رحمه الله -: أن التوكل يجمع أصلين علم القلب وعمله فقال: "التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله:

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إيه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إيه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب ولكن لابد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته.

والمقصود: أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه"[٤].

التوكل على الله نوعان:

١- توكل عليه في تحصيل حظ العبد من الرزق والعافية وغيرهما.

٢- توكل عليه في تحصيل مرضاته.

---

(١) تفسير ابن جرير ٤٠٥/٧.

(٢) الصحاح (١٨٤٤/٥، ١٨٤٥).

(٣) تهذيب اللغة (٣٧١/١٠).

(٤) طريق الهجرتين، ص٢٥٧.

فأما النوع الأول: فغايته المطلوبة وإن لم تكن عبادة لأنها محض حظ العبد، فالتوكل على الله في حصوله عبادة، فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه.

وأما النوع الثاني: فغايته عبادة، وهو في نفسه عبادة، فلا علة فيه بوجه، فإنه استعانة بالله على ما يرضيه، فصاحبه متحقق بـ**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**(1).

هذه أقسام التوكل على الله، أما التوكل على غير الله فهو قسمان أيضاً:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ، والرزق، والشفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى، ونحو ذلك، فهذا نوع شرك خفي.

ثم إن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يُخذل من تلك الجهة، فما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، قال الله تعالى:**{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً}**(2).

ذكر ابن القيم – رحمه الله – للتوكل ثماني درجات:

الدرجة الأولى: معرفة الرب وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته.

وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

قال ابن القيم رحمه الله -: ولذلك لا يصح التوكل ولا يُتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضاً من الجهمية النفاة

---

(1) طريق الهجرتين، ص٢٦٢.

(2) سورة مريم، الآيتين (٨١، ٨٢).

لصفات الرب جل جلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم: سفلية وعلوية، ولا هو فاعل باختياره، ولا له إرادة ومشيئة ولا يقوم به صفة؟! فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم"[1].

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات، فإن من نفاها فتوكله مدخول، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فليُعلم: أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة؛ لأن التوكل أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به.

فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله، إن كان قد قُدّر حصل، توكل أو لم يتوكل، دعا أو لم يدع، وإن لم يقدر لم يحصل توكل أيضاً أو ترك التوكل.

فالله سبحانه قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب، وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه، فإذا لم يأت السبب امتنع المسبب، وهذا كما قضى بحصول الشبع إذا أكل والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل: فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

---

(١) مدارج السالكين (١٢٢/٢، ١٢٣).

فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب.

وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها، والله سبحانه أعلم"[(١)].

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه: بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى مسببها، وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره؛ لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملك درهماً فسُرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه فلا تهتم، متى جئت إليَّ أعطيتك من خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك؛ لم يحزن على فوته. وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلى غيره، كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل، لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه" [(٢)].

---

(١) المدارج (١٢٥/٢، ١٢٦).

(٢) المدارج (١٢٥/٢، ١٢٦).

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل: فعلى قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له، يكون توكله عليه؛ ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه[١]. فإذا تيقن العبد أن الله يؤيده ويعينه ويسدده توكل عليه ورجاه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته. وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير، يعني: الاستسلام لتدبير الرب لك، وهذا في غير باب الأمر والنهي، بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله[٢].

الدرجة السابعة: التفويض: وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها، وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها.

فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفها، وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته، وشفقته" [٣].

الدرجة الثامنة: درجة الرضا: وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها فإنما فسره بأجل ثمراته وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخ الإسلام - رحمه الله - يقول: "المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية أو معناه" اهـ.

---

(١) المدارج (١٢٦/٢).
(٢) المدارج ١٢٦/٢.
(٣) المدارج ١٢٧/٢.

وباستكمال هذه الدرجات الثمان استكمل العبد مقام التوكل، وثبتت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافي [١]: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به"[٢].

"التوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعه في الطريق إلى نهايته، وكلما ازداد قربه به وقوي سيره ازداد توكله.

فالتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته.

قال الله تعالى:**{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[٣]. ففي الآية جعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل"[٤].

(فالتوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد، فلا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين)[٥].

وقال تعالى:**{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**[٦]، فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد.

والله تعالى يجمع بين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والعبادة، وبين التوكل والهداية:

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء الحافي، كنيته أبو نصر، أصله من مرو سكن بغداد ومات بها، صحب الفضيل بن عياض، وكان عالماً ورعاً، مات سنة ٢٢٧هـ. من أقواله: أنا أكره الموت، ولا يكره الموت إلا مريب، انظر ترجمته في طبقات الصوفية/ للسلمي ٣٩/١ - ٤٧.

(٢) المدارج (١٢٧/٢ - ١٢٨).

(٣) سورة المائدة، الآية (٢٣).

(٤) طريق الهجرتين، ص٢٥٨.

(٥) تيسير العزيز الحميد ص٤٩٥، ٤٩٦.

(٦) سورة آل عمران، الآية (١٢٢).

١- أما الجمع بين التوكل والإيمان، ففي مثل قوله تعالى:**{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}**[١].

ونظيره قوله تعالى:**{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[٢] وفي هذه الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك.

٢- وأما الجمع بين التوكل والإسلام، ففي قوله تعالى:**{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}**[٣].

٣- وأما الجمع بين التوكل والتقوى، ففي مثل قوله تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}**[٤].

٤- وأما الجمع بين التوكل والعبادة، فقد جمع الله سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه:

أحدها: في سورة أم القرآن:**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[٥].

الثاني: حكاية عن شعيب أنه قال:**{وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}**[٦].

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا:**{رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**[٧].

---

(١) سورة الملك، الآية (٢٩).
(٢) سورة المائدة، الآية (٢٣).
(٣) سورة يونس، الآية (٨٤).
(٤) سورة الأحزاب، الآيات (١ - ٣).
(٥) سورة الفاتحة، الآية (٤).
(٦) سورة هود، الآية(٨٨).
(٧) سورة الممتحنة، الآية (٤).

الرابع: قوله تعالى لنبيه ﷺ :**{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}**(١).

الخامس: قوله تعالى:**{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**(٢).

السادس:**{فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}**(٣).

السابع:**{قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}**(٤).

فهذه المواضع السبعة جمعت الأصلين: التوكل: وهو الوسيلة، والإنابة وهي: الغاية. فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها: عبادة ربه والإنابة إليه. وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة: التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

٥- وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم:**{وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}**(٥) وقال تعالى:**{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}**(٦).

فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به.

والتوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وإن منزلته

---

(١) سورة المزمل، الآية (٨، ٩).
(٢) سورة هود، الآية (١٢٣).
(٣) سورة الحج، الآية (٧٨).
(٤) سورة الرعد، الآية (٣٠).
(٥) سورة إبراهيم، الآية (١٢).
(٦) سورة النمل، الآية (٧٩).

منها منزلة الرأس من الجسد، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم"[١].

و عن سعيد بن جبير قال: "التوكل على الله جِماع الإيمان"[٢].

وسمى الله عز وجل النبي ﷺ (المتوكل) كما في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ : محمد رسول الله، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق".

وفي رواية "أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ..."[٣].

وأخبر عن رسله: بأن حولهم كان التوكل، وبه انتصروا على قومهم، وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: أنهم أهل مقام التوكل[٤].

وقفه عند الآيتين:

١-{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[٥].

٢-{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[٦].

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢٥٥ - ٢٥٨) مع اختصار يسير.

(٢) هو هنّاد بن السري بن مصعب الكوفي، مصنف كتاب الزهد وغيره. ولد سنة ١٥٢هـ، حدَّث عنه الجماعة، لكن البخارى في غير (صحيحه) اتفاقاً لا اجتناباً، كان يقال له: راهب الكوفة. مات - رحمه الله - سنة ٢٤٣هـ، انظر السير ٤٦٥/١١، ٤٦٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٣٤٢/٤، ٣٤٣) عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة. " الحديث. ورواه أيضاً في كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح، باب: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً (٥٨٥/٨) عن عبدالله بن عمرو.

(٤) المدارج (١٤٤/٢).

(٥) سورة آل عمران، الآية (١٧٣).

(٦) سورة الطلاق، الآية (٣).

وقفات:

١-{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

قال ابن جرير - رحمه الله -: "الذين" في موضع خفض مردود على "المؤمنين" وهذه الصفة من صفات الذين استجابوا لله والرسول و"الناس" الأول: هم قوم... كان أبو سفيان سألهم أن يثبطوا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد منصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد.

و"الناس" الثاني، هم أبو سفيان وأصحابه من قريش، الذين كانوا معه بأحد.

ويعني بقوله: "قد جمعوا لكم" قد جمعوا الرجال للقائكم، والكرة إليكم لحربكم.

{فَاخْشَوْهُمْ} فاحذروهم واتقوا لقاءهم فإنه لا طاقة لكم بهم:**{فَزَادَهُمْ إِيمَاناً}** فزادهم ذلك من تخويف من خوفهم، أمر أبي سفيان وأصحابه من المشركين، يقيناً إلى يقينهم، وتصديقاً لله ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم، ولم يثنهم ذلك عن وجههم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالسير فيه، ولكن ساروا حتى بلغوا رضوان الله منه، وقالوا ثقة بالله وتوكلاً عليه إذ خوفهم من خوفهم أبا سفيان وأصحابه المشركين.

{حَسْبُنَا اللَّهُ} أي كفانا الله: يعني: يكفينا الله كقوله تعالى:**{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}**، **{وَنِعْمَ الوَكِيلُ}** نعم المولى لمن وليه وكفله[١].

فازدادوا إيماناً بتوكلهم على ربهم وثقتهم به وبما عنده من النصر والتأييد عند تخويف الناس لهم بجمع الناس للقائهم والكرة عليهم لحربهم. ومع هذا العمل الإيماني القلبي قالوا: "حسبنا الله ونعم الوكيل" ولم يلتفتوا إلى تخويف من خوفهم. وروى البخاري بسنده عن ابن عباس**{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ}** قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار،

وقالها محمد ﷺ حين قالوا: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً

---

(١) تفسير الطبري (١١٨/٤).

وقالوا:{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[1].

ثبت في الصحيح حديث ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام قال: "حسبي الله ونعم الوكيل" قال ابن عباس: قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين "قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم".

وقد روي أن جبريل قال: هل لك حاجة؟ قال: "أما إليك فلا" وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره.

٢-{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}.

"حسبه": أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش.

وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يشتفي به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال:{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[2] ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً وكفاه ونصره[3].

قال الربيع بن خثيم: إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه، ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به نجاه، ومن دعاه أجاب له.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم" (٢٢٩/٨) عن ابن عباس.
(٢) سورة الطلاق، الآية (٣).
(٣) تيسير العزيز الحميد ص٥٠١.

وتصديق ذلك في كتاب الله: **{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}**[(١)] **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}**[(٢)]، **{إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُم}**[(٣)].

{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[(٤)] **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}**[(٥)].

وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أبي ذر، وقال له: "لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم" يعني لو حققوا التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم.

تعلق التوكل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى:

التوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى والصفات العُلى:

فله تعلق باسم (الغفار، التواب، العفو، الرؤوف، الرحيم، الفتاح، الوهاب، الرازق، المعطي، المحسن، المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع).

وله تعلق بالقدرة والإرادة ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله، فبحسب معرفة العبد لربه يصح له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى[(٦)].

قدر الله سبحانه لكمال علمه وحكمته ربط الأسباب بالمسببات، فقد جعل سبحانه لكل شيء سبباً، في أمور الدنيا والآخرة في العبادات والعادات، وندب خلقه إلى مباشرتها، فشمر أهله وخاصته إلى إجابته في كلا الأمرين.

وهذا هو عمل الأنبياء وأتباعهم الصادقين في طاعتهم وانقيادهم الواقفين مع أوامره أنى استقلت ركائبها جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتهم أو فرقتهم.

---

(١) سورة التغابن، الآية (١١).
(٢) سورة الطلاق، الآية (٣).
(٣) سورة التغابن، الآية (١٧).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٠١).
(٥) سورة البقرة، الآية (١٨٦)، انظر تفسير الطبري - المجلد التاسع ح١٦٢/١٨.
(٦) المدارج (١٣٠/٢) بتصرف.

لكن الصوفية لبَّس عليهم إبليس - عليه لعنة الله - فابتدعوا في دين الله ما ليس منه، وعطلوا من دينه الكثير، فلا أسباب عندهم لا دين ولا دنيا.

وظنوا أن مباشرة الأسباب المباحة قدح في التوكل، وادعوا أن أهل (الأحوال) لا يباشرون الأسباب ثقة بالله واعتماداً على خوارق العادات.

ولا شك أنهم حادوا عن الجادة والصراط المستقيم، فقد دل النقل والعقل على وجوب التوكل مع ملابسة الأسباب، أما المنقول: "فإنه قد ظاهر النبي ﷺ في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك"[١].

وكان ادخاره قوت سنة لعياله في آخر عمره وأكمل أحواله مع ربه تعالى، وكان يطوف على القبائل في بداية الدعوة ويقول: من يعصمني حتى أبلغ رسالة ربي. وهو سيد المتوكلين[٢].

والصحابة رضي الله عنهم أجمعين قد حازوا هذه المرتبة واستيقنوها حالاً وعلماً، وعلى نهجهم سار السلف الصالح فقد كان عبدالله بن المبارك - رحمه الله - على زهده تاجراً تأتيه البضائع من خراسان إلى البيت الحرام. روى البيهقي بسنده إلى الفضيل بن عياض أنه قال لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام؟ كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي، أنا أفعل ذا لأصون بها وجهي وأكرم بها عرضي، واستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به، فقال له الفضيل: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا[٣] وقد رغب النبي ﷺ أمته في الكسب وبيَّن لهم أنه من تمام التوكل.

---

(١) فتح الباري (٢١٢/١٠).

(٢) الفروق للقرافي ٢٢٢/٤.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥/٢ رقم ١٢٦٦) باب التوكل والتسليم.

عن عمر رضـى الله عنـه قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا»** [(١)].

قال البيهقي في شعب الإيمان: ليس في هذا الحديث دلالـة علـى القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق، لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو وتطلب الرزق، وإنما أراد - والله أعلم - لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم، ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين قائمين كالطير تغدو خماصا وتروح بطاناً، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم، ويغشون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكل[(٢)].

فالتوكل ليس التبطل والتعطل، بل لابد فيه من التوصل بنوع من السبب لأن الطير ترزق بالسعي والطلب، "فمن ظن أن التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة فهو جاهل، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف يُنال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟!

وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده.

وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به: كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض.

روى الترمذي وغيره عن أنس بن مالك قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ قال: **«اعقلها وتوكل»** [(٣)].

---

(١) رواه الترمذي ٥٧٢/٤، رقم الحديث ٢٣٤٣، وقال حسن صحيح، وأحمد ٣٠/١، وابن ماجه ١٣٩٤/٢، رقم الحديث ٤١٦٤، كتاب الزهد، باب التوكل والتعين، وابن المبارك ص١٩٦، ١٩٧ رقم الحديث ٥٥٩، وابن أبي الدنيا ص٥٢ - ٥٣ وإسناده حسن، وانظر صحيح الجامع الصغير ٩٧٢/٢.

(٢) دليل الفالحين ٢٧٢/١.

(٣) رواه الترمذي في سننه لـه ٦٦٨/٤، رقم الحديث ٢٥١٧، قال الألباني: حسن. انظر صحيح الجامع ٢٤٢/١، رقم الحديث ١٠٦٨، وابن أبي الدنيا في كتابه "التوكل" بسند حسن ص٦١، ٦٢.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري: "اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن تيسر فبتيسيره[1].

فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة، والتوكل عليه إيمان به[2].

هذا في الأسباب المباحة والاكتساب، كذلك أمور الآخرة وهي الطاعات التي أمر الله عباده بها وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنة فهذا لابد من فعله مع التوكل على الله فيه والاستعانة به عليه فإنه لا حول ولا قوة إلا به، فمن قصر في شيء من ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعاً وقدراً.

قال يوسف بن أسباط: يقال: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له [3].

الالتفات إلى الأسباب:

قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب - أن تكون أسباباً - تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع[4].

قال: **«ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام»** [5].

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ٩١/٣.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٤٠٩.

(٣) جامع العلوم والحكم ص٤٠٩.

(٤) الإعراض عن الأسباب قدح في الشرع: حيث إن الأسباب مأمور بها شرعاً والقدح فيها والإعراض عنها إعراض عن الشرع وقدح في كماله وصلاحه.

(٥) رواه البخاري كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء من حديث أبي هريرة ولفظه: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء" انظر الصحيح مع الفتح (١٣٤/١٠)، ومسلم في الطب والمرض والرقى، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة من حديث جابر ولفظه: "لكل داء دواء. انظر الصحيح مع شرح النووي (١٩٠/١٤، ١٩١)، والترمذي في أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه من حديث أسامة بن شريك (٣٨٣/٤، رقم الحديث ٢٠٣٨ "إلا الهرم")، وابن ماجه مختصراً دون قوله "عرفه. " إسناده حسن أبواب الطب باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (١١٣٧/٢) عن أبي هريرة وأسامة بن شريك.

وعند الترمذي: «**يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء...**».

وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً قال: «**هي من قدر الله**» [1].

وأما أمره فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية وقطع لسعد بن معاذ عرقاً. "أي فصده"، وكوى سعد بن زرارة.

(وهو كدفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً)[2].

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «**عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر ههنا وههنا – في آفاق السماء – فإذا سواد قد ملأ الأفق، وقيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب**»، ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا وُلدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون**».

فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: «**سبقك بها عكاشة**» [3].

---

(١) أخرجه الترمذي أبواب الطب، باب ما جاء في الرقي والأدوية (٣٩٩/٤ - ٤٠٠)، وابن ماجه في أبواب الطب الباب السابق كلاهما من حديث أبي خزامة (١١٣٧/٢)، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه، قال الترمذي: وهذا أصبح.

(٢) زاد المعاد (١٥/٤).

(٣) رواه البخاري كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو من حديث ابن عباس. انظر الصحيح مع الفتح (١٥٥/١٠).

وفي رواية: **«عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: أُدعُ الله أن يجعلني منهم، قال: **«اللهم اجعله منهم»**، ثم قام إليه رجل آخر فقال: أُدع الله... [1] إلى آخر الحديث.

وفي رواية: قالوا: من هم يا رسول الله ؟ قال: **«هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»** [2].

وفي رواية: **«هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»**[3].

وفي رواية: **«هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»**[4].

قال شيخ الإسلام: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ : **«لا يرقون»** لأن الراقي محسن إلى أخيه، وقد قال ﷺ حين سئل عن الرقى: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه"[5] وقال ﷺ: **«لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»** [6].

---

(١) هذه الرواية عند البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٤٠٥/١١).

(٢) انظر الصحيح مع شرح النووي كتاب الإيمان، باب دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٨٨/٣).

(٣) المصدر السابق والكتاب والباب (٩٢/٣) عن عمران.

(٤) المصدر السابق والكتاب والباب (٩٤/٣) عن ابن عباس.

(٥) رواه مسلم في صحيحه في الطب والمرض والرق باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة (١٨٦/١٤) عن جابر قال: لدغت رجلاً منا عقرب ونحن جلوس مع رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله أرقى قال: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فيفعل" وفي رواية: "فلينفعه" عن جابر أيضاً، ورواه أحمد (٣٠٢/٣).

(٦) رواه أبو داود بهذا اللفظ كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى عن عوف بن مالك (١٠/٤، ١١ رقم

وأيضاً فقد رقى جبريل النبي[1].

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن، وإنما وصفت السبعين ألفاً بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون.

روى البخاري بسنده عن جابر عن النبي ﷺ قال: **«إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ففي شرطة محجم، أو لذعة بنار، وما أحب أن أكتوي»** [2].

قال ابن حجر: كأنه أراد أن الكي جائز للحاجة، وأن الأولى تركه إذا لم يتعين، وأنه إذا جاز كان أعم من أن يباشر الشخص ذلك بنفسه أو بغيره لنفسه أو لغيره. وعدم الجواز مأخوذ من نسبة الشفاء إليه.

وفضل تركه من قوله: **«وما أحب أن أكتوي»**.

قات ابن القيم - رحمه الله تعالى - جمعاً أرى أنه لزاماً عليَّ ذكره: يقول - رحمه الله -: النهي عن الكي أن يكتوي طلباً للشفاء، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو هلك فنهاهم عنه لأجل هذه النية.

و ثبت أنه أمر بالاسترقاء: وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لجارية في بيتها رأى في وجهها سفعة - يعني صفرة - فقال: **«بها نظرة فاسترقوا لها»** [3].

وعن عائشة قالت: أمرني رسول الله ﷺ أن أسترقي من العين[4].

مسألة:

هل السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أفضل من غيرهم مطلقاً؟

(٣٨٨٦).

(١) مما ثبت في ذلك ما رواه مسلم في الطب والمرض والرقى (١٧٠/١٤) عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم.

(٢) رواه البخاري بسنده عن جابر.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخارى.

"قال القرطبي: الرقى بأسماء الله تعالى تقتضي التوكل عليه والالتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قادحاً في التوكل لقدح الدعاء، إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رقى النبي ﷺ ورقي وفعله السلف والخلف، فلو كان مانعاً من اللحاق بالسبعين أو قادحاً في التوكل لم يقع من هؤلاء، وفيهم من هو أعلم وأفضل مما عداهم.

وتُعقب: بأنه بنى كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقاً وليس كذلك.

ومن حديث رفاعة الجهني عن النبي ﷺ : **«وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة»** [١].

فهذا يدل على: أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم بل فيمن يحاسب في الجملة من يكون أفضل منهم".

كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير فيعتمدها، فجاء الشرع بالنهي عن ذلك.

و عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث...»** [٢].

وكانوا يسمون الطير السانح والبارح، فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك.

والبارح: بالعكس وكانوا يتيمنون بالسانح ويتشائمون بالبارح.

قال: الحافظ ابن حجر: وليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي ما

---

(١) رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه وابن حبان.

(٢) رواه البخاري بسنده عن ابن عمر.

اعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطي ما لا أصل له.

إذ لا نطق للطير ولا تمييز، فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله.

وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين [١] اهـ كلام ابن حجر.

فبعضهم إذا حصل له في يومه ما يكرهه قال: تصبحت بوجه من هذا اليوم؟ تشاؤماً.

ومن الأسباب التي توجب وقوع المكروه الطيرة، والطيرة على من تطير ولكن نصب الله سبحانه لها أسباباً يدفع بها موجبها وضررها من التوكل عليه وحسن الظن به وإعراض قلبه عن الطيرة وعدم التفاته إليها وخوفه منها وثقته بالله عز وجل.

ولسنا ننكر أن هذه الأمور ظنون وتخمين وحدس وخرص، ومن كان هذا سبيله فيصيب تارة ويخطئ تارات، وليس كل ما تطير به المتطيرون وما تشاءموا به وقع جميعه وصدق، بل أكثره كاذب وصادقه نادر.

والناس في هذا المقام إنما يقولون وينقلون ما صح ووقع ويعتنون به فيرى كثيراً، والكاذب فيه أكثر من أن ينقل.

يقول ابن قتيبة: "من شأن النفوس حفظ الصواب للعجب والاستغراب وتناسي الخطأ، ومن ذا الذي يتحدث أنه سأل منجماً فأخطأ وإنما الذي يتحدث به وينقل أنه سأل فأصاب".

وقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تستحب أن تتزوج المرأة أو يبنى بها في شوال، وتقول: "تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني" وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال مع تطير الناس

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري.

بالنكاح في شوال، وهذا فعل أولي العزم والقوة من المؤمنين الذين صح توكلهم على الله، واطمأنت قلوبهم إلى ربهم، ووثقوا به، وعلموا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنهم ما أصابهم من مصيبة إلا وهي في كتاب من قبل أن يخلقهم ويوجدهم، وأن تطيرهم لا يرد قضاءه وقدره عنهم، بل قد يكون تطيرهم من أعظم الأسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر، فيعينون على أنفسهم، وقد جرى لهم القضاء والقدر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم فطائرهم معهم.

أما المتوكلون على الله المفوضون إليه، العالمون بأمره فنفوسهم أشرف من ذلك وهممهم أعلى وثقتهم بالله وحسن ظنهم به عدة لهم وجنة مما يتطير به المتطيرون، ويتشائم به المتشائمون، عالمون أنه لا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره ولا إله غيره لا شك أن الطيرة شرك يقدح في التوحيد، وينافي كماله الواجب لمنافاتها التوكل على الله الواجب.

ولا علاج لمن وجدها في نفسه إلا بالتوكل على الله عز وجل والإعراض عنها، فقد شفى النبي ﷺ أمته في الطيرة فيما ثبت عنه، فعن ابن مسعود: "الطيرة شرك وما منا إلا تطير ولكن الله يذهبه بالتوكل قوله: (وما منا إلا) من كلام ابن مسعود أدرج في الخبر، وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى.

وقوله: "ولكن الله يذهبه بالتوكل" إشارة إلى من وقع له ذلك فسلم الله ولم يعبأ بالطير، أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك.

واعلم: أن التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم يضره البتة.

ومن كان معتنياً بها قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويُعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه.

كفارتها:

ومن حديث ابن عمرو: "من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك" قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: "أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك" [1].

أما قوله في الحديث: «**وعلى ربهم يتوكلون**» فهو ذكر للأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه الذي هو خلاصة التفريد.

ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به رباً وإلهاً والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعده من النعماء[2].

فوائد التوكل:

١- النصر على الأعداء:**{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ}**، **{وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}**..

٢- يجلب المصالح ويدفع المضار والمصائب ويجلب الرزق ويعجل الشفاء..

٣- التوكل على الله سبب لقوة القلب ونشاطه..

٤- وقاية من الانهيارات النفسية والعصبية..

٥- يباعد بين الإنسان والانتحار وما يفعله هؤلاء الذين عدموا التوكل فيئسوا وأصيبوا بالإحباط فلم يبق لهم في الدنيا مكان في نظرهم..

٦- سبب للحفظ في النفس والمال والولد والأهل**{قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}** يعقوب قالها لبنيه..!**{إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ**

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) التوكل على الله. حقيقته وفضله، وهل ينافي العمل؟ / منيرة بنت حمود البدراني/ بتصرف.

الْمُتَوَكِّلُونَ}، وقال:**{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**. وعندما يخرج الإنسان من بيته يقول: «**بسم الله توكلت على الله**» فماذا يحدث له؟!!.. يقول له ملك: «**هُدِيت، وُقِيت، كُفيت من كل شر**».

٧- التوكل على الله يبعث في القلب الحماس والعزيمة للعمل لأنه فيه فتح لباب الأخذ في الأسباب والأسباب المشروعة، لما يفهم المرء التوكل فهماً صحيحاً ينطلق للعمل ويأخذ بالأسباب، وهذا فيه انتاجية وفيه ثمار تحدث.

٨- والتوكل على الله يرفع الروح المعنوية حتى لو أصاب الإنسان مصائب وشدائد، ففي الجراحات والقتل الذي أصابهم مصيبة فوقها يأتي خبر أن المشركين جمعوا عليكم ليعيدوا الكرة عليكم**{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ}**.

٩- التوكل على الله يجلب الرزق كما يرزق الطير وقد تقدم الكلام في هذا.

١٠- التوكل على الله يحقق النتيجة فالطالب يريد النجاح والتاجر يريد الربح وطالب الوظيفة يريد التعيين في العمل وهكذا.

١١- من توكل على الله يشعر بمعية ربه له أنه معه ناصره مغنيه كافيه واقيه.

١٢- التوكل على الله يجلب محبة الرب للعبد، وكذلك العبد يحب الرب نتيجة التوكل، لأنه يرى آثارتوكله على ربه وكيف أن الله يعطيه على نيته وتوكله عليه فيحب ربه.

١٣- التوكل من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب وهذا أعظم ثمرات التوكل كما جاء في حديث السبعين ألف.

١٤- التوكل على الله عز وغنى.

قصص مع المتوكلين وعلى رأسهم الرسول ﷺ..

لما نزل مع أصحابه في واد فعلق سيفه في شجرة فتفرق الناس في الوادي يستظلون في الشجر فلم يرعهم إلا والنبي ﷺ يدعوهم فأتوه فإذا بشخص وسيف ساقط فقال الرسول إن رجلاً أتاني وأنا نائم فاتخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلفاً أي مسلولاً.. انتبه النبي والسيف فوق رأسه.. أين المهرب..؟!.. فقال من يمنعك مني..؟!! قلت: الله.. هذه كلمة فيها التوكل والتفويض والاستعانة وكل شيء.. قال: فشام السيف أي أغمده.. وفي رواية سقط السيف من يده..، هاهوذا جالس.. كما في صحيح مسلم.

النبي ﷺ مع أبي بكر في الغار، أبو بكر خائف على النبي أكثر من خوفه على نفسه يقول: (يارسول الله لو نظر أحدهم إلى ما بين قدميه لأبصرنا) مابيننا وبين الهلاك إلا نظرة تحت!!.. قال يا أبا بكر: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما..؟!!»**، هذا هو التوكل والتفويض يظهر فعلاً في أوقات الأزمات جلياً واضحاً.. أن هذا العبد قلبه مفتقر إلى الرب متوكل عليه مفوض أمره إليه خصوصاً إذا لم يكن هناك أسباب تتخذ إلا تفويض الأمر إلى الله.

وجاء الإنكار من ابن عباس رضي الله عنه على بعض أهل اليمن الذين يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس مدوا أيديهم.. فأنزل الله**{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}**.

وهناك قصة لطيفة لامرأة رواها الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول في الحديث عن النبي ﷺ : **«إن امرأة خرجت في سرية من المسلمين وتركت ثنتي عشرة عنزاً لها وصيصيتها"السيخ الذي ينسجون به الغزل"كانت تنسج بها، ففقدت عنزاً من غنمها وصيصيتها فقالت ياربي إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه وإني قد فقدت عنزاً وصيصيتي وإني أنشدك عنزي وصيصيتي، فجعل رسول الله يذكر شدة مناشدتها لربها سبحانه وتعالى وشدة توكلها على الله وخرجت في سبيل الله ومعتمدة**

أن الله يحفظ مالها ولما عادت لم تقول أن الله أخلف وعده ولكن نشدت ربها ماوعد به وأخذت تلح وتلح»... قال ﷺ : **«فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها»..** رجع مضاعفاً..!! نامت على الدعاء والتوكل ووجدته مضاعفاً من عند الله..!!

و قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا عبدالحميد بن وهران

قال أبو هريرة: (بينما رجل وامرأة لـه في السلف الخالي لا يقدران على شيء فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسبغة شديدة فقال لامرأته أعندك شيء؟.. لكن رأفة بحال الزوج أو رفع المعنويات وتسليته وما عندها شيء فلم تشأ أن تقول لزوجها راجع جائع جداً (لا).. فالمرأة اشفاقاً على زوجها وثقة بالله قالت (نعم أبشر أتاك رزق الله) مع أنها ليس لديها شيء لكنها الثقة والاعتماد على الله ورجاء الله، فاستحثها فقال ويحكِ ابتغي إن كان عندكِ شيء..!!.. قالت: نعم هنيّة.. اصبر.. نرجوا رحمة الله..! حتى إذا طال عليه الطوى وجاع زيادة فوق جوعه فقال (ويحكِ إن كان لديكِ خبز فأتيني به فإني قد بلغت وجهدت فقالت نعم الآن ينضج التنور) أوقدت الفرن والفرن ليس فيه شيء فلا تعجل فلما أن سكت عنها ساعة، وتحينت أن يقول لها قالت هي من نفسها لو قمت فنظرت إلى تنوري مع الثقة بما عند الله.. فقامت فوجدت تنورها ملآن جنوب الغنم.. ورحييها تتطحنان..!!! فقامت إلى الرحى فنفضتها وأخرجت مافي تنورها من جيوب الغنم..!! قال أبو هريرة فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ : **«لو أخذت مافي رحييها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة»..!!**

قد يقول بعض الناس ماذا نقول في قصة خالد بن الوليد لما شرب السم، أو ما جاء عن عمر أنه أكل مع مجذوم.

قصة خالد مشهورة في كتب التاريخ، أنهم حاصروا حصناً فقال الروم لا نسلّم (نستسلم) حتى تشرب السمّ..، وحكم شربه حرام لا يجوز (من تحسّى سمّاً فقتل نفسه فسمّ تحسّاه في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)، خالد في وقت حرج، استسلام هؤلاء يعني حماية المسلمين وإبعاد الأذى عنهم في الحرب والجراحات فيه مصلحة عظيمة، والروم هؤلاء كأنهم يريدون شيء من الكرامات يستسلمون لهؤلاء - تحدّي - فأخذه خالد ثقة بالله وتوكلاً على الله وشرب ولم يضره وسلم الروم.

هذه حالة خاصة ونادرة لم يكن أخذه لها بسبب الانتحار وإنما وجد خالد مصلحة عظيمة للمسلمين ووجد في نفسه توكل على الله كبير وهذا شيء يشعر به ربما بعض أولياء الله في بعض الحالات..، لم يضره من التوكل..، ولكن هذا لا يقع مع أي أحد.

وكذلك تحمل قصة عمر رضي الله عنه لمن أراد الإثبات والبرهنة لمن يعتقد أن العدوى لابد أن تصيب فوجد في نفسه شدة وصحة توكل وقوة في القلب لإثبات للناس أنه لا عدوى، ولكن هذه حالات خاصة تكون مع أولياء الله وليست القضية على إطلاقها فالأصل باقٍ على ما هو عليه.

الرجاء الذي هو ضد اليأس، واليأس هو تذكر فوات رحمة الله وقطع القلب عن التماسها وهو معصية**{وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ}** قالها يعقوب عليه السلام لأبنائه.

* * * * *

المبحث الثالث:

الخـوف

حلول مكروه أو فوات محبوب، اضطراب القلب وحركته أو فزعه من مكروه يناله أو محبوب يفوته.

قال ابن قدامة: اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك: من جنى على ملك جناية ثم وقع في يده فهو يخاف القتل ويجوّز العفو "احتمالات" ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وتفاحش جنايته وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية بل عن صفة الذي يُخاف عظمة وجلالاً فإنه إذا علم أن الله سبحانه وتعالى لو أهلك العالمين لم يبالي ولم يمنعه مانع فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه وبجلال الله وأنه لا يسأل عما يفعل يكون الخوف على حسب هذا فهو مطالعة القلوب لسطوات الله عز وجل ونقمه فيولد في القلب الخوف"خوف الوعيد".

أدلة وجوب الخوف

١- **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**، قال ابن سعدي - رحمه الله -: في هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفهم من الله.

{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} والأمر يقتضي الوجوب.

{فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}، قال ابن سعدي: أمر الله بخشية الله التي هي رأس كل خير فمن لم يخشَ الله لم ينكفّ عن معصته ولم يمتثل أمره.

٢- إن الله امتدح أهل الخوف، فقال:**{الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ}{أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}**.

عن عائشة زوج النبي ﷺ : سألت النبي ﷺ عن هذه الآية**{الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}** أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم.

{أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ} قال الحسن: عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم..

إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً..!

٣- والتخويف من عذاب الله أحد مهمات الرسل**{وَمَا نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}** والإنذار هو الإعلام بالشيء الذي يخيف، فالإنذار في لغة العرب كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: الإنذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور.

وقد وصف الله تعالى رسوله محمد ﷺ بأنه نذير في مواضع كثيرة.

٤- جمع قومه على الصفا وقال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد (أنا النذير العريان)، وقد كان العرب إذا رأى أحدهم جيشاً يغير على قبيلته قد اقترب وهو في الخارج ولا تدري قبيلته جاء يركض ويخلع ثيابه وهو يصرخ حتى يبين لهم هول المصيبة التي ستنزل بهم وفداحة الخطر، وهذه أشد أنواع النذارات عند العرب.**{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ}**.**{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}**.

كان من أوائل أوامر الرسول ﷺ هو الإنذار**{يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ}**، خوف الناس عذاب الله جهنم، بأس الله وانتقامه..، قال القرطبي: خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا.

وقد وصف الله العذاب في كتابه في عدة مواضع لتحقيق الخوف في نفوس عباده ليتقوه، كما قال تعالى:**{لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}**.

قال ابن كثير:**{يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ}** إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوّف به عباده. قال: لينزجروا عن المحارم والمآثم.**{يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}** أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي.

وبين سبحانه أن مايرسله من الآيات لتصديق الأنبياء عليهم السلام كناقة صالح إنما يرسله من أجل التخويف**{وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً}**.

كذلك الآيات الكونية كالخسوف والكسوف وغيرها.

وكذلك قال الله في البرق والرعد:**{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}**.

الأسباب الجالبة للخوف

الخوف ليس مقصوداً لذاته بل لما بعده من فعل الواجبات وعدم تركها والبعد عن المحرمات وعدم ارتكابها وإذا زاد يمكن أن يكون فعل مستحبات وترك مشتبهات وإذا زاد أكثر يصبح مذموماً وإذا نقص عن هذا يكون أيضاً ناقصاً لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، فمن الأسباب الجالبة للخوف:

١- سابق الذّنب الذي وقع فيه.

٢- حذر التقصير في الواجبات.

٣- الخوف من المصير أن يكون على ما يكره.

٤- إجلال الله وتعظيمه**{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}**. والملائكة خوفهم من الله شديد جداً**{حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ}** فالله إذا تكلم بالكلمة في السماء من أوامره ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقوله، فأصدرت صوتاً عظيماً كجرّ السلسلة العظيمة على الصخرة ثم يغشاهم من الفزع ما يغشاهم ورجعوا إلى حالة يستطيعون فيها الكلام قالوا ماذا قال ربكم

تناقلت الأوامر قالوا الحق، فإذاً إجلال الله يقتضي الخوف والهيبة منه جل وعلا وهذه أهمية معرفة أسماء الله وصفاته.

٥- الخوف من الله يتعلق بقضيتين..

أ - الخوف من عذابه..

ب - الخوف من الله..

الناس العامة ينزعون إلى الخوف من النار أكثر، وأهل الفقه والعلم خوفهم من الله قبل خوفهم من ناره لأن العامة قد يكون فهمهم وعلمهم قليل وبساطة فأحياناً لا يتذكر من كل القضية إلا النار، وقد لا يستوعب أن الخوف من الله قبل الخوف من ناره أول وأكبر وأعظم ولذلك قال ابن قدامة رحمه الله: (في مقامي الخوف المقام الأول الخوف من عذاب الله وهذا خوف عامة الناس وهذا النوع من الخوف يحصل بالإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، المقام الثاني الخوف من الله نفسه عزوجل وهو خوف العلماء والعارفين لأنه يكفيهم فقط ثلاث كلمات**{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}**، ولذلك قال النبي ﷺ : «أنا أعرفهم بالله وأشدهم له خشية»، وقال الله تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ}** لأنه لما كملت معرفتهم بربهم وأسمائه وصفاته أثرت الخوف ففاض الأثر على القلب ثم ظهر على الجوارح بهذه الأعمال.

٦- تتأمل النجاة لمن، وتقارن نفسك بصفاتهم**{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى}**. وكما في سورة العصر حيث أقسم الله أن الناس في خسران واستثنى**{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**. وكما في قوله تعالى:**{وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}**. هذه الآية تورث الخوف حيث أقسم الله أنه ليملأ جهنم فينخلع القلب والله تعالى يقول:**{وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياًّ}** وقيل لفلان لم تبكي؟ قال لأني أعلم يقيناً أنني سآتي على جهنم ولكن ليس لدي يقين أنني سأنجو منها..!!، وفي مسألة قبول العمل

أيضـاً والله تعـالى يقـول:**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}**. فـإذا حصـل الخـوف حصلت أسباب النجاة.

٧- تدبر كلام الله ورسوله والنظر في سيرته، قال ابن القيم: (لأنه سيد الخائفين وإمام المتقين وأخشاهم لله فإذا تدبر المسلم كلام الله وسنة نبيه شهد قلبه أموراً من صفات الله وعقوباته وانتقامه وكيف خاف الأنبياء والملائكة والصالحون، وليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آيات الكتاب العزيز فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل وتحثه على التضمرّ والتخفف للقاء اليوم الثقيل). يقول ابن الجوزي: (والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد وآخر سورة الحشر وآية الكرسي وسورة الإخلاص بتفكر وتدبر لتصدّع قلبه من خشية الله وتحيّر من عظمة الله ربّه).

٨- التفكر في عظمة الله سبحانه وتعالى، فإنه من تفكر في ذلك خاف الله لا محالة لأن التفكر يوقعه على صفات الله جل جلاله وكبريائه ومن شهد قلبه عظمة الله وكبرياءه علم شأن تحذيره عندما قال:**{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}** أي خافوه واخشوه بما أبدى لكم من صفاته وأسمائه وعدله عز وجل، قال تعالى:**{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}** يمجد الرب نفسه، أنا الجبار الملك، أنا المتكبر العزيز الكريم..، قالها ﷺ فرجف به المنبر حتى قال الصحابة ليخرنّ به، وجعل النبي ﷺ على المنبر يقول : **«يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده وقبض يده فجعل يقبضها ويبسطها ثم يقول أنا الجبار أين الجبارون أين المتكبرون»** ويتمايل الرسول ﷺ عن يمينه وشماله حتى نظر صحابي إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى قال أساقط هو برسول الله؟!!. ما السموات السبع في الكرسي إلا كلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة فإذا عرف الإنسان عظمة الرب جلب له ذلك الخوف منه.

٩- التفكر في الموت وشدته وأنه لا مفر منه**{قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ}**، فهذا يوجب الخوف من الله : **«أكثروا من ذكر هادم اللذات، الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»**.

١٠- التفكر فيما بعد الموت، في القبر وأهواله، قال ﷺ : **«كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنه يرقّ القلب وتدمع العين تذكر الآخرة ولا تقول هجرة»**.

عن البراء يقول كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى بلّ الثرى وقال: يا أخواني لمثل هذا فأعدّوا.

١١- إذا قدم إلى القيامة وأهوالها وحديث البعث والنشور إلى ذبح الموت، **«يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور»**.
لفت النظر يقوي مراقبة العبد ربه.

١٢- إذا دخل أهل النار النار..، ماذا يوجد فيها من الأهوال في شدة عذابها؟!!..، **{إِنَّهَا لإِحْدَى الكُبَرِ}**. قال الحسن: كبرت منذرة داهية عظيمة أعظم الدواهي ما أنذرت الخلائق بشيء قط أفظع منها.

وكيف قرت لأهل العلم أعينهم ::: أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا
والموت ينذرهم جهراً علانية ::: لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له ::: أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع
لينفع العلم قبل الموت عالمه ::: قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

١٣- تفكر العبد في ذنوبه وأنه نسيه والله تعالى أحصاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاه، وأن الله يمكن أن يعطيه النعم استدراجاً**{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً}**، في قصة صاحب الجنتين حين قال**{مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}**.

١٤- التفكر في عاقبة محقرات الذنوب التي يحقرها الناس، وقد مثلها النبي ﷺ بقوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وهذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وهناك ارتباط بين الأعواد وإيقاد النار وبين الذنوب وما تسبب من نضج جلود العصاة**{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ}**.

١٥- أن يعلم العبد أنه قد يحال بينه وبين التوبة بموت مفاجيء، تسويف، شبهات، إصرار على المعصية والشهوات، فتنة مضلّة، والحسرة حينها لا تنفع**{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ}{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ}**.

١٦- التفكر في سوء الخاتمة حينئذ**{المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}**، وملك الموت كيف يسحب روح الفاجر فيتقطع فيها كل عرق وعصب وكيف يجعل في كفه من النار وحنوط له من جهنم..

تجالس ناس يكسبونك خشية وخوف من الله من الصالحين والعلماء المتقين**{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}**، صاحب أصحاب الخشية، رقة قلب إذا سمعوا الذكر وتلين قلوبهم**{ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}**.

أصحب سير الخائفين من الله..

- الإمام أحمد وخشيته..
- ابن عباس رضي الله عنه كان تحت عينيه خطّان كالشراكان البالیان أخادید من الدموع.
- عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ آيات فمرض مرض عاده الناس من بعده.
- عائشة وأبو بكر رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى قال عن

نفسه: «**لو نادى منادٍ من السماء يا أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا واحداً لخفت أن أكون أنا هو**»..!! وغيرهم من الصحابة والتابعين.

١٧- سماع المواعظ وبعض الخطب.

١٨- العلم بالله وأسمائه وصفاته وكلامه وكلام رسوله.

١٩- الدعاء.

وذلك مقصود في دعاء الرسول ﷺ يسأل الله أن يرزقه الخشية: «**ربي أعني ولا تعن علي وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي واجعلني لك شكاراً لك ذكاراً لك رهّاباً لك مطواعاً لك مخبتاً إليك أواهاً منيباً، ربي تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واهدِ قلبي واسلل سخيمة صدري**»..

ويدعو بقوله: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك**».

«**اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة**».

موانع الخوف

الخوف تمنعه أشياء منها المعاصي، الدنيا، الرفقة السيئة، الغفلة وتبلّد الإحساس..

الخوف القاصر نوع خطير من الخوف، وهو أن يحضر موعظة ويسمع ويتأثر ثم يمشي..

هذا خوف لا يكفي وإنما العبرة بما وقع نفع ودخل واستقر..

المطلوب الخوف المستمر..

قال أحد الصحابة: (وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل إنها موعظة مودّع ماذا تعهد إلينا؟ فأعطاهم ﷺ الوصية).. انظر إليهم.. يريدون التطبيق..

والرسول ﷺ قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وخرجتم إلى**

جاء حذافة وقد كان ينسب لغير أبيه فقال من أبي قال حذافة: فصار إثبات نسبه بالوحي، حتى جاء عمر فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً عائذاً بالله من سوء الفتن..

فقال الرسول ﷺ : لم أرك اليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار رأيتهما دون هذا الحائط..

قال ﷺ : **«أطّت السماء وحق لها أن تأطّ ما فيها موضع إلا وفيها ملك قائم أو قاعد أو ساجد»..**

فالخوف إذا باشر قلب العبد فاض أثره على الجوارح وظهر، وليس أنه كان شيئاً سريعاً وذهب..

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ::: إن السفينة لا تجري على اليبس

قال ﷺ : **«ما رأيت مثل النار نام هاربها»..**

قال ابن تيمية - رحمه الله -: (كل عاصٍ لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع)، الخائف من الله يبادر إلى الخيرات قبل الممات ويغتنم الأيام والساعات..

من فوائد الخوف:

١ - أن الله جعله شرطاً لحصول الإيمان**{فَلاَ تَخَافُوَهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**. قال ابن جرير: لا تخافوا أيها المؤمنين المشركين ولا يعظمن عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي فأطعتموني واتبعتم أمري وإني متكلف لكم بالنصر والظفر ولكن خافوني واتقوني أن تعصوني أن تخالفوا أمري فتهلكوا إن كنتم مؤمنين فالله عزوجل أولى أن يخاف منه من الكفار والمشركين.

٢ - ابتلى الله الصحابة رضي الله عنهم بابتلاء عظيم ليظهر الذي لا يخاف من الذي يخاف في الصيد**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**.

ليختبرنكم الله أيها المؤمنون ببعض الصيد في حال الإحرام كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به المنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه، يختبر ليظهر من الذي يخاف الله والذي لا يخافه**{لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}**، يعني يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً ومحرم عليهم الصيد في الإحرام لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره ومن لا يطيع، أما الصحابة فنجحوا في ذلك، وأما اليهود ففشلوا عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فاستحلوا محارم الله بأدنى الحيل، فنصبوا الشباك يوم الجمعة وسحبوها يوم الحد، فلم يخافوا الله فهلكوا.

فالمرء قد يتعرض أحياناً لمعصية أو شهوة والوقوع فيها يسير جداً وقد تكون الفضيحة مأمونة**{لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}**، وكما في قصة يوسف وامرأة العزيز، هنا يكون الاختبار والبلاء.

الخوف من الله عبادة قامت في قلب النبي ﷺ فارتفعت نفسه عن المحرمات والمحظورات لأنه يخاف رب الأرض والسموات**{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}**. فهو يخشى عذاب الله ولا يتعد حدوده.

٣ - الخوف من الله من صفات أولي الألباب**{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}**. الخوف من الله يدل على أن صاحبه صاحب عقل، من أولي الألباب أي راجح العقل يعرف الشيء الذي يخوّف حقاً.

نماذج من خوف بعض الصحابة والتابعين:

هذا أبو بكر رضى الله عنه أفضل رجل في هذه الأمة بعد رسول الله نظر إلى طير وقع على شجرة فقال: ما أنعمك يا طير، تأكل وتشرب وليس عليك حساب وتطير ليتني كنت مثلك،

وكان رضى الله عنه كثير البكاء وكان يمسك لسانه ويقول: (هذا الذي أوردني الموارد) وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله.

وهذا عمر قال لابنه عبد الله وهو في الموت: (ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني ثم قال: بل ويل أمي إن لم يغفر لي ويل أمي إن لم يغفر لي)، وأخذ مرة تبنة من الأرض فقال: (ليتني هذه التبنة ليتني لم أكن شيئا، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت منسيا)، وكان رضى الله عنه يمر بالآية من ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أياما معاد يحسبونه مريضا، وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

وهذا عثمان رضى الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته وقال: (لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصيرُ).

وهذا علي رضى الله عنه كما وصفه ضرار بن ضمرة الكناني لمعاوية يقول: كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، ويتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفيه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يميل في محرابه قابضا على لحيته يضطرب ويتقلب تقلب الملسوع ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه يقول للدنيا: إلي تعرضت، إلي تشوفت، هيهات هيهات غري غيري قد طلقتك ثلاثا فعمرك قصير

ومجلسك حقير وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. فوكفت دموع معاوية رضى الله عنه على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء وهو يقول: هكذا والله كان أبو الحسن.

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشّراك البالي من البكاء.

وهذا أبو عبيدة يقول عن نفسه: وددت أني كنت كبشا فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويشربون مرقي، وهكذا كان حال صحابة رسول الله مع أنهم كانوا مبشرين بالجنة فهذا علي رضي الله عنه يصفهم ويقول: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أرَ أحدا يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا وقد باتوا سجدا أو قياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقعون على مثل الجمر من ذكر معادهم كأن بين أعينهم ركب العزي من طول سجودهم إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبتل جيوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفا من العقاب ورجاء للثواب. وهذا سفيان الثوري رحمه الله يقول: والله لقد خفت من الله خوفا أخاف أن يطير عقلي منه وإني لا أسأل الله في صلاتي أن يخفف من خوفي منه.

أيها الأحبة: هل من مشمر؟ هل من خائف؟ هل من سائر إلى الله؟ بعد هذا الذي سمعناه أرجو أن نكون مثل سلفنا علما وعملا خوفا ورجاء ومحبة فإن فعلنا ذلك كنا صادقين وكنا نحن المشمرين إن شاء الله.

لما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن قوله تعالى:**{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}**أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: **«لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»**، قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية وإن المنافق جمع إساءة وأمنا.

وكان خوفهم أيضا من أن يسلب أحدهم الإيمان عند قوته يقول ابن المبارك: إن البصراء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضى لا يدري ما يصنع الرب فيه، وعمر

قد بقي لا يدري ما فيه من الهلكات، وفضل قد أعطي لعله مكر واستدراج وضلالة قد زينت له فيراها هدى ومن زيغ القلب ساعة ساعة أسرع من طرفة عين قد يسلب دينه وهو لا يشعر.

وهذا سفيان الثوري رحمه الله كان يكثر البكاء فقيل له: يا أبا عبد الله بكاؤك هذا خوفا من الذنوب، فأخذ سفيان تبناً وقال: والله للذنوب أهون على الله من هذا ولكن أخاف أن أسلب التوحيد. وهذا أبو هريرة رضى الله عنه كان يقول في آخر حياته: (اللهم إني أعوذ بك أن أزني أو أعمل كبيرة في الإسلام)، فقال له بعض أصحابه: يا أبا هريرة ومثلك يقول هذا أو يخافه وقد بلغت من السن ما بلغت وانقطعت عنك الشهوات، وقد شافهت النبي ﷺ وبايعته وأخذت عنه، قال: (ويحك، وما يؤمنني وإبليس حي).

وكان بلال بن سعد يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب، وتبعات الذنوب ومن مرديات الأعمال ومضلات الفتن).

قال أبو الدرداء رضى الله عنه: (مالي لا أرى حلاوة الإيمان تظهر عليكم، والله لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان لظهر عليه حلاوته، ما خاف عبد على إيمانه إلا منحه وما أمن عبد على إيمانه إلا سلبه) وكان من دعائه رضى الله عنه: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ويا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك وطاعة رسولك)، ولما احتضر عمر بن قيس، الملائي بكى فقال له أصحابه: على ما تبكي من الدنيا فوالله لقد كنت غضيض العيش أيام حياتك فقال: والله ما أبكي على الدنيا وإنما أبكي خوفا من أن أحرم الآخرة.

يقول الإمام الغزالي: ولا يسلم من أهوال يوم القيامة إلا من أطال فكره في الدنيا فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينيك ويرق قلبك حال الموعظة ثم تنساه

على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك، فما هذا من الخوف في شيء فمن خاف شيئا هرب منه، ومن رجا شيئا طلبه، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك من المعاصي ويحثك على الطاعة، وأبعد من رقة النساء خوف.

أحبتي: لم يكن سلفنا الصالح يخافون ويبكون ويتضرعون نتيجة تقصيرهم أو نتيجة عصيانهم وكثرة ذنوبهم، كلا بل كانوا يخافون أن لا يتقبل الله منهم ولهذا الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم: استعنت بالله اللهم سلم سلم، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذته كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن فإذا رأى أنياب السبع وصرلته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأني يغني عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره)، فالله أسأل أن يجعلنا ممن إذا خافه أطاعه وابتعد عن معاصيه.

ثمرات الخوف من الله:

أ – في الدنيا..

١ - من أسباب التمكين في الأرض، وزيادة الإيمان والطمأنينة لأنك إذا حصل لك الموعود وثقت أكثر، قال عز وجل:**{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}**، إذاً الخوف من الله يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وأن يهلك الله عدوهم ويخزيهم ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم.

٢ - يبعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا فلا ينقص الأجر في الآخرة**{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً}**، **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}، أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل، يريدون النجاة ويحذرون الهلاك ويخافون أن يأتوا وكتبهم بشمالهم.

ب – في الآخرة..

١ - يجعل الإنسان في ظل العرش يوم القيامة، **«ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»**، ظاهر الحديث أنه يقولها بلسانه ليزجر المرأة عن فعلها وليذكر نفسه ويصر على موقفه ولا يتراجع بعد إعلان المبادئ، **«ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»**، الخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة.

١ - من أسباب المغفرة، شاهد ذلك الحديث: رجل كان فيمن قبلنا عنده جهل عظيم ورزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حضره الموت: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا وما أسهل أن يعيده الله كما كان، قال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته..!!، فعذره الله بجهله وشفع له خوفه من ربه وإلا فالذي ينكر البعث كافر.

٢ - يؤدي إلى الجنة لأن النبي ﷺ : **«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»** أي الذي يخاف من إغارة العدو وقت السحر يسير من أول الليل(أدلج) فبلغ المنزل والمأمن والمطلب، وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ لسالك الآخرة فإن الشيطان على طريقه والنفس الأمارة بالسوء والأماني الكاذبة وأعوان إبليس، فإن تيقظ في مسيره وأخلص النية في عمله أمن من الشيطان وكيده ومن قطع الطريق عليه، هذه سلعة الله التي من دخلها كان من الآمنين.

٣ - يرفع الخوف عن الخائف يوم القيامة: **«وعزتي وجلالي، وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في**

الآخرة».

٤ - سبب للنجاة من كل سوء، **«ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية»** فهذه الخشية هي التي تحفظ العبد وتنجيه من كل سوء لأنه قال ووعد الله لا يخلف وهذا رسوله (منجيات) وعمّم تشمل الدنيا والآخرة.

٥ - يصبح الإنسان ممدوحاً مثني عليه ويكفيه فخراً أن يدخل في أصحاب الأسماء والألقاب الشريفة**{المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}** ألفاظ شريفة كانوا يسعون لحيازتها**{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**.

{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}.

{وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ}.

وأثنى الله على أقرب عبادة وهم الأنبياء لخوفهم منه**{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}**.

بل الملائكة**{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}**.

قال ابن القيم: من ثمرات الخوف أن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة مكدرة.

وليس المقصود تكدير اللذائذ المباحة، الرسول ﷺ استمتع وهو سيد الخائفين على قدر: **«حبب إليه من الدنيا الطيب والنساء»**.

تكدر اللذات المحرمة بتذكر عذاب الله ووعيده لمن وقع فيها فتتكدر لذته المحرمة بتذكر مابها من عذاب.

قال ابن القيم - رحمه الله -: كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويذل القلب ويستكين ويفارقه الكبر والحقد والحسد ويصير مستوعب الهم لخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون لـه شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والظنّة (البخل) بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله (الخائف) كم وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلكه ولا شغل لـه إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف وقوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وبعيوب نفسه وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وقال ابن قدامة: فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة وهي لقاء الله تعالى والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة:**{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}**.

٥ - الرضا من الله**{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}**.

* * * * *

المبحث الرابع:

الخشيــة

الخشية أمرها عظيم، وقد مدح الله وأثنى على الذين يخشونه، كما قال تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[1] ولا خير في علم لا يؤدي إلى خشية الله تبارك وتعالى.

إذا زاد الإيمان في قلب المؤمن لم يعد يستحضر في قلبه إلا الخوف من الله، والناس في خوفهم من الله متفاوتون ولهذا كان خوف العلماء في أعلى الدرجات وذلك لأن خوفهم مقرون بمعرفة الله مما جعل خوفهم مقرون بالخشية كما قال تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ}**[2].

والخشية درجة أعلى وهي أخص من الخوف، فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية، كما قال النبي ﷺ : **«إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»** وقال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»** قال الإمام أحمد: هذا يدل على أن كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف.

والخوف: هو اضطراب القلب ووجله من تذكر عقاب الله وناره ووعيده الشديد لمن عصاه والخائف دائما يلجأ إلى الهرب مما يخافه إلا من يخاف من الله فإنه يهرب إليه كما قال أبو حفص: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا خفته هربت إليه. فالخائف هارب من ربه إلى ربه قال تعالى:**{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}**[3]، قال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلب

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) فاطر ٢٨.

(٣) الذاريات ٥٠.

أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها.

وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق. وقال أبو حفص: الخوف سوط الله، يقّوم به الشاردين عن بابه.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه ويبن محارم الله عز وجل فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الخوف المحمود: هو ما حجزك عن محارم الله وهذا الخوف من أجلّ منازل السير إلى الله وأنفعها للقلب وهو فرض على كل أحد.

ومن كان الخوف منه بهذه المنزلة سوف يحجزه خوفه عن المعاصي والمحرمات فلا يأكل مالا حراما ولا يشهد زورا، ولا يحلف كاذبا، ولا يخلف وعدا ولا يخون عهدا ولا يغش في المعاملة ولا يخون شريكه ولا يمشي بالنميمة، ولا يغتاب الناس ولا يترك النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يزني ولا يلوط ولا يتشبه بالنساء ولا يتشبه بغير المسلمين ولا يتعاطى محرما ولا يشرب المسكرات ولا المخدرات ولا الدخان ولا الشيشة ولا يهجر مساجد الله ولا يترك الصلاة في الجماعة ولا يضيع أوقاته في اللهو والغفلة بل تجده يشمر عن ساعد الجد يستغل وقته كله في طاعة الله ولهذا قال ﷺ : **«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا وإن سلعة الله غالية ألا وإن سلعة الله هي الجنة»** [١] والمراد بهذا الحديث التشمير في الطاعة والاجتهاد من بداية العمر لأن الجنة غالية تحتاج إلى ثمن باهظ ومن سعى لها وعمل صالحا وسار من أول الطريق نال بغيته إن شاء الله.

ولهذا كان السلف الصالح يغلّبون جانب الخوف في حال الصحة والقوة حتى يزدادوا من طاعة الله ويكثروا من ذكره ويتقربوا إليه بالنوافل والعمل الصالح.

---

(١) رواه الترمذي / حديث حسن.

أحبتى: إن رجحان جانب الخوف من الله في قلب المؤمن هو وحده الذي يرجح الكفة وهو وحده الذي يعصم من فتنة هذه الدنيا وبدون الخوف لا يصلح قلب ولا تصلح حياة ولا تستقيم نفس ولا يهذب سلوك وإلا فما الذي يحجز النفس البشرية عن ارتكاب المحرمات من زنى وبغى وظلم وركون إلى الدنيا غير الخوف من الله، وما الذي يهدئ فيها هيجان الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟

وما الذي يثبت النفس في المعركة بين الحق والباطل وبين الخير والشر؟ وما الذي يدفع الإنسان إلى تقوى الله في السر والعلن سوى خوف الله، فلا شيء يثبت الإيمان عند العبد رغم الأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج إلا اليقين في الآخرة والإيمان بها والخشية والخوف مما أعده الله من العذاب المقيم لمن خالف أمره وعصاه. فتذكر الآخرة في جميع الأحوال والمناسبات والظروف يجعل عند الإنسان حسا مرهفا يجعله دائم اليقظة جاد العزيمة دائم الفكر فيما يصلحه في معاشِه ومعادِه كثير الوجل والخوف مما سيؤول إليه في الآخرة.

في كتاب الزهد للإمام أحمد عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قلت ليزيد! ما لي أرى عينيك لا تجفّ؟ قال: يا أخي إن الله توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو توعدني أن يسجنني في الحمام لكان حريا أن لا يجف لي دمع. وروى ضمرة عن حفص بن عمر قال: بكى الحسن البصري فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن يطرحني في النار غدا ولا يبالي. ولهذا من خاف واشتد وجله من ربه في هذه الدنيا يأمن يوم الفزع الأكبر.

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا أنه قال: **«وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين: إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»** (١).

أحبتى: لقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة عاشوا مشاهد الآخرة

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

فعلا وواقعا كأنهم يرونها حقيقة ولم يكن في نفوسهم استبعاد لذلك اليوم بل كان يقينهم بذلك اليوم واقعا تشهده قلوبهم وتحسّه وتراه وتتأثر وترتعش وتستجيب لمرآه ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بطاعة الله وكأن النار إنما خلقت لهم.

قال يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما، وحق لهما أيها الإخوة ولكل مؤمن أن يخاف من النار وأن يستعيذ بالله منها لأن الخبر ليس كالمعاينة يقول ﷺ : **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد»** [(١)] وقال في وصف النار محذرا منها: **«نار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»** ولهذا كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم إذا رأى أحدهم نارا اضطرب وتغير حاله.

فهذا عبد الله بن مسعود مر على الذين ينفخون على الكير فسقط مغشيا عليه وهذا الربيع بن خثيم رحمه الله مر بالحداد فنظر إلى الكير فخر مغشيا عليه، وكان عمر بن الخطاب ربما توقد له نار ثم يدني يديه منها ويقول: **«يا ابن الخطاب هل لك صبر على هذا»**.

وكان الأحنف رضي الله عنه: يجيء إلى المصباح بالليل فيضع إصبعه فيه ثم يقول: (حس، حس ثم يقول يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا وكذا يحاسب نفسه) وفي الحديث: **«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»**.

أحبتي :إن أمر القيامة أمر عظيم رهيب، يرجّ القلب ويرعب الحس رعبا مشاهده يرجف لها القلوب والله سبحانه أقسم على وقوع هذا الحادث لا محالة فقال في سورة الطور**{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ}**[(٢)] فهو واقع حتما، لا يملك دفعه أحد أبدا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الطور: ٧.

والأمر داهم قاصم ليس منه دافع ولا عاصم كما أن دون غد الليلة، فما أعددنا لذلك اليوم، وما قدمنا له وهل جلس كل منا يحاسب نفسه ما عمل بكذا وما أراد بكذا بل الكل ساهٍ لاه، والكل في سكرته يعمهون ويلعبون ويضحكون ويفسقون ويفجرون وكأن أحدهم بمنأى من العذاب وكأنهم ليس وراءهم موتا ولا نشورا ولا جنة ولا نارا **{أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ}**[١] يقول الحسن البصري رحمه الله: (إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتي،

ما أردت بأكلتي ما أردت بحديثي، وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاقب نفسه). فحقيق بالمرء أن يكون له مجالس يخلو فيها يحاسب نفسه ويتذكر ذنوبه ويستغفر منها.

أيها الأحبة: لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلا وواقعا عاشوا مع الآخرة واقعا محسوسا، لقد كانوا يشعرون بالقرآن ينقل إليهم صوت النار وهي تسري وتحرق وإنه لصوت تقشعر منه القلوب والأبدان كما أحس عليه الصلاة والسلام برهبة هذا الأمر وقوته حتى أنه وعظ أصحابه يوما فقال: **«إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله عز وجل، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لوددت أني شجرة تعضد»** [٢].

وفي رواية قال: **«عرضت علي الجنة والنار فلم أرى كاليوم في الخير والشر»** ثم ذكر الحديث فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رؤوسهم ولهم خنين والخنين هو البكاء مع غنّه، ولطول المطلع وشدة يطرحني في النار غدا ولا يبالي. ولهذا من خاف واشتد وجله من ربه في هذه الدنيا يأمن يوم الفزع الأكبر.

---

(١) المطففين: ٥.

(٢) رواه البخاري.

وكما قيل:

يـا آمنـا مـع قبـح الفعـل منـه هل أتاك توقيـع أمـن أنت تملكه

جمــعت شيئيـــن أمنـــا واتبـــاع هـــوى	:::	**هـــذا وإحـــداهما فـــي المـــرء تهلكـــه**
والمحسنون على درب الخوف قد ساروا	:::	**و ذلـــــك درب لســـــت تسلــــكه**
فرطـت فـي الـزرع وقـت البـذر مـن سـفه	:::	**فكيـــف عنـــد حصـــاد النـــاس تدركـــه**
هـذا وأعـجب شـيء فيـك زهـدك فـي	:::	**دار البقـــاء بعـــيش ســـوف تتركـــه**

نعـم والله هـذا حـال الكثيـر مـن النـاس اليـوم لا يريـدون أن يعملـوا ولا يريـدون أن يتذكروا فإذا ذكرت لهم النار قالوا: لا تقنط الناس، وهذا والله هو العجب العجاب يريدون أن يبشروا بالجنة ولا يذكروا بالقيامة وأهوالها ولا بالنار وسمومها وعذابها وهم على مـا هم فيه من سيئ الأعمال وقبيح الصفات، قـال: الحسن البصري: لقد مضـى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصـى، لخشـي أن لا ينجو من عظم ذلك اليوم، وقد ورد في الترمذي عن أبي هريرة رضـى الله عنه عن النبـي ﷺ أنـه قـال: **«ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها»** والسبب في ذلك ضعف جانب الخوف عند هؤلاء، لقد كان بعض السلف من شدة خوفه ووجلـه وكثرة تفكيره فـي أحوالـه الآخرة لا يستطيع النوم ولا الضحك ولا اللهو حتى يعلم أهو من الناجين أم لا، فهذا شداد بن أوس رضى الله عنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم ويقول (الله إن النـار أذهبت مني النوم فيقوم يصلي حتى يصبح).

وهذا منصور بن المعتمر كان كثير الخوف والوجل كثير البكاء من خشية الله قال عنه زائدة بن قدامة: إذا رأيته قلت: هذا رجل أصيب بمصيبة ولقد قالت لـه أمـه: مـا هذا الذي تصنع بنفسك تبكى عامة الليل، لا تكاد أن تسكت لعلك يا بنيّ أصبت نفسا، أو قتلت قتيلا؟ فقال: يا أمه أنا أعلم بما صنعت نفسي.

وهذا معاذ بن جبل رضى الله عنه لما حضرته الوفـاة جعل يبكـي، فقيل لـه: أتبكـي وأنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت وأنت؟ فقـال: مـا أبكـي جزعـاً من الموت أن حل بـي ولا دنيا تركتها بعدي، ولكن هما القبضتان، قبضة في النار وقبضـة فـي الجنـة فلا أدري

في أي القبضتين أنا. يقول الحسن بن عرفه: رأيت يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينين، ثم رأيته بعد ذلك بعين واحدة ثم رأيته بعد ذلك وقد ذهبت عيناه فقلت له: يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان، فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار. والبكاء من خشية الله سمة العارفين قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بمئة ألف درهم.

ولما جاء عقبة بن عامر إلى النبي ﷺ يسأله: ما النجاة؟ نعم والله ما النجاة كيف ننجو من عذاب الله؟ فقال له: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**» وفي رواية قال: «**طوبى لمن ملك نفسه ووسعه بيته وبكى على خطيئته**».

وقد بين ﷺ أن من بكى من خشية الله فأن الله يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله فقال: «**... ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**» بل حرم الله النار على من بكى من خشيته قال ﷺ : «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع**»، وفي رواية قال: «**حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله**» وكلا الحديثين صحيح.

وفي الأثر الإلهي: (ولم يتعبد إلي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي).

أحبتى: إن سلفنا الصالح كانوا يتوجهون إلى الله في خشية وبكاء ووجل وطمع الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته والخوف من غضبه والطمع في رضاه والخوف من معصيته والطمع في توفيقه:**{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}**[(١)] والتعبير القرآني يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة حتى لكأنها مجسّمة ملموسة**{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}**[(٢)] إنها الصورة المشرقة المضيئة لسلفنا الصالح رضوان الله عليهم كانوا يخافون ويرجون

(١) سورة السجدة: ١٦.
(٢) الأنبياء: ٩٠.

وكانوا يبكون حتى يؤثر فيهم البكاء فبكاؤهم ثمرة خشيتهم لله قال تعالى عنهم:**{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً}**[1] وقال أيضا:**{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ}**[2]، فبالخوف والخشية تحترق الشهوات وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة والتواضع والخضوع، ويفارق الكبر والحسد، بل يصير مستوعب الهم يخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمحافظة على الأوقات واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره.

هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين.

يقول بلال بن سعد: عباد الرحمن، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من أعمالكم تقبلت منكم أو شيء من خطاياكم غفرت لكم والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم من العبادة، وتنافسون في جنة**{أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ}**[3]، ويقول أيضا: رب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن بان له الدليل ولا يشعر يأكل ويشرب ويضحك، وقد حق عليه في قضاء الله عز وجل أنه من أهل النار فيا ويل لك روحا والويل لك جسدا فلتبك ولتبك عليك البواكي لطول الأبد، فبمثل هذه العبارات كان الرسول وكان السلف يجاهدون أنفسهم ويعظون غيرهم حتى ينتبه الناس من غفلتهم ويصحوا من رقدتهم ويفيقوا من سكرتهم رجاء أن يدركوا من سبقهم إلى الطريق المستقيم ويكون الخوف دافعا لهم على الاستقامة ما كانوا على وجه الأرض أحياء مكلّفين.

---

(١) الإسراء: ١٠٩.
(٢) الرعد: ٢١.
(٣) الرعد: ٣٥.

الفرق بين الخوف والخشية:

قال تعالى:**{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}**[1] وآية:**{فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ}**[2] وذكر أن الله مدح أهل الخوف.

الآيات من سورة المؤمنون، الفرق بين هذه الألفاظ، مثل: الرهبة والوجل والخشية والخوف والإشفاق، والتفريق بينها من دقائق العلم التي لا يتفطن إليها إلا من وفقه الله، كما كان حال ابن القيم رحمه الله فيقول: "الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة " قال: "قيل: إن الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، وقيل اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف".

وحقيقة الخوف واضحة، وإيضاح الواضح من المشكلات، فالخوف معروف، لكن نأخذ ما بعده ليتضح الفرق، ويقول رحمه الله: "الخشية أخص من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله" وأخذ هذا من قول الله تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[3]. فالعلماء هم الذين يخشون الله؛ لأن الناس في هذا أنواع:

فالنوع الأول: العالم بالله، والعالم بدين الله، فهم من يخشى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النوع الثاني: عالم بالله غير عالم بدين الله، وهذا الذي وقع فيه كثير من العباد، فهو لديه حقائق الإيمان واليقين والإخلاص والرجاء والرغبة والخوف؛ ولكنه غير عالم بدين الله، فلا يعرف الحلال من الحرام، وربما وقع في البدعة فخرج عن طريق الإيمان والعلم، ولم يعد عالماً بالله.

النوع الثالث: من ليس عالماً بالله ولا عالماً بدين الله، وهذا حال أكثر الخلق، نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) فاطر: ٢٨.

يقول ابن القيم: " فهي - أي: الخشية - خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ : **«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»** [1] وفي رواية أخرى: **«إني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية»** فالخشية مقترنة بالعلم، ففيها زيادة العلم والمعرفة بالمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيَّن ابن القيم الفرق بينهما فقال: "فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك لـه حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي: الخشية... ثم قال: وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه - فالرهبة خوف؛ ولكن فيها زيادة إمعان في الهرب من المخوف منه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه" فالرغبة زيادة عن مجرد المحبة، فالمحبة بلا رغبة لا يقترن بها الحرص والطلب، وأما الرغبة فيقترن بها العمل والحرص وطلب هذا المحبوب المراد، ثم يقول رحمه الله: "وبين الرهب والهرب تناسب في اللفظ والمعنى".

وهذه عادة لغة القرآن، اللغة العربية.

الفرق بين الرهبة والرغبة وبين الوجل والهيبة.

ثم قال: "وأما الوجل فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته" فالوجل خوف؛ ولكنه من نوع خاص بالنسبة لشعور الإنسان عندما يرى من يجل أو من يخاف منه أو إذا ذكر عنده من يخافه، ثم قال: "وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال" فالهيبة خوف؛ ولكنه ليس خوفاً مجرداً، إنما خوف مقترن به التعظيم والإجلال، كما قالت العرب:

أهابك إجلالاً ومابك قدرة ::: علي ولكن ملء عينٍ حبيبها

قال: "وأكثر ما تكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال:

تعظيم مقرون بالحب، - ثم قال - فالخوف لعامة المؤمنين" فكل مؤمن لابد أن

---

(١) رواه أحمد.

يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا الذي نعتقده، وكل مؤمن مطالب أن يخاف على نفسه وعلى إخوانه المسلمين، وأن يخاف الله تبارك وتعالى، فالمقصود أن الخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء، فالعلماء عندهم زيادة خوف مع علم فتصبح خشية، والهيبة للمحبين سواء كانوا من العلماء أم من غيرهم، وهذه ليست متعارضة بل يوجد بينها قدر مشترك قد تزيد صفة، أو جانب من الجوانب في فرد وجانب يزيد في فرد آخر، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم والسلف، فبعضهم يزيد عنده جانب الرجاء قليلاً، وبعضهم جانب الخوف، وبعضهم جانب الهيبة، وبعضهم جانب الخشية، فمثلاً أبو سليمان الداراني رحمه الله وعامر بن عبد القيس، وعبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وسفيان الثوري، رحمهم الله غيرهم غلب عليهم جانب الخوف، وبعض العلماء يغلب عليهم جانب الهيبة والإجلال والمحبة، والله تبارك وتعالى جعل للنفوس التنوع في التعبدات؛ ليُعْبَد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكل أنواع العبوديات، وهي في الأصل مشتركة ولها أصل مشترك بين جميع الناس، فيقول:

"الخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال ﷺ : **«إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»**، وفي رواية: **«خوفاً»** وقال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»** فزيادة علم النبي ﷺ تدل على معرفته بربه وهيبته له تبارك وتعالى، وإجلاله في قلبه، ومن معرفته لما أعده الله تبارك وتعالى للمؤمنين من الثواب، وللمجرمين من العقاب، ومعرفته ﷺ وعلمه بأيام الله وسنن الله في الذين خلوا من قبلنا.

وهذه القلوب في مثل هذا تتفاوت تفاوتاً عظيماً جداً، وهذا هو موضع زيادة الإيمان ونقصانه وموضع التنافس:**{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}**[١] ثم يوضح ذلك بقوله:

(١) المطففين: ٢٦.

"فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب" فيهرب كلما رأى شهوةً دفعته إليها عينه أو أذنه أو قلبه، فعلم:**{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}**(١) فيهرب من هذه المعصية ويخاف، وهذا هو حال المؤمن، ثم قال: "وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم" الذي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من أضرار هذه المعصية، ومن فسادها، وأثرها على القلب، وعلى الحياة في الدنيا والآخرة، ولذلك صاحب هذا العلم تحصن بأقوى حصن، فلا يرقى إليه هذا الوحش، ولا يطمع فيه ولا يصل إليه؛ لأنه ليس مجرد هارب، فالهارب قد يُدْرَك؛ لكن الذي يعتصم بحصن حصين لا يُنَال - بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فكذلك الإنسان يعتصم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعتصم بالإيمان بالله وبكتاب الله، وبالعلم الذي يقربه من الله ويعرفه بالله عز وجل فلا يأتي شيئاً مما حرم الله؛ لأنه عرف ذلك بما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما وهبه من العلم بخطر الذنوب والمعاصي وآثارها وضررها على الإنسان.

علاقة الإشفاق بالخوف:

يقول ابن القيم والإشفاق: رقة الخوف" الاشفاق خوف مع رقة، ثم يقول: "وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه" وأرق الخوف هو الإشفاق والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر ذلك في القرآن، حيث ذكر أن أهل الجنة يتذكرون ما كانوا فيه من الدنيا، فقالوا:**{إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}**(٢)، وقال في سورة المعارج:**{وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ}**(٣) وقال في سورة فاطر:**{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}**(٤)، فكانوا في الدنيا مشفقين، وكان الحزن في قلوبهم؛ لأنهم لا يعلمون كيف يلقون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الذين كانوا في دنياهم فرحين بطرين، فإنهم يفاجئون يوم القيامة بأهوال لم يكونوا يتوقعونها.

---

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) الطور: ٢٦.
(٣) المعارج: ٢٧، ٢٨.
(٤) فاطر: ٣٤.

وأما المؤمنون فقد ذكر الله تعالى حالهم في الخوف فقال عنهم:**{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيرا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً}**(١) فهذا جزاء الخوف والحزن ولهذا قال تعالى:**{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}**(٢) فكانوا يعانون في الدنيا التعب والألم والأحزان والمصائب، ولهذا يقول ﷺ : **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** فالمسجون - دائماً - خائف ومشفق حزين؛ لأنه مسجون، ولكن من الناس من يكون مطمئناً كما كان شَيْخ الإِسْلامِ رحمه الله لما وضع في السجن قال:**{فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ له بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}**(٣) فالجنود والسلاطين الذين يقفون في الخارج في العذاب، وهو في الرحمة بالمقارنة لما أعده الله في الآخرة، فالمؤمن مسجون في الدنيا مع طمأنينته وفرحه بفضل الله قال تعالى:**{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}**(٤) فهو مع فرحته وطمأنينته وسعادته بذكر الله مسجون؛ لأنه لم يدخل الجنة ولم ير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا الحور العين، ولم يلتقِ بإخوانه المؤمنين على سرر متقابلين.

وأما الكافر فقد يكون في الدنيا في منتهى الرفاهية والتنعم والتلذذ، ولكن هذه جنته بالمقارنة لما ينتظره هنالك من العذاب، ففي الآخرة ليس له جنة، حيث يقول تعالى للكافرين:**{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا}**(٥)**{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ}**(٦) فجنتهم في الدنيا مع ما فيها من الشقاء والنكد والتنغيص، ولكن لأنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار فإن جنتهم في الدنيا.

---

(١) الإنسان: ١٠، ١١.
(٢) فاطر: ٣٤، ٣٥.
(٣) الحديد: ١٣.
(٤) يونس: ٥٨.
(٥) الأحقاف: ٢٠.
(٦) هود: ١٦.

ويُضرب مثل رائع لمقدار التمتع بالدنيا، فالحاكم عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس خمسين سنة، والأندلس تسمى جنة الدنيا، ففي يوم من الأيام اجتمع في آخر ملكه مع بعض وزرائه، فتذاكروا هذا الأمر العظيم، وهل سبق أن أحداً حكم هذه المدة وهذه الجنة، وكعادة المنافقين من جلساء السلاطين في كل زمان ومكان أخذوا يمدحونه ويثنون عليه، ولكنه قال لهم: أتدرون كم أيام السرور في هذا الملك في الأندلس ؟! قالوا: لا، قال : عددتها فإذا هي أربعة عشر يوماً! فالمقصود أنه لا بد للمؤمن من الخوف والرجاء والإشفاق والرهبة والرغبة والوجل.

الخوف من الرحمن وسيلة إلى الرضوان:

وهنا فائدة عظيمة ذكرها ابن القيم رحمه الله حيث يقول: "والخوف ليس مقصوداً لذاته بل هو مقصود لغيره، فأهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" والمحبة مقصوده لذاتها، ولهذا نحب الله تبارك وتعالى في الدنيا، وإذا أدخل الله تعالى المؤمنين الجنة يظلون يحبون الله بل يزدادون حباً لـه؛ لأنها مطلوبة لذاتها، وأما الخوف فليس لذاته بل هو وسيلة للإنزجار عما حرم الله ونهى عنه، فإذا أمِن العبّاد وبشرتهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. زال الخوف، ولهذا قال تعالى في الجنة:**{لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}** [(١)] فنفى الله تبارك وتعالى عنهم الخوف والحزن، فلا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما وراءهم؛ لأن الله تعالى يتولى المؤمنين والمتقين والصالحين، فلهذا يقول:**{لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}**[(٢)] فالخوف ليس مقصوداً لذاته، وإنما لما يترتب عليه من معرفة الله، ومعرفة وعد الله ووعيده، والانزجار عما نهى الله تبارك وتعالى عنه، ثم قال: "والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات" فالخوف يتعلق بالأفعال، فتجد العبد يخاف من عذاب الله، والله تبارك وتعالى بين لنا أن العذاب فعله، وأن الرحمة والمغفرة صفته الذاتية، قال

---

(١) يونس: ٦٢.

(٢) يونس: ٦٢.

تعالى:{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ}(1) وهذا من كمال رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك نجد في الفاتحة قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}(2) ورحمة الله سبقت غضبه، ولهذا جعل المحبة تتعلق بالذات والصفات، وأما الخوف فإنه متعلق بالأفعال؛ لأن عذابه هو من فعله، وأما محبته فهو يُحَبُّ لذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه غفور رحيم ودود كريم، فاسم الله الودود يشعر بمحبة خاصة جداً. ولو تأمل الناس في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعرفوا الله، وإذا عرفوه حق المعرفة وعرفوا أنه ودود وغفور ورحيم، أحبوه فلم يعصوه، وإذا انزجروا عن معصيته - لأنهم يؤمنون بأنه الرحمن الرحيم الغفور الودود - لكانوا من أهل الهيبة والإجلال، وهذا أفضل من أن يكونوا من مجرد أهل الخوف كما بين ابن القيم رحمه الله.

الخوف والرجاء عند المؤمن والمنافق:

وكما قال الحسن رحمه الله فيما نقله عنه ابن القيم قال : قال الحسن : "عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً" فإذا وجدت الخائف الوجل المشفق من عذاب الله، فتجد أن أعماله فيها الكثير من الخير والإحسان والفضل، وأما المطمئن فتجد فيه النفاق والبعد والمعصية، والعكس بالعكس، فالمؤمن يحسن العمل ولذلك أحسن الرجاء، وأما المنافق فإنه أمن من مكر الله ولم يخف الله ولم يبال بعقوبة الله؛ فلذلك اطمأن وعمل ما عمل، ولذلك إذا رأيت المؤمن شكا ذنوبه، وخاف من عدم قبول أعماله، ورأى ذنوبه كما جاء في الحديث: «**المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يخشى أن يقع عليه، وأما المنافق فيرى الذنوب** - جميعاً من شرور وخمور وفجور ولهو وإعراض وتهاون في طاعة الله وأكل لحقوق الناس - **كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار**» وإذا سألته وجالسته قال: نحن أحسن حالاً من غيرنا، ثم يذكر حسناته، أما المؤمن فلا يذكر حسناته لأنه يعلم أن هذا خطر عليه.

---

(1) الحجر: ٤٩، ٥٠.

(2) الفاتحة: ٢ - ٣.

لا بأس بذكر نعمة الله عليك؛ لكن مع شكر هذه النعمة، وأما في أمور الدين، فينظر العبد إلى من هو فوقه في العبادة والإحسان، وأما في أمور الدنيا فينظر العبد إلى من هو دونه؛ لئلا يزدري نعمة الله عليه.

* * * * *

المبحث الخامس:

الرضا

كلمة الرضا تجمع بين شرطين من الشروط التي ذكرها بعض العلماء لشهادة أن لا إله إلا الله وهما القبول والانقياد بل الرضا أعلى منهما وأشمل، وقد آثرته لذلك، ولكونه لفظاً شرعياً ورد في الكتاب والسنة.

وحسبك في تعظيمه قوله تعالى:**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلامَ دِيناً}**(١).

فما رضيه الله لنا وهو الغني الحميد؛ فنحن أولى أن نرضى به وأحق.

فالرضا بالدين هو "أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى:**{فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**(٢).

فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً، وهذا حقيقة الرضا بحكمه".

وليس هذا الرضا على درجة واحدة، بل هو - كما في الآية - على ثلاث مراتب "فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.

فمن لم يرض بتحكيم ما جاء به محمد ﷺ في أصول الدين وفروع الشريعة ويتحاكم إليه، فهو معترض بنوع من أنواع الاعتراض الآتي تفصيلها، فلهذا لا يكون مسلماً - وإن زعم ذلك - كما قال تعالى في الآيات التي قبلها:

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) النساء: ٦٥.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[١].

وكيف لا وأول كفر وقع في هذا العالم إنما نشأ "من عدم الرضا؛ فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كوناً - من تفضيل آدم وتكريمه - ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم " مع تصديقه بالله واليوم الآخر، وأن الله هو الإله دون ما سواه.

ومن رضي بأصل التحكيم لكن لم ينتف الحرج عن نفسه، بل ربما زعزعته شبهة أو لحقه شك، فهذا كالأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم.

ومن انتفى عنه الحرج لكن لم يرق إلى درجة التسليم المطلق للوحي أمراً ونهياً وخبراً، فهو ناقص عن مرتبة الإحسان التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم والتي كان التصديق في ذروتها حتى في أشق المواقف؛ كموقف الحديبية.

وهذا هو الرضا الذي قال عنه ابن القيم: "إن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح؛ فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، قال أبو الدرداء: ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر".

والرضا يشمل التوحيد كله، ربوبية وألوهية، طاعة وتقرباً، ومن هنا قال النبي ﷺ : **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»** وقال: **«من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً؛ غفرت له ذنوبه»**[٢].

" وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له.

فالرضا بألوهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليها وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

---

(١) النساء: ٦٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

فالأول: أي: رضا الألوهية - يتضمن رضاه بما أمر به.

والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد لـه، والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهرة وباطنة.

لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم لـه تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده أو شيخه وطائفته ".

ولهذا جاء هذا الرضا بأنواعه مبيناً في سورة الأنعام التي هي سورة التوحيد العظمى؛ فقد اشتملت على ثلاثة أنواع من الرضا هي جماع التوحيد كله:

١ - الرضا بالله رباً لا شريك لـه في التقرب والتأله والتعبد:**{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْء}**[(١)].

٢ - الرضا بالله حكماً لا شريك لـه في التشريع والطاعة:**{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً**

(١) الأنعام: ١٦٤.

وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً}[1].

٣ - الرضا بالله ولياً لا شريك له في محبته وموالاته:**{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ}** [2].

وقد شرح ذلك الإمام ابن القيم فقال: "الرضا بالله رباً: ألا يتخذ رباً - غير الله تعالى - يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه، قال تعالى:**{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}**[3].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيداً وإلهاً، يعني فكيف أطلب رباً غيره وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة:**{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ}**[4].

يعني: معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها:**{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً}**[5].

أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتقاً منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً، بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك وهذا عين الشرك، بل التوحيد: ألا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

---

(١) الأنعام: ١١٤.
(٢) الأنعام: ١٤.
(٣) الأنعام: ١٦٤.
(٤) الأنعام: ١٤.
(٥) الأنعام: ١١٤.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حَكماً يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً.

وتفسير الرضا بالله رباً: أن يسخط عبادة ما دونه، هذا هو الرضا بالله إلهاً، وهو من تمام الرضا بالله رباً، فمن أعطى الرضا به رباً حقه سخط عبادة ما دونه قطعاً؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الألوهية.

فالحاصل: أن يكون الله وحده المحبوب المعظم المطاع، فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه، ومتى أحب معه سواه وعظم معه سواه وأطاع معه سواه فهو مشرك، ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم ".

ومنافي الرضا ومقابله هو الاعتراض والكراهية لما أنزل الله - بعضه أو كله - وإذا فسرناه بالقبول والانقياد، فضدهما الرد والاعتراض والإباء.

وكل هذا مما وقعت فيه الأمة كلياً أو جزئياً، فوقع فيها الاعتراض على توحيد المعرفة والإثبات، والاعتراض على الأمر الشرعي بالتحليل والتحريم والاعتراض على الأمر الكوني، فاعترض كثير منهم على صفاته وشريعته وقضائه وقدره.

وأصل هذه الاعتراضات التلقي عن غير الله ورسوله، والاستمداد من غير الوحي وتحكيم غيره، فمنهم من حكم العقل - بزعمه - فنقل فلسفات الوثنيين وحثالة فكر التائهين، وهؤلاء هم أصحاب الكلام.

ومنهم من حكم الذوق والوجد والكشف وانتكس بالعقل المسلم إلى حضيض الخرافة والوهم وهؤلاء هم الصوفية.

ومنهم من حكم الأقيسة العقلية والأعراف السياسية بحجة تحقيق المصلحة الشرعية ومراعاة الأصول العقلية - بزعمهم - فأحلوا - من الدماء والأموال والفروج - ما ورد النص الصريح بتحريمه، وكان ذلك مع وقوعه في دائرة الاجتهاد الخطأ أو التطبيق المتعسف ممهداً لما وقعت فيه الأمة في العصر الحديث من الشرك الأكبر والاعتراض الأطم بتحكيم القوانين الوضعية وإحلالها محل الشريعة، بل الكراهية الصريحة لكثير مما أنزل الله، وبخاصة في الجهاد والحجاب والموالاة والسياسة، ولندع الإمام ابن القيم يفصل لنا صورة الاعتراض التي وصلت إليها الأمة في عصره وحسبك أن تقول بعدها: كيف لو رأى زماننا هذا؟!

يقول رحمه الله: "الاعتراض ثلاثة أنواع سارية في الناس والمعصوم من عصمه الله منها.

*** النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبهة الباطلة:**

التي يسميها أربابها قواطع عقلية وهي في الحقيقة خيالات جهلية ومحالات ذهنية، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجل، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه وعادوا بها أولياءه وحرفوا بها الكلم عن مواضعه ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي، فإذا سلم القلب له رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة وهذا أكمل الإيمان، ليس كمن الحرب قائمة بين سمعه وعقله وفطرته.

*** النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره:**
وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

الأول: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم المتضمنة تحليل ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه وإبطال ما صححه،

وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض وحذروا منهم ونفروا عنهم.

الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفوس الجاهلة.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ وكل ما هم فيه فحظ، ولكن حظهم متضمن مخالفة مراد الله، والإعراض عن دين الله واعتقاد أنه قربة إلى الله، فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات المعترفين بذمها، المستغفرين منها، المقرين بنقصهم وعيبهم وأنها منافية للدين؟!

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها ديناً وقدموها على شرع الله ودينه واغتالوا بها القلوب واقتطعوها عن طريق الله، فتولد من معقول أولئك وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة وأذواق هؤلاء خراب العالم وفساد الوجود وهدم قواعد الدين وتفاقم الأمر وكاد، لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه ويبين معالمه ويحميه من كيد من يكيد.

الثاني: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل، قدمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس، قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع، قدمنا الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع، قدمنا السياسة.

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل ولنا العقل والآخرون: أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار، وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر ونحن أهل الحقائق، والآخرون يقولون: لكم الشرع ولنا السياسة.

الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره:

وهذا اعتراض الجهال وهو ما بين جلي وخفي وهو أنواع لا تحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله، لرأى ذلك في قلبه عياناً، فكل نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله إلا نفساً قد اطمأنت إليه وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حظها التسليم والانقياد والرضا كل الرضا".

ثمرات الرضا:

إن للرضا ثمراتٌ كثيرةٌ.. منها..

١- الرضا والفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.. والنبي صلى الله عليه و سلم كان أرضى الناس بالله وأسرّ الناس بربه وأفرحهم به تبارك وتعالى..

فالرضا من تمام العبودية ولا تتم العبودية بدون صبرٍ وتوكلٍ ورضا وذلٍّ وخضوعٍ وافتقارٍ إلى الله..

٢- إن الرضا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله عز وجل رضي بمن يعبده عمّن يعبده على من يعبده وإذا ألححتَ عليه وطلبتَه وتذلّلتَ إليه أقبل عليك.

٣- الرضا يخلّص من الهمّ والغمّ والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يفتَح بالرضا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وبَرْده وسكونه وقراره بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وانزعاجه

وعدم قراره.

فالرضا ينزِل على قلب العبد سكينةً لا تتنزّل عليه بغيره ولا أنفع لـه منها؛ لأنه متى ما نزلت على قلب العبد السكينة: استقام وصلُحت أحوالـه وصلُح بالـه، ويكون في أمنٍ ودَعَةٍ وطيبِ عيشٍ..

٤- الرضا يخلّص العبد من مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية..

مثلاً إبليس لما أُمِر بالسجود عصى؟ رفض؟

لم يرضَ.. كيف أسجد لبشرٍ خلقتَه من ترابٍ؟.. فعدم الرضا من إبليس أدّى إلى اعتراضٍ على أمر الله.. فإذاً منافقو عصرنا الذين لا يرضون بحكم الله في الربا والحجاب وتعدّد الزوجات في كل مقالاتهم في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه.. لماذا؟!!!... كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه وإن لم يصرّحوا بهذا..! فالرضا يخلّص الإنسان من هذه المخاصمة.

٥- الرضا من العدل.. الرضا يُشْعِر العبد بعدل الرب.. ولذلك كان ﷺ يقول: **«عدلٌ فيَّ قضاؤك»**.. والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات..

فقطع يد السارق عقوبةٌ، فالله عدَل في قضائه وعقوباته فلا يُعْتَرض عليه لا في قضائه ولا في عقوباته..

٦- وعدم الرضا إما:

١- لفواتِ شيءٍ أخطأك وأنت تحبه وتريده.

٢- أو لشيءٍ أصابك وأنت تكرهه وتسخطه.

فيحصل للشخص الذي ليس عنده رضا قلقٌ واضطرابٌ إذا نزل به ما يكره وفاته ما يحب حصل لـه أنواع الشقاء النفسي، وإذا كان راضياً لو نزل به ما يكره أو فاته ما يحب ما شقي ولا تألّم؛ لأن الرضا يمنع عنه هذا الألم، فلا هو يأسى على ما فاته ولا

يفرح بما أوتي..**{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**[1]..

* الرضا مفيدٌ جداً أن المرء لا يأسف على ما فاته ولا يحزن ولا يتكدّر

على ما أصابه؛ لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ..

٧- الرضا يفتح باب السلامة من الغشّ والحقد والحسد؛ لأن المرء إذا لم يرضَ بقسمة الله سيبقى ينظر إلى فلانٍ وفلانٍ.. فيبقى دائماً عينه ضيقةٌ وحاسدٌ

و متمنٍّ زوال النعمة عن الآخرين.. والسخط يدخل هذه الأشياء في قلب صاحبه..

٨- الرضا يجعلك لا تشكّ في قضاء الله وقدره وحكمته وعلمه.. فتكون مستسلماً لأمره معتقداً أنه حكيمٌ مهما حصل.. لكن الإنسان الساخط يشكّ

و يوسوس لـه الشيطان ما الحكمة هنا وهنا؟؟..!!

و لذلك (الرضا واليقين) أخوان مصطحبان..

و (السخط والشكّ) توأمان متلاصقان..!!

إذا استطعتَ أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر خيراً كثيراً..

٩- من أهم ثمرات الرضا: أنه يثمر الشكر.

فصاحب السخط لا يشكر.. فهو يشعر أنه مغبونٌ وحقّه منقوصٌ وحظّه مبخوسٌ..!! لأنه يرى أنه لا نعمة لـه أصلاً..!!

السخط نتيجة كفران المنعم والنعم..!!!

الرضا نتيجة شكران المنعم والنعم..!!!

١٠- الرضا يجعل الإنسان لا يقول إلا ما يرضي الرب..

السخط يجعل الإنسان يتكلّم بما فيه اعتراضٌ على الرب، وربما يكون فيه قدحٌ في

---

(١) الحديد: ٢٣.

الرب عز وجل..

صاحب الرضا متجرّدٌ عن الهوى ::: و صاحب السخط متّبعٌ للهوى

و لا يجتمع الرضا واتباع الهوى، لذلك الرضا بالله وعن الله يطرد الهوى..

صاحب الرضا واقفٌ مع اختيار الله..

يحسّ أن عنده كنزٌ إذا رضي الله عنه أكبر من الجنة..

لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال:**{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}**..

رضا الله إذا حصل هو أكبر من الجنة وما فيها..

و الرضا صفة الله والجنة مخلوقةٌ.. وصفة الله أكبر من مخلوقاته كلها..

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}..

رضا الله أكبر من الجنة..!!!

١١- الرضا يخلّص العبد من سخط الناس.. لأن الله إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس.. والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس..

أما المشكلة إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعباً؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاءٍ.. أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أي حسابٍ ولن يتعبَ نفسياً.. ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيَه نفسياً ولن يبالي مادام الله راضياً عنه..

١٢- الله يعطي الراضي عنه أشياءَ لم يسألها، ولا تكون عطايا الله نتيجة الدعاء فقط مادام في مصلحته..

١٣- الرضا يفرّغ قلب العبد للعبادة.. فهو في صلاته خالٍ قلبُه من الوساوس.. في الطاعة غير مشتّت الذهن.. فيستفيد من العبادة.. الرضا يركّز ويصفّي الذهن فينتفع صاحبه بالعبادة..

١٤- الرضا لـه شأنٌ عجيبٌ مع بقية أعمال القلوب الصالحة، فأجره لا ينقطع وليس لـه حدٌّ بخلاف أعمال الجوارح، فأجرها لـه حدٌّ تنتهي بمدّةٍ معينةٍ.. فعمل الجوارح محدودٌ.. لكن عمل القلب غير محدودٍ..

فأعمال الجوارح تتضاعف على حدٍّ معلومٍ محسوبٍ.. أما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها وإن غابت عن بال صاحبها.. كيف؟؟!!

إنسانٌ راضٍ يفكّر بذهنه وقلبه أنه راضٍ عن الله وعن قضائه، عرضت لـه مسألةٌ حسابيّةٌ فانشغل ذهنه بها.. العلماء يقولون: أجر الرضا لا ينقطع وإن شُغِل الذهن بشيءٍ ثانٍ؛ لأن أصله موجودٌ ولو انشغل القلب بشيءٍ ثانٍ الآن..

إنسانٌ يخاف الله، أحياناً يحصل لـه بكاءٌ ووجلٌ نتيجة هذا الخوف، لو انشغل باله مع ولده يضمّد جراح ولده ونسي موضوع التأمل في الخوف وما يوجب البكاء والخشية فلازال أجره على الخوف مستمرّاً؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ مركوزٌ في الداخل لم ينتهِ أجره بل هو مستمرٌّ.. وهذا من عجائب أعمال القلوب.

وهذا يمكن أن يوضّح لماذا أجر أعمال القلوب أكثر من أجر أعمال الجوارح، مع أنه لابد من أعمال الجوارح طبعاً.. لأنه إذا لم يكن هناك أعمال جوارح فالقلب خرِبٌ..

هل الرضا يتنافى (يتعارض) مع الدعاء؟!!

لا.. لسبب أن الدعاء يرضي الله وهو مما أمر الله به..

هل الإنسان إذا دعا أن يزيل الله عنه مصيبةً لا يكون راضياً؟!!

الجواب: لا.. ليس هكذا.. لأن الله قال:**{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}**.

و قال:**{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}** يدعون ربهم يريدون نعماً ودفعَ نقمٍ.

الدعاء لجلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرّةٍ.. فلأن الله قال: ادعوني ولأن الدعاء يرضي الله، فإن الدعاء لا يتعارض مع الرضا..

فالمرء لو كان راضياً بالمعصية وسأل الله أن يزيل أثرها أو يعوّضه خيراً، لم يعارضِ الدعاءُ الرضا.. لأن الله أمرنا أن نسأله الرزق فقال:**{فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ}**[1]..

هل الرضا يتنافى مع البكاء على الميّت؟!!

قال شيخ الإسلام: (البكاء على الميت على وجه الرحمة حسنٌ مستحبٌّ وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه).. وبهذا يُعْرَف قوله ﷺ لما بكى على الميت: «**إن هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء..**».

و ينبغي أن نفرّق؛ لأن النبي ﷺ لما رأى ولده إبراهيم يموت بكى لماذا بكى؟.. رحمةً أو تأسّفاً على فقد الولد!!..

و إن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظِّه إلا لرحمة الميت، فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي ضحك وقال: (رأيت أن الله قد قضى، فأحببتُ أن أرضى بما قضى الله به).. فحاله حالٌ حسنٌ بالنسبة لأهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله على كل حالٍ كما قال ﷺ فهذا أكمل..

فإذا قيل: أيهما أكمل: النبي ﷺ بكى رحمةً بالميت أو الذي من السلف ضحك؟؟!!

بكاء رحمة الميت مع حمد الله والرضا بالقضاء أكمل، كما قال تعالى:**{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}** فذكر الله التواصي بالصبر، و التواصي بالمرحمة..

الناس أربعة أقسامٍ:

١- منهم من يكون فيه صبرٌ بقوةٍ (ما فيه رحمة).

٢- ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بقوةٍ (ينهار).

---

(١) العنكبوت: ١٧.

٣- ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع (جمع الشر من الطرفين).

٤- المؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس.

ومما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ في العقل ولا في الدين طلب رضا المخلوقين بإطلاقٍ؛ لوجهين:

١- أحدهما أن هذا غير ممكن، كما قال الشافعي: (رضا الناس غايةٌ لا تُدْرَك)، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ودع ما سواه ولا تعانِه.

٢- أنّنا مأمورون أن نتحرّى رضا الله ورسوله **{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ}**[(١)].

نحن مكلّفون أن نرضي الناس كلهم؟!!

لا، لسنا مكلّفين؛ لسببين:

١- لأنه غير ممكنٍ. ٢- لأننا مكلّفون بإرضاء الله وليس بإرضاء الناس..

ذكر السلف رحمهم الله أقوالاً في الرضا:

١- قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إن الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به من قِبَل العباد)..

٢- قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا وجعل الهمّ والحزن في الشكّ)..

٣- قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (أصبحتُ وما لي سرورٌ إلا في مواضع القضاء والقدر).

فينعكس هذا على نفسه انشراحاً وطمأنينةً، ومن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيمٍ وسرورٍ **{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}**.

---

(١) التوبة: ٦٢.

٤- قال بعض السلف: (الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة)..

٥- قال عبد الواحد بن زيدٍ رحمه الله: (الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا و مُستراح العابدين.. وربما رضي المبتلى حتى لم يَعُدْ يشعر بالألم..

عذابـــــــه فيـــــــك عـــــــذبُ ::: و بُعْـــــــدُه نَيْـــــــلُ قُـــــــرْبِ..!

٦- وكذلك قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما: (أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعتَ أن ترضى وإلا فاصبر).. هذا مما تقدّم أن الرضا منزلةٌ أعلى من الصبر..

٧- وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (إذا تُوُفِّي العبد المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين وتحفةً من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ عنكِ راضٍ)..

٨- وقال ميمون بن مهران رحمه الله: (من لم يرضَ بالقضاء فليس لحمقه دواءٌ)..

٩- ونقل عبد الله بن المبارك رحمه الله عبارة: (يا بنيّ إنما تستدلّ على تقوى الرجل بثلاثة أشياءٍ: لحُسْن توكله على الله فيما نابَه، ولحُسْن رضاه فيما آتاه، ولحُسْن زهده فيما فاته)..

منزلة الرضا هي التي تثمر محبة الله والنجاة من النار والفوز بالجنة ورضوان الله وحُسْن ظنّ العبد بربه والنفس المطمئنّة والحياة الطيبة..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

درجات الوصول إلى تحقيق الرجاء:

١- ذكر سوابق فضل الله على العبد، أن الله لـه علينا فضائل سابقة..

٢- ذكر وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرمه وجوده بدون سؤال من العبد استحقاق فإن الله يعطي بدون أن يكون العبد مستحقاً إذا استقام الإنسان.

٣- أن تذكر نعم الله عليك في أمر دينك وبدنك ودنياك في الحال(الآن) وأن يمدك بالألطاف والنعم من غير استحقاق ولا سؤال.

٤- ذكر سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين لذلك تحقيق الرجاء يقوم على معرفة أسماء الله وصفاته.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض لابد لها من بذر وكذلك لابد للقلب من طاعات والأرض لابد لها من تعاهد وسقي بالماء وحفر أنهار وسوق الماء إليها وكذلك القلب لابد لـه من تعاهد وأن يسقى بماء الطاعة والعبادة وكذلك الأرض تحتاج حتى تنبت إلى صيانتها عن الأشياء الضارة، وترى المزارع ينتقي الدغل فينتزعه من أرض حتى لايؤذي زرعه والمؤمن ينقي قلبه من أي شبهة وشهوة حتى لا تفسد عليه زروع الطاعة التي سقاها بماء العبودية..

وقلّ أن ينفع إيمان مع خبث القلب كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة إذاً ينبغي أن يقاس رجاء العبد برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى بذراً جيداً وسقى وتعاهدها بالرعاية ثم جلس ينتظر فضل الله..، انتظار هذا يسمى رجاءً، أما إن بذر في أرض سبخة مرتفعة لا يصلها الماء، هذا غبي أحمق، أما إن بذر في أرض طيبة ولكن لا يصلها الماء وقال أنتظر المطر.، انتظار هذا تمنّي وليس رجاء..!

الرجاء يصدق على انتظار محبوب تمهّدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس في اختيار وإرادة العبد..

لذلك فالإنسان يبذل من الطاعات والعبادات وينتظر فضل الله أن يثبته وأن لا يزله ولا يزيغه حتى الممات ولا يضله حتى يلقاه وهو راضٍ عنه.

الراجي إنسان عنده مواظبة على الطاعات قائم بمقتضيات الإيمان، يرجو من الله أن لا يزيغه وأن يقبل عمله ولا يردّ عليه، وأن يضاعف أجره ويثيبه، فهو باذل للأسباب التي يستطيعها يرجو رحمة ربه، ولذلك يكون الذي يقطع البذور ولا يتعاهدها بماء

الطاعات أو يترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في لذات الدنيا ثم يطلب المغفرة يكون حمقاً وغروراً**{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا}**[1]

والكافر صاحب الجنة قال**{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً}**[2]، فهو صاحب أماني ولا أعمال صالحة عنده**{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}**[3]..!

أنواع الرجاء:

الرجاء ثلاث أنواع، نوعان محمودان ونوع غرور مذموم..

١- رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فماذا يرجو؟ ثواب الله..

٢- رجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فماذا يرجو؟ يرجو مغفرة الله ومحو الذنوب والتجاوز عنها وسترها..

٣- رجل متمادي في التفريط والمعاصي والسيئات ويرجو رحمة ربه والمغفرة بلا عمل!! فهذا غرور وتمني ورجاء كاذب لا يعتبر رجاء محموداً أبداً..

والمؤمن عندما يسير إلى الله لـه نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله من العجب والرياء والاغترار بالعمل وهذا يفتح عليه باب الخوف من الله، وينقله بعد ذلك إلى سعة كرم الله وفضله وبره ومغفرة ذنوبه ويفتح لـه باب الرجاء، وهذا هو النظر الثاني ولهذا قيل في حد الرجاء وتعريفه هو النظر إلى سعة رحمة الله عزوجل ولابد من الموازنة بين الخوف والرجاء كما قال العلماء: (العبد في سيره إلى الله كالطائر يطير بجناحين، جناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما اختلّ نوعاً ما وإذا ذهب الجناحان صار الطائر في حدّ الموت)، ما هما الجناحان في سير العبد إلى ربه؟ هما الخوف والرجاء.

---

(١) الأعراف: ١٦٩.
(٢) الكهف: ٣٦.
(٣) فصلت: ٥٠.

وقد سُئِل أحمد بن عاصم رحمه الله: ما علامة الرجاء في العبد؟ قال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان أُلهِم الشكر راجياً لتمام النعم عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة..

هنا علماء القلوب أصحاب النظر والتأمل في الأمور الإيمانية اختلفوا..، أي الرجاءين أعظم..؟ رجاء الثواب والأجر من المحسن؟ أو رجاء المغفرة من التائب المسيء؟!!!

فرجحت طائفة رجاء المحسن لقوة أسباب الرجاء معه، فعنده طاعات وأسبابه قوية فيرجو على حقّ، والأخرى رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه من انكسار ومسكنة مقرون بذلة رؤية الذنب واستحضار المعصية خالص من العجب والاغترار بالعمل، الحاصل أم كلا القولين له حظ من النظر، فكلا الرجاءين محمود ولابد من تحصيلهما معاً ولا يستغنى بهذا عن هذا، لأن المسلم إما أن يكون في طاعة يرجو قبولها أو معصية يريد غفرانها ومحوها.

أسباب قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبت رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لتعطلت عبودية القلب والجوارح وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً..، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر إرادات العبد وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء(العلاقة بين المحبة والرجاء) وكل محب راجٍ خائف بالضرورة فهو يرجو من يحبه أن يعطيه ما ينفعه ويخاف أن يسقط من عينه وأن يطرده وأن يبعده ويحتجب عنه لذلك خوف المحب شديد ورجاؤه عظيم، لكن هل إذا وصل إلى محبوبه ينتهي الرجاء أم لا..؟!! أم يشتد..؟!! وماذا يحصل له بالموت..؟!!

المؤمن قبل الموت عنده رجاء وخوف عظيمين، أما إذا مات قالوا أن خوفه ورجاؤه ذاتي للمحبة، يرجو ربه قبل لقائه والوصول إليه فإذا لقيه ووصل إليه بالموت اشتد الرجاء له بما يحصل له بهم من حياة روحه ونعيم قلبه من الألطاف، فالرجاء بما عند

الله يزداد، وعنده أعمال صالحة يريد عليها الأجر والثواب والخوف أيضاً يزيد لأن الموت قرّبه إلى النار، والقبر أول منازل الآخرة، فقد دخل إلى المرحلة الخطيرة جداً..

لذلك لا يمكن أن تقول أن الميت تنقطع مشاعره بل يمكن أن تعظم**!!** مشاعرهم متضاعفة لأنهم اقتربوا إلى دار الخلد.. إلى نعيم أو عذاب.. فيمكن أن تكون بهذا في القبر فمن الآن زّود نفسك بالطاعات واترك المعاصي لتزيد عندك أسباب الرجاء وتأمن في القبر، الخوف في القبر مصيبة، إذ يخاف من سوء المطلع والذي يمكن أن يرتكس فيه إذا قامت الساعة ويدخله من عذاب الله فإذاً الآن هو الآن يشتد في العمل حتى إذا لقي الله صار طلبه للجنة وأمن الخوف..

الكفار ما حالهم في قبورهم..؟

آل فرعون، فرعون وجنوده، **{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ}** معناها أنهم الآن في قبورهم خوفهم يتضاعف كل يوم**!!** وهم يعرفون في أي حفرة سيقعون فكيف الآن خوفهم وذعرهم..**؟!!** نسأل الله السلامة والعافية.

وإذا وصل العبد إلى ربه ولقيه ازداد رجاؤه إذا كان محسناً لأن الأجير إذا جاء وقت الراتب ازداد رجاؤه في الذي سيحصل عليه فإذا قدم العباد هؤلاء المحسنون على الله وكلما مضى زمن كلما ازداد رجاؤهم فيما سيحصلون عليه وينتظرونه في قبورهم **«ربي أقم الساعة»** كي يرجع إلى أهله ومال لأنه فتح له باب إلى الجنة في القبر فهو يأتيه من النعيم والطيب فيقال له: (اسكن ونم كنومة العروس لا يوقظه إلا أحب الناس إليه).

درجات الرجاء:

الرجاء درجات، درجة أرفع من درجة، ومراتب بعضها فوق بعض:

١- الدرجة الأولى:

رجاء يبعث العامل على الاجتهاد بالعبادة بل يولد عنده اللذة بالعبادة ولو كانت شاقة أو صعبة فيتلذذ بها ويترك المناهي، ومن عرف القدر المطلوب هان عليه ما يبذل فيه ومن رجا الأرباح العظيمة في سفره هانت عليه مشقة السفر، كذلك المحب الصادق الذي يسعى في مرضاة الرب تهون عليه مشقة صلاة الفجر والوضوء في البرد ومشقة الجهاد ومشقة الحج والعمرة وطلب العلم وتكرار الحفظ وانتصاب الجسم في الليل وجوع الصيام..، بل تنقلب إلى لذّة..!!

فالدرجات العملية في التعبد لله: مشقة ومن ثم لذة، يقول أحد العلماء: " كابدت قيام الليل عشرون سنة ثم تنعمت به عشرين سنة"، فالمرء لا يصل أحياناً إلى لذة العبادة إلا بعد أن يذوق مشقتها، فإذا قوي تعلق الرجاء بالعوض سمحت الطباع بترك العادات وترك الراحة، فالإنسان مفطور أن لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه.

٢- الدرجة الثانية:

المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدال مألوفات هي خير منها فرجاؤهم أن يبلغوا مقصودهم بالهمة وهذا يلزم لـه العلم وهو الوقوع على الأحكام الدينية لأن رجاؤهم متعلق بحصول ذلك لهم ولابد من علم وبذل الجهد بالمعرفة والتعلّم وأخذ النفس بالوقوف عند الحدود طلباً وقصداً..

٣- الدرجة الثالثة:

رجاء أرباب القلوب لقاء الخالق والاشتياق إليه سبحانه وتعالى وهذا الذي يمكن أن يزهّد الإنسان في الدنيا تماماً (أعلى الأنواع)، **{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}**[١]، **{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ}**[٢]، هذا الرجاء (اللقيا) محض الإيمان وزبدته وإليه تشخص أبصار العابدين

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) العنكبوت: ٥.

المجتهدين وهو الذي يسليهم ولذلك ضرب الله لهم أجل تسكن إليه نفوسهم..

عمير بن حمام الأنصاري لما ذكر لهم الرسول ﷺ : **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»** اشتاقت نفسه إلى لقيا الله فقال: **«لئن عشت حتى آكل هذه التميرات إنها لحياة طويلة»** فقاتل حتى قُتِل ولقي الله شهيداً..

فلما علم الله شوق هذه الطائفة من عباده وهم الندرة والقلة وأن نفوسهم تضطرب حتى تلقها؛ ضرب لهم موعداً تسكن إليه نفوسهم وتعمل حتى تقدم إلى الله.

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله عن قول علي رضي الله عنه: (لا يرجون عبدٌ إلا ربه ولا يخافنّ إلا ذنبه) فقال: الحمد لله، هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه فإن الرجاء يكون للخير والخوف يكون من الشر والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه**{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}**(1) لذلك قال علي رضي الله عنه: (لا يخافن عبد إلا ذنبه) وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه**{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**(2).

فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر: **«يقول الله: أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسبّ الملوك وأطيعوني أعطّف قلوبهم عليكم»**.

فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله :**{وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ}**(3).

---

(1) الشورى: ٣٠.
(2) الأنعام: ١٢٩.
(3) يونس: ١٠٧.

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}[1].

والرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة، والتوكل لا يجوز إلا على الله**{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}**[2] ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم إن لم يكن في الدنيا؛ في الآخرة حين يقال: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤونهم فاطلبوا منهم الأجر..!، **{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**[3].

{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاًّ * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداًّ}[4].

فمن عمل لغير الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة، قال تعالى:**{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ}**[5].

فالذين كفروا أعماله كرماد اشتدت به الريح أي أصبح أخف من التراب في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء، **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً}**[6] فكل عمل باطل إلا ما أريد به وجه الله ومن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه.

---

(١) فاطر: ٢.
(٢) إبراهيم: ١٢.
(٣) العنكبوت: ٤١.
(٤) مريم: ٨١.
(٥) النور: ٣٩.
(٦) الفرقان: ٢٣.

أنواع الرجاء من حيث الراجي:

الراجي يكون راجياً تارة بعمل يعمله لمن يرجوه، وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله فذاك نوع من العبادة وهذا نوع من الاستعانة فإذاً**{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[1].

لقد ورد الرجاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

١- بيان رجاء المؤمنين وهو الرجاء المصحوب بعمل:**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ}**[2]، الذين صدقوا بالله ورسوله وما جاء به وتركوا ديارهم وأحبابهم وأوطانهم وتغربوا عن أمصارهم وتحولوا عن بيوتهم هجرة إلى اللخ وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وقدموا وبذلوا وقاتلوا وحاربوا وتحملوا الجراحات وألم طريق الجهاد والمخمصة والجوع والظمأ والنصب؛ هؤلاء يرجون رحمة الله عنهم الله ويطمعون أن يرحمهم فيدخلهم جنته سبحانه وتعالى..

٢- الله عز وجل فتح باب الرجاء لعباده حتى في مغفرة أي ذنب كما قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}**[3] فهذه الآية قيل أنها نزلت بعد قوله تعالى:**{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً}**[4] فقالوا لرسول الله ﷺ والشرك؟ فكره رسول الله ذلك فنزلت هذه الآية**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}** والمقصود أن الله لا يغفر للمشرك إذا مات على الشرك، ولا يدخل المشرك تحت المشيئة وأما إذا تاب المشرك فإن الله يغفر لـه ذنبه حتى لو كان الشرك.. والآية في المشيئة وليست في نفي المغفرة عن التائب عن الشرك..

---

(١) الفاتحة: ٥.
(٢) البقرة: ٢١٨.
(٣) النساء: ٤٨.
(٤) الزمر: ٥٣.

٣- **{قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}**(١).

قال ابن جرير: قضى أنه بعباده رحيم فكيف تتمثل هذه الرحمة؟ قال: لا يعجل عليهم العقوبة مع أنهم مستحقون بل يصبر ويحلم ويقبل منهم الإنابة والتوبة فهذا يعلقهم بالرجاء**{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}**(٢)، قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا فيقرون بذلك قولاً وعملاً مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم هل لها من توبة؟ فلا تيأسهم منها وقل لهم سلام عليكم أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها أي عليكم الأمان لن يعاقبكم بعد توبتكم منها..، كتب ربكم على نفسه الرحمة أي قضى الرحمة بخلقه سبحانه وتعالى..

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}(٣).

قال ابن جرير: يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه والعمل السيئ اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها، والآخر السيء تخلفهم عن رسول الله ﷺ حين خرج غازياً عسى الله أن يتوب عليهم، وعسى من الله واجبة، يعني سيتوب فعلاً وحقاً.

٤- الرجاء مفتوح حتى في أمور الدنيا، يرجو مال، ولد، زواج، وظيفة، زوال مرض، وجود مفقود، فيعقوب عليه السلام علم أبناءه الرجاء حتى في المفقودات الدنيوية**{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن**

---

(١) الأنعام: ١٢.

(٢) الأنعام: ٥٤.

(٣) التوبة: ١٠٢.

رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}[1].

٥- قال ابن جرير: حين طمع يعقوب في يوسف قال لبنيه يا بني اذهبوا للموضع الذي جئتم منه وخلفتم أخويكم به ولا تيأسوا من روح الله ولا تقنطوا من أن يروّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن ويفرّحنا برؤيتهما إنه لا ييأس من روح الله ولا يقنط من فرجه ورحمته ولا يقطع الرجاء منه إلا القوم الكافرون.

٦- **{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}**[2] فلا تيأسوا من رحمة الله أن الله يغفر لكم ذنوبكم كلها ولا يبقي منها شيئاً ولا نصفها ولا بعضها ولا الكبائر فقط وليس الخطاب للذين عندهم معاصي قليلة بل أسرفوا وكثرت معاصيهم وكبائرهم وصغائرهم، لا تقنطوا من رحمة الله، فهذا أمر من الله بالرجاء، فالكريم إذا أمر بالرجاء لا يليق به إلا الكرم، فابذل السبب، واستغفر وتب توبة حقيقية وامتنع عن الذنوب وأصلح واستقبل حياة نظيفة واندم على ما فات واعزم على أن لا تعود إليه.

٧- الحديث القدسي: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»** هذا الرجاء العظيم الذي يفتحه الله عزوجل، هذا فتح باب الرجاء للعباد.

٨- إن الإنسان له عند الموت أحوال في الخوف والرجاء خاصة مبنية على حسن ظنه بالله: **«أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فليظن بي عبدي ما شاء»**، قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به، لذلك الثلاثة الذين خلفوا لما

---

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) الزمر: ٥٣.

ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه تاب الله عليهم، فبالنسبة للموت يجب أن نجهز أنفسنا لتلك اللحظات لتفيض أرواحنا ونحن نحسن الظن بالله، والرسول ﷺ قبل أن يموت بثلاث أيام أعطى الأمة هذه الوصية التي رواها مسلم: **«لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزوجل»**، فهذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة..

لهذا بعض السلف كان يأمر بنيه عند الموت أن تقرأ عليه آية الرحمة؛ حتى تطلع روحه وهو محسن الظن بالله أن يغفر له ويرحمه ويتقبله ويستقبله بالإنعام، وكذلك فإن الإنسان إذا صدق بالتوبة ولو تكرر الذنب فإن الله يغفر له ما أذنب، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قال: ألا أبشّر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا..

هذا دليل كما قال ابن رجب: قال العلماء: يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس لئلا يتكلوا أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمهم عن المراد بها، يقول ابن رجب: وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتهاداً في العمل، وخشية لله عزوجل فأما من لم يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر إتكالاً على ظاهر الخبر..

ومعاذ من العشرة المبشرين بالجنة، وفقيه لا يخشى عليه..

كذلك عثمان فقد قال عنه ﷺ : **«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»**، ماذا فعل..؟!، لقد ازداد في الخير والبر والطاعات، هذه النفوس الله يعلم لو بشرهم برضوانه فإنهم لن يتركوا الخيرولن ينتكسوا، لذلك فأحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس ففيهم قلة فقه في الدين ويحتاجون عند التفريط إلى التخويف..

ثم إن الشرك شرك أكبر وأصغر وخفي، ومن الذين ينجو منه؟، ثم إن الحديث مقيد عند العلماء بالآيات والأحاديث الأخرى التي فيها التعذيب على المعصية، وبعض العلماء حملوها على ترك دخول نار الشرك، لأن جهنم فيها دركات(نار الشرك - نار الكبائر - نار المعاصي -...) حملوه حتى لا يفهم خطأ على أنه لا يدخل نار الشرك.

القاعدة العامة**{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}**[1]، فالسلف خوفتهم هذه الآية جداً فلذلك كانوا يعملون ويخافون.

ومن أحاديث الرجاء التي تقال لإنسان مذنب تاب، وبالرغم من التوبة صار عنده نوع من اليأس والإحباط ويرى ذنوبه كبيرة وليس هناك فائدة من العمل، فهو كما يظن محكوم عليه بالنار: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه هلك قال سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**».

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجل أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله:**{أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}**[2] فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لجميع أمتي كلهم (رواه البخاري ومسلم).

تصريح أن الحسنات تكفر السيئات، وهل هي حسنات معينة كالصلوات الخمسة؟ أو هي الحسنات مطلقاً كما قال العلماء وبعضهم بهذا وبعضهم بهذا..

في مرض الموت قيل للشافعي كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولأخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً ولا أدري ءإلى الجنة تسير روحي فأهنيها أم إلى النار فأعزيهاثم أنشأ يقول..

ولمـــا قســـى قلبـــي ::: وضـــاقت مـــذاهبي
جعلـــت الرجـــا منـــي ::: لعفـــوك ســـلّماً
تعـــاظمني ذنبـــي ::: فلمـــا قرنتـــه
بعفـــوك ربـــي ::: كـــان عفـــوك أعظـــم

«**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**»، **{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**

---

(١) النساء: ١٢٣.
(٢) هود: ١١٤.

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}[1].

الرجاء دواء يحتاج له رجلان:

١- رجل غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة وجزم أنه ليس هناك فائدة..

٢- رجل غلب عليه الخوف حتى أضرّ بنفسه وأهله، فتعدّى خوفه الحد الشرعي المطلوب فلابدّ أن يعدّل ويمدّ بشيء يحدث موازنة وهو الرجاء الذي هو حالة طبيعية عند المؤمن.

فبعض الناس الكلام معه في الرجاء دواء، أما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة لا ينفع معه أبداً دواء الرجاء، ولو استعملت معه الرجاء لزدته ضلالاً..، لا ينفع له إلا دواؤ الخوف، فيوعظ بسياط الخوف ويقرّع المنايا، هذا المتمني المتساهل المفرط، فلا يصلح معه أن تحدثه عن الرجاء، وهذا أمر مهم ينبغي أن يتنبه له الوُعّاظ..

قال بعض العلماء: (يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً معهم ناظراً إلى مواضع العلل معالجاً كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي أن يستخدم فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف وإنما يذكر الواعظ فضيلة وأسباب الرجاء إذا كان المقصود استمالة القلوب إليه لإصلاح المرضى)، التخويف ولكن بحيث لا تصل إلى تيئيسهم من رحمة الله..

قال علي رضي الله عنه: **«إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يأمّنهم مكر الله»**..

لابد أن يكون هناك توازن وحسب حال الناس، فإذا كانوا ميّالين إلى التفريط والمعاصي والتساهل غلّب التهويف وإذا كان عندهم خوف زائد ويأس من رحمة الله غلّب الرجاء.

---

(١) فصلت: ٣٠.

ثمرات الرجاء:

١- يورث طريق المجاهدة بالأعمال.

٢- يورث المواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال.

٣- يشعر العبد بالتلذذ والمداومة على الإقبال على الله والتنعّم بمناجاته والتلطف في سؤاله والإلحاح عليه.

٤- أن تظهر العبودية من قبل العبد والفاقة والحاجة للرب وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٥- أن الله يحب من عباده أن يسألوه ويرجوه ويلحّوا عليه لأنه جواد كريم أجود من سُئِل وأوسع من أعطي وأحب ما إلى الجواد الكريم أن يسأله الناس ليعطيهم ومن لا يسأل الله يغضب عليه والسائل عادة يكون راجٍ مطالب أن يُعطى فمن لم يرجو الله يغضب عليه، فمن ثمرات الرجاء التخلّص من غضب الرب.

٦- الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله فيطيب المسير ويحث على السير ويبعثه على الملازمة، فلولا الرجاء بـ(المضاعفة - رحمة الله - الأجور والثواب المضاعف - الجنة والنعيم) ما سار أحد، والقلب يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

٧- يطرح على عتبة محبة الله عزوجل ويلقيه في دهليزها فكلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه؛ ازداد حباً لربه وشكراً له ورضا، وهذا من مقتضيات وأركان العبودية.

٨- الرجاء يبعث العبد على مقام الشكر لأنه يحفزه للوصول إلى مقام الشكر للنعم وهو خلاصة العبودية.

٩- الرجاء يوجب المزيد من التعرف على أسماء الله وصفاته.

الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف عند المؤمن، لأن كل خائف راجي وكل راجي خائف، ولهذا حسن وقوع الرجاء في مواضع يحسن فيه وقوع الخوف**{مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً}**[1].. قال المفسرون: مالكم لا تخافون لله عظمة، فكل راجٍ خائف من فوات مرجوّه، هذا يفسّر لنا كيف أن الرجاء مرتبط بالخوف وأن الراجي خائف أن يفوت مطلوبه ورحمة الله وجنته.

انظر إلى التداخل العجيب بين مقامات الإيمان في قلب المؤمن، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط..!!!

قال تعالى:**{قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ}**[2] أي لا يخافون وقائع الله بهم كما وقعت في الأمم الذين من قبلهم من التدمير والإهلاك.

ثم إن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه فحصل المطلوب يحصل مزيد من التشجّع وسؤال المزيد والإقبال على الله وهكذا لا يزال العبد في ازدياد في الإيمان والقرب من الرحمن.

على قدر رجاء العباد وخوفهم يكون فرحهم يوم القيامة بحصول المرجو الأعظم وهو نيل رضا الرب والجنة ورؤية الله فيها.

وكذلك فإن الله يريد من العبد أن يكمل نفسه بمراتب العبودية من الذل والانكسار لله والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والصبر على أقداره والشكر لـه وعلى إنعامه ولذلك يقدر الذنب على العبد لتكمل مراتب العبودية عند العبد فيستغفر العبد، فلولا الذنب ما حصل انكسار ولا توبة، يبتليهم بالذنوب ليعالج ما في قلوبهم بالانكسار وطلب التوبة فينكسر بين يدي الله فيتحقق معنى مهم جداً جداً من معاني العبودية..!!

---

(١) نوح: ١٣.
(٢) الجاثية: ١٤.

كيف تتحقق العبودية إذا لم يكن هناك انكسار وذل وخضوع..؟!!، أحياناً لا يصدر الإنكسار والذل هذا إلا بذنب يتوب منه العبد ويعرف تقصيره والبلية التي وقع فيها وحجم المعصية.

الرجاء فيه انتظار وترقّب وتوقع لفضل الله عزوجل فيتعلق القلب أكثر بخالقه..

ولابد من الجمع بين الخوف والرجاء.

* * * * *

المبحث السادس:

اليقيـن

لليقين معنيان وإن شئت فقل: هو معنى واحد منظور لـه من جهتين:

١ - اليقين من حيث هو أصل للإيمان، إذ لا إيمان مع الشك.

٢ - اليقين من حيث هو درجة عليا من درجات الإيمان.

فبالنظر للمعنى الأول يكون كل مؤمن موقناً وإلا لم يستحق اسم الإيمان وبالنظر للمعنى الآخر - ليس كل مؤمن موقناً، بل الموقنون طائفة خاصة من المؤمنين.

فأما اليقين بالمعنى الأول فهو شرط من شروط شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله، أي أن الإيمان المجمل - قول القلب واعتقاده - لا يتحقق إلا به، فمن شك في الله أو في رسوله وما جاء به عن الله، فهو كافر لا شهادة لـه ولا إيمان.

بذلك أخبر الله تعالى عن الكفار حين قالوا لرسلهم:**{إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ}**(١).

وأخبر أنهم إذا طلب منهم الإيمان بالبعث قالوا:**{مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنَّاً ومَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}** (٢).

لكن إذا كان يوم القيامة يقولون:**{رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ}**(٣).

ولهذا جاء في وصف القرآن أكثر من مرة بأنه (لا رَيْبَ فِيهِ).

وفي حديث جابر رضي الله عنه يقول: أنا من شهد معاذاً حين حضرته الوفاة،

---

(١) إبراهيم: ٩، ١٠.

(٢) الجاثية: ٣٢.

(٣) السجدة: ١٢.

يقول: اكشفوا عني سجف القبة، أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا، سمعته يقول: **«من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه –** أو: يقيناً من قلبه **– لم يدخل النار، أو دخل الجنة – وقال مرة – دخل الجنة ولم تمسه النار»** [(١)] .

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه - في قصة تبوك - أن النبي ﷺ قال: **«أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»** وفي رواية: **«فيحجب عن الجنة»** [(٢)].

وعنه في حديث آخر أن النبي ﷺ قال له: **«اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»** [(٣)].

وهذا اليقين - بهذا المعنى - هو حقيقة العلم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن ثَم ذكر بعض العلماء العلم شرطاً مستقلاً من شروط الشهادتين مستدلين بقوله تعالى:**{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}**[(٤)].

وقول النبي ﷺ : **«من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»**.

وعقد الإمام البخاري باباً بعنوان: باب قول النبي ﷺ : **«أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب»**، لقوله تعالى:**{ولَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}**[(٥)] ثم روى حديثاً آخره: **«إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»**.

لكن لم أر أن أفرده هنا - أي: العلم - لأن الحديث عن اليقين يشمله ويتضمنه ولأن الحديث عن ضده؛ وهو الجهل بالتوحيد - كلياً أو جزئياً - يحتاج لتطويل يخرج عن دائرة موضوعنا هنا.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) محمد: ١٩.
(٥) البقرة: ٢٢٥.

وأما اليقين بالمعنى الآخر - أي: اليقين الدرجة - فهو لب الإيمان وخلاصته وزبدته، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "اليقين الإيمان كله" وفي المسند: **«أفضل الأعمال عند الله إيمان لا شك فيه وغزو لا غلول فيه وحج مبرور»**.

وهو يقابل الإيمان الكامل المفصل، كما أن ذاك يقابل الإيمان المجمل ولهذا جاء في القرآن شرطاً للإمامة في الدين، فقال تعالى:**{وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ}**[1].

ومن ارتباطه بالصبر قوله تعالى:**{فَاصْبِرْ إِنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ}**[2].

وأخبر الله تعالى عن إمام الموحدين، فقال:**{وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}**[3].

فقد كان الإيمان متحققاً عنده، كما أخبر الله عنه في الآية التي قبلها:**{وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}**[4] فرقاه الله إلى درجة اليقين، مثلما كان مؤمناً بأن الله يحيي الموتى لكن طلب الرؤية لتحصيل الطمأنينة التي هي برد اليقين.

وهذا اليقين هو الذي عبر عنه بعض السلف بقوله: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً".

وقال الآخر: "رأيت الجنة والنار حقيقة، قيل له: كيف؟ قال: رأيتهما بعيني رسول الله ورؤيتي لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني، فإن بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ ".

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) الروم: ٦٠.

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) الأنعام: ٧٤.

واليقين بهذا المعنى نظير الإحسان الوارد في حديث جبريل، لكن الإحسان في عمل الجوارح واليقين في عمل القلب والله أعلم.

فاليقين في الجملة متعلقة الاعتقاد، وذلك أن مجمل الإيمان القلبي هو الإيمان بالغيب فإذا رسخ هذا الإيمان وارتقى عن الشكوك حتى يصبح كالمعاينة فهو اليقين.

ولهذا جاء أعظم الغيبيات - بعد الإيمان بالله - وهو الإيمان بالآخرة مقروناً باليقين أكثر مما سواه، فقال تعالى:**{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}** في أول البقرة والنمل ولقمان.

فإن الإيمان بالآخرة - مع دلالة الفطرة السوية والعقل السليم عليه - ليس في قوة الإيمان الفطري بالله، كما أن تفصيلاته مصدرها الوحي وحده.

واليقين نوعان:

١- يقين في خبر الله.

٢- يقين في أمر الله الشرعي والكوني.

فاليقين بخبر الله هو الإيمان بصدقه وتحققه ووقوعه - إن كان مما له الوقوع - إيماناً لا شك فيه وهذا هو الإيمان بالغيب يقيناً ومن الأدلة عليه قوله تعالى:**{وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى ولَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}**(١) فطلب الخليل من ربه مثالاً للبعث يزيد إيمانه حتى يصبح يقيناً خالصاً، وقريب منه طلب الحواريين المائدة، فمع إيمانهم بقدرة الله طلبوا ما تطمئن به قلوبهم كذلك.

وهذا اليقين قد بلغ ذروته النبي ﷺ ليس فيما أخبر الله به من أمور الدين والإيمان فحسب، بل في كل خبر ووعد حتى إنه ﷺ كان موقناً بأن الله سينصره ويظهره على العالمين، وهو ما يزال في أقسى مواقف الاضطهاد والتشريد والأذى، ولم يستبطئ النصر كما استبطأه رسل من قبله فقالوا:**{مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}** (٢) ولم يستيئس كما استيأس بعضهم.

(١) البقرة: ٢٦٠.
(٢) البقرة: ٢١٤.

وأما اليقين بأمر الله، فهو امتثاله برضا وطمأنينة وتسليم إن كان شرعياً، والرضا به والتسليم إن كان كونياً.

وذروته ما فعله إمام الموحدين من الامتثال لذبح ابنه الوحيد، وما فعله النبي ﷺ في مواقف من أعظمها يوم الحديبية حين قال: **«إني عبد الله، لن أخالف أمره ولن يضيعني»** أو نحوها.

وهذا في حقيقته هو الاستسلام لحكمه استسلاماً يرتقي لدرجة الإحسان، كما في قوله تعالى:**{فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**(1).

وهو تحقيق دين الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله التي هي العروة الوثقى، كما

قال تعالى:**{ومَنْ يُسْلِمْ وجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}**(2).

و مع قوله:**{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}**(3).

ولهذا جاءت الآيات المحكمات الدالة على اتباع شريعة الله والتحاكم إليها وحدها مذيلة بوصف اليقين لمن امتثل، فدل على شك من خالف وارتيابه.

قال تعالى:**{وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ولَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ**

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) لقمان: ٢٢.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[1].

وقال جل ذكره:**{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ واللَّهُ ولِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وهُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}** [2].

فكما سبق بيانه من أن تحكيم شرع الله هو الإسلام، فإذا بلغ من العبد إلى حد انتفاء الحرج والمعارضة بالرضا الكامل فهو الإحسان، فكذلك اعتقاد بطلان ما عداه وأنه وحده الحق الذي لا أحسن منه ولا أهدى هو درجة الإسلام، فإذا رسخ هذا حتى لا تزعزعه شبهة ولا يعتريه شك فهو اليقين.

وقد ضرب الصحابة - رضي الله عنهم - من اليقين في أمر الله أعظم الأمثال، مما لا يتسع المقام للتطويل به، وحسبك أن ينزل الله تحريم الخمر والقوم مدمنون على شربها، مدخرون لها، مغالون في أثمانها، فما يكاد الأمر ينزل حتى تسيل بها أزقة المدينة أنهاراً!!

وأن ينزل الله الأمر بالحجاب والقوم مختلطون متعارفون، فما يكاد ذلك يبلغهم حتى تغدو نساؤهم كأنهن الغربان.

فهاتان عادتان إحداهما نفسية والأخرى اجتماعية وهما من أشد العادات وطئاً وأشقها تغييراً، تذهبان دفعة واحدة وتستأصلان من أعماق النفوس في لحظة واحدة، وما ذلك إلا باليقين الذي ليس وراءه في الأمم يقين.

* * * * *

---

(١) المائدة: ٤٨ - ٥٠.

(٢) الجاثية: ١٨ - ٢٠.

المبحث السابع:
الشكـر

تعريف الشكر:

وردت تعـريفــات للشكر عديـدة، وأوصـاف كثيـرة، ومعـانٍ لطيفـة، ومـن تعريفاتـه اللغوية قول الراغب الأصفهاني: "الشكر تصور النعمة وإظهارها، وقيل: هو مقلوب عن الكَشْر أي الكشف: ويًضاده الكفر الذي هو نسيان النعمـة وسترها. وقيل أصـله مـن عَينٍ شَكْرَى أي ممتلئة، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذِكْر المُنْعِم عليه".

قال ابن منظــور: "الشكر عرفان الإحسـان ونشره، وهو مـأخوذ من قولك: شكرت الإبل تشْكُر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه، والشُّكران خلاف النُكران، والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، ويُقـال: شَكَرَه وشَكَر لــه يشكُرُ شُكْرًا وشُكْرانًـا، ويقـال أيضًـا: شكرت الله، وشكرت لله، وشكـرت بـالله، وكذلك شكـرت نعمـة الله، ورجلٌ شكورٌ، كثير الشكر، وهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته وأدائه ما وظّف عليه من عبادته".

الشكر في الاصطلاح:

قال الكفوي: "الشكر كل ما هو جزاءٌ للنعمة عرفًـا، وقـال أيضًـا: أصـل الشكر: تصور النعمة وإظهارها، والشكر من العبد: عرفان الإحسـان، ومن الله المجـازاة والثنـاء والجميل".

وقال المنـاوي: " الشكر: شُكْران، الأول شكر باللسـان وهـو الثنـاء علـى المـنعم، والآخر شكر بجميع الجـوارح، وهو مكافأة النعمـة بقدر الاستحقاق، والشكور البـاذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا".

وقال ابن القيــم - رحمــه الله -: " الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثنـاءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة ".

معاني الشكر:

قال صاحب المنازل: " ومعاني الشكر ثلاثة أشياء: معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثناء بها ".

وقد شرح ابن القيم هذا الكلام بقوله: " أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن، ومشاهدتها وتمييزها.

فمعرفتها، تحصيلها ذهنًا، كما حصلت له خارجًا، إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدري، فلا يصح من هذا الشكر.

قوله: " ثم قبول النعمة ".

قبولها: هو تلقيها من المنعم لإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل ثمن، بل يرى نفسه فيها كالطفيلي، فإن هذا شاهد بقبولها حقيقة.

قوله: " ثم الثناء بها ".

الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص، فالعام: وصفه بالجد والكرم والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته، كما قال تعالى:**{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}**[(١)].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها، وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

---

(١) الضحى: ١١.

والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر مرفوعًا: «**من صُنِع إليه معروف فليَجْز به، فإن لم يجد ما يجزي به فليُثْن؛ فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور**».

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو مُتحلٍّ بما لم يُعْطَه.

وفي أثر آخر مرفوع: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب**».

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة، قال مجاهد: هي النبوة، قال الزجاج، أي بلِّغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله، وقال الكلبي: هو القرآن، أمره أن يقرأه.

وقال عز وجل:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}**(١).

فالشكر لله اعتراف بفضله، واحترام لكرمه، وإجلال لنعمه، وثناء على عطائه، واعتراف بجميله، وإن ظهور أثر النعمة، وجلاء لطيف المنّة، ووضوح فضل المتفضل بالثناء عليه، والمحبة له، واستعمال ما أعطى فيما يحب، والانقياد لأمره، والرضى بحكمه. معرفة مصدر النعمة شكر، والثناء عليها شكر، وتوجيهها في الطاعة شكر، ومشاهدة المنّة بها شكر، وحفظ حرمات المنعم شكر، وامتلاء القلب بمحبته شكر، ولهج اللسان بذكره شكر، والتسبيح بحمده شكر.

---

(١) البقرة: ١٧٢.

الشكــر يزيـد الـنعم، ويزيـل الـنقم، ويُبلِّـع المنـى. إن الإيمـان نصـفان نصـف شـكر ونصف صبر، بل قد لا يبعد الأمر إذا قلنا إن الدين كله شكر، فمن شُكْر الله الاعتراف بوحدانيته، والإيمان برسله، والصلاة شكر، والزكاة شكر، والصوم شكر، والحج شكر، والذكر شكر، والعابد لله حقًا شكر:**{وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}**(١).

وقـرن عبادته تعالى بالشكر فقال:**{وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا له إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** وترك الشكر كفر:**{وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}**(٢)، وإبراهيم - عليه السلام - كان أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين؛ لأنه كان شاكرًا لأنعم ربه وأجلها نعمة التوحيد:**{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**(٣) وامتدح الله نوحًا لأنه**{كَانَ عَبْداً شَكُوراً}**(٤)، بل إن الله جل وعلا خلق الخلق وأوجدهم ليشكروه:**{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**(٥).

ومـن أسمائـه جل وعلا شاكر وشكور، ويحب لعباده أن يتصفوا بهذه الصفة الربانية، والسمة الإلهية، ولقد ورد في آية واحدة الحث على الشكر وبيان أن الله تعالى شاكر عليم، وتلك فيها لفتة كريمة، ولطيفة بديعة، وكأنه تعالى يقول: إذا أمرتكم بالشكر فامتثلوا الأمر فإنها رتبة رفيعة، ودرجة عالية، ولذلك كانت من أسمائي وصفاتي وأنا أحبها لعبادي، وأدفع عنهم بها العذاب:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}**(٦).

---

(١) النحل: ١١٤.
(٢) البقرة: ١٥٢.
(٣) النحل: ١٢٠، ١٢١.
(٤) الإسراء: ٣.
(٥) النحل: ٧٨.
(٦) النساء: ١٧٤.

الشكـر يرضاه الرب، ويحبه المولى:**{وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}**[1] والشاكر سعيه مأجور وعمله مشكور:**{وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً}**[2].

الله جل وعلا هدى الناس لعلهم يشكرون، وأتم نعمته عليهم لعلهم يشكرون، وبيَّن آياته للناس لعلهم يشكرون، ورزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون، وسخر لهم ما في الأرض جميعًا منه لعلهم يشكرون، وخلق البحر وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وجعل للناس السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون.

إن نعـم الله العظيمة، وآلاءه الكريمة، ومننه المتتالية، وأفضاله المتتابعة، قد يسرها جميعًا للناس، ووهبها للبشر ليقوموا بشكره، ويسبحوا بحمده، ويعترفوا بفضله، فله الحمد والشكر في الأولى والآخرة.

ومن عظمـة العزيز الشكور، وفضل الرحيم الغفور، أنه يجعل الشاكر مشكور، انظر إلى بديع لطفه، وعظيم فضله، وواسع عطائه، هو الذي خلقك، وهو الذي رزقك، وهو الذي هداك للإيمان، وجملك بالإسلام، وأعانك على ذكره، ووفقك لشكره، فكل الفضل والمن والثناء والحمد والشكر لـه جل وعلا، ولكن مع ذلك فمن تمام نعمته، وعظيم بره، ووافر كرمه، ولطيف جوده، أن ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويوفقك إلى الثناء عليها، ويرضى عنك، ثم يعيد إليك منفعة شكرك لـه ويجعله سببًا لتوالي نعمه عليك، واتصالها إليك، ويمن عليك بالزيادة في الدنيا، والمغفرة في الآخرة، فهو يحب منك الشكر، ويرضاه لك، ويثيبك عليه، ومنفعته لك، وثمرته لك**{وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}**[3]، فشكرك لـه إحسان منك إلى نفسك، وتفضل منك على ذاتك في الدنيا والآخرة، هو غني عنك، غير محتاج إليك، فهو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يُشكر عليه، ولا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه، ويقابل إحسانه، ويحصي ثناءً عليه، وإنَّ شُكْرك لـه نعمة منه تحتاج إلى شكر منك.

---

(١) الزمر: ٧.
(٢) الإنسان: ٢٢.
(٣) النمل: ٤٠.

إقرأ وكن من الشاكرين.

كان في بني إسرائيل ثلاثة رجال: أبرص وأقرع وأعمى. وكان كل منهم يدعو الله أن يزيل ما به من مرض وأن يرزقه المال، فاستجاب الله لهم، وبعث إلى الأبرص مَلَكًا وضع يده على جلده، فأصبح حسن اللون، وأعطاه ناقة عُشَرَاءَ ولدت وأصبح لها نسل كثير حتى صار غنيا. وذهب الملَك إلى الأقرع فمسح رأسه فشفاه الله، وأعطاه بقرة حاملا فولدت، وصار له قطيع من البقر.

ثم ذهب الملك إلى الأعمى فوضع يده على عينه، فشفاه الله، وأعطاه الملك شاة وولدها فولدت له حتى صار له قطيع من الغنم، وبعد فترة، جاء إليهم الملك ليختبرهم، هل يشكرون الله - سبحانه -، ويتصدقون على الفقراء أم لا؟

فذهب إلى الأبرص ثم ذهب إلى الأقرع، فلم يعطياه شيئًا، وقالا له: إنا ورثنا المال عن آبائنا، فعادا كما كانا، وأصبحا فقيرين.

ثم ذهب الملك إلى الأعمى وطلب منه صدقة فرحب به، وقال له: قد كنتُ أعمى فرد الله على بصري، فخذ ما شئتَ ودع ما شئتَ. فقال له الملك: قد رضي الله عنك. [القصة من حديث متفق عليه]. وهكذا يكون الأعمى قد نجح في الامتحان؛ فشكر ربه وتصدَّق مما رزقه الله؛ فزاد الله عليه النعمة وباركها له، بينما بخل الأقرع والأبرص ولم يشكرا ربهما؛ فسلب الله منهما النعمة.

يحكى أن رجلا ابتلاه الله بالعمى وقطع اليدين والرجلين، فدخل عليه أحد الناس فوجده يشكر الله على نعمه، ويقول: الحمد الله الذي عافاني مما ابتلى به غيري، وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلا، فتعجب الرجل من قول هذا الأعمى مقطوع اليدين والرجلين، وسأله: على أي شيء تحمد الله وتشكره؟

فقال له: يا هذا، أَشْكُرُ الله أن وهبني لسانًا ذاكرًا، وقلبًا خاشعًا وبدنًا على البلاء صابرًا.

يحكى أن رجلا ذهب إلى أحد العلماء، وشكا إليه فقره، فقال العالم: أَيسُرُّكَ أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال الرجل: لا. فقال العالم: أيسرك أنك أخرس ولك عشره آلاف درهم؟ فقال الرجل: لا. فقال العالم: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال الرجل: لا. فقال العالم: أيسرك أنك مقطوع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ فقال الرجل: لا. فقال العالم، أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك نعم بخمسين ألفًا.

فعرف الرجل مدى نعمة الله عليه، وظل يشكر ربه ويرضى بحاله ولا يشتكي إلى أحد أبدًا.

شكر الأنبياء:

كان الشكر خلقًا لازمًا لأنبياء الله - صلوات الله عليهم -، يقول الله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام -:**{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[١].

ووصف الله - عز وجل - نوحًا - عليه السلام - بأنه شاكر، فقال:**{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}**[٢]. وقال الله تعالى عن سليمان - عليه السلام -:**{قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}**[٣].

وكان رسول الله ﷺ كثير الشكر لربه، وقد علَّمنا أن نقول بعد كل صلاة: **«اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»** [٤].

---

(١) النحل: ١٢٠، ١٢١.

(٢) الإسراء: ٣.

(٣) النمل: ٤٠.

(٤) أبو داود والنسائي.

وتحكي عائشة - رضي الله عنها - أن الرسول ﷺ كان يقوم الليل، ويصلي لله رب العالمين حتى تتشقق قدماه من طول الصلاة والقيام؛ فتقول لـه: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيرد عليها النبي ﷺ قائلا: **«أفلا أكون عبدًا شَكُورًا»** [1].

أنواع الشكر:

المسلم يشكر كل من قدم إليه خيرًا، أو صنع إليه معروفًا، ومن أنواع الشكر:

شكر الله: المسلم يشكر ربه على نعمه الكثيرة التي أنعم بها عليه، ولا يكفر بنعم الله إلا جاحد، قال تعالى: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}** [2].

ويقول تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}** [3].

ونعم الله على الإنسان لا تعد ولا تُحْصَى، يقول تعالى: **{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا}** [4].

ويقول تعالى: **{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}** [5].

ويقول تعالى: **{وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [6].

ويقول تعالى: **{وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [7].

---

(١) متفق عليه.
(٢) البقرة: ١٥٢.
(٣) البقرة: ١٧٢.
(٤) إبراهيم: ٣٤.
(٥) الملك: ٢٣.
(٦) الأنفال: ٢٦.
(٧) القصص: ٧٣.

ويتحقق شكر الله بالاعتراف بالنعم، والتحدث بها، واستخدامها في طاعة الله، وقال رسول الله ﷺ : **«التحدُّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله»** [1].

وقال رسول الله ﷺ : **«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأَكْلَة فيحمده عليها، أو يشرب الشَّربة فيحمده عليها»** [2].

وقال رسول الله ﷺ : **«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»** [3].

وقال عمر بن عبد العزيز عن الشكر: تذكروا النعم؛ فإنَّ ذكرها شكرٌ..

والرضا بقضاء الله شكر، يقول النبي ﷺ : **«إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟! فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟! فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسمُّوه بيت الحمد»** [4].

وعلمنا النبي ﷺ أن نسجد لله سجدة شكر إذا ما حدث لنا شيء يسُرُّ، أو إذا عافانا الله من البلاء.

شكر الوالدين: أمر الله - عز وجل - بشكر الوالدين والإحسان إليهما، يقول تعالى:**{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ}**[5]، فالمسلم يقدم شكره لوالديه بطاعتهما، وبرهما، والإحسان إليهما، والحرص على مرضاتهما، وعدم إغضابهما.

شكر الناس: المسلم يقدِّر المعروف، ويعرف للناس حقوقهم، فيشكرهم على ما قدموا لـه من خير. قال رسول الله ﷺ : **«لا يشْكُرُ اللهَ من لا يشْكُرُ الناسَ»** [6]،

---

(١) البيهقي.
(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد.
(٣) أبوداود والترمذي.
(٤) الترمذي وأحمد.
(٥) سورة لقمان: ١٤.
(٦) أبو داود والترمذي.

وقال رسول الله ﷺ : «**إن أشكر الناس لله – عز وجل – أشكرهم للناس**»[١].

وأحق الناس بأن تقدم لـه الشكر مُعَلِّمُك؛ لما لـه عليك من فضل، قال الشاعر:

قُــم للمُــعَلِّم وفِّــه التبجيــلا ::: كــاد العلــم أن يكــون رســولا

وحثنا النبي ﷺ أن نقدم كلمة الشكر لمن صنع إلينا معروفًا؛ فنقول لـه: جزاك الله خيرًا. قال رسول الله ﷺ : «**من صُنِع إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أَبْلَغَ في الثناء**» [٢].

فضل الشكر:

إذا تحلى المسلم بخلق الشكر والحمد لربه، فإنه يضمن بذلك المزيد من نعم الله في الدنيا، ويفوز برضوانه وجناته، ويأمن عذابه في الآخرة، قال تعالى:**{لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ}**[٣]، وقال سبحانه:**{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً}**[٤]، وقال الحسن: كلما شكرتَ نعمة، تَجَدَّدَ لك بالشكر أعظم منها.

عدم الشكر وآثاره: المسلم ليس من الذين لا يقَدِّرُون المعروف، ولا يشكرون الله - سبحانه - على نعمه، ولا يشكرون الناس، فإن هؤلاء هم الجاحدون الذين ينكرون المعروف، وقد ذمهم القرآن الكريم، فقال تعالى:**{وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}**[٥].

وقال الإمام علي - رضي الله عنه -: كفر النعمة لؤم. وقال تعالى:**{لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}**[٦]، فقد جعل الله الجنة جزاءً للشاكرين الحامدين، وجعل النار عقابًا للجاحدين المنكرين.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه الترمذي والنسائي.
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) النساء: ١٤٧.
(٥) النمل: ٤٠.
(٦) إبراهيم: ٧.

المبحث الثامن:

الصبــر

الإيمـان نصـفان: صـبر وشـكر، ولمـا كـان كـذلك كـان حريـا بـالمؤمن أن يعرفهمـا ويتمسك بهما، وأن لا يعدل عنهما، وأن يجعل سيره إلى ربه بينهما ومن هنا كـان حديثنا عن الصبر في القرآن الكريم فقد جعله الله جوادا لا يكبو وصارما لا ينبو وجندا لا يهزم، وحصنا لا يهدم. فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد.

تعريفه:

الصـبر لغـة: الحـبس والكف، قـال تعـالى:**{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}**(١)، أي احبس نفسك معهم.

واصطلاحاً: حبس النفس على فعل شيء أو تركه ابتغاء وجه الله قال تعالى:**{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ}**(٢).

أنواع الصبر الثلاثة والباعث عليه:

أما أنواعه فهي: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. ففي قولنا (على فعل شيء) دخل فيه الأول، وفي قولنا (أو تركه) دخل فيه النوعان الثاني والثالث: أما دخول الثاني فظاهر لأنه حبس للنفس على ترك معصية الله، وأما دخول الثالث فلأنه حبس للنفس عن الجزع والتسخط عند ورود الأقدار المؤلمة.

أما الباعث عليه: فهو في قولنا: (ابتغاء وجه الله) قال تعالى:**{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** فالصبر الذي لا يكون باعثه وجه الله لا أجر فيه وليس بمحمود، وقد أثنى الله في كتابه على أولي

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) الرعد: ٢٢.

الألباب الذين من أوصافهم ماذكره بقوله:**{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراًّ وَعَلانِيَةً}**.

وهذا النص يشير إلى حقيقة هامة جداً وهي أن صبغة الأخلاق ربانية فيه ليست أخلاقاً وضعية أو مادية وإنما ربانية سواء من جهة مصدر الإلزام بها أو من جهة الباعث على فعلها، فالعبد لا يفعلها تحت رقابة بشرية حين تغيب ينفلت منها، بل يفعلها كل حين وعلى كل حال لأن الرقابة ربانية، والباعث إرادة وجه الله تعالى.

أهميته :

الصبر: أبرز الأخلاق الوارد ذكرها في القرآن حتى لقد زادت مواضع ذكره فيه عن مائة موضع، وما ذلك إلا لدوران كل الأخلاق عليه، وصدورها منه، فكلما قلبت خلقاً أو فضيلة وجدت أساسها وركيزتها الصبر، فالعفة: صبر عن شهوة الفرج والعين المحرمة، وشرف النفس: صبر عن شهوة البطن، وكتمان السر: صبر عن إظهار مالا يحسن إظهاره من الكلام، والزهد: صبر عن فضول العيش، والقناعة: صبر على القدر الكافي من الدنيا، والحلم: صبر عن إجابة داعي الغضب، والوقار: صبر عن إجابة داعي العجلة والطيش، والشجاعة: صبر عن داعي الفرار والهرب، والعفو: صبر عن إجابة داعي الانتقام، والجود: صبر عن إجابة داعي البخل، والكيس: صبر عن إجابة داعي العجز والكسل وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر، لكن اختلفت الأسماء واتحد المعنى، والذكي من ينظر إلى المعاني والحقائق أولاً ثم يجيل بصره إلى الأسامي فإن المعاني هي الأصول والألفاظ توابع، ومن طلب الأصول من التوابع زل. ومن هنا ندرك كيف علق القرآن الفلاح على الصبر وحده**{وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً}{أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً}**.

{سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}.

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر إلى ماله من قيمة كبيرة في الحياتين الدنيا والأخرى، فليس هو من الفضائل الثانوية، بل من الضرورات اللازمة التي لا انفكاك للإنسان عنها، فلا نجاح في الدنيا ولا نصر ولا تمكين إلا بالصبر، ولا فلاح في الآخرة ولا فوز ولا نجاة إلا بالصبر، فلولا صبر الزارع والدارس والمقاتل وغيرهم ماظفروا بمقاصدهم:

وقلّ من جدّ في أمر يحاوله ::: واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وقال آخر:

لا تيأسن وإن طالت مطالبة ::: إذا استعنت بصبر أو ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ::: ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ولئن كان الأمر كذلك في الدنيا، فهو في الآخرة أشد وأوكد، يقول أبو طالب المكي: "اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار لأنه جاء في الخبر "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار". وقال: "اعلم أن كثرة معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، وقلة الصبر على مايكرهون".

وإذا كان هذا شأن الصبر مع كل الناس، فأهل الإيمان أشد الناس حاجة إليه لأنهم يتعرضون للبلاء والأذى والفتن**{الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ}**[١].

وقال:**{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}**[٢].

---

(١) العنكبوت: ٣.

(٢) البقرة: ٢١٤.

وكان التأكيد أشد في قوله:**{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**(1)، لقد بينت الآية أن قوى الكفر على ما بينها من اختلاف متحدة ضد الإسلام، وقرنت لبيان موقف المؤمنين بين الصبر والتقوى فلا يكتفوا بالصبر وحده حتى يضيفوا إليه تقواهم لله بتعففهم عن مقابلة الخصم بمثل أسلحته الدنيئة فلا يواجه الدس بالدس لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية في السلم والحرب والرخاء والشدة. ثم وصفت الآية الأذى المسموع بأنه كثير، فلا بد أن يوطن المسلمون أنفسهم على سماع الافتراء والزور والتلفيق والبهتان من عدوهم حتى يأتي نصر الله.

ورسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أشد أهل الإيمان حاجة إلى الصبر لأنهم الذين يقومون أساساً بالدعوة ويجابهون الأمم بالتغيير وهم حين يقومون بذلك يكون الواحد منهم فرداً في مواجهة أمة تعانده وتكذبه وتعاديه، قال رسول الله ﷺ : **«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»**، وكلما كان القوم أشد عناداً وأكثر إغراقاً في الضلال كانت حاجة نبيهم إلى الصبر أكثر كأولي العزم مثلاً، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

لقد كانت أوامر الرب سبحانه لمحمد عليه الصلاة والسلام بالصبر كثيرة في القرآن وما ذاك إلا لأنها دعوة شاملة تواجه أمم الأرض كلها فخصومها كثيرون وحاجة إمام الدعوة إلى الصبر أعظم لقد واجه النبي ﷺ صنوف الأذى البدني والنفسي والمالي والاجتماعي والدعائي وغيره، وقاوم ذلك كله بالصبر الذي أمره به الله ً في القرآن كلها إبان العهد المكي لأنه عهد البلاء والفتنة والضعف وتسلط الكافر، وكان مما قاله الله له:**{تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}**(2).

---

(1) آل عمران: ١٨٦.
(2) هود: ٤٩.

{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}[١].

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}[٢] فأمر بالصبر لحكمه وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق والعدل، وقال له **{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}** فصيغة الجمع لزيادة التثبيت والتأنيس، وقال الله لموسى: **{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}**[٣] ومن كان بعين الله ومرأى منه فلن يضيع ولن يغلب، ثم أمر بالتسبيح كما أمره به في جملة آيات على أعقاب أمره بالصبر، ولعل السر فيه أن التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلو بها مرارة الصبر، ويحمل التسبيح بحمد الله معنيين جليلين لابد أن يرعاهما من ابتلي:

١- تنزيه الله تعالى أن يفعل عبثاً، بل كل فعله موافق للحكمة التامة، فبلاؤه لحكمة.

٢- أن له تعالى في كل محنة منحة وفي كل بلية نعماء ينبغي أن تذكر فتشكر وتحمد وهذا هو سر اقتران التسبيح بالحمد هنا. وفي قوله (ربك) إيذان بكمال التربية ومزيد العناية.

حكمه:

الصبر من حيث الجملة واجب، ويدل لذلك:

أ - أمر الله به في غير ما آية قال تعالى: **{اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}**[٤].

{اصْبِرُوا وَصَابِرُوا}[٥].

ب - نهيه عن ضده كما في قوله **{فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ}**[٦] وقوله **{وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}**[٧] **{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا}**[٨] **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ**

---

(١) النحل: ١٢٧.
(٢) الطور: ٤٨.
(٣) طه: ٣٩.
(٤) البقرة: ١٥٣.
(٥) آل عمران: ٢٠٠.
(٦) الأنفال: ١٥.
(٧) محمد: ٣٣.
(٨) آل عمران: ١٣٩.

تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}[1].

ج - أن الله رتب عليه خيري الدنيا والآخرة وما كان كذلك كان تحصيله واجباً، أما من حيث التفصيل فحكمه بحسب المصبور عنه أو عليه، فهو واجب على الواجبات وواجب عن المحرمات، وهو مستحب عن المكروهات، ومكروه عن المستحبات، ومستحب على المستحبات، ومكروه على المكروهات، ومما يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً قوله تعالى:**{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}**[2]، فالصبر عن مقابلة السيئة بمثلها ليس واجباً بل مندوباً إليه.

وقد أمر الله المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة فقال:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[3]، وصيغة المصابرة تفيد المفاعلة من الجانبين، والمعنى هنا: مغالبة الأعداء في الصبر، فإذا كنا نصبر على حقنا، فإن المشركين يصبرون على باطلهم؛ فلا بد أن نغلبهم بمصابرتنا، ثم أمرنا بالمرابطة على تلك المصابرة والثبات عليها لنحقق موعود الله ونظفر بالفلاح، فانتقلت الآية بالأمر من الأدنى إلى الأعلى فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك والمرابطة: الثبات وإعداد العدة، وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب لئلا يهجم منه الشيطان فيملكه أو يخربه أو يناله بأذى. وعليه فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله بالتقوى.

درجاته:

الصبر نوعان، بدني ونفسي وكل منهما قسمان: اختياري واضطراري، فصارت أربعة:

---

(١) الأحقاف: ٣٥.
(٢) النحل: ١٢٦.
(٣) آل عمران: ٢٠٠.

أ - بدني اختياري، كتعاطي الأعمال الشاقة.

ب - بدني اضطراري كالصبر على ألم الضرب.

ج - نفسي اختياري كصبر النفس عن فعل مالا يحسن فعله شرعاً ولا عقلاً.

د - نفسي اضطراري كصبر النفس عن فقدان محبوبها الذي حيل بينها وبينه.

والبهائم تشارك الإنسان في النوعين الاضطراريين لكنه يتميز عليها بالنوعين الاختياريين، والصبر الاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف على مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله من السجن أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبويه، وباعوه بيع العبد، ومن الصبر الاختياري صبره على العز والتمكين الذي أورثه الله إياه فجعله مسخراً لطاعة الله ولم ينقله ذلك إلى الكبر والبطر، وكذلك كان صبر نوح والخليل وموسى الكليم والمسيح ومحمد ﷺ فإن صبرهم كان على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ولهذا سموا أولي العزم، وأمر الله رسوله أن يصبر كصبرهم**{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** ونهاه عن أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر فخرج مغاضباً قبل أن يؤذن له**{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ}**(١) ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على أولي العزم حتى ردوها إلى خيرهم وأفضلهم وأصبرهم.

واعلم أن الصبر المتعلق بالتكليف وهو صبر إما على الطاعة أو عن المعصية أفضل من الصبر على مر القدر فإن هذا الأخير يأتي به البر والفاجر والمؤمن والكافر فلابد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً، أما الصبر على الأوامر وعن النواهي فهو صبر أتباع الرسل، والصبر على الأوامر أفضل من الصبر عن النواهي لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى.

---

(١) القلم: ٤٨.

٢ – فضائل الصبر :

حديث القرآن عن فضائل الصبر كثير جداً، وهذه العجالة لا تستوعب كل ما ورد في ذلك لكن نجتزىء منه بما يلي:

١- علق الله الفلاح به في قوله:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**.

٢- الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره:**{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا}**(١) وقال:**{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**(٢).

٣- تعليق الإمامة في الدين به وباليقين:**{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}**(٣).

٤- ظفرهم بمعية الله لهم :**{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}**(٤).

٥- أنه جمع لهم ثلاثة أمور لم تجمع لغيرهم:**{أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ}**(٥).

٦- أنه جعل الصبر عوناً وعدة، وأمر بالاستعانة به :**{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}**(٦).

٧- أنه علق النصر بالصبر والتقوى فقال:**{بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}**(٧).

٨- أنه تعالى جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره فما استجن

---

(١) القصص: ٥٤.
(٢) الزمر: ١٠.
(٣) السجدة: ٢٤.
(٤) الأنفال: ٤٦.
(٥) البقرة: ١٧٥.
(٦) البقرة: ٤٥.
(٧) آل عمران: ١٢٥.

العبد بأعظم منهما:**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}**(١).

٩- أن الملائكة تسلم في الجنة على المؤمنين بصبرهم**{وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}**(٢).

١٠- أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال:**{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}**(٣).

١١- أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور: أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها:**{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**(٤).

١٢- أنه سبحانه جعل محبته للصابرين:**{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}**.

١٣- أنه تعالى قال عن خصال الخير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون:**{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**(٥).

١٤- أنه سبحانه أخبر أنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور:**{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}**(٦).

١٥- أنه سبحانه أثنى على عبده أيوب أجل الثناء وأجمله لصبره فقال:**{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**(٧)، فمن لم يصبر فبئس العبد هو.

---

(١) آل عمران: ١٢٥.
(٢) الرعد: ٢٤.
(٣) هود: ١١.
(٤) الشورى: ٤٣.
(٥) فصلت: ٣٥.
(٦) لقمان: ٣١.
(٧) ص: ٤٤.

١٦- أنه حكم بالخسران التام على كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ولم يكن من أهل الحق والصبر:**{وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا}**[١].

قال الإمام الشافعي:"لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم، وقوة العمل، وهما: الإيمان والعمل الصالح وكما هو محتاج لتكميل نفسه فهو محتاج لتكميل غيره، وهو التواصي بالحق، وقاعدة ذلك وساقه إنما يقوم بالصبر".

١٧- أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى:**{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ}**[٢].

١٨- أنه تبارك وتعالى قرن الصبر بمقامات الإيمان وأركان الإسلام وقيم الإسلام ومثله العليا، فقرنه بالصلاة**{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ}**[٣] وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً**{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**[٤]، وجعله قرين التقوى**{إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ}**[٥]، وقرين الشكر**{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}**[٦]، وقرين الحق**{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**[٧]، وقرين المرحمة**{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}**[٨]، وقرين اليقين**{لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}**[٩]، وقرين التوكل**{نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ}**[١٠]، **{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**،

---

(١) سورة العصر.
(٢) البلد: ١٧.
(٣) البقرة: ٤٥.
(٤) هود: ١١.
(٥) يوسف: ٩٠.
(٦) سبأ: ١٩.
(٧) العصر.
(٨) البلد: ١٧.
(٩) السجدة: ٢٤.
(١٠) العنكبوت: ٥٨.

وقرين التسبيح والاستغفار{**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**}[١]، وقرنه بالجهاد{**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ**}[٢].

١٩- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم{**وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**}[٣].

مجالات الصبر:

أ – الصبر على بلاء الدنيا:

لقد أخبرنا الله تعالى بطبيعة الحياة الدنيا، وأنها خلقت ممزوجة بالبلاء والفتن فقال:{**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**}[٤] أي مشقة وعناء، وأقسم على ذلك بقوله:{**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ**}[٥] وإذا أطلق الصبر فلا يكاد ينصرف إلى غيره عند كثير من الناس.

ب – الصبر على مشتهيات النفس:

وهو ما يسمى بالسراء فإن الصبر عليها أشد من الصبر على الضراء، قال بعضهم: البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها إلا صِدِّيق، وقال عبد الرحمن بن عوف: "ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر". إن المؤمن مطالب بأن لا يطلق لنفسه العنان في الجري وراء شهواتها لئلا يخرجه ذلك إلى البطر والطغيان وإهمال حق الله تعالى فيما آتاه وبسط له،

---

(١) غافر: ٥٨.
(٢) محمد: ٣١.
(٣) النحل: ٩٦.
(٤) البلد: ٤.
(٥) البقرة: ١٥٥.

قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ}**(١)، ويمكن أن نجمل حاجة الإنسان إلى الصبر في هذا النوع بأربعة أمور :

١- أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

٢- أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

٣- أن يصبر على أداء حق الله تعالى فيها، ولا يضيعه فيسلبها.

٤- أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها، فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره.

ومما يدخل في هذا النوع من الصبر، الصبر عن التطلع إلى مابيد الآخرين من الدنيا، والصبر عن الاغترار بما ينعمون به من مال وبنين قال تعالى:**{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ}** (٢).

وقد نهى الله ورسوله ﷺ عن ذلك بقوله:**{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**(٣)،

فالمؤمن من يعتز بنعمة الهداية ويعلم أنما هم فيه من الدنيا ظل زائل وعارية مستردة ولا يبالي بمظاهر الفخامة التي يتبجح بها الطغاة، لقد قال الذين يريدون الحياة

---

(١) المنافقون: ٩.
(٢) المؤمنون: ٥٥.
(٣) طه: ١٣١.

الدنيا لما رأوا قارون في زينته**{يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**[١]، أما أهل العلم والإيمان فقالوا:**{وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ}**[٢].

الصبر على طاعة الله تعالى:

إن الصبر على طاعة الله أعظم مجالات الصبر وهو لذلك أشدها على النفوس وقد جاءت صيغة الأمر بالصبر على الطاعة مغايرة لغيرها فقال تعالى:**{فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}**[٣]، وقال:**{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}**[٤]، فاستخدم صيغة الافتعال وهو يدل على المبالغة في الفعل إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وما ذاك إلا لمشقة مجاهدة النفوس على القيام بحق العبودية في كل الأحوال.

الأسباب المعينة على الصبر:

أ – المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا:

إن من عرف طبيعة الدنيا وما جبلت عليه من الكدر والمشقة والعناء هان عليه ما يبتلى به فيها لأنه وقع في أمر يتوقعه، والشيء من معدنه لا يستغرب، وقد عرفنا الله بهذه الحقيقة فقال:**{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}**، أي في مشقة وعناء، وقال:**{يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ}**، وبين جل جلاله أنها لا تدوم على حال بل يوم لك ويوم عليك**{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}**.

إن من لا يعرف هذه الحقيقة سيفاجأ بوقائع الأحداث تصب على رأسه صباً فيظن أنه الوحيد من بين بني الإنسان الذي يصاب بذلك لشؤمه وسوء حظه، ولذلك يبادر بعضهم بالإجهاز على نفسه بالانتحار، لأنه ما علم أن لكل فرحة ترحة وما كان ضحك

---

(١) القصص: ٧٩.
(٢) القصص: ٨٠.
(٣) مريم: ٦٥.
(٤) طه: ١٣٢.

إلا كان بعده بكاء، وما ملئ بيت حبرة إلا ملىء عبرة، وما عبت دار من السرور إلا عبت من الحزن، "وأنه لو فتش العالم لم ير فيه إلا مبتلى: إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أساءت دهراً، وإن متعت قليلاً، منعت طويلاً...".

ب – معرفتك بأنك وما بيدك ملك لله تعالى ومرجعك إليه:

قال تعالى:**{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}**[1]، وقد علمنا في كتاب ربنا أن نقول عند حلول المصائب:**{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**.

يقول ابن القيم: "وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته:

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل، وقد جعل عند العبد عارية. وأيضاً، فإنه محفوف بعدمين، عدم قبله، وعدم بعده حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقى عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره. ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته، فكيف يفرح بموجود ويأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده أعظم علاج هذا الداء ولذلك يقال عند تعزية المصاب (إن لله ماأخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى). وقد أدركت أم سليم هذا المعنى عندما توفي ابنها، فلما جاء أبوه (أبو طلحة) يسأل عنه قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح (تعني الموت، وقد ظن أنها تريد النوم لمجيء العافية) وكانت قد هيأت نفسها لزوجها فتعرضت له فأصاب منها فلما أراد الخروج لصلاة الفجر، قالت له: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، إن العارية مؤداة إلى أهلها، فقالت: إن الله أعارنا

---

(١) النحل: ٥٣.

فلاناً ثم أخذه منه فاسترجع... إلى آخر القصة.

ج – اليقين بحسن الجزاء عند الله تعالى:

أن مما يرغب الإنسان في العمل، ويزيده ثباتاً فيه علمه بحسن جزائه في الآخرة ولا نجد في القرآن شيئاً ضخم جزاؤه وعظم أجره مثل الصبر فيقول نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ويقول مبيناً أن الصابرين يجزون بأحسن ماعملوا:**{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[1]، ويصرح بأن أجرهم غير معدود ولا محدود فيقول:**{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**، وقد ذُكِّر المؤمنون بهذه الحقيقة في الكلمة التي أمروا أن يقولوها عند حلول المصائب:**{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**، فيتذكرون أنهم سيرجعون إلى الله فيجزيهم على عملهم وصبرهم أحسن الجزاء وأوفاه.

يقول أبو طالب المكي: "وأصل قلة الصبر: ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له، لأنه لو قوي يقينه، كان الآجل من الوعد عاجلاً إذا كان الواعد صادقاً، فيحسن صبره لقوة الثقة بالعطاء...".

د – الثقة بحصول الفرج:

إن يقين العبد بأن النصر مقرون بالصبر وأن الفرج آت بعد الكرب وأن مع العسر يسراً يقويه على الصبر على ما يلاقيه، وقد كثرت الآيات الدالة على هذا المعنى لما له من أثر في مزيد التحمل والثبات، قال تعالى:**{فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً}**[2]، قال بعضهم: "لن يغلب عسر يسرين" يقصد بذلك أن العسر ورد معرفة في الموضعين والمعرفة إذا كررت في الجملة لا تفيد التعدد بخلاف النكرة وهي التي ورد به اليسر في الموضعين، فإذا قلت: جاء الرجل وأكرمت الرجل، كان الرجل في المواطنين واحداً، وإذا قلت: جاء رجلٌ وأكرمت رجلاً، كان المقصود رجلين. وقد جعل

---

(١) النحل: ٩٦.

(٢) سورة العصر.

العسر في الآيتين مع العسر لا بعده أو عقبه لينبه إلى قرب تحققه بعده حتى كأنه معه ولينبه أيضاً إلى أن كل عسر مقرون بيسر وأكثر فما من مصيبة يبتلى بها عبد إلا ولله فيه إلطاف بأن لم يجعلها على نحو أعظم أو أكبر أو أطول مما هي عليه.

وقد تكرر في القرآن الأمر بالصبر مقروناً بالتذكير بأن وعد الله حق لا يتخلف أبداً قال تعالى:**{وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ المِيعَادَ}**[1]، وقال:**{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}**[2].

إن اشتداد الأزمة في سنن الله تعني قرب انبلاج الفجر وظهور طلائع النصر كما قيل:

اشتدي أزمةُ تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج.

ولهذا نجد يعقوب يكون أمله في العثور على يوسف أشد عندما أخذ ابنه الثاني فيقول:**{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً}**[3].

وقال لأبنائه:**{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ}**[4].

هـ – الاستعانة بالله:

مما يعين المبتلى على الصبر أن يستعين بالله تعالى ويلجأ إلى حماه فيشعر بمعيته سبحانه وأنه في حمايته ورعايته، ومن كان في حمى ربه فلن يضام ولذا قال موسى لقومه بعد أن هددهم فرعون بما هددهم به**{اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**[5].

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده.

---

(١) الزمر: ٢٠.

(٢) الروم: ٦٠.

(٣) يوسف: ٨٣.

(٤) يوسف: ٨٧.

(٥) الأعراف: ١٢٨.

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هي بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله في آيات كثيرة كقوله:**{نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**(١)، وقوله عن رسله:**{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ}**(٢).

و – الاقتداء بأهل الصبر:

إن التأمل في سير الصابرين يعطي الإنسان شحنة دافعة على الصبر، ومن هنا ندرك سر حرص القرآن المكي على ذكر صبر الأنبياء على ما لاقوه من أممهم وهذا ما صرح الله به في قوله:**{وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}**(٣).

وقال الله:**{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ المُرْسَلِينَ}**(٤)، وجاء الأمر صريحاً لرسول الله ﷺ بالاقتداء بالصابرين قبله:**{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}**(٥)، وحين نزل البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ جاءهم التذكير ببلاء من كان قبلهم:

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ}(٦).

---

(١) النحل: ٤٢.
(٢) إبراهيم: ١٢.
(٣) هود: ١٢٠.
(٤) الأنعام: ٣٤.
(٥) الأحقاف: ٣٥.
(٦) العنكبوت: ٢.

وقال لهم: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}**(١).

ز – الإيمان بقدر الله:

إن إيمان العبد بقدر الله النافذ واستسلامه له أكبر عون على تجشم مصاعب المصائب، وعلم العبد بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه برد من اليقين يصب على فؤاده، قال تعالى: **{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**(٢).

وركون المؤمن إلى قدر الله في مثل هذا المقام واحتجاجه به أمر لا غبار عليه لأنه إحالة على القدر فيما لا اختيار للعبد فيه.

واعلم أن الجزع والهلع والتبرم والضيق لايرد من قدر الله شيئاً فلابد من الصبر أول الأمر لئلا يحرم العبد من المثوبة ولئن لم يصبر أول الصدمة فسيصبر بعد ذاك رغم أنفه ولا أجر له، قال حكيم: "العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد السبعة أيام". إن المبالغة في التشكي والتبرم لا يغير من الواقع شيئاً بل يزيد النفس هماً وكمداً ولهذا قال الله لرسوله: **{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ المُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ}**(٣)، فأزال الوحشة عن قلب الرسول ﷺ في أول آية بأن تكذيبهم ليس للرسول

---

(١) البقرة: ٢١٤.
(٢) الحديد: ٢٢.
(٣) الأنعام: ٣٣ - ٣٥.

وإنما هو لله تعالى، ثم عزاه في الثانية وسلاه بما حدث لرسل الله فصبروا، ثم قال له: إن شق عليك إعراضهم وذهبت نفسك عليهم حسرات وضاق صدرك فليس لك إلا الصبر، وإلا فافعل ما بدا لك فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض تهرب منه أو سلماً في السماء، تصعد عليه فدونك فافعل.

الآفات المعيقة عن الصبر:

١ – الاستعجال: النفس موكولة بحب العاجل :**{خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ}**[1]، فإذا أبطأ على الإنسان ما يريد نفد صبره وضاق صدره واستعجل قطف الثمرة قبل أوانها فلا هو ظفر بثمرة طيبة ولا هو أتم المسير، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ :**{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}**[2]، أي العذاب فإن له يوماً موعوداً.

لقد باءت بعض الدعوات بالفشل ولم تؤت ثمرتها المرجوة بعلة الاستعجال، ولو أنهم صبروا لكان خيراً لهم، ثار بعضهم على الطغيان ولما يقم على ساقه ويشتد عوده وتكتمل آلته وتنضج دعوته وتمتد قاعدته فقضي على الدعوة ووئد الداعية وذهب الاثنان في خبر كان. والحديث عن الاستعجال أطول من هذا ولكن في الإشارة للبيب ما يغني عن العبارة.

٢ – الغضب: قد يرى الداعية من المدعوين مالا يليق فيستفزه الغضب فيدفعه إلى مالا يحسن به مما يسيء إلى الدعوة ويلصق بجبين حاملها وصمة عار تبقى الدهر كله، ولهذا حذر الله رسوله من مغبة الغضب بأن لا يقع فيما وقع فيه يونس فقال: فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت لقد فرغ صبره فضاق صدره فغادرهم غاضباً قبل أن يأذن الله له ظناً منه أن الله لن يضيق عليه فضيق الله عليه بأن جعله في بطن الحوت:**{وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**، فتاب الله عليه:**{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ**

---

(١) الأنبياء: ٣٧.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

الغَمِّ}.

٣ – اليأس: أعظم عوائق الصبر وهو الذي حذر يعقوب أبناءه من الوقوع فيه مع تكرار البحث عن يوسف وأخيه:**{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ}**.

وهو الذي حرص القرآن على دفعه عن أنفس المؤمنين فبذر الأمل في صدورهم:**{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}**.

وقال لهم:**{فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}**، إن إضاءة شعلة الأمل دواء اليأس وهذا ما ذكرت به الآيات المؤمنين وهو ما ذكر به موسى قومه فقال:**{اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، ولما شكا خباب إلى رسول الله ﷺ ما يلاقيه من أذى قريش قال له رسول الله ﷺ بعد أن ذكره مصاب الصالحين في الأمم قبله: **«والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**.

٥ – نماذج للصابرين:

لقد ضُرب لنا في القرآن نماذج رائعة تجسدت فيهم حقيقة الصبر، واستحقوا أن يذكروا بصبرهم فيقتدى بهم الصابرون، وسنختار في هذه العجالة ثلاثة منها يتمثل في كل واحد منها لون من الصبر.

أ – الصبر على طاعة الله:

في قصة إبراهيم وإسماعيل التي حكاها الله لنا بقوله عن إبراهيم:**{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا**

إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ}(١).

من أيهما تعجب من الأب الذي رأى في المنام أنه يذبح ابنه أم من الابن الذي يستسلم لأمر الله طواعية واختياراً، لقد كان الابن وحيد إبراهيم ولم يأته إلا على كبر فما ظنك بتعلق الأب بابنه، إنه تعلق لا يوصف، ولكن تعلقه بالله أعظم وطاعته لله فوق كل ذلك، لقد حطم إبراهيم كل نداءات الأرض لما جاء الأمر من السماء، وضرب للناس أروع الأمثال في الطاعة، ولقد كان الوحي في هذه المرة رؤيا فلم يتأولها إبراهيم لصالحه بدافع من غريزة الأبوة، ولكنه امتثل وعرض على ابنه ما رأى عرضاً في غاية الإيجاز والسهولة ولكنه يتضمن أمراً في غاية الخطورة، ولم يكن الابن صغيراً بحيث لم ير الأب من جدواه ما يجعله شديد التعلق به والاعتماد عليه، ولكنه بلغ مع أبيه السعي فأصبح فتى مفتول العضلات، قوي الساعد، وكانت إجابة الابن محيرة حقاً، لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه خلدهما التاريخ له، وكانتا سبباً في تدوين اسمه في الصابرين:**{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ}**(٢)، قال إسماعيل:**{يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}** أي لا تأخذ رأيي ولا تنتظر مشورتي بل نفذ ما أمرت به، ثم لا ينسى أن يستمد العون من الله على حاله بالصبر فهو لا يعتمد على قوته وشدة جلده بل يسأله من ربه، وصدقا وأسلم الوالد ولده، وتله أبوه للجبين، وتهيأ للذبح وجاءت البشرى عند ذاك بعد أن حقق الابتلاء ثمرته**{وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ}**.

(١) الصافات: ٩٩.
(٢) الأنبياء: ٨٥.

ب – الصبر عن معصية الله:

وأبرز الأمثلة وأشدها وضوحاً صبر يوسف عليه السلام على مراودة امرأة العزيز، لقد كان الصبر ظهير يوسف في محنته التي ابتلي بها اضطراراً واختياراً وكشف عن هذا حين عثر إخوته عليه فقال:**{أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}**[(١)]، لقد رفض كل العروض والإغراءات وخرج من الفتنة بإيمانه وصبره، وكان صبره هذا أرقى من صبر أبيه يعقوب على الفراق وأرقى من صبر أيوب على ما بلي به لأن صبرهما كان اضطرارياً لا حيلة لهما في رفعه ولا دفعه بينما كان صبر يوسف اختياراً وحين تملك فلم يتكبر ولم يطغ صبراً اختيارياً، يقول ابن القيم نقلاً عن شيخه ابن تيميه رحمهما الله: "كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس، ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة:

١- فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية.

٢- وعزباً ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته.

٣- وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي فيه بين أصحابه ومعارفه وأهله.

٤- ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر.

٥- والمرأة جميلة وذات منصب، وهي سيدته.

٦- وقد غاب الرقيب.

٧- وهي الداعية إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص.

---

(١) يوسف: ٩٠.

٨- وتوعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار.

ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارياً وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه".

لقد ضحى بدنياه من أجل دينه، وبحريته من أجل عقيدته، وقال قولته المشهورة:**{رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ}**(١).

ولما أفرج عنه من السجن الطويل واستدعي لمقابلة الملك، لم يستفزه هذا الخبر بل طلب التحقيق في القضية حتى تظهر براءته على الملأ وحدث ذلك فعلاً وعند ذلك ازداد إعجاب الملك به فقال:**{ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي}**(٢)، وكان في المرة الأولى قال**{ائْتُونِي بِهِ}**، فقط**{فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}**.

ج – الصبر على أقدار الله المؤلمة:

إن أشهر من يقرن اسمه بهذا اللون من الصبر نبي الله أيوب عليه السلام، لقد أصابه ضر عظيم في بدنه وأهله وماله فصبر، فخلد ذكره في القرآن فقال الله تعالى:**{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**(٣)، لقد ذكر له من ألوان التكريم وأوسمة الشرف ما هو جدير بمثله لعظيم صبره، فأولهما:

١- تكريمه بتخليد ذكره ومباهاة الله به عند رسوله محمد ﷺ.

٢- تكريمه بقوله:**{عَبْدَنَا}**، حيث أضافه إليه، والعبودية من أشرف أوصاف

---

(١) يوسف: ٣٣.
(٢) يوسف: ٥٤.
(٣) ص: ٤١.

الإنسان التي يتحلى بها.

٣- عندما استجاب نداءه وكشف ضره ووهب له أهله ومثلهم معهم.

٤- حينما جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته فكرمت وكرم بما يخلصه من مأزق الحنث، وكانت خاتمة ذلك هذا الوسام من الشرف العريض**{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**(١)، فوصفه بالصبر حتى قرن الصبر بأيوب فلا يذكر إلا وهو معه، ثم قال: نعم العبد فكانت شهادة من الله بتمام عبوديته، ثم ختم ذلك بقوله إنه أواب، والأواب: المبالغ في شدة رجوعه إلى الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى صبره في موطن آخر فقال:**{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ}**(٢)، لقد كان نداء أيوب في ضرائه غاية في اللطف والأدب ولذا كانت الإجابة آية في التمام والكمال، لقد نادى ربه ولم يسأله شيئاً بعينه من الأهل والعافية وذكر ربه بما هو أهله وبما اتصف به**{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}**، فاستجاب له دعاءه فكشف عنه الضر ورد عليه الأهل ومثلهم معهم وجعله ذكرى للعابدين وإماماً من الصابرين.

ماهي الأسباب المعينة على الصبر؟

١- المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا وما جُبِلت عليه من المشقة والعناء وأن الله خلق الإنسان في كبد وأنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه وأن الآلام والتنغيص من طبيعة هذه الدنيا والابتلاءات**{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}**.

ومن لا يعرف هذه الحقيقة سيتفاجأ بالأحداث، أما الذي يعرف طبيعة الحياة الدنيا إذا حصل لـه أي ابتلاء ومنغصات فإن الأمر عنده يهون.

---

(١) ص: ٤٤.

(٢) الأنبياء: ٨٣.

٢- الإيمان بأن الدنيا كلها ملك لله تعالى، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، **{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}**[١]، ولذلك الإنسان إذا حرم من شيء وابتلي يقول:**{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**، لا يوجد كلمة أبلغ في علاج المصاب وأنفع لـه عند المصيبة من تذكير العبد نفسه بهذين الأصلين. والدنيا فانية، والعبد وأهله وماله ملك لله، والمال وأولاده جعلوا عنده عاريّة، وصاحب العارية متى ما شاء استردها، ومصير الناس العودة إلى الله سبحانه وتعالى. وأم سليم لما فقهت هذا كان لها مع أبي طلحة ذلك الموقف المشهور فلما مات ولده الذي يحبه فقالت: (يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟) قال: لا.. إن العارية مؤداة، قالت: (إن الله أعارنا فلاناً - ولدنا - ثم أخذه منا) فاسترجع..

٣- معرفة الجزاء والثواب على هذا الصبر.. وقد تقدم ذكر شيء من هذا..**{نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**[٢]، يوفون أجرهم بغير حساب..

٤- الثقة بحصول الفرج، والله جعل مع كل عسر يسرين رحمة منه عزوجل**{فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً}**[٣]، العسر معرفة بأل، ويسر نكرة، فالعسر هو نفسه ويسر يسر ثانٍ، ولن يغلب عسرٌ يسرين. والله تعالى جعل اليسر مع العسر وليس بعده، ولذلك فالله ينزل المعونة على قدر البلاء، والله لا يخلف الميعاد، **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}**[٤]، والفجر ينبلج ولو بعد ليل طويل..

يعقوب صبر على فقد يوسف والولد الثاني، وقال:**{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}**[٥] لا تسخّط فيه ولا جزع، وقال:**{عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً}**، فبعض الناس يصبرون صبراً غير جميل، والصبر الجميل ليس فيه تشكّي للمخلوقين، **{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}** وليس إليكم.

---

(١) النحل: ٤٢.
(٢) سورة العصر.
(٣) الروم: ٦٠.
(٤) يوسف: ٨٣.
(٥) يوسف: ٨٦.

٥- الاستعانة بالله تعالى واللجوء إلى حماه وطلبة معونته سبحانه، قالها موسى لقومه:**{إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، وحاجة الصابرين إلى الاستعانة عظيمة جداً ولذلك كان التوكل جانباً للمعونة من الله**{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**

٦- الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم ما يعين على الصبر، وأن يعلم العبد أن قضاء الله نافذ وأن يستسلم لما قضاه وقدره مما لا حيلة له به، **{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا}**(١)، ثم إن العبد يعلم أن الجزع والهلع والتبرم والاعتراض والتشكّي والتضجر لا يجدي شيئاً ولا يعيد مفقوداً فلا حلّ إلا بالصبر، والعاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد سبعة أيام..!، أي يستسلم.

التأمل في قصص الصابرين من أعظم الأسباب المعينة على الصبر:

فهذا نوحٌ عليه السلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام ألف سنة إلا خمسين عاماً جاهد ودعوة، وصبر على الإيذاء والسخرية، اتهموه بالجنون والسحر والضلال وهو يقابل ذلك بالصبر حتى قالوا:**{لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ}**، وصبر..

إبراهيم تعرض لمحنة عظيمة ويصبر صبر الموحد الموقن بوعد الله، حتى لما ألقي في النار قال:**{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ}**، حتى لما أُمِر بذبح ولده صبر وهمّ بذبح الولد، وأخذ السكين وأضطجع الولد استسلاماً لأمر الله، والله ابتلاه بهذا الأمر فصبر.

وموسى واجه التهديد والإيذاء من قومه وقوم فرعون قبلهم، فصبر على دعوة قومين!.

والنبي ﷺ قال لما تذكرأخيه موسى: **«يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»**.

---

(١) الحديد: ٢٢.

إبراهيم لما أُمِر بترك ولده وهو حديث عهد ولادة، وقد كان عقيماً، جاءه اسماعيل بعد سنوات طويلة جداً وهو شيخ كبير، وجاءه الأمر من الله اتركه وأمه في وادٍ غير ذي زرع!، مانال الخليل هذه المرتبة من شيء قليل، فمضى ولم يلتفت ولم يتحسر ولم يتردد، حتى قالت هاجر: لمن تتركنا؟ آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجع للشام ورزقه الله من سارة بإسحاق ومن ورائه يعقوب.

وعيسى عانى من بني إسرائيل من التهم الباطلة، تآمروا على قتله وصلبه وصبر حتى رفعه الله إليه.

وخاتم الأنبياء ﷺ كم تعرض للأذى والاضطهاد، قالوا عنه مجنون ساحر كذاب خائن، وأشد شيء على الصادق أن يتهم بالكذب، أشد شيء على العاقل أن يقال عنه مجنون، وأشد شيء على الأمين أن يتهم بالخيانة، وأشد شيء على المؤمن أن يقال عنه شاعر ساحر به جنّة، وهو أكمل الخلق وأصدقهم وأعقلهم، ووضعوا الشوك وأخرجوه من بلده، وذهب للطائف يعرض نفسه على القبائل، وأحسّ بالاضطهاد وخرج من مكة لا يدري من الهم لم يستفق إلى في قرن الثعالب، حتى تآمروا على قتله**{لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ}**(1)، وقتلوا بعض أصحابه وعذبوا بعضهم، وأشد شيء على النبي أن يرى أتباعه يضطهدون ويقتلون أمامه، يمر عليهم فيقول: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**، وهكذا صبر ﷺ حتى أتاه اليقين من ربّه بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة حتى لما ذهب المدينة لا يُظَنّ أن مجالات الصبر قد خفّت لأنه عانى من المنافقين معاناة عظيمة، يكفي حادثة الإفك، وصبر على كيد اليهود، ووضعوا له السم، وكانت نوبات الحمى تنتابه حتى مات في آخر نوبة منها فكان في ذلك أجله وهكذا أصحابه، بلال، سمية، صهيب، عمار، مقداد، ، صهروهم في الشمس وعذبوهم..

المرأة التي قُتِل أبوها وأخوها وزوجها في يوم أحد فصبرت على ما حصل لها من هذه الأقدار، فماتوا في رفعة الدين ونصرة الدين وجهاد الكفار، وهكذا سار على هذا

---

(1) الأنفال: ٣٠.

المنوال التابعون وتابعو التابعين..

عروة بن الزبير من أفاضل التابعين وأخيار التابعين، كان لـه ولد اسمه محمد من أحسن النـاس وجهاً، دخل على الوليد في ثياب جميلة فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش، ولا دعا بالبركة فقالوا أنه أصابه بالعين، خرج هذا محمد بن عروة بن الزبير من المجلس فوقع في اصطبل للدواب فلا زالت الدواب تطأه حتى مات، ثم مباشرة وقعت الآكلة (الغرغرينا) في رجل عروة وقالوا لابد من نشرها بالمنشار وقطعها حتى لا تسري لأماكن الجسد فيهلك، فنشروها فلما وصل المنشار إلى القصبة (وسط الساق) وضع رأسه على الوسادة فغشي عليه ثم أفاق والعرق يتحدّر من وجهه وهو يهلل ويكبّر ويذكر الله، فأخذها وجعل يقلبها في يده وقال: (أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أنني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله)، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت وأمر بها أن تقدم إلى المقبرة، لما جاء من السفر بعد أن بترت رجله وفقد ولده قال لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولما قالوا: نسقيك شيئاً يزيل عقلك؟ قال: إنما ابتلاني ليرى صبري، ورفض.

أبوقلابة ممن ابتلي في بدنه ودينه، وأريدعلى القضاء وهرب إلى الشام فمات بعريضة وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع ذلك حامد شاكر.

أحمد بن بنصر الخزاعي من كبار علماء السلف كان قوالاً بالحق آمراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر، ثبت في محنة خلق القرآن، حملوه إلى سامراء فجلس مقيداً وعرض عليه الرجوع عن القول بأن القرآن كلام الله المنزل وعرض عليه القول بخلق القرآن فرفض، وقاموا عليه بحرب نفسية وجسدية..، فيقوم القاضي عند خليفة السوء فيقول إنه حلال الدم، ووافقه من كان حاضراً، وأحمد بن أبي دؤاد قال شيخ كبير، يتظاهر بالشفقة عليه، فقال الخليفة: ما أراه إلا مؤدياً لكفره فأخذ السيف وقال إني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر..!، فضرب به عنقه بعد أن مدوا رأسه بحبل، ونصب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد، يقول أحد أهل العلم جعفر بن محمد الصائغ رأيت أحمد بن نصر الخزاعي حين قُتِل قال رأسه لا إله إلا الله وهذا من كراماته رحمه الله، قال الإمام أحمد رحمه الله عنه:

جاد بنفسه في سبيل الله.

والإمام أحمد نفسه كيف صبر في محنة خلق القرآن؟، حُمِل هو ومحمد بن نوح وهو شاب وليس عالماً لكن صبر مع الإمام أحمد، فحُمِل إلى المأمون، يشاء الله أن محمد بن نوح يمرض ويوصي الإمام أحمد: أنت إمام وأنا أموت ولا أحد يأبه لي، فاصبر..

ويموت محمد في الطريق، ويؤخذ الإمام أحمد رحمه الله مقيد، ودخل عليه بعض الناس قبل الدخول على الخليفة (هناك أحاديث في التقية والمرء عند الشدة يمكن أن يورِّي حتى تمضي العاصفة)، قال: كيف تصنعون بحديث خبّاب؟ إنه من كان قبلكم يُنشَر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه فيئسوا منه وتركوه، وقال اللهم لا تريني وجه المأمون، فمات المأمون قبل أن يصل أحمد، ووصل الخليفة الذي بعده والمحنة مازالت مستمرة، فيقول له: يا أحمد إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف ولكن يضربك ضرباً بعد ضرب حتى تموت، قال ناظَر ابن أبي دؤاد، فأسكت، هاتوا شيء من القرآن أقول به، هاتوا شيء من السنة أقول به فلا يأتون بدليل، يقول الخليفة لأحمد: تعرف صالح الرشيدي؟

قال: سمعت باسمه، قال: كان مؤدبي، فسألته عن القرآن فخالفني، ولما خالفني وأصر على أن القرآن غير مخلوق أُمِرت به فوطيء وسُحِبَ حتى مات، قال: هاتوا العقابين والسياط، قال: إئتونى بغيرها، ثم قال الخليفة للجلادين: تقدموا واضربوه، وربطوا الإمام أحمد، وكل فرد منهم يضرب سوطين وبأقوى ما عنده ويقول الخليفة للجلاد: شدّ يداً قطع الله يدك.، لينال أحمد رحمه الله أعظم العذاب بالضرب على أيديهم، ثم يقول الخليفة علامَ تقتل نفسك إني عليك لشفيق وجعل ذلك القائم على رأسه الحارس ينخسه بالسيف، وذاك يقول ويحك يا أحمد ما أجبتني، أجبني إلى أي شيء يكون لك فيه فرج حتى أطلقك فيقول: يا أمير المؤمنين أعطني شيئاً من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، ثم يأتي الجلاد ويضرب وهكذا تستمر عملية الضرب حتى قال ذهب عقلي فأفقت والأقياد في يدي فقال لي رجل كببناك على وجهك وجعلنا فوقك حصيراً ووطئنا عليك

فقال ماشعرت بذلك، أتوني بأكل فقلت لا أفطر وكان صائماً، ثم جاؤوا به والدم يسيل في ثوبه فصلى فقال أحدهم: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ قال أحمد: صلى عمر وجرحه يثعب دماً، ثم مكث في السجن ثم خُلّي عنه بعد ٢٨ شهراً، ثم جُعِل في الإقامة الجبرية، في بيته، وليس هناك أصعب على العالم من أن يتوقف عن نشر العلم، سئل أحدهم عن الإمام أحمد رحمه الله فقال: رجل هانت عليه نفسه في سبيل الله فبذلها كما هانت على بلال نفسه، لولا أحمد لذهب الإسلام.

فيا ضعيف العزم الطريق طويل.. تعب فيه آدم.. وجاهد فيه نوح.. وألقي في النار إبراهيم.. واضطجع للذبح إسماعيل.. وشق بالمنشار زكريا وذبح الحصور يحيى وقاسى الضر أيوب وزاد على المقدار بكاء داود، واتهم بالسحر والجنون نبي الله الكريم وكسرت رباعيته وشج رأسه ووجهه وقُتِل عمر مطعوناً وذو النورين علي والحسين وسعيد بن جبير وعذب ابن المسيب ومالك..، فالشاهد أنه في النهاية لا سبيل إلا الصبر..

ولذلك يقول عمر رضي الله عنه: (أدركنا أفضل عيشنا بالصبر)، يعني ما طابت الحياة إلا بالصبر مع مافيها من المنغصات والشدائد، فهو العمل القلبي الذي تطيب معه الحياة ولا تطيب بدونه، ولذلك ينبغي على العبد أن لا يفعل شيئاً ينافي الصبر، مثل شكوى الخالق للمخلوق والتبرم والتضجر فإما أن يخبر الإنسان الطبيب بعلته ليداويه فلا بأس..

والأنين.. الألم.. ما يحدث من صوت من المريض المتألم..، هناك أنين استراحة وتفريح فلا يكره، وأنين شكوى فيكره ففيه تفصيله..

ومما ينافي الصبر ما يحدث من النائحات وغيرهم وحتى من الرجال الآن من لطم الرأس والخد وضرب الوجه باليدين والكفين والنياحة.. واويلاه.. واثبوراه..

ولذلك فإن المسلم عليه أن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يسلك سبيل الصابرين، نسأل الله عزوجل أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا هذا الخلق الكريم، إنه جواد كريم... أمين.

المبحث التاسع:

التفكر

فإن التفكر من أعمال القلوب العظيمة وهو مفتاح الأنوار ومبدأ الإبصار وشبكة العلوم والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ولكن جهلوا حقيقته وثمرته وقليل منهم الذي يتفكر ويتدبر وقد أمر الله تعالى في التفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال:**{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً}**(١).

وقال عطاء: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ : **«زر غبّاً، تزدد حبّاً»**، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها أو كما قال عليه الصلاة والسلام**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}** ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها(٢).

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

قال الحسن: " تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

قال الفضيل: " الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك".

---

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الحديث صححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة.

قيل لإبراهيم إنك تطيل الفكر فقال: " الفكرة مخ العقل".

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل: "إذا المرء كانت لـه فكرة؛ ففي كل شيء لـه عبرة".

وقال الحسن: "من لم يكن كلامه حكمة فهو لهو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو".

وفي قولــه تعالى:**{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ}**[١] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

وكان عدد من أهل العلم والحكمة يطيلون الجلوس والتفكر.

وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن عدي لما رآه ساكتاً متفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط!

وقال بشر: " لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل".

وقال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب".

وبينما كان أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل لــه ما يبكيك؟ قال: " تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي".

وقال أبو سليمان: "عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر".

وقال: " الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويُحيى القلوب. ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف".

وقال ابن عباس: "التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه. وإذا كان هم العبد وهواه في الله عز وجل جعل الله صمته تفكراً وكلامه حمداً".

---

(١) الأعراف: ١٤٦.

وقال الحسن: "إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة".

وكان داود الطائي رحمه الله على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار لـه، فوثب صاحب الدار من فراشه وبيده سيف ظن أنه لصّ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح، قال: ما شعرت بذلك.

وأشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في التأمل في أسماء الله وصفاته، وجنته وناره، ونعيمه وعذابه، وآخرته وآلائه وآياته المسطورة في كتابه والمنثورة في كونه وما خلق سبحانه وتعالى، وما ألذ هذه المجالس وما أحلاها وما أطيبها لمن رزقها، وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وكان الشافعي رحمه الله: من أقوى الناس عقلاً وأجودهم استنباطاً، ومن القلائل الذين مروا في الأمة الإسلامية بهذه المنزلة، وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم على الرأي سلامة من التفريط والندم والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً: الفضائل أربع، إحداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها التغلب على الشهوة والثالث القوة وقوامها التغلب على الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

والنبي ﷺ علّمنا التفكر لما قام من الليل ينظر في السماء ويقرأ، فقراءة الآيات من سورة آل عمران في الليل سنة قبل صلاة الليل، وهذه من السنن المهجورة، إذا قام من النوم يمسح النوم عن عينيه كما ورد في السنة ثم يقرأ**{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}**.

في البخاري عن ابن عباس بعد أن قرأ الآية ﷺ ثم قام فتوضأ واستنّ فصلى ركعتين ثم خرج فصلّى الصبح، فلذلك على أحد القولين قراءتها قبل الخروج لصلاة الصبح وقبل الوضوء وقبل سنة الفجر.. والقول الآخر قبل قيام الليل.

فائدة التفكر:

تكثير العلم واستجلاب المعرفة لأنه إذا اجتمع في القلب اجتمعت المعلومات الأساسية وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل نتاج آخر!.. فالعلماء من أين أنتجوا انتاجهم وأحكام الفقه والأحكام المستنبطة والتفسير..؟ جزء كبير خرج من التأمل في آيات الله والتأمل في الأحداث والوقائع..!

الأمور المشكلة والمستعصيات كيف حُلّت..؟!

أبو حنيفة قالوا له هذا شخص وهذا أخوه عقدنا لهما على أختين لما صارت الدخلة بالخطأ دخل الأخ الأول على زوجة الثاني ودخل الأخ الثاني على زوجة الأول ووطئها تلك الليلة ولم يكتشفوا ذلك إلا في الصباح، الحل يحتاج لتفكر وتدبر، تعال يا فلان هل أعجبتك المرأة التي دخلت بها؟ رضيت بها؟ نعم، وأنت يافلان؟ نعم، يا فلان طلق فلانة التي عقدت عليها ويا فلان طلق فلانة ثم عقد لكل منهم على الأخرى!

الجمع بين النصوص كيف حُلّت..؟!

كيف نجمع بين**{لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}** و**«الميت يعذب ببكاء أهله عليه»**، **«بما نيح عليه»**..؟!!

فيفكر العلماء.. يقولون هذا خاص بالكافر مثلاً.. هذا إذا كان راضياً بالنياحة وهو يعلم بما يفعلون بالعادة ولم ينههم قبل موته.. وهكذا..

من وسائل زيادة الإيمان التفكر في آيات الله في الكون.

.. في الآفاق.. في النفس..**{أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم}**.. فيما خلق الله..، فهذه الميادين في التفكر مهم جداً للإنسان المسلم والتفكر رأس المال وينتج بضاعة عظيمة جداً..

فالثمرة الخاصة للتفكر العلم.. وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب.. وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح..، فالعلم تابع للفكر فالفكر هو المبدأ ينتج علماً والعلم ينتج حال في القلب من الخشية والإحساس بالتقصير في حق الله والرغبة والجد.. ينتجها العلم فيؤدي إلى زيادة أعمال الجوارح لأن القلب يأمر الجوارح بالعمل..، فيصلح الإنسان ويعلو شأنه ويتحسن حاله من نتيجة التفكر..

محبة الله تحصل من التفكر في النعم.. لأن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها.. وكذلك فإن التفكر وسيلة لفهم الشر يعة ووسيلة للفقه في الدين : **«ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**.. وهكذا تحصل البصيرة بالتفكر..

التفكر في النفس ماهو..؟

يشمل أن يتفكر في خلق الله كيف خلق نفس الإنسان وجسده، والتفكر في النفس أيضاً يشمل التفكر في عيوبها وهذا مهم جداً جداً جداً ولا يمكن عمل تقويم وتصحيح وتعديل وتحسين إلا بعد التفكر، وإذا كان فكره صحيحاً عرف العيوب واكتشف الأخطاء وبالتالي يمتنع عن الوقوع فيما وقع فيه سابقاً من الأخطاء ويجتهد في تحصيل ما يستر به عيوب نفسه.. غضب شديد.. حاد الطبع.. عجول.. متهور.. عصبي.. جبان.. خواف.. ظلوم.. معتدي.. باغي.. متعدي.. يفري بلسانه في أعراض الخلق.. وهكذا..، كذلك يفكر في حال عائلته وأسرته وأولاده كيف يحسن من أحوالهم ما هي الثغرات فيه؟

لو أردنا أن نصلح أحوال المسلمين.. المصلحين الكبار والمجددين الذين مروا على العالم الإسلامي ماذا فعلوا؟.. بالتأكيد أول ما فعلوا هو النظر في حال المسلمين.. ماذا ينقصهم؟ أين الخلل؟ ما هي الثغرات؟.. ثم شمروا في تحصيل أسباب القوة والارتقاء بحال المسلمين وسد الثغرات.. جهل.. شرك.. معاصي..

ومن التفكر.. التفكر في خلق الله تعالى.. فإن فيه من العجائب والغرائب الدالة على حكمة الله وقدرته وجلاله شيء يهون الناظرين والمتفكرين والموجودات منقسمة إلى أشياء معروفة وغير معروفة..، ومجال العلم التجريبي والدنيوي أن يكتشف الأشياء غير المعروفة وهي موجودة مما خلق الله عز وجل**{وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**(١)..**{سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ}**..**{وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**(٢).. فمالا نستطيع أن نعرفه فلا يمكن إضاعة الوقت في استكشافه وهذا من الفروق في النظرة الإسلامية والغربية في قضايا المستكشفات والمخترعات..، مثلاً ما صحة القيام بما يسمى أبحاث الروح؟.. لو هناك عالم طبيب مسلم وآخر كافر.. ماالفرق؟.. المسلم يعلم أنه لا سبيل لمعرفة أي شيء في موضوع الروح زيادة عما ورد في الكتاب والسنة فلا حاجة لإضاعة الوقت لأنه يعلم**{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}**(٣)، الكافر.. لا.. ما عنده منطلقات وقواعد ممكن أن يبذل مائة سنة من عمره في التجارب أو أكثر وبلا فائدة..!، حتى الدخول في العوالم الغيبية وعمل التجارب على الملائكة مثلاً..!

لذلك فمجال التفكر في الموجودات التي نعلمها من جهة الاستكشاف العلمي الدنيوي المقدور عليه..، وغير المقدور عليه لا يمكن ندخل فيه، وهناك أشياء موجودة لا يمكن معرفة تفاصيلها إلا من الوحيين (مثل معرفة الملائكة والجنة وما بعد الموت) فالتفكر فيها يكون منطلقاً فقط من النصوص الشرعية..، أما قضايا الدنيا.. علم الأجنة.. والنجوم.. مثلاً وكالة ناسا أطلقت مناظير ومسبارات.. أو في أعماق البحار وقيعان المحيطات.. تنظر فيها تتأمل في ملكوت الله وخلقه..، تبقى الأشياء القطعية حتى في الأمور الدنيوية وهي ما جاء في الكتاب والسنة مثل من كل شيء زوجين اثنين.. وهكذا..

---

(١) النحل: ٨.

(٢) الواقعة: ٦١.

(٣) الإسراء: ٨٥.

فمن آياته، الإنسان المخلوق من نطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من عجائب الله الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيره وقد أمرك الله في التدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال:**{وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ}**(١) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال:**{قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}**(٢)،

و قال:**{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ}**(٣)،

وقال:**{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى}**(٤)،

وقال:**{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ}**(٥)

{أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}(٦)

{إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ}(٧) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً كما قال سبحانه:**{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}** (٨) فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسمَع لفظه ويترك التفكر في معناه..!

انظر إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تُركت ساعة ليضربها الهوا ء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب؟ وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم؟

---

(١) الذاريات: ٢١.
(٢) عبس: ١٧ - ٢٠.
(٣) الروم: ٢٠.
(٤) القيامة: ٣٧.
(٥) المرسلات: ٢٠.
(٦) يس: ٧٧.
(٧) الإنسان: ٢.
(٨) المؤمنون: ١٢.

وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء المضغة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشقّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص، ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص، ثم كيف قسم كل عضو من الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار وهكذا..

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً لـه ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل مستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط لـه ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الأخرى حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعطل عليه ذلك.

فلتلك النعمة العظيمة: **«على كل سلامى من أحدكم صدقة»** ٣٦٠ مفصل تجزئ عنها ركعتي الضحى.. فلننظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من ٥٥ عظم مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة

الرأس كما ترى، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فإن هذا علم قليل يعرفه الأطباء والمشرحون إنما الغرض أن ينظر في مدبرها وخالقها كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا على جلالة خالقها ومصورها فشتّان بين النظرين..، وكذلك التفكر في أمر هذه الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب وكل ذلك صنعه الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبه؟ وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها..؟

فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً**{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}**، **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}**، فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وتأمل أنه لو اجتمعت الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً.. هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته لربما عجزوا عن بعضه!. والذي يعملونه في الاستنساخ هو تلاعب بخلق الله**{وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ}**وحتى الذبابة فلا يستطيعون أن يخلقوها من عدم فصارت قمة تطورهم الطبي التلاعب في الخلق، وزرع بويضة ملقحة لإنسان في قرد أو كلب وزرع بويضة ملقحة لكلب في رحم امرأة..

هذه هي التجار ب الطبية، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط، تأنّق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان، تعجبت من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله مع أنك تعرف أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وأن كل ما فعله أنه

جعل الصبغ على هذا الحائط على ترتيب مخصوص وأنت تستعجب من النقاش والرسام فكيف بالذي جعل من النطفة القذرة التي كانت معدومة فخلقها في الأصلاب والترائب وأخرج منها هذا الشكل الحسن وقدرها فأحسن تقديرها وصورها فأحسن تصويرها ورتب عروقها وأعصابها وجعل لها مجاري لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعل البطن حاوياً لآلات الغذاء والرأس جامعاً للحواس وهكذا جعل في الأذنين وجعل في الأنف حاسة الشم ليستدل صاحبه باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ويميز الطيب من الخبيث..

وهكذا إذا تأملت في الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخرج اللسان قدرة للحركات والتقطيعات لتتقطع الأصوات في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق لكثرتها، ثم خرج الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببه الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة.. إلى غير ذلك من الآلاء والنعم..

ثم تفكر في ما يحدث في خلق الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث.. ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر لرأيت التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا ترى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا ترى آلته ومع ذلك يتشكل خلقه سبحانه وتعالى..

ثم من تمام رحمته أنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكّس وانقلب وتهيأ للخروج وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر لـه في اللبن اللطيف المستخرج بين الفرث والدم شيئاً سائغا خالصاً، وكيف خلق الثديين وجعل فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي.. قدر الحلمة على قدر فتحة الفم في

الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجياً فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان في وقت الحاجة.. فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثاة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليها للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه..

فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجياً.. حتى يتكامل فيصير مراهقاً ثم شاباً ثم شيخاً إما شاكراً أو كفوراً**{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}**(1)

فتأمل وتفكر في عظمة الرب سبحانه وتعالى وهذا في شيء واحد من مخلوقاته وهو الإنسان وفي الإنسان أشياء كثيرة أخرى وكثير منها غير معلوم للآن فما بالك فيما جعل في الأرض في أكنافها وأنهارها وجبالها وهيأ السكن للساكن وجعل الأرض فراشاً وكيف جعلها كفاتاً وأنه أرساها بالجبال الرواسي وأودع فيها المياه وفجر العيون وأسال الأنهار وجعل خزانات جوفية**{وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}**(2).

وهكذا ترى في البوادي والأزهار والثمار والمعادن والجواهر وانقسامها إلى خسيس وثمين وهكذا جعل منها ما يصنعه الإنسان من حاجته وحتى الحلي والنفط والكبريت والقار وحتى الملح الذي يحتاجه لتطييب طعامه وما في هذه الحيوانات من الأمور العظيمة والتناسب الدقيق الهندسي فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر

---

(١) الإنسان: ١.

(٢) الحجر: ٢٢.

فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونها حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتديء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللُحمة (الكسوة)، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على مواضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جمع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهوا ء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليها فأخذه ولفّ خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى..، أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكون من نفسه؟ أو علمه آدمي؟

فإذاً البصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات، وإذا رأيت حيواناً غريباً ولو دوداً تجدد التعجب.. وقال سبحان الله..!

والإنسان أعجب من الحيوانات.. ومع ذلك إذا رأى حيواناً عجيباً تعجب وليس يتعجب من نفسه..!

وهكذا ما خلقه الله في البحار وما يكون في قيعانها وفي السحاب وما يجتمع فيها من المطر وكيف ينزل وفي ملكوت السموات والأرض..، والتفكر في مخلوقات الله قد أمر الله به وأنه سبحانه وتعالى مدح عباده**{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** وأمر في التفكر وحث عليه.. في النفس**{أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم}**.. يتفكرون في خلق السموات والأرض لماذا..؟

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " ليستدلوا بها على المقصود منها ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون**{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ}** يعني نزهناك عن كل ما لا يليق بك"، بعض الناس تفكره فقط إلى حد إتقان الصنعة وأنها صنعة جميلة لكن المقصود الأعظم ليس فقط التعجب من دقة الصنع بل لشيء وراء ذلك..

والتفكر في أمور الآخرة من الأمور المهمة جداً، وحيث أننا ما رأينا الآخرة ولا عشنا فيها ولا عندنا الآن من ثمار الجنة شيء ولا سلاسل النار شيء، لكن عندنا من النصوص الشرعية ما يصف لنا بدقة بالغة كيف سيكون الحال يوم القيامة وهذه الأوصاف والتفاصيل من رحمة الله حتى نجد شيء نتفكر فيه، فلذلك كلما ازداد علمك بتفاصيل مافي اليوم الآخر كلما ازدادت حركة القلب في التفكر في هذه التفاصيل، ولذلك لما سأل ابن المبارك ذاك لما رآه يتفكر قال له أين بلغت؟ قال: الصراط..، التفكر كان يأخذ وقت طويل جداً عند العلماء والأولياء بل كانوا يقدمون التفكر على صلاة الليل.

عن يوسف بن أسباط قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة - الإناء الذي يتوضأ به - فناولته، فأخذها بيمينه ووضع يساره على يده فبقي مفكراً ونمت ثم قمت وقت الفجر فإذا المطهرة في يده كما هي.. فقلت هذا الفجر قد طلع.. فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الساعة..

لماذا ذكر الله أشراط الساعة..؟ لتكون مجالاً للتفكر.. لا بد أن تشغلنا هذه القضايا دائماً وهذا من الخلل الموجود فينا أننا لا نتأمل.. المشكلة أن مجالات التفكر اليوم لا في الحرام والعشق والحب والغرام أو في الدنيا فقط.. طغت الحياة الدنيا على الناس.. فصار التفكير نادر في القضايا المهمة التي عليها مدار السعادة..

وجاء عن سفيان الثوري أيضاً أنهم كانوا جلوساً في مجلس فانطفأ السراج فعمّت الظلمة الغرفة فبعد ذلك أشعلوه فوجدوا سفيان رحمه الله دموعه انهمرت كثيراً كثيراً فقالوا مالك؟ قال: تذكرت القبر..

فنظراً لأن قلوبهم حية ممكن أي مشهد أو حدث يصير في الواقع يربطه مباشرة بالآخرة والقبر..

وأحد السلف كان على تنور فرن خباز فوقف ينظر في النار التي في التنور.. ثم جعلت دموعه تنهمر فبكى بكاء حاراً.. فقيل لـه مالك؟ قال: "ذكرت النار"..

قال ابن عباس: " ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب"..

قال عمر بن عبد العزيز: " الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات"..

وبكى عمر يوماً فسئل عن ذلك فقال: " فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادّكر"..

فمن رحمة الله أنه جعل لذات الدنيا مهما عظُمت فيها تنغيص وتكدير حتى لا يستسلم العباد إليها ومع ذلك يستسلمون إليها!

وسأل عبدالله بن عتبة أم الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: "التفكر والاعتبار"..

نور الإيمان التفكر.. أفضل العمل الورع والتفكر.. تفكر ساعة خير من قيام ليلة..

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: " اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه"..

وعن محمد بن كعب القرظي: " لئن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلي من أن أهذَّ القرآن ليلتي هذّاً أو أنثره نثراً"..

قال وهب: " ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرئ قط إلا عمل"..

قال فضيل: " الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك"..

عودوا قلوبكم البكاء وقلوبكم التفكر..

فالإنسان عليه أن يديم التفكر ويطيله لأنه يوصل إلى مرضاة الله وانشراح الصدر وسكينة القلب ويورث الخوف والخشية من الله ويورث العلم والحكمة والبصيرة ويحيي القلوب ويصير هناك اعتبار واتعاظ من سير السابقين.. هذا التفكر.. العمل القلبي العظيم.. نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتفكرون ومن الذين يعقلون ومن الذين يتدبرون..

عن عون بن عبد الله قلت لأم الدرداء : أي عبادة أبي الدرداء أكثر ؟ قالت : التفكر والاعتبار.

* عن أبي الدرداء قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

* عن أبي الدرداء لما حضرته قال : من يعمل لمثل يومي هذا، لمثل مضجعي هذا

* قال الحسن البصري : خرج هرم بن حيان وعبد الله بن عامر بن كريز، فبينما رواحلهما ترعى إذ قال هرم : أيسرك أنك كنت هذه الشجرة ؟ قال : لا والله لقد رزقني الله الإسلام، وإني لأرجو، قال : والله لوددت أني كنت هذه الشجرة، فأكلتني هذه الناقة، ثم بعرتني فاتخذت جلة، ولم أكابد الحساب، يا ابن أبي عامر ويحك ! إني أخاف الداهية الكبرى.

* عن مطرف بن عبد الله العامري قال : لأن يسألني الله تعالى يوم القيامة : يا مطرف ألا فعلت أحب إلى من أن يقول لي لَم فعلت ؟

* عن محمد بن الحنفية قال : إن الله جعل الجنة ثمناً لأنفسكم فلا تبيعوا بغيرها.

* قال بُرد - مولى ابن المسيب - لسعيد بن المسيب : ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء قال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلي أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلي العصر فقال : ويحك يا بُرد، أما والله ما هي العبادة، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والكف عن محارم الله.

* قال ابن أبي مليكة : شهدت عبد العزيز بن مروان عند الموت يقول : يا ليتني لم

أكن شيئاً.. يا ليتني كهذا الماء الجاري. وقيل : قال : هاتوا كفني : إف لك، أقصرك طويلك وأقلك كثيرك.

* روى الثوري عن أبيه قال : كان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحتم ؟ قال : ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا.

* عن الشعبي : ما بكيت من زمان إلا بكيت عليه.

* قال القاسم بن أبي أيوب : سمعت سعيد بن جبير يردد في هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة**{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}**(١).

* عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح فشربها ثم قال: والله لأسألن عنه قلت : لم ؟ قال : شربته وأنا أستلذه.

* عن طاووس بن كيسان : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أُحصي عليه حتى أنينه في مرضه.

* قال بلال بن سعد الكسوني : يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار.

* قال عطاء بن أبي رباح قال : إن مَنْ قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام، ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نُشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته.

* حج سليمان بن عبد الملك مع عمر بن عبد العزيز فأصابهم بَرْق ورعد حتى كادت تنخلع قلوبهم، فقال سليمان : يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أم سمعت

---

(١) البقرة: ٢٨١.

بها ؟ قال : يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله فكيف لو سمعت صوت عذابه ؟

* عن عطاء قال : كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون.

* قال مكحول : بأي وجه تلقون ربكم، وقد زهدكم في أمر فرغبتم فيه، ورغبتم في أمر فزهدتم فيه ؟.

* عن الشافعي قال : لما بنى هشام بن عبد الملك الرصافة بقنسرين، أحب أن يخلو يوماً لا يأتيه فيه غم، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة بدمٍ من بعض الثغور فقال : ولا يوم واحد !

* قال صالح المري لعطاء السلمي : يا شيخ قد خدعك إبليس، فلو شربت ما تقوى به على صلاتك ووضوئك ؟ فأعطاني ثلاثة دراهم وقال : تعاهدني كل يوم بشربة سويق، فشرب يومين وترك وقال : يا صالح إذا ذكرت جهنم ما يسعني طعام ولا شراب.

* قيل : إن عطاء السليمي بكى حتى عمش، وربما غُشي عليه عند الموعظة.

* عن أبي حازم المديني قال : ما أحببت أن يكون معك في الآخرة فاتركه اليوم.

* وقال : انظر كل عمل كرهت الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى مت.

* قال أبو حازم المديني : يسرُ الدنيا يُشْغِلُ عن كثير الآخرة.

* قال أبو حازم المديني : وما إبليس ؟ لقد عُصي فما ضر، ولقد أُطيع فما نفع.

* عن أبي حازم المدني قال : إذا رأيت ربك يُتابع نعمَه عليك، وأنت تعصيه فاحذره.

* قال حماد بن زيد : سمعت يونس بن عبيد يقول : توشك عيني أن ترى ما لم تر، وأذنك أن تسمع ما لم تسمع، ثم لا تُخرج من طبقة، إلا دخلت فيما هو أشد منه، حتى يكون آخر ذلك الجواز على الصراط.

* جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً بذلك فقال: أيسرك ببصرك مائة ألف ؟ قال : لا. قال : فبسمعك ؟ قال : لا. قال : فبلسانك ؟ قال : لا. قال : فبعقلك. قال لا. في خلال وذكره نعم الله عليه ثم قال يونس : أرى لك مئين ألوفاً وأنت تشكو الحاجة.

* عن عبد الله بن مسعود قال : يا أيها الناس إنكم مجموعون في صعيد واحد يسمعكم الداعي وينفذكم البصر، ألا وإن الشقي في بطن أمه، والسعيد من وُعظ بغيره.

* إن بعض الخلفاء سأل عمر بن ذر عن القدر فقال : ها هنا ما يشغل عن القدر، قال: ما هو ؟ قال : ليلة صبيحتها يوم القيامة، فبكى وبكى معه.

* عن القاسم بن معن أن أبا حنيفة قام ليلة يردد قوله تعالى :**{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}** ويبكي ويتضرع على الفجر.

كان مسعر بن كدام ينشد له أو لغيره :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ::: وليلك نوم والردى لك لازم
وتتعب فيما سوف تكره غبه ::: كذلك في الدنيا تعيش البهائم

قال جعفر بن عون : سمعت مسعر بن كدام ينشد :

ومشَيدٍ داراً ليسكُنَ دارَه ::: سكنَ القبورَ وداره لم تُسْكَنِ

عن يوسف بن أسباط قال : قال لي سفيان الثوري بعد العشاء : ناولني المطهرة أتوضأ، فناولته. فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خده، فبقي مفكراً، ونمت ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت : هذا الفجر قد طلع. فقال : لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى ساعة.

* قال يوسف بن أسباط : كان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم.

* عن أحمد بن يونس : سمعت الثوري ما لا أحصيه يقول : اللهم سلم سلم، اللهم سلمنا وارزقنا العافية في الدنيا والآخرة.

* عن سفيان الثوري : من سُر بالدنيا نُزِع خوف الآخرة من قلبه.عن شقيق البلخي قال : أخذت الخشوع عن إسرائيل بن يونس كنا حوله لا يعرف مَنْ عن يمينه، ولا من عن شماله من تفكره في الآخرة، فعلمت أنه رجل صالح.

* عن ابن السماك قال : هِمةُ العاقل في النجاة والهرب، وهمة الأحمق في اللهو والطرب، عجباً لعين تلذ بالرقاد، وملك الموت معها على الوساد، حتى متى يُبلغنا الوعاظُ أعلام الآخرة، حتى كأن النفوس عليها واقفة، والعيون ناظرة، فلا منتبه من نومته ؟ أو مستيقظ من غفلته ؟ ومفيق من سكرته ؟ وخائف من صرعته ؟ كدحاً للدنيا كدحاً، أما تجعل للآخرة منك حظاً ؟ أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها والنار مشرفة على أهلها، وقد وضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة، أبعد الدنيا دارُ معتمل أم إلى غير الآخرة منتقل ؟ هيهات ولكن صُمت الآذان عن المواعظ، وذُهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينفع ولا السامع ينتفع.

* وعنه : هب الدنيا في يديك، ومثلُها ضُم غليك وَهبِ المشرق والمغرب يجيء إليك فإذا جاءك الموت فماذا في يديك ؟ ألا من امتطى الصبر قوي على العبادة، ومَنْ أجْمَعْ الناس، استغنى عن الناس، ومن أهمته نفسه لم يول مَرَمتها غيره، ومن أحب الخير وفق له، ومن كره الشر جُنبَهُ، ألا متأهب فيما يوصف أمامه، ألا مستعد ليوم فقره، ألا مبادر فناء أجله ما ينظر من ابيضت شعرته بعد سوادها، وتكشر وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكل بصره وضعف ركنه، وقل نومه، وبلي منه شيء بهد شيء في حياته، فرحم الله امرءاً عقل الأمر وأحسن النظر واغتنم أيامه.

* وعنه : الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبقَ من قليلك إلا قليل، وقد أصبحت في دار العزاء وغداً تصير على دار الجزاء، فاشترى نفسك لعلك تنجو.

* قال المسيب بن واضح الزاهد العمري بمسجد منى يقول:

للهِ دَرٌّ ذوي العُقُـــــــــــولْ	:::	والحِـــرْصِ فـــي طلـــبِ الفُضُـــولِ
سُـــــلابُ أكْسِـــــيةِ الأرامــــــلِ	:::	واليتـــــــــامى والكُهُـــــــــولِ
والجـــــــــامعينَ المكثـــــــرينَ	:::	مـــــــن الجِنَايـــــــة والغُلُــــــولِ
وضـــــــعوا عقـــــولَهم مـــــــن	:::	الـــــدنيا بمَدْرَجَـــــة السُـــــيولِ
ولهـــــو بـــــأطرافِ الفُــــروع	:::	وأغفلــــوا عِلْـــــمَ الأصـــــولِ
وتتبعـــــوا جَمْـــــعَ الحطـــــامِ	:::	وفـــــارقوا أثـــــرَ الرســــولِ
ولقـــــد رأوا غـــــيلانَ رَيـــــبِ	:::	الـــدهر غـــولاً بعـــد غـــولِ

..إن ابن المبارك مر براهب عند مقبرة ومزبلة فقال : يا راهب عندك كنز الرجال، وكنز الأموال، وفيها معتبر.

* قال الفضيل : لو خُيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً ولا أرى الآخرة لاخترت ذلك.

* عن الفضيل قال : والله لأن أكون تراباً أحب إلي من أن أكون في مسلاخ أفضل أهل الأرض، وما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته إذا لطاش عقلي ولم أنتفع بشيء.

* عن الفضيل قال : ليست الدنيا دار إقامة، وإنما آدم أُبط على الدنيا عقوبة، ألا ترى كيف يزويها عنه، ويمررها عليه بالجوع وبالعري، كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها مرة حُلواً ومرة صبراً وإنما تريد بذلك ما خير له.

* عن الفضيل قال : إنما أمس مثل، واليوم عمل، وغد أمل.

* قال أبو سليمان الداراني : كان علي بن الفضيل لا يستطيع أن يقرأ القارعة ولا تقرأ عليه.

* كان علي بن الفضيل عند سفيان بن عُيينة فحدث بحديث فيه ذكر النار فشهق علي شهقة ووقع، فالتفت سفيان فقال : لو علمت أنك ها هنا ما حدثت به، فما أفاق إلا بعد أن شاء الله.

* عن إبراهيم بن بشار قال : الآية التي مات فيها علي بن الفضيل في الأنعام :**{وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ}**(١) مع هذا الموضع مات وكنت فيمن صلى عليه.

* عن سفيان بن عُيينة قال لي أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا في النوم عجوزاً شوهاء.

* قال سفيان بن عُيينة : دخلت على هارون الرشيد فقال : يا أبا إسحاق إنك في موضع وفي شرف، قلت : يا أمير المؤمنين ذلك لا يُعني عني في الآخرة شيئاً.

* وقال الأصمعي : سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دُول، والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، و(فينا) لمن بعدنا عبرة.

* قال أبو نواس :

سبحانَ ذي الملكوتِ أيةُ ليلةٍ ::: مَخضت صبيحتُها بيوم الموقفِ
لو أنْ عيناً وهمتْها نفسها ::: ما في المعادِ مصوراً لم تطرفِ

* وله :

ألا كل حي هالك وابن هالكٍ ::: وذو نسبٍ في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفتْ ::: له عن عدو في ثياب صديقِ

* وقيل للشافعي: ما لك تُكثر من إمساك العصان ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر.

عن بشر بن الحارث : أمس قد مات، واليوم في السياق، وغداً لم يولد.

* وعن فتح الموصلي : من أدام النظر بقلبه أورثه ذلك الفرح بالله.

* وكان محمد بن سلام يقول : أفنيت ثلاثة أهلين ماتوا، وها أنا في الرابعة ولي أولاد.

---

(١) الأنعام: ٢٧.

* قال إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد : سمعت يحيى بن معين، يقول : ما الدنيا إلا كحلم، والله ما ضر رجلاً أتقى الله على ما أصبح وأمسى، لقد حججت وأنا ابن أربع وعشرين سنة، خرجت راجلاً من بغداد إلى مكة، هذا من خمسين سنة كأنما كان أمس.

* وكنت أسمع أحمد بن حنبل كثيراً يقول : اللهم سلم سلم.

* وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي.

* يقول أحمد بن حنبل : والله لقد أعطيت المجهود من نفس، ولوددت أني أنجو كفافً.

* سمعت أحمد بن حنبل، يقول : ما شَبهتُ الشبابَ إلا بشيء كان في كُمي فسقط.

* وعن موسى بن معاوية قال : صلى بنا هارون الخليفة الصبح في المسجد الحرام، فقرأ بالرحمن والواقعة، فتمنيت أنْ لا يسكت من حسن قراءته، فقمت إلى الفضيل، فسمعته يقول : مسكين هارون، قرأ الرحمن والواقعة ولا يدري ما فيها.

* قال الجنيد : وسمعت السري السقطي يقول : إني لأنظر على أنفي كل يوم مخافة أن يكون وجهي قد اسود، وما أحب أن أموت حيث أعرَف، أخاف أن لا تقبلني الأرض، فأُفتضح.

* سمعت محمد بن يحيى يقول : تقدم إلى عالِم، فقال : علمني وأوجز، قال : لأوجزن لك، أما لآخرتك : فإن الله أوحي إلى نبي من أنبيائه : قل لقومك : لو كانت المعصية في بيت من بيوت الجنة لأوصلت إليه الخراب.

* قال محمود بن والان : سمعت عبد الرحمن بن بشير، سمعت ابن عُيينة يقول : غضب الله داء لا دواء له.

* قال الذهبي : دواء كثرة الاستغفار بالسحر والتوبة النصوح.

* قال يحيى بن معاذ الرازي : الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وهو يسألك عن جناح بعوضة.

ومن قول ابن علي الثقفي : يا مَنْ باع كل شيء بلا شيء واشترى لا شيء بكل شيء.

* وقال : أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت، وأف من حسراتها إذا أدبرت. العاقل لا يركن إلى شيء إن أقبل كان شغلاً، وإن أدبر كان حسرةً.

* قال الحاكم : سمعت الأصم، وقد خرج ونحن في مسجده، وقد امتلأت السكة من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاث مئة. وكان يملي عشية كل يوم اثنين من أصوله. فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء وقد قاموا يطرقون له، ويحملونه على عواتقهم من باب داره (إلى مسجده)، فجلس على جدار المسجد، وبكى طويلاً، ثم نظر إلى المستملي، فقال : أكتب : سمعت محمد بن إسحاق الصفاني يقول : سمعت الأشج، سمعت عبد الله بن إدريس يقول : أتيت يوماً باب الأعمش بعد موته فدقت (الباب)، فأجابتي جارية عرفتني : هاي هاي (تبكي) : يا عبد الله، ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب ؟ ثم بكى الكثير، ثم قال : كأني بهذه السكة لا يدخلها أحد منكم، فإني لا أسمع وقد ضعف البصر، وحان الرحيل، وانقضى الأجل، فما كان إلا بعد شهر أو أقل منه حتى كف بصره وانقطعت الرحلة، وانصرف الغرباء، فرجع أمره إلى أنه كان يناول قلماً، فيعلم أنهم يطلبون الرواية، فيقول : حدثنا الربيع، وكان يحفظ أربعة عشر حديثاً، وسبع حكايات، فيرويها، وصار بأسوأ حال حتى توفي.

* جاور أبو يزيد المروزي بمكة سبعة أعوام، وكان فقيراً يقاسي البرد ويتكتم ويقنع باليسير. أقبلت عليه الدنيا في آخر أيامه، فسقطت أسنانه، فكان لا يتمكن من المضغ، فقال: لا بارك الله في نعمة أقبلت حيث لا ناب ولا نصاب، وعمل في ذلك أبياتاً.

* قال الُسّلميُ : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : (ليكن تدبرك في الخلق تدبر عبرة، وتدبرك في نفسك تدبر موعظة، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقة. قال الله تعالى :**{أفلا يَتَدَبَرُونَ القُرآنَ}**[1].

قال ابن أبي زمنين:

لا تَطْمَئِن إلى الدنيا وزُخرفِها ::: وإنْ تَوَشحْت من أثوابها الحسنا
أين الأحبةُ والجيرانُ ما فعلوا ::: أين الذين هم كانوا لنا سَكَنا

سقاهم الدهرُ كأساً غيرَ صافيةٍ فصيرتُهم لأطباقِ الثرى رَهَنا.

* قال ابن الجوزي :

* عقارب المنايا تلسع، وجُدران جسم الآمال يمنع، وماء الحياة في إناء العمر يرشح.

وفي سنة أربع وخمسين : كان ظهور الآية الكبرى وهي النار بظاهر المدينة النبوية، ودامت أياماً تأكل الحجارة، واستغاث أهل المدينة إلى الله وتابوا، وبكوا، ورأى أهل مكة ضوءها من مكة، وأضاءت لها أعناق الإبل ببصرى، كما وعد رسول الله ﷺ فيما صح عنه. وكسف فيها الشمس والقمر، وكان فيها الغرق العظيم ببغداد، وهلك خلق من أهلها، وتهدمت البيوت، وطفح الماء على السُور.

* ومن شعر علي بن الحسين الربعي:

إنْ كنتَ نِلْتَ من الحياة وطيبِها ::: من حُسْنِ وجهِك عِفةً وشبابا
فاحذرْ لنفسك أنْ ترى متمنيا ::: يوم القيامة أن تكون تُرابا

* * * * *

---

(١) محمد: ٢٤.

المبحث العاشر:

القناعة

القناعة الرضا بالقسم (أي النصيب والحظ)[١].

قال الراغب : القناعة الاجتزاء باليسير من الأغراض المحتاج إليها. قال الجاحظ : القناعة هي : الاقتصار على ما سنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النفس على ذلك والتقنع باليسير منه. قال المناوي : القناعة عرفاً : الاقتصار على الكفاف، وقيل الاكتفاء بالبُلغة، وقيل سكون الجأش عند وعدم المألوفات، وقيل الوقوف عند الكفاية) [٢].

مراتب القناعة:

المرتبة الأعلى: أن يقتنع بالبُلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه.

المرتبة الأوسط: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة.

المرتبة الأدنى: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً.

آثار القناعة:

١ - امتلاء القلب بالإيمان بالله سبحانه وتعالى والثقة به والرضا بما قدر وقسم.

٢ - الحياة الطيبة.

٣ - تحقيق شكر المنعم سبحانه وتعالى.

٤ - الفلاح والبشرى لمن قنع.

---

(١) قاله ابن السني في كتابه القناعة.

(٢) كتاب موسوعة نضرة النعيم.

٥ - الوقاية من الذنوب التي تفتك بالقلب وتذهب الحسنات كالحسد والغيبة والنميمة والكذب.

٦ - حقيقة الغنى في القناعة.

٧ - العز في القناعة والذل في الطمع.

٨ - القانع تعزف نفسه عن حطام الدنيا رغبةً فيما عند الله.

٩ - القنوع يحبه الله ويحبه الناس.

١٠ - القناعة تشيع الألفة والمحبة بين الناس.

من الأسباب المؤدية للقناعة:

١ - الاستعانة بالله والتوكل عليه والتسليم لقضائه وقدره.

٢ - قدر الدنيا بقدرها وإنزالها منزلتها.

٣ - جعل الهمّ للآخرة والتنافس فيها.

٤ - النظر في حال الصالحين وزهدهم وكفافهم وإعراضهم عن الدنيا وملذاتها.

٥ - تأمل أحوال من هم دونك.

٦ - مجاهدة النفس على القناعة والكفاف.

٧ - معرفة نعم الله تعالى والتفكر فيها.

٨ - أن يعلم أن لبعض النعيم ترة ومفسدة.

٩ - أن يعلم أن في القناعة راحة النفس وسلامة الصدر واطمئنان القلب.

١٠ - الدعاء(١).

١١ - تقوية الإيمان بالله تعالى، وترويض القلب على القناعة والغنى.

---

(١) كتاب كنز القناعة للشيخ د. محمد الركبان - دار القاسم بالرياض - الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

١٢ - اليقين بأن الرزق مكتوب والإنسان في رحم أمه.

١٣ - تدبر آيات القرآن العظيم لا سيما ما تتحدث عن الرزق والاكتساب.

١٤ - معرفة حكمة الله تعالى في تفاوت الأرزاق والمراتب بين العباد.

١٥ - العلم بأن الرزق لا يخضع لمقاييس البشر من قوة الذكاء وكثرة الحركة وسعة المعارف.

١٦ - العلم بأن عاقبة الغنى شر ووبال على صاحبه إذا لم يكن الاكتساب والصرف منه بالطرق المشروعة.

١٧ - النظر في التفاوت البسيط بين الغني والفقير على وجه التحقيق.

* * * * *

الفصل الرابع:

أعمال متعلقة بالقلب السليم

المبحـث الأول:

المحبـة

المحبة أساس كل عمل من أعمال الدين والإيمان، كما أن التصديق أساس كل قول من الأقوال؛ وذلك أن كل عمل يعمله الإنسان لا بد أن يكون عن إرادة قلبية - كما أوضحنا سلفاً - وهذه الإرادة إما أن تكون حباً أو كرهاً، فدافع العمل لا يخرج عن أن يكون رغبة وطواعية أو رهبة وإجباراً.

وأعمال الدين قسمان:

* أولاً: التعبدي المحض كالصلاة والصيام والحج.

* والآخر: ما كان تابعاً للنية؛ كالأكل والنوم بنية الاستعانة على الطاعة، والإنفاق على الأهل بنية القربة ونحوه.

فالأول لا يصلح إلا بالنية، والآخر لا يكون مأجوراً عليه ومتقرباً به إلا بها، فاتضح أن النية أساس في الأعمال كلها.

وهذه النية هي بمعنى الإرادة والغاية، وهي التي لا تخلو من أن تكون حباً أو كرهاً، أما النية الخاصة التي يذكرها الفقهاء في الأحكام فشيء آخر.

وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن اختلاف حالي المؤمن والمنافق وعاقبتيهما بحسب اختلاف نية كل منهما - مع اتفاق عملهما في الصورة والمظهر؛ كالإنفاق مثلاً، فقال تعالى:**{وسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * ومَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلا ابْتِغَاءَ وجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * ولَسَوْفَ يَرْضَى}**(1).

وقال:**{ومَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وبِرَسُولِهِ ولا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وهُمْ كُسَالَى ولا يُنْفِقُونَ إِلا وهُمْ كَارِهُونَ}**(2).

---

(1) الليل: ١٧ - ٢١.

(2) التوبة: ٥٤.

فالمؤمن يعمل الطاعة محباً لها راضياً بها، فكان جزاؤه القبول والرضا، والمنافق يعملها كارهاً كسلان، فكان جزاؤه الرد والإحباط.

والمؤمنون أنفسهم تتفاوت درجات إيمانهم بحسب المحبة والرضا؛ فكم بين إسلام أبي ذر الذي تحمل المشاق حتى بلغ رسول الله ﷺ، فلما أسلم أعلن إسلامه بين ظهراني الكفار مستعذباً ضربهم وأذاهم يوماً بعد يوم، وبين إسلام الأعرابي الذي جاءَ النبي ﷺ فقال له: «**أسلم**»، فقال: أجدني كارهاً، فقال: «**أسلم وإن كنت كارهاً**».

بل كم بين إسلام سلمان الذي قضى السنين الطوال بحثاً عن الدين الحق وانتقل من خدمة راهب إلى آخر حتى وقع في الرق وبلغه خبر رسول الله ﷺ وهو على النخلة، فكاد يسقط فرحاً وشوقاً، وبين إسلام المؤلفة قلوبهم من جفاة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام بذل ذليل.

ومن هنا كانت المحبة أصل أعمال القلوب، وشرطاً من شروط لا إله إلا الله؛ فإن الإسلام هو الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله؛ فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن (الإله) هو: الذي يألهه العباد حباً وذلاً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له، بمعنى (مألوه) وهو: الذي تألهه القلوب، أي: تحبه وتذل له.

وأصل (التأله) التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، يقال: عَبده الحب وتيمه إذا ملكه وذلله لمحبوبه.

فالمحبة حقيقة العبودية وهل تُمكن الإنابة بدون المحبة والرضا والحمد والشكر والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ (وهل التوكل إلا توكل المحبين) فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك الزهد في الحقيقة هو زهد المحبين، فإنهم يزهدون فيما سوى محبوبهم لمحبته وكذلك الحياء في الحقيقة إنما هو حياء المحبين، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم وأما ما لا يكون عن محبة فهو خوف محض" .

وهكذا في سائر أعمال القلب التي لا يكون العبد شاهداً أن لا إله إلا الله بدونها.

وقد جعل الله تعالى إخلاص المحبة فرقاناً بين المؤمنين والكافرين، فمن أشرك مع الله غيره في المحبة وسواه به فهو المشرك المتخذ من دون الله نداً معبوداً، فضلاً عمن خلا قلبه من محبة الله ورسوله ودينه بالمرة وكره ذلك، فهذا كافر كفر إبليس وفرعون، مهما كان في قلبه من تصديق مجرد.

يقول الله تعالى: **{ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ}** [1].

فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً - كما يحب الله تعالى - فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم.

"وهذه هي التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار، يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: **{تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [2] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم والطاعة والتشريع.

وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى: **{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}** [3]. أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم... ".

---

(١) البقرة: ١٦٥.
(٢) الشعراء: ٩٧، ٩٨.
(٣) الأنعام: ١.

وإذا كان تجريد المحبة وإخلاصها هو متعلق الشطر الأول من شطري الشهادة وهو شهادة (أن لا إله إلا الله) فإن تجريد المتابعة والتحكيم للرسول ﷺ هو تحقيق المحبة المتعلق بالشطر الآخر (شهادة أن محمداً رسول الله) يقول الله تعالى: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}**[1].

فهذه هي آية المحبة وهي آية المحنة، قال بعض السلف: "ادعى قوم محبة الله، فأنزل آية المحنة: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}**[2].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأعماله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**.

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: تخالفوا عن أمره: **{فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}** فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك - وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويقول الرسول ﷺ : **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**.

ونواصل مع ابن القيم رحمه الله حيث يقول: "فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

(١) آل عمران: ٣١ - ٣٢.
(٢) آل عمران: ٣١.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله.

قال الله تعالى:**{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}**[١].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله؛ فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه وإخبار بخلاف ما هو عليه.

ويقول: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**» [٢].

وليست محبة الله ورسوله دعوى يمكن أن يرفعه المنافقون، بل هي تحقيق توحيد الله وطاعته باتباع ما جاء به النبي ﷺ، فمحبته ﷺ التي لا يكون العبد شاهداً أن محمداً رسول الله إلا بها لا تتحقق إلا باتباعه وتعزيره وتوقيره وتعظيم سنته والتخلي عن التقديم بين يدي أمره ونهيه - كما جاء في حديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» [٣].

يقول الإمام ابن القيم في بيان هذا الأصل العظيم "أصل العبادة: محبة الله، بل إفراده

---

(١) التوبة: ٢٤.
(٢) رواه البخاري.
(٣) مسند أحمد.

بالمحبة وأن يكون الحب كله لله، لا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتهم من تمام محبته وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة لـه هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً عليها وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى:**{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}**[1].

فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة.

بل المعول في باب معرفة الله، على العقول المتهوكة المتحيرة المتناقضة وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركاً لا أنا لقى منهما أصول الدين ولا فروعه ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته.

وقد وجدت كلاماً عظيماً لشَيْخ الإِسْلامِ ابن تيمية في رسالته: التحفة العراقية في الأعمال القلبية، هذه مقتطفات منها:

يقول رحمه الله: محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة، إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة.

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله، فإن

---

(١) آل عمران: ٣١.

الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك**».

وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار القارئ المرائي والمجاهد المرائي والمتصدق المرائي.

بل إخلاص الدين لله هو الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه... إلى أن يقول:

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة، لكن أكثر ما جاء به المطلوب مسمى باسم العبادة، كقوله:**{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}**[1] وقوله:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}**[2] وأمثال هذا.

والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبوداً ولهذا قال تعالى:**{ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ}**[3].

فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أنداداً وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حباً لله منهم؛ لأن المؤمنين أعلم بالله والحب يتبع العلم؛ ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ومعلوم أن ذلك أكمل قال تعالى:**{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ورَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ**

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) البقرة: ٢١.

(٣) البقرة: ١٦٥.

لا يَعْلَمُونَ}[١].

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين وإن كان ذلك من محبة الله وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره ولهذا جاءت محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين، فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها؛ فإن النبي ﷺ قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه وقد قال تعالى:**{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ}**[٢] والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة.

وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد والجهاد دليل المحبة الكاملة، قال تعالى:**{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ}**[٣].

وقال تعالى في صفة المحبين والمحبوبين:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ}**[٤].

فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، فإن المحبة مستلزمة للجهاد لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ هم

---

(١) الزمر: ٢٩.
(٢) التوبة: ١٩ - ٢٢.
(٣) التوبة: ٢٤.
(٤) المائدة: ٥٤.

إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب لـه.

ثم يقول الشيخ: "ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يرويه عن ربه: **«ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»** وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد لـه منه.

قال: "والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك.

وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه؛ فإن الملام على ذلك كثير، وأما الملام على فعل يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق وليس من المحمود الصبر على هذا الملام، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك".

علامات محبة الله تعالى للعبد:

العلامات التي إذا وجدت في العبد أو أحس بها تدل على أن الله يحبه.. حسن التدبير لـه فيربيه من الطفولة على أحسن نظام ويكتب الإيمان في قلبه وينور لـه عقله فيجتبيه لمحبته ويستخلصه لعبادته فيشغل لسانه بذكره وجوارحه بطاعته، فيتبع كل ما يقربه إلى محبوبه وهو الله عز وجل ويجعله الله نافراً من كل ما يباعد بينه وبينه ثم يتولى هذا العبد الذي يحبه بتيسير أموره من غير ذلّ للخلق فييسر أموره من غير إذلال، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هماً واحداً بحيث تشغله محبته عن كل شيء.

الرفق بالعبد والمراد اللين واللطف والأخذ بالأسهل وحسن الصنيع.

القبول في الأرض والمراد قبول القلوب لهذا العبد الذي يحبه الرب والميل إليه والرضا عنه والثناء عليه كما جاء في حديث أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل عليه السلام إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فيبغضوه ثم توضع له البغضاء في الأرض»** [(١)].

الابتلاء، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»**.

فيبتليهم بأنواع البلاء حتى يمحصهم من الذنوب، ويفرغ قلبوهم من الشغل بالدنيا غيرة منه عليهم، فالله يغار ومن صفاته الغيرة، يغار أن يشتغل العبد الذي يحبه بغيره فلا يريد أن يشتغل بالدنيا فيبتليه ويتلذذ العبد بالبلاء ويصبر ولا يجد وقتاً وإمكاناً للاشتغال بالدنيا التي تصرفه عن الله فلا يقع العبد فيما يضره في الآخرة، ويبتليه بضنك من المعيشة أو كدر من الدنيا أو تسليط أهلها ليشهد صدقه معه في المجاهدة، قال تعالى:**{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}**.

وهذا الابتلاء على حسب قدر الإيمان ومحبة الله للعبد كما قال سعد بن أبي وقاص: يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»** [(٢)].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي وقال الألباني حسن صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي - وجد الحر فوق اللحاف - فقلت يارسول الله ما أشدها عليك، قال: «**إنا كذلك يضعّف لنا البلاء ويضعّف لنا الأجر**»، قلت يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء**» قلت يارسول الله ثم من؟ قال: «**الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوّيهاوإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**» (١) قالوا في اللغة التحوية أن يدير كساءً حول سنام البعير -.

الموت على عمل صالح، كما جاء عن النبي ﷺ : «**إذا أحب الله عبداً عسّله**» قالوا وما عسّله؟ قال: «**يوفق له عملاً صالحاً بين يدي أجله حتى يرضى عنه جيرانه أو من حوله**» (٢).

علامات دالة على محبة العبد لله تعالى:

لما كانت المحبة خفية في القلب سهُل أن يدّعيها كل أحد وقالت اليهود:**{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}**.

فما أسهل الدعوى وأعز الحقيقة، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت نفسه محبة الله مالم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين، والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابتة وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب والجوارح كدلالة الثمار على الأشجار والدخان على النار وهذه العلامات كثيرة:

١- حب لقاء الله تعالى فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، فقال النبي ﷺ : «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» (٣)، فالمحب الصادق يذكر محبوبه دائماً والموعد الذي بينهما للقاء، ولا ينسى موعد لقاء حبيبه، وماهو موعد اللقاء؟، هناك موعدان، الأول الموت والثاني يوم

---

(١) أخرجه ابن ماجة وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

القيامة، والثالث اللقاء في الجنة والنظر إلى وجه الرب. إذاً فالموت هو الموعد الأول للقاء مع الله وليس معنى هذا أن العبد يريد الموت الآن وأنه يتمناه ويدعو به على نفسه، لكن إذا نزل الموت بالعبد الصالح أحب نزوله، لأنه سيفضي به الآن إلى لقاء الله وما أعد له من الثواب والنعيم ويكون بقرب ربه:**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}**(١)، يريد أن يكون عند ربه وأن يصل إليه من الألطاف والإنعام بعد الموت من الله ما يصل، فضلاً عن ما يكون له من الجزاء العظيم في الجنة، فمحبة لقاء الله تعالى ولما علم الله عزوجل شوق عباده المحبين له والمطيعين ضرب لهم موعداً بينه وبينهم وهو الموت**{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ}**.

٢- أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات التنعم بمناجاة الحبيب فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذّ عنده من مناجاة الليل فكيف تصح محبته؟، فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه في طاعته وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل وقد قال النبي ﷺ : **«حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»** (٢).

فقرة العين كما قال ابن القيم فوق المحبة، فجعل النساء والطيب مما يحبه، وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو بالصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه فكيف لا تكون قرة العين؟ وكيف تقر عين المحب بسواها؟ ومن قرة عينه بصلاته في الدنيا؛ قرة عينه بقربه من ربه عزوجل في الآخرة وقرة عينه به أيضاً في الدنيا ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، فقرة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه بخلاف المطيع كرهاً، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا ذل القهر ما أطاع فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرِهه

(١) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٢) رواه النسائي وقال الألباني حسن صحيح.

وقاهره بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتاً ونعيماً ولذة وسروراً فهذا ليس الحامل لـه على الطاعة والعبادة والعمل ذل الإكراه، بل تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً كجريان الماء في منحدره، يتم تلقائياً بكل يسر وسهولة، وهذا حال المحبين الصادقين فإن عبادتهم طوعاً ومحبة ورضا ففيها قرة عيونهم وسرور قلوبهم ولذة أرواحهم.

علامـة المحبـة كمـال الأنـس بمناجـاة المحبـوب وكمـال التـنعم بـالخلوة وكمـال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة.

٣- أن يكون صابراً على المكاره، والصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلة الصبر من كل منزلة، فإن قيل كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس النفس لمراد المحبوب؟ قيل: هذه هي النكتة ولب الموضوع والقصد والفائدة التي لأجلها كان الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها به وبه يعلم صحيح المحبة من معدومها وصادقها من كاذبها فإنه بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة المحبة ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن الحقيقة ولم يثبت إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق وتجشّم المكاره بالصبر ماثبتت صحة الدعوة وقد تبين أن أعظم الناس محبة لله أشدهم صبراً وهذا ماوصف الله به أولياءه وخاصة فقال عن عبده أيوب لما ابتلاه**{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً}** فهذه العلاقة بين الصبر والمحبة**{نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**، وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه وأخبر أن الصبر لا يكون إلا لله، فيصبر لله والصبر لا يكون إلا بالله**{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ}**.

٤- أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما: أنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال: **«حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، قال: أنت أحب إلي من كل شيء حتى نفسي، قال: **«الآن يا**

عمر» [1]، إذاً من العلامات أن لا يقدم العبد شيئاً على الله لا ولده ولا والده ولا الناس ولا أي شهوة، ومن آثر على الله شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، وإذا كان العبد مؤثراً ما أحبه الله على ما يحبه هو فيكون عند ذلك مقاوماً لداعي الهوى معرضاً عن الكسل مواظباً على الطاعة متقرباً بالنوافل فيظهر الطاعة ولذلك قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ::: هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ::: إن المحب لمن يحب مطيع

وللعلم: العصيان لا ينافي أصل المحبة إنما يضاد كمالها. فالمحبة كالإيمان لها أصل ولها كمال، فبحسب المعاصي ينقص الكمال، وإذا دخل المرء في مرحلة الشك والنفاق الأكبر ذهب الأصل وانخلع وانعدم، فالذي ليس في قلبه محبة لله هذا كافر مرتد ومنافق نفاق أكبر، ليس له من الدين نصيب، أما العصاة لا يقال لهم أنه ليس عندهم محبة لله بل يقال محبتهم لله ناقصة وعلى هذا يعَاملون

والدليل على هذا حديث نعيمان الذي أُتي به عند النبي ﷺ يوماً وهو سكران فحدّه في شرب الخمر، فلعنه رجلٌ وقال ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ : **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»** [2]، يعني عنده أصل المحبة، وعنده نقص بقدر ما عصا. ولأن هذا صحابي فلا نتكلم فيه في ذاته بل وإنما الشاهد الإتيان بالحديث لنبين أن المعصية لا تنفي أصل المحبة، وقد يكون الرجل قد تاب وختم له بخير فنحفظ حقوق صحابة الرسول ﷺ حتى الذين عصوا منهم، ومعروف أن الحدود تكفر المعاصي. وهذا ما ينبغي التعامل به مع صحابة الرسول ﷺ حتى الذين ورد في الأحاديث أنهم وقعوا في المعاصي، فإنهم عند الله بمكان عظيم حتى العاصي منهم كان يخرج للجاهد ويقدم نفسه وروحه فداء لله ورسوله، وعندهم طاعات عظيمة قد تكون أكب بكثير مما فعلوا من السيئات.

---

(١) سنن الترمذى.
(٢) رواه البخاري.

١- أن يكون مولعاً بذكر الله تعالى، لا يفتر لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ومن ذكر ما يتعلق به. فيحب عبادته وكلامه وذكره وطاعته وأولياءه. ولقد أمر الله تعالى عباده بذكره في أخوف المواضع**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً}** تحت ظلال السيوف وقعقعات السيوف ولا تشغلكم عن ذكر ربكم. فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب عند الرغب والرهب، وحتى العرب في الجاهلية كان المرء يفتخر بالأشعار أنه ذكر محبوبته في الحرب وتحت وقع السلاح. وأهل الإيمان أولى بهذا منهم بحبهم للرحمن وأكثر مما يفعله العاشقون والضلاّل مع محبوبينهم. ومن الذكر الدال على صدق المحبة سبق ذكر المحبوب إلى قلب المحبوب ولسانه عند أول يقظة من منامه وآخر شيء يذكره قبل أن ينام مرة أخرى، وهذه من فوائد أذكار النوم والاستيقاظ.

٢- المحب الصادق إذا ذكر الله خالياً وجل قلبه وفاضت عيناه من خشية الله**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**(١).

٣- أن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون فهذه هي غيرة المحب حقاً، والدين كله تحت هذه الغيرة فأقوى الناس ديناً وأعظمهم محبة لله أعظمهم غيرة على حرمات الله، ولذلك ينكرون المنكرات ويمنعونها غيرة، لأن محبوبهم لا يرضى بهذا فهم لا يرضون به ولا يرضون بحصوله ويسعون في تغييره.

٤- محبة كلام الله عزوجل، فإذا أردت أن تعلم ماعندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، فلا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم، ومن هنا كان عكوف هؤلاء المحبين لله على كتاب الله، تلاوة وتفسيراً وتدبراً

---

(١) الأنفال: ٢.

والاستشهاد به في كل موقف. يكثرون من القراءة نظراً وحفظاً. فيكثرون التلاوة ينتج عنها التعلق بكلام المحبوب والإكثار منه.

٥- أن يتأسف على ما يفوته من طاعة الله وذكره، فترى أشد الأشياء عليه ضياع شيء من وقته فإذا فاته ورده وجد لفواته ألماً أعظم من تألم الحريص على ماله من فوات ماله وسرقة ماله وضياع ماله، وبادر إلى قضائه في أقرب فرصة كما كان يفعل الصادق المصدوق ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته وكان إذا نام من الليل أو مرض صلّى من الليل اثنتا عشرة ركعة)[١].

٦- أن يستقل في حق محبوبه جميع أعماله ولا يراها شيئاً، ولا يرى أن ما عبده به وأطال وصبر عليه أنه بذل شيئاً، فلا يراه قط إلا بعين النقص والإزدراء ويرى شأن محبوبه أعظم من كل ما عمل من أجله وأعلى قدراً فلا يرضى بعمله، بل يتهم عمله ويحتقره ويخشى أنه ما وفّى حق محبوبه بل ويتوب إليه من النقص. لذلك بعد الصلاة يقول أستغفر الله، فهو دائم الاستغفار للنقص الحاصل في عبادة الرب. وكلما ازداد حباً لله ازداد معرفة بحقه فاستقل عمله أكثر. فكلما ازداد حبّاً ازداد عملاً واحتقاراً لما عمل.**{الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}**.

ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى؟

٧- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. قال تعالى:**{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}**.

٨-**{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}**، فهذا هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من إنزال القرآن، وأن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقرأ ويتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه دعاءً واستغفاراً ورجاءً. قال حذيفة صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران

---

(١) رواه مسلم.

فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ. وكان ﷺ إذا قرأ**{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}**(1) قال سبحان ربي الأعلى.

٩- فلاشيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والشكر والصبر وسائر الأحوا ل وأعمال القلوب. ثم يزجر عن الصفات المذمومة والأفعال القبيحة التي تفسد القلب وتهلكه.

١٠- قال الحسن البصري: (أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً) فالتفكر بالقرآن أصل صلاح القلب والعمل به متمم لذلك ولا بد لهذا من هذا.

١١- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لأنها توصل إلى درجة المحبة كما جاء في الحديث القدسي: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيينه ولأن استعاذني لأعيذنّه**» فتضمن هذا الحديث الإلهي الشريف حصر أسباب محبة الله في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل.

١٢-وأخبر سبحانه أن أداء الفرائض أحب ما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل، وأن المحب يستكثر من النوافل، لا يزال يكثر منها حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً شغلته المحبة عن أي أفكار وخواطر أخرى أجنبية غريبة عن العبادة فلا تخطر على باله وإذا جاءت تنصرف وتنطرد بسرعة، لأنه صار عنده من مراقبة الله ما يمنع هذه الأفكار من الورود ويكون عنده من المهابة والعظمة لربه ما يمنع من الانشغال بأي شيء أجنبي عن العبادة، ويكون عنده من الإجلال لله والأنس به والشوق إليه ما يجعله دائماً ذاكراً تالياً عابداً عاملاً.

---

(١) الأعلى: ١.

١٣-فإذا قيل أن هناك أناس وهذا أكثر حال المسلمين، يستكثرون من النوافل وهم مقصرون في الواجبات ويقترفون المعاصي فما الحل؟ ليس الحل في ترك النوافل فبتركها يزداد حاله سوءاً فالنوافل تجبر النقص، بل الحل في البقاء على النوافل لكن يصلح حال الواجبات ويصلح حال ترك المحرمات فيمتنع عن المحرمات ويزيد في النوافل. وفي الحديث كما قال ابن حجر عظم قدر الصلاة فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها وذلك لأنها محل المناجاة والقربى، ولا واسط فيها بين العبد وربه، ولا شيء أقر لعين العبد منها ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أنه لا يفارقه ولا يخرج منه لأن فيه نعيمه وبه تطيب حياته وهذا للعابد.

إذاً المحافظة على الصلاة فرضاً ونفلاً من أعظم ما يجلب المحبة ومنها قيام الليل. ولا تكاد تجد فريضة إلا وله نوافل (الصلاة - الصيام - الزكاة - الحج - صلة الرحم والبر بالوالدين) حتى المرء إذا قصّر في الواجب وجد ما يعوّض به، لكن لا يمكن للمرء أن يشتغل بالنوافل ويترك الواجبات وهذا من خلل التصور واضطراب الميزان وخلل المنهج.

١٤- أن يكثر ذكر الله باللسان والقلب والعمل فنصيبه من المحبة على حسب نصيبه من هذا الذكر، ولهذا أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وأنه سبب للفلاح**{وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[1]، وأثنى على أهل الذكر ومدحهم وأخبر نبيه ﷺ أنه فوق منزلة الجهاد، وجعل الله هذا الذكر حتى بعد العبادات العظيمة وخاتمة الأعمال الصالحة وبعد الصيام**{وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**، والحج**{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ}**[2]، والصلاة**{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}**[3]، والجمعة إذا انقضت**{فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ**

---

(١) الأنفال: ٤٥.

(٢) البقرة: ٢٠٠.

(٣) النساء: ١٠٣.

اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً}[1]، وهكذا..، فالذكر هذا مقارن للأعمال الصالحة**{وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي}**[2]، وبناء على ذلك فإن ذكر الله تعالى من أعظم ما يوصل إلى محبته عز وجل..

١٥- أن تؤثر محابه على محابّك عند غلبات الهوى، وأن تتسنم إلى محابّه ولو صعُب المرتقى، **وعلامة هذا الإيثار شيئان**:

١ - فعل ما يحبه الله ولو كانت نفسك تكرهه.

٢ - ترك ما يكرهه الله ولو كانت نفسك تحبه.

وبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار، ومؤونة هذا الإيثار شديدة لقوة داعي الهوى والطبع والعادة ولكن المؤمن الذي يريد أن يصل إلى مرتبة المحبة وأن يجلب محبة الله له يتكلف المؤونة الشديدة ويراغم نفسه الضعيفة لكي يصل إلى هذا ويحقق هذاالإيثار، فيشمر وإن عظمت المحنة ويتحمل الخطر الجسيم إرضاء للملك ولأجل الحصول على الفوز الكبير، فإن ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبهه ثمرة من الثمرات ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار.

قال ابن القيم - رحمه الله -: (ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ماهو أفضل منه وأنفع وأخير وأدوم وليجاهد نفسه على تركها لله فتورثه هذه المجاهدة محبة الله والوصول إلى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرف ذلك الشوق والإرادة بشوق أعظم ومحبة أكبروهي محبة الله عزوجل).

والقاعدة أن الإنسان لا يمكن أن يترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه، فكان لأجل ذلك من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك؛ أعظم من مشى إليه راكباً على النجائب.

---

(١) الجمعة: ١٠.

(٢) طه: ١٤.

فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها، لماذا كان صالحو البشر أفضل من الملائكة؟، لأن الملائكة ليس لديهم شهوات ومنازاعات، منقادون إلى الله بطبيعتهم، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ما من موضع أربعة أصابع في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد ولذلك أطّت السماء من ثقل الملائكة الذين يعبدون الله فيها، لكن الذي يسبح ويعبد دون أن يفتر مع منازعة نفسه والشهوات وهذه العوائق والعلائق ومع ذلك صامد صابر؛ هذا أعلى. ولماذا كانت المرأة من البشر في الجنة أفضل من الحور العين؟ بمجاهدتها نفسها ومراغمتها نفسها والتغلب على الشهوات وصبرها وصلاتها وصومها وعبادتها. فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجاباً له عنه أو حجاباً له يوصله إلى رضاه.

١٦- مشاهدة بره تعالى وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة فإنها داعية إلى محبته، والقلوب قد جبلت على محبة من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً على أحد من الله عزوجل؛ فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة والعبد يتقلب في نعم الرب دائماً في كل الأحوال، ويكفي أن بعض أنواع نعمة النفس لا تخطر على بال العبد وله عليه في كل يوم وليلة أربعة وعشرون ألف نعمة، كيف عرفوا ذلك ؟، لأنهم حسبوا كم نفس يتنفس المرء في الأربع والعشرين ساعة، فحسبوها وقدروها، فإذا كان أدنى نعمه في جانب التنفس فقط أربع وعشرون ألف نعمة في اليوم فما الظن بالنعم الأخرى إذا أردت أن تعد ؟**{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّـهِ لاَ تُحْصُوهَا}**[١]!، فكيف بالمضرّات التي يصرفها ويدفعها عنك إضافة لهذه النعم والإحسان؟ وكّل سبحانه حفَظَة**{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}**[٢]. نعم مجلوبة ونقم مدفوعة لا نحس بها والله يكلأنا بالليل والنهار**{قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ}**[٣]، فهو سبحانه المنعم بالكلاءة والحفظ والحراسة من كل المؤذين**{فَاللَّهُ خَيْرٌ**

---

(١) النحل: ١٨.

(٢) الرعد: ١١.

(٣) الأنبياء: ٤٢.

حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[1]. وبعض النعم تحصل رغم معاصي وإساءات وتقصير حصل..!، لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ يدّعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم..!

١٧- مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته مشاهدتها ومعرفتها وتقلب القلب في رياض هذه المعرفة، فمن عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبّه لا محالة، وهذا الباب الذي يدخل منه خواصّ أولياء الله العارفين به وهو باب المحبين حقاً الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحدٌ منهم، كلما بدا لهم منه علم؛ ازدادوا شوقاً ومحبة إلى الله فإذا انضمّ داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأبعدها عن كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً من الله ولا شيء أكمل من الله ولا شيء أجمل من الله فكل جمال وكمال في المخلوق أصلاً من آثار صنعه سبحانه وتعالى، لا يُوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله بل هو كما أثنى على نفسه، فإذا كان بعض الناس يحبون الجميل؛ فالله عزوجل أجمل من كل شيء، وله صفة الجمال، قال الرسول ﷺ : **«إن الله جميل»**، ولذلك إذا رآه أهل الجنة نسوا كل شيء، ومن تأمل هذا عرف كيف يتغلب على الأشياء الجميلة في الدنيا من المعاصي، وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة..محبة أكثر.. تنطلق من هذا الاسم وهذه الصفة وهذا الفعل، فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وكل ما أمر إذ ليس في أفعاله عبث ولا في أوامره سفَه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة ولا المصلحة ولا العدل ولا الفضل والرحمة وكل واحد من هذه يستوجب حمداً وثناءً على الله سبحانه وتعالى.

ما للعباد عليه حق واجبٌ ::: كلا ولا سعي لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله ::: وهو الكريم الواسعُ

---

(١) يوسف: ٦٤.

ولا يتصور بشر هذا المقام حق تصوره فضلاً عن أن يوفيه حقه، وأعرف خلقه به وأحبهم إليه محمد ﷺ قال: **«لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»!**، فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه البتة وله الأسماء والأوصاف منها مالا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولله تسع وتسعين اسم وله أسماء أخرى، ولكن هذه الأسماء التسع والتسعين من أحصاها وحفظها وعمل بها وعرف معناها دخل الجنة.

وهناك أسماء غير معلومة لذلك يوم القيامة الله يعلم نبيه أشياء عندما يسجد تحت العرش لم تخطر ببال أحد ويثني عليه بمحامد ما علمها لأحد قبله، فإذاً لله الأسماء والصفات التي يحب لأجلها ومن تأمل في أسمائه وصفاته ازداد محبة له، ولو شهد العبد بقلبه صفة واحدة لله من أوصاف كماله استدعت المحبة التامة فكيف إذا شهد بقية الصفات والأسماء والأفعال، وما نعلمه نحن عن الله وأسمائه وصفاته ليس إلا كنقرة عصفور في بحر!.

ولا نعرف الله تعالى معرفة مشاهدة بالعين بل ما عرفناه إلا من خلال الأسماء والصفات، وما وصل إلى العباد من العلم بالله عن طريق الوحي وما رأوه في الواقع هو آثار أسماء الله وصفاته، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم فكيف لو شاهدوا ذات الرب ووجه الرب..؟!، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه؛ لكان لهم في حبه شأن آخر. ولذلك إذا رأوه في الجنة أشغلهم عن كل نعيم آخر..!

وإنما تتفاوت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، ولذلك العلماء هم أكثر الناس محبة لله لأنهم يعرفون من الأسماء والصفات ومعاني الأسماء والصفات وآثارها مالا يعرفه عامة الناس، وكذلك الإيمان بأن له وجهاً يليق بجلاله وعظمته وأن له سمعاً وبصراً.

ومن تأمل في هذه الأشياء ازداد تعظيماً لربه ومحبة له وتعلقاً به. وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له، ولذلك كانت رسله أعظم الناس حبّاً له، والخليلان من بينهم أعظم الناس محبة وأعظم الأنبياء محبة لله وأعرفهم به تعالى؛ إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ

فوقه.

وإنما تظهر هذه المحبة من مطالعة الصفات بإثباتها أولاً ومعرفتها ثانياً ونفي التحريف والتعطيل والتمثيل والتشبيه والتكييف عنها. ولذلك لا يصح مطالعة أسماء الله وصفاته إلا بقواعد صحيحة مبنية على عدم التعطيل والتمثيل والتشبيه والتكييف والنفي. وكلما أكثر القلب من مطالعة أسمائه وصفاته وأفعاله؛ ازدادت محبته للمتصف بها وللمتسمي بها وللفاعل وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر!.

فكم يُحرَم من هذا النعيم نفاة الصفات الذين ينفون أن لله وجهاً وسمعاً وبصراً وينفون أن لـه محبة وبغض.

١٨- انكسار العبد بين يدي الرب والافتقار إليه، والخضوع والتذلل والإخبات والاستسلام والانطراح بين يديه، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر والرحمة والرزق من هذا العبد الذي أذل نفسه لربه وأحب القلوب إلى الله قلب تمكن منه الانكسار وملكته الذلة والله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل بين يديه لأن هذه حقيقة العبودية، الذل بين يدي الله.

١٩- ويقال طريق معبّد مذلل من كثرة وطأ الأقدام عليه فصار طريقاً معبداً، ولذلك كلما ذل العبد بين يدي ربه كلما ازداد محبة، والذل أنواع، وأكملها: ذل المحب لحبيبه، وهناك ذل المالك لمملوكه وهناك ذل الجاني عند المحسن إليه، وهناك ذل العاجز عند القادر على إطعامه وإيوائه، فأعلاها إذاً ذل الحبيب لحبيبه، فإذا كان الذل لله عز وجل قائماً كثيراً؛ كانت المحبة كبيرة..، والعبد ولا شك يذل بين يدي الله كل هذه الأنواع.

والذي امتلأ قلبه من محبة الله سبحانه وتعالى فقلبه منكسر عند ربه ليس معجب بعمله ولا مغترّ بما قدّم مهما كان كثيراً، فإنه لا يراه شيئاً ويرى نفسه مقصراً ويرى سائر ما عمِل لا يكافئ نعمة واحدة.

٢٠- الخلوة بالله تعالى في وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بتأدب

معه بأدب العبودية استغفاراً وتوبة**{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}**(١)

٢١-**{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}**(٢).

أحوال يحب الله تعالى أهلها:

١- قال الله عز وجل:**{وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**(٣)، فالعبد يندفع للإحسان لأنه إن صار من جملة المحسنين نال المحبة.

٢- قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}**(٤)، الحرص على الطهارة الباطنة والظاهرة.

٣- قال تعالى:**{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}**(٥).

٤- قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}**(٦).

٥- قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}**(٧).

٦- وما هي صفاتهم؟ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الحق لومة لائم..

٧- وأخبر الله تعالى أنه يحب المتقين..

٨- وأخبر أنه يحب المقسطين، أصحاب العدل الذين يعدلون في أهليهم والولايات

---

(١) السجدة: ١٦.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) البقرة: ١٩٥.
(٤) البقرة: ٢٢٢.
(٥) آل عمران: ١٤٦.
(٦) آل عمران: ١٥٩.
(٧) المائدة: ٥٤.

التي يتولونها والمناصب التي يتبوءونها..

٩- أخبر تعالى أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص.

١٠- ومما ورد في السنة: ثلاثة يحبهم الله عزوجل:

«رجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه فتخلفهم رجلٌ بأعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله عز وجل والذي أعطاه فالمعطي بهذه الصفة من الإخفاء يحبه الله، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم فقام يتملقني ويتلو آياتي فبالرغم من تعبه ونصبه فقام يتملقني أي يسألني ويلحّ علي ويتلو كتابي، ورجل كان في سرية فلقوا العدو فانهزموا فأقبل بصدره حتى يُقتَل أو يُفتح له» [(١)].

١١- ما جاء في حديث عامر بن سعدبن أبي وقاص قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاءه ابنه عمر فلما رآه سعد قال أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل الولد للقاء أبيه فقال الابن لأبيه: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ قال: اسكت، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»**، الغني عن الناس والخفي من لا يريد علواً في الأرض ولا مناصب ولا جاه. الخامل المنقطع إلى العبادة والانشغال بأمور نفسه.

١٢- ما جاء في حديث عمرو بن شعيب قال رسول الله ﷺ : **«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**، من غير إسراف وخيلاء ثم يتوسط ولا يبخل على نفسه.

١٣- عن أبي حازم بن دينار عن أبي إدريس الخولاني قال دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بفتى برّاق الثنايا وإذا الناس حوله إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه فقيل من هذا قالوا: معاذ بن جبل، فجاءه بعد ذلك فوجده يصلي فانتظره حتى قضى صلاته فسلّم عليه وقال: قلت له: والله إني لأحبك لله عزوجل، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله. فقلت: آلله. فأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه فقال أبشر فإني سمعت رسول الله

---

(١) رواه النسائي وله شواهد حسن بعضها الشيخ الألباني رحمه الله.

ﷺ يقـول: قـال الله عـز وجـل: **«وجبـت محبتـي للمتحـابين فـيّ والمتجالسـين فـيّ والمتزاورين في والمتباذلين فيّ»**.

١٤- فالحب في الله والزيارة في الله والمجالسة فـي الله والتعاون علـى البر والتقوى والتواصي بـالحق والصبر واجلس بنـا نـؤمن ساعة ومجـالس الـذكر تنـال بهـا محبـة الله، وكذلك قصة الرجل الذي زار أخاً لـه في الله في قرية أخرى ليس بينهم علاقة ماليـة ولا شراكة ولا شغل فبعث الله ملكاً يقول لـه: **«إن الله قد أحبك كما أحببته»**، وكلما زادت المحبة بين المؤمنين كان هذا أقرب إلى الله، فيقول ﷺ : **«ما تحابّ رجلان في الله إلا كان أحبهم إلى الله عزوجل أشدهم حباً لصاحبه»** [١].

١٥- أحد الصحابة كلما صلّى إماماً قرأبعد الفاتحـة بقل هو الله أحد ثم يقرأ سورة أخرى دائماً أو يقرأها فقط، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: **«سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، الأحد الصمدالذي يصمد لحوائج الخلائق، الصمد الذي ليس بأجوف، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفواً أحد. فقال النبي** ﷺ : **أخبروه أن الله يحبه»**.

١٦- مـا أخبـر رسـول الله ﷺ : **«أحـب النـاس إلـى الله أنفعهـم للنـاس، وأحـب الأعمال إلى الله عزوجل سرور يدخله على مسلم أو يكشف عن كربة أو يقضي عنه ديناً أو يطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخٍ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً»** [٢].

١٧- سُئل النبـي ﷺ مـن أحـب عبـاد الله إلـى الله؟ قـال: **«أحسنهم خلقاً»** [٣]، والله يحب سمح البيع وسمح الشراء وسمح القضاء والاقتضاء.

وبالجملة فالله يحب الصالحات، ويبغض كل منكر ومعصية[٤].

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذى.

(٣) رواه الطبراني وصححه الألباني في السلسلة.

(٤) محمد المنجد/سلسلة أعمال القلوب / بتصرف.

والمحبة قطعاً محلها القلب؛ ولذلك يقول الله تعالى:**{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله}**[١] ويقول:**{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}**[٢] ويقول:**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}**[٣]، فهذه مزاعم ودعاوى باطلة، ولكن المؤمنين هم الذين يحبون الله ورسوله ﷺ، ويحبون المؤمنين والصالحين وكل ما من شأنه أن يقربهم إلى الله عز وجل، وإلى محبته ورضاه.

المحبة في الله:

إن التحابب في الله تعالى والأخوة في دينه من أعظم القربات، ولها شروط يلتحق بها المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى، وبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلفى، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى، قال تعالى:**{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}** [٤].

قال ابن مسعود رضي الله عنه : هم المتحابون في الله.

وفي رواية : «**نزلت في المتحابين في الله**» [٥].

قال بعضهم :

وأحبب لحبّ الله من كان مؤمنا ::: وأبغض لبغض الله أهل التّمرّد
وما الدين إلا الحبّ والبغض والولا ::: كذاك البرا من كل غاوومعتدى
أنت القتيل بكل من أحببته ::: فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

ثمرات وفضائل المحبة في الله:

للمحبة في الله ثمرات طيبة يجنيها المتحابون من ربهم في الدنيا والآخرة منها:

---

(١) البقرة: ١٦٥.
(٢) آل عمران: ٣١.
(٣) المائدة: ١٨.
(٤) الأنفال: ٦٣.
(٥) رواه النسائي والحاكم وقال صحيح.

١) محبة الله تعالى:

عن معاذ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : **«وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»** [١]
وقول الملك للرجل الذي زار أخا له في الله :"إني رسول الله إليك بأنّ الله قد أحبّك كما أحببته فيه".

٢) أحبهما إلى الله أشدّهما حبا لصاحبه:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه يرفعه قال :" ما من رجلين تحابا في الله إلا كان أحبّهما إلى الله أشدّهما حبا لصاحبه "[٢]

٣) الكرامة من الله:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من عبد أحبّ عبدا لله إلا أكرمه الله عز وجل "[٣]

وإكرام الله للمرء يشمل إكرامه له بالإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وسائر صنوف النِّعم.

٤) الاستظلال في ظلّ عرش الرحمن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي»** (٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في " مجموع الفتاوى " :" فقوله : أين المتحابون بجلال الله ؟ تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم

---

(١) رواه مالك.
(٢) رواه الطبراني.
(٣) أخرجه أحمد بسند جيّد.
(٤) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة أيضا رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«سبعة يظلهم الله تعالى يوم لا ظلّ إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه»** [(١)].

٥) وجد طعم الإيمان:

قال عليه الصلاة والسلام : **«من أحبّ أن يجد طعم الإيمان فليحبّ المرء لا يحبه إلا لله»** [(٢)].

٦) وجد حلاوة الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان، فليحبّ المرء لا يحبه إلا لله»** [(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»** [(٤)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "مجموع الفتاوى": " أخبر النبي ﷺ أنّ هذه الثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان، لأنّ وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحبّ شيئا أواشتهاه، إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هوالمحبوب أو المشتهى... فحلاوة الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها.

"فتكميلها" أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقرّه الذهبي.
(٣) رواه أحمد والحاكم وصححه الذهبي.
(٤) متفق عليه.

يكتفى فيها بأصل الحبّ، بل لا بدّ أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما،

و" تفريعها" أن يحب المرء لا يحبه إلا لله،

و"دفع ضدها " أن يكره ضدّ الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار ".

٧) استكمال الإيمان:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«من أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»** [١].

٨) دخول الجنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»** [٢].

٩) قربهم من الله تعالى ومجلسهم منه يوم القيامة:

عن أبي مالك الأشعري قال : " كنت عند النبي ﷺ فنزلت عليه هذه الآية:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}**[٣].

قال : فنحن نسأله إذ قال : **«إنّ لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة»**، قال : وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه، ثم قال : حدثنا يا رسول الله عنهم من هم ؟ قال : فرأيت في وجه النبي ﷺ البِشر، فقال النبي ﷺ : **«هم عباد من عباد الله من بلدان شتى، وقبائل شتى من شعوب القبائل لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الناس، ولا**

---

(١) رواه أبوداود بسند حسن.

(٢) رواه مسلم.

(٣) المائدة: ١٠١.

يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون» [1].

١٠) وجوههم نورا يوم القيامة:

من الحديث السابق في قوله : **«يجعل الله وجوههم نورا»**.

١١) لهم منابر من لؤلؤ:

نفس الحديث السابق في قوله : **«يجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الناس»**.

١٢) لهم منابر من نور:

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«إنّ لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الشهداء والنبيون يوم القيامة لقربهم من الله تعالى، ومجلسهم منه»**، فجثا أعرابي على ركبتيه فقال : يا رسول الله صفهم لنا وجلِّهم لنا ؟قال: **«قوم من أقناء الناس من نزّاع القبائل، تصادقوا في الله وتحابّوا فيه، يضع الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة منابر من نور، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله عزّ وجلّ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»** [2].

١٣) يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة:

من الحديثين السابقين: حديث الأشعري وابن عمر رضي الله عنهم في قوله ﷺ : **«يغبطهم الشهداء والنبيون يوم القيامة لقربهم من الله تعالى، ومجلسهم منه»**.

١٤) تسميتهم بأولياء الله:

من حديث ابن عمر السابق في قوله ﷺ : **«هم أولياء الله عز وجل»**.

١٥) انتفاء الخوف والحزن عنهم يوم القيامة:

من الحديثين السابقين: حديث الأشعري وابن عمر رضي الله عنهم:**{لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** وقوله: **«ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون»**.

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه الذهبي.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه الذهبي.

١٦) أنّ المرء بمحبته لأهل الخير لصلاحهم واستقامتهم يلتحق بهم ويصل إلى مراتبهم، وإن لم يكن عمله بالغ مبلغهم:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبّ قوما ولم يلحق بهم؟ قال: **«المرء مع من أحبّ»** [١].

وفي الصحيحين أيضا عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلا سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ قال: **«ما أعددت لها؟»** قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحبّ الله ورسوله، قال: **«أنت مع من أحببت»**، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ : **«أنت مع من أحببت»** فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجوأن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

وعن علي رضي الله عنه مرفوعا: **«لا يحب رجل قوما إلا حشر معهم»** [٢].

من يختار للمحبة والصحبة :

قال القرافي :" ما كل أحد يستحق أن يعاشر ولا يصاحب ولا يسارر ".

وقال علقمة : اصحب من إن صحبته زانك، وإن أصابتك خصاصة عانك وإن قلت سدّد مقالك، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن بدت منك ثلمة سدّها، وإن سألته أعطاك، وإذا نزلت بك مهمة واساك، وأدناهم من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق.

ويقول الشيخ أحمد بن عطاء : مجالسة الأضداد ذوبان الروح، ومجالسة الأشكال تلقيح العقول، وليس كل من يصلح للمجالسة يصلح للمؤانسة، ولا كل من يصلح للمؤانسة يؤمن على الأسرار، ولا يؤمن على الأسرار إلا الأمناء فقط.

---

(١) رواه مسلم والبخارى.

(٢) الطبراني في الصغير.

ويكفي في مشروعية التحري لاختيار الأصدقاء قوله ﷺ : **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»** [1].

قال الأوزاعي : الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إذا لم تكن مثله شانته.

قيل لابن سماك : أيّ الإخوان أحقّ بإبقاء المودة ؟ قال:الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملّك على القرب، ولا ينساك على البعد، إن دنوت منه داناك، وإن بعدت منه راعاك، وإن استعضدته عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكفي مودة فعله أكثر من مودة قوله، وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلّم منه شيئا في أمر دينك فينفعك، أورجل تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه.

قال علي رضي الله عنه :

إنّ أخاك الصِّدق من كان معك ::: ومن يضُرُّ نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزّمان صدعك ::: شتّت نفسه ليجمعك

وقال بعض الأدباء:لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرّك، ويستر عيبك، فيكون معك في النوائب، ويُؤثرك بالرّغائب، وينشر حسنتك، ويطوي سيّئتك، فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقد ذكر العلماء فيمن تُؤثر صحبته ومحبته خمس خصال:

أن يكون عاقلا، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

١) العاقل:

الأصل فى صحبة العاقل ولا خير في صحبة الأحمق.

قال علي رضي الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل ::: وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى ::: حليما حين آخاه
يُقاس المرء بالمرء ::: إذا ما المرء ماشاه

---

(١) رواه أبوداود وغيره.

وللشـــــــيء علـــــى الشــــــيء ::: مقـــــــــــاييس وأشـــــــــــباه
وللقلـــــــب علـــــى القلـــــب ::: دليـــــــــل حـــــــين يلقـــــــاه

٢) حسن الخلق.

فلا بدّ منه إذ ربّ عاقل يدرك الأشياء على ماهي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أوشهوة أوبُخل أوجبن أطاع هواه، وخالف ما هوالمعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته، وتقويم أخلاقه، فلا خير في صحبته.

قال أبوحاتم ابن حبان رحمه الله : الواجب على العاقل أن يعلم أنه ليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل غم فقدهم، ثم يتوقى جهده مفاسدة من صافاه، ولا يسترسل إليه فيما يشينه، وخير الإخوان من إذا عظمته صانك، ولا يعيب أخاه على الزّلّة، فإنه شريكه في الطبيعة، بل يصفح، وينتكب محاسدة الإخوان، لأن الحسد للصديق من سقم المودة، كما أن الجود بالمودة أعظم البذل، لأنه لا يظهر ودّ صحيح من قلب سقيم.

٣) الفاسق.

فلا فائدة في صحبته، فمن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته، بل يتغيّر بتغيّر الأعراض.

قال تعالى :**{وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}**(١).

وقال تعالى :**{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا}**(٢)، وقال النبي ﷺ : **«لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي»** (٣).

قال أبوحاتم رحمه الله في "روضة العقلاء": "العاقل لا يصاحب الأشرار، لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار، تعقب الضغائن، لا يستقيم ودّه، ولا يفي بعهده،

---

(١) الكهف: ٢٨.
(٢) النجم: ٢٩.
(٣) رواه الترمذي وأبوداود.

وإن من سعادة المرء خصالا أربعا: أن تكون زوجته موافقة، وولده أبرار، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده.وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيرا، تكون مجالسة الكلب خيرا من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، كما أن من يدخل مداخل السوء يتهّم ".

وصدق القائل:

فإذا ظفرت بذي الأمانة والتُّقى ::: فبه اليدين قرير عين فاشدد

٤) المبتدع:

ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تؤثر صحبته.

٥) الحريص على الدنيا:

فصحبته سمّ قاتل، لأنّ الطّباع مجبولة على التشبّه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرّك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهدّ في الدّنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة.

الناس شتىّ إذا ما أنت ذقتهم ::: لا يستوون كما لا يستوي الشّجر
هذا له ثمر حلومذاقته ::: وذاك ليس له طعم ولا ثمر

علامات الحب في الله :

١) لا يزيد بالبرّ ولا ينقص بالجفاء:

من علامات الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء، قال يحيى ابن معاذ الرازي :

حقيقة المحبة أنها لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء.

٢) الموافقة:

ومن علامات الحب في الله الموافقة الدائمة على الطاعة والتزود من الخير والتزام الجماعة المؤمنة.

٣) لا يحسد أخاه:

ومن علاماته أن لا يحسد المحبّ أخاه ولكن هو التنافس فى فعل الخيرات.

وقد وصف الله تعالى المتحابين في قوله :**{وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}**(١).

٤) أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه:

ومن علاماته أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، قال رسول الله ﷺ : **«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»** (٢).

٥) أن يكون معيار المحبة الطاعة:

ومن علاماته أن يزداد إذا رأى أخاه في طاعة الله، وينقص إذا رأى منه معصية الله عزّ وجل.

حقوق الأخوة ومستلزمات الصحبة والمحبة :

لكل مسلم على أخيه المسلم حقوقا، وهذه الحقوق أوجبها عقد الإسلام، وصارت لكل مسلم بهذا العقد حرمة، لا يحل لأحد أن ينتهكها، وقد أتت جملة من هذه الحقوق، وبيان لهذه الحرمة من كلام النبي ﷺ، فمن ذلك قوله ﷺ : **«حقّ المسلم على المسلم ستّ: إذا لقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»** (٣).

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) متفق عليه.

وفي بيان حرمة المسلم، وما لا يجوز للمسلم أن يقع فيه مع سائر المسلمين قولـه ﷺ : **«إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا... ويشير إلى صدره، بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله»** (١).

إنّ عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، ويترتب على هذا العقد حقوق المال والبدن واللسان والقلب، وبمراعاة هذه الحقوق تدوم المودة وتزداد الألفة، ويدخل المتعاقدين في زمرة المتحابين في الله، وينالان من الأجر والثواب ما أسلفناه.

١) حقوق الأخوة في المال:

فمن حقوق المال الواجبة إنظاره إلى ميسرة إن كان غريما، قال تعالى :**{وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ}**(٢)، وقال ﷺ : **«من يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»** (٣).

- ومن حقوق الأخوة المواساة بالمال : وهي كما قال العلماء على ثلاث مراتب :

١) أدناها: أن تقوم بحاجته من فضل مالك، فإذا سنحت له حاجة، وكان عندك فضل، أعطيته ابتداءً ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال، فهوغاية التقصير في حقّ الأخوة.

٢) الثانية: أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك.

قال الحسن : كان أحدهم يشقّ إزاره بينه وبين أخيه، وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال : إني أريد أن أواخيك في الله، فقال : أتدري ما حق الإخاء ؟ قال :

---

(١) رواه الشيخان.
(٢) البقرة: ٢٨٠.
(٣) رواه مسلم وغيره.

عرّفني، قال أن لا تكون أحقّ بدينارك ودرهمك مني، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال اذهب عني

وقال علي بن الحسين لرجل : هل يُدخل أحدكم يده في كمّ أخيه أوكيسه، فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال : لا، قال : فلستم بإخوان.

٣) **الثالثة**: وهي العليا، أن تؤثره على نفسك، وتقدّم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصديقين، ومنتهى درجات المحبين.

قال ابن عمر رضي الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال : أخي فلان أحوج مني إليه، فبعث به إليه، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول، بعد أن تداوله سبعة.

فكانت هذه المرتبة العليا من الإيثار، هي مرتبة الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

عن حميد قال : سمعت أنسا رضي الله عنه قال : لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال : أقاسمك مالي، وأنزل لك عن إحدى امرأتي، قال : بارك الله لك في أهلك ومالك، فآثره بما آثره به، وكأنه قبله ثم آثره به وقد مدحهم الله عزّ وجلّ بقوله :**{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}**(١).

قال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالعراق، فكنت أجيئه في النوائب، فأقول : أعطني من مالك شيئا، فكان يلقي إليّ كيسه فآخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي وقال آخر:إذا طلبت من أخيك مالا فقال: ماذا تصنع به؟ فقد ترك حقّ الإخاء.

فهذه مراتب المواساة بالمال، فإن لم توافق نفسك رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أنّ عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا

---

(١) الحشر: ٩.

وقع لها في العقل والدين.

٢) حقوق الأخوة في البدن:

ويقصد بها الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصة، وهذه أيضا لها درجات كالمواساة بالمال.

١) أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة :

قال النبي ﷺ : **«من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسّر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**[(١)].

أرسل الحسن البصري جماعة من أصحابه في قضاء حاجة لأخ لهم، وقال : مروا بثابت البناني فخذوه معكم، فمروا بثابت فقال : أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه فقال لهم : قولوا له يا أعمش أما علمت أن سعيك في حاجة أخيك خير لك من حجّة بعد حجة، فرجعوا إلى ثابت فأخبروه، فترك اعتكافه وخرج معهم.

٢) الدرجة الثانية: أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك :

كان بعض السلف يتفقّد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجتهم، ويتردّد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه.

٣) أن تقدّم حاجة أخيك على حاجتك، وتبادر إلى قضائها ولوتأخرت حاجتك:

قضى ابن شبرمة لبعض إخوانه حاجة كبيرة، فجاء بهدية، قال : ماهذا؟ قال : لما أسديته إليّ، قال : خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها، فتوضأ للصلاة وكبّر عليه أربع تكبيرات، وعدّه من الموتى.

---

(١) رواه البخارى.

وكان الحسن يقول: إخواننا أحبّ إلينا من أهلينا وأولادنا لأن أهلينا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة. ويدخل في حق المسلم على أخيه المسلم زيارته له في الله عزّ وجلّ، قال رسول الله ﷺ : **«ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الجنة»** [١].

ومن الصور المشرقة للزيارة في الله عزّ وجلّ، وما ينبغي أن تشتمل عليه من الأخلاق والآداب، ما كان بين أبي عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن حنبل رحمهما الله، قال أبوعبيد : "زرت أحمد بن حنبل في بيته فأجلسني في صدر داره، وجلس دوني، فقلت : يا أبا عبد الله، أليس يقال : صاحب البيت أحقّ بصدر بيته؟ فقال : نعم، يقعد ويُقعِد من يريد، قال : فقلت في نفسي : خذ إليك يا أبا عبيد فائدة، قال : ثم قلت له : يا أبا عبد الله، لوكنت آتيك على نحوما تستحقّ لأتيتك كلّ يوم، فقال : لا تقل، إن لي إخوانا لا ألقاهم إلا في كلّ سنة مرة، أنا أوثق بمودّتهم ممن ألقى كل يوم، قال : قلت : هذه أخرى يا أبا عبيد، فلما أردت أن أقوم قام معي فقلت : لا تفعل يا أبا عبد الله، فقال: قال الشعبي : من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه قال : فقلت يا أبا عبيد هذه ثالثة، قال : فمشى معي إلى باب الدار وأخذ بركابي.

ومن هذه الصور المشرقة لزيارة السلف بعضهم لبعض وفرحهم بهذه اللقاءات الداعية لمزيد من الإيمان والحبّ في الله عزّ وجلّ ما رواه الخطيب البغدادي في "تاريخه" عن النقاش أنه قال: " بلغني أنّ بعض أصحاب محمد بن غالب أبي جعفر المقرئ جاءه في يوم وحلٍ وطين، فقال له : متى أشكر هاتين الرجلين اللتين تعبتا إليّ، في مثل هذا اليوم لتكسباني في الثواب؟ثم قام بنفسه فاستسقى له الماء، وغسل رجليه ".

---

(١) مسند أحمد.

٣) حقوق الأخوة في اللسان:

وهي بالسكوت تارة وبالنطق أخرى.

١) السكوت على المكاره:

١ – لا يذكر عيوبه:

فمن حق الأخ على أخيه، أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه أما ذكر عيوبه ومساويه في غيبته فهومن الغيبة المحرمة، وذلك حرام في حق كل مسلم، ويزجرك عنه أمران بالإضافة إلى زجر الشرع : أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك، فإن وجدت فيها شيئا واحدا مذموما، فهوِّن على نفسك ما تراه من أخيك، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة، كما أنت عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة، كما أنت عاجز عما أنت مبتلى به، والأمر الثاني : أنك تعلم أنك لوطلبت منزها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولم تجد من تصاحبه أصلا.

كما قال النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلُمُّه ::: على شعث أيّ الرجال المهذّب

فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية، والمؤمن أبدا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والودّ والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ المساوئ والعيوب.

قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات.

وقال الفضيل : الفتوة العفوعن زلات الإخوان.

٢ – أن لا يفشي أسراره:

ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء أسراره ولا إلى أخصّ أصدقائه، ولوبعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث النفس.

قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر؟ قال : أنا قبره.

وأفشى بعضهم سرا إلى أخيه ثم قال له حفظت، قال : بل نسيت.

وقالوا : قلوب الأحرار قبور الأسرار.

كان أبوسعيد الثوري يقول : إذا أردت أن تؤاخي رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك فإن قال خيرا وكتم سرا فاصحبه.

٣ – أن لا يجادله ولا يماريه:

ومن ذلك أن يسكت عن مماراته وجداله :

قال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم، قلّت مروءته، وذهبت كرامته.

وقال عبد الله بن الحسن: إياك ومماراة الرجال، إنك لن تعدم مكر حليم، أومفاجأة لئيم، وبالجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التميّز بمزيد العقل والفضل، واحتقار المردود عليه بإظهار جهله وبالغ بعضهم في ترك المراء والجدال فقال : إذا قلت لأخيك قم، فقال : إلى أين؟ فلا تصحبه، بل ينبغي أن يقوم ولا يسأل، والمراء يفتن القلب وينبت الضغينة ويجفي القلب ويقسيه ويرقق الورع في المنطق والفعل.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال :" قال رسول الله ﷺ : **«من ترك المراء وهومبطل بنى له بيت في ربض الجنة، ومن تركه وهومحقّ بنى له في وسطها، ومن حسن خلقه بنى له في أعلاها»** (١).

قال خالد بن يزيد بن معاوية الأموي :"إذا كان الرجل مماريا لجوجا معجبا برأيه فقد تمت خسارته قال الحسن البصري :"إياكم والمراء، فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلّته".

٢) النطق بالمحاب:

وكما تقتضي الأخوة السكوت عن المكاره، تقتضي أيضا النطق بالمحاب، بل هوأخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، ومن ذلك:

---

(١) رواه أبوداود وغيره.

١ – التودد باللسان:

فمن ذلك أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في الأحوال التي يحب أن يتفقد فيها، وكذا جملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء.

٢ – إخباره بمحبته:

ومن ذلك أن يخبره بمحبته له : عن أنس بن مالك قال : مر رجل بالنبي ﷺ وعنده ناس، فقال رجل ممن عنده : إني لأحب هذا لله، فقال النبي ﷺ : **«أعلمته؟»** قال : لا، قال: **«قم إليه فأعلمه»** فقام إليه فأعلمه، فقال : أحبّك الذي أحببتني له ثم قال، ثم رجع فسأله النبي ﷺ فأخبره بما قال فقال النبي ﷺ : **«أنت مع من أحببت، ولك ما احتسبت»**(١).

وعن المقدام بن معدى كرب عن النبي ﷺ قال : **«إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»** (٢).

وإنما أمر النبي ﷺ بالإخبار، لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف، والتحابب بين المسلمين مطلوب في الشرع محبوب في الدين، قال النبي ﷺ : **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»** (٣).

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه الذهبي.

(٢) رواه أحمد وغيره.

(٣) رواه مسلم، وقال النووي: قوله: ((**لا تؤمنوا حتى تحابوا**)) معناه لا يكمل إيمانكم، ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب ".

٣ – دعوته بأحبّ الأسماء إليه:

ومن ذلك أن يدعوه بأحبّ أسمائه إليه في غيبته وحضوره، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ثلاث يصفين لك ودّ أخيك : أن تسلّم عليه إذا لقيته أولا، وتوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه.

٤ – الثناء عليه:

ومن ذلك : أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه، مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد، وذلك من غير كذب ولا إفراط، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة.

٥ – الذّبّ عنه في غيبته:

وأعظم من ذلك تأثيرا في جلب المحبة، الذبّ عنه في غيبته مهما قصد بسوء أوتعرّض لعرضه بكلام صريح، أوتعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب، وتقصير في حق الأخوة.

قال رسول الله ﷺ : **«المسلم أخوالمسلم، لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله»** [١].

٦ – التعليم والنصيحة:

ومن ذلك التعليم والنصيحة : قال رسول الله ﷺ : **«الدين النصيحة»** قالوا لمن يا رسول الله، قال : **«لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»** [٢]، وبخاصة إذا استنصح الأخ أخاه وجب عليه أن يخلص له النصيحة، كما سلف في الحقوق العامة للمسلمين، وينبغي أن تكون النصيحة في سرّ لا يطلع عليه أحد فما كان على الملإ فهوتوبيخ وفضيحة، وما كان في السر، فهو شفقة ونصيحة.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

قال الشافعي رحمه الله : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه وقال رحمه الله :

تعمّدني بنصحك في انفرادي ::: وجنّبني النصيحة في الجماعة
فإنّ النصح بين الناس نوع ::: من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي ::: فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

وتتأكد النصيحة كذلك إذا تغيّر أخوك عما كان عليه من العمل الصالح.

قال أبو الدرداء: إذا تغيّر أخوك، وحال عما كان عليه، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم مرة، وحكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده، وأتلطف له في المعاتبة، وأدعوله بالعود إلى ما كان عليه.

والأخوة عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقد تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به أن لا يهمل أخاه أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشدّ من فقر المال، والأخوة عند النائبات وحوادث الزمان، وهذا من أشدّ النوائب.

والقريب ينبغي أن لا يهجر من أجل معصيته، حتى يقام له بواجب النصيحة، وذلك لأجل قرابته، قال الله تعالى لنبيه ﷺ في عشيرته: **«فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون»**[١].

ولم يقل: إني برئ منكم، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب، ولهذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي.

وكذا التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان، كما أن مقارفة العصيان من محابه، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه، فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني.

---

(١) الشعراء: ٢١٦.

٧ – الدعاء له في حياته وبعد مماته:

ومن ذلك الدعاء لأخيه في حياته وبعد مماته:

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل**» [(١)].

قال النووي رحمه الله: في هذا فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولودعا لجماعة من المسلمين حصلت هذه الفضيلة، ولودعا لجملة من المسلمين فالظاهر حصولها أيضا، وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعولنفسه يدعولأخيه المسلم بتلك الدعوة، لأنها تستجاب ويحصل له مثلها، جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في ترجمة الطيب إسماعيل أبي حمدون - أحد القراء المشهورين - قال: كان لأبي حمدون صحيفة مكتوب فيها ثلاثمائة من أصدقائه وكان يدعولهم كل ليلة، فتركهم ليلة فنام، فقيل له في نومه يا أبا حمدون: لِمَ لَمْ تسرج مصابيحك الليلة، قال: فقعد فأسرج، وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتى فرغ.

٤) حقوق الأخوة في القلب:

من حق المسلم على أخيه في الله عز وجل الوفاء والإخلاص في محبته وصحبته، وعلامة ذلك أن تدوم المحبة، وأن يجزع من الفراق، ومن حقه أن تحسن به الظن، وأن تحمل كلامه وتصرفاته على أطيب ما يكون، ومن ذلك أن لا يكلف أخاه التواضع له، والتفقد لأحواله، والقيام بحقوقه.

١) الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإنّ الحبّ في الله إنما يراد به ما عند الله عزّ وجلّ، فلا ينتهي بموت أخيه.

قال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة، خير من كثيره في حال الحياة..

---

(١) رواه مسلم.

وقد جاء أنّ رسول الله ﷺ أكرم عجوزا أدخلت عليه فقيل لـه في ذلك، فقال: **«إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنّ حسن العهد من الإيمان»** [1].

- ومن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به.

- ومن الوفاء: أن لا يتغيّر حاله مع أخيه، وإن ارتفع شأنه واتّسعت ولايته وعظم جاهه.

قال بعضهم:

إنّ الكـــرام إذا مـــا أيســـروا ذكـــروا ::: مـن كـان يـألفهم فـي المنـزل الخشـن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال له : يا بنيّ لا تصحب من الناس، إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك، وإذا استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة، شمت به الشيطان، فإنه لا يحسد متعاونين على بر، كما يحسد متواخيين في الله ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال تعالى :**{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ}**[2].

قال بعضهم : ما تواخى اثنان في الله فتفرّق بينهما، إلا بذنب يرتكبه أحدهما.

وكان بشر يقول : إذا قصر العبد في طاعة الله، سلبه الله من يؤنسه، وذلك لأنّ الإخوان مسلاة الهموم وعون على الدين.

ولذلك قال ابن المبارك : ألذّ الأشياء مجالسة الإخوان، والانقلاب إلى كفاية.

ومن آثارالصدق والإخلاص وتمام الوفاء، أن تكون شديد الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها، كما قيل :

وجـــدت مصـــيبات الزمـــان جميعهـــا ::: سـوى فرقـةِ الأحبـابِ هيّنـةَ الخَطْـب

وأنشد ابن عُيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما يخيّل إليّ أن حسرتهم ذهبت من قلبي.

---

(١) صححه الحاكم والذهبي وحسنه الألباني في الضعيفة.

(٢) الإسراء: ٥٣.

- ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات عن صديقه.

- ومن الوفاء أن لا يصادق عدوصديقه : قال الشافعي رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك، فقد اشتركا في عداوتك.

٢) حسن الظنّ:

ومن حقوق الأخوة حسن الظنّ بأخيه :

قال الله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}**(١).

وقال النبي ﷺ : **«إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب»** الحديث(٢)، وإذا كان هذا مطلوب في المسلمين عامة، فيتأكّد ذلك بين المتآخين في الله عزّ وجلّ ومن مناقب الإمام الشافعي ما قاله أحد تلامذته عنه الربيع بن سليمان قال : " دخلت على الشافعي وهومريض فقلت له: قوى الله ضعفك، فقال : لوقوى ضعفي قتلني، فقلت : والله ما أردت إلا الخير، قال: أعلم أنك لوشتمتني لم ترد إلا الخير ".

فينبغي أن يحمل كلام الإخوان على أحسن معانيه، وأن لا يظن بالإخوان إلا خيرا، فإن سوء الظن غيبة القلب.

٣) التواضع:

ومن حقوق الأخوة القلبية أن يتواضع لإخوانه، ويسيء الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه يكون هو خيرا منهم.

قال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير مني، قيل وكيف ذلك؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني.

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه، وهذا في عموم المسلمين مذموم، قال ﷺ

---

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) رواه الشيخان.

: «بحسب امرئ من الشّرّ أن يحقر أخاه المسلم» [1].

لطائف ونوادر في المحبة والإخاء:

ليس من الوفاء:

مـــــرض الحبيـــــب فعدتـــــه ::: فمرضـــت مـــن حـــذري عليـــه
وأتـــــى الحبيـــب يعـــودني ::: فبرئـــت مـــن نظـــري إليـــه

وظنّ الناس لصدق مودّتهما أنه يفوّض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات منها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله، فاستشرف له محمد بن الحكم وهوعند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي:سبحان الله أيشكّ في هذا؟ أبويعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي مع أنّ محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي لله وللمسلمين، وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى، والمقصود أنّ الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله، فالنصح لله مقدّم على الوفاء بمحبة الإخوان.

رحَل الإخوان:

قال ابن الجوزي رحمه الله :

هيهات رحل الإخوان وأقام الخُوّان، وقل من ترى في الزمان من إذا دعي مان، كان الرجل إذا أراد شين أخيه طلب حاجته إلى غيره، ثم قال : نسخ في هذا الزمان رسم الأخوة وحكمه، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء، فإذا سمعت بإخوان صدق فلا تصدق.

وقال بعضهم :

ســــمعنا بالصـــديق ولا نـــراه ::: علـــى التحقيـــق يوجـــد فـــي الأنـــام
وأحســـبه مُحـــالا جـــوّزوه ::: علـــى وجـــه المجـــاز مـــن الكـــلام

---

(١) رواه الشيخان.

صحبة الأحمق :

قال أبو حاتم رحمه الله: من علامات الحمق التي يجب للعاقل تفقدّها ممن خفى عليه أمره:

سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة في الأخيار والاختلاط بالأشرار، والأحمق إذا أعرضت عنه اغتمّ، وإن أقبلت عليه اغترّ، وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عنك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته، وما أشبه عشرة الحمقى بما أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي :

لـــي صـــديق يـــرى حقـــوقي عليـــه ::: نـــافلات وحقّـــه كـــان فرضـــا
لوقطعـــت الجبـــال طـــولا إليـــه ::: ثـم مـن بعـد طولهـا سـرت عَرضـا
لـــرأى مـــا صـــنعت غيـــر كبيـــر ::: واشـــتهى أن أزيـــد فـــي الأرض أرضـــا

ما ضاق مكان بمتحابين:

عن الأثرم قال : دخل اليزيدي يوما على الخليل بن أحمد، وهوجالس على وسادة، فأوسع له فجلس معه اليزيدي على وسادته، فقال له اليزيدي : أحسبني قد ضيّقت عليك، فقال الخليل : ما ضاق مكان على اثنين متحابين، والدنيا لا تسع اثنين متباغضين.

صداقة غير صادقة:

حكى ابن حبان البستي عن محمد بن الحسين قال: "كان أعرابي بالكوفة، وكان له صديق يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابي من عدده للشدائد، إذ حزب الأعرابي أمر، فأتاه فوجده بعيدا مما كان يظهر للأعرابي فأنشأ يقول :

إذا كـــان وُدُّ المـــرء لـــيس بزائـــد ::: علـــى مرحبـــا أوكيـــف أنـــت وحالكـــا
ولـــم يـــك إلا كاشـــرا أومحـــدّثا ::: فـــأف لـــودّ لـــيس إلا كـــذلكا
لســـانك معســـول ونفســـك بشّـــة ::: وعنـــد الثَـــريّ مـــن صـــديقك مالُكـــا
وأنـــت إذا همّـــت يمينُـــك مـــرة ::: لتفعـــل خيـــرا قاتلتهـــا شـــمالكا

صاحب أهل الدين واصبر نفسك معهم:

قال ابن الجوزي رحمه الله:

صاحب أهل الدين وصافهم	:::	**واستفد من أخلاقهم وأوصافهم**
واسكن معهم بالتأدب في دارهم	:::	**وإن عاتبوك فاصبر ودارهم**
أنت في وقت الغنائم نائم	:::	**وقلبك في شهوات البهائم هائم**
إن صدقت في طِلابهم فانهض وبادر	:::	**ولا تستصعب طريقهم فالمعين قادر**
تعرض لمن أعطاهم وسل فمولاك مولاهم	:::	**ربّ كنز وقع به فقير، وربّ فضل فاز به صغير**
علم الخضر ما خفى على موسى	:::	**وكشف لسليمان ما خفى عن داود**

من هم الأحبة؟

قال الشافعي رحمه الله:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا	:::	**فدعه ولا تُكثر عليه التأسفا**
ففي النفس أبدال وفي الترك راحة	:::	**وفي القلب صبر للحبيب ولوجفا**
فما كل من تهواه يهواك قلبه	:::	**ولا كل من صافيته لك قد صفا**
إذا لم يكن صفوالوداد طبيعة	:::	**فلا خير في ودّ يجيء تكلفا**
ولا خير في خلّ يخون خليله	:::	**ويلقاه من بعد المودّة بالجفا**
وينكر عيشا قد تقادم عهده	:::	**ويظهر سرا كان بالأمس قد خفا**
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها	:::	**صديق صادق الوعد مُنصفا**

صور مشرقة للمحبة الصادقة:

١- النبي ﷺ والصدّيق أبو بكر رضي الله عنه:

٢- محبة صادقة في الله عز وجل، ولله عز وجل، ومن المواقف التي تدل على صدق المودة والمحبة، واختصاص المحب لما يدور في قلب أخيه الذي أحبه في الله عز وجل :

٣- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : " خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: **«إنّ الله خيّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله»**، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هوالمخيّر،

وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ : **«إنّ أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متّخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودّته، لا يبقيّن في المسجد باب إلا سُدّ، إلا باب أبي بكر»** [١].

٤- قال ابن رجب في "لطائف المعارف ":

٥- لما عرّض الرسول ﷺ على المنبر باختياره البقاء على البقاء ولم يصرّح، خفى المعنى على كثير ممن سمع، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به، ثاني اثنين إذ هما في الغار، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فسكّن الرسول ﷺ من جزعه، وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر، ليعلم الناس كلهم فضله، ولا يقع عليه اختلاف في خلافته، فقال : **«إنّ من أمَنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبوبكر»** [٢].

٢ – المهاجرون والأنصار:

ما حدث بين المهاجرين والأنصار أخوة صادقة، ومدح الله عزّ وجلّ الأنصار بقوله :" والذين تبوّؤا الدّار والإيمان من قبلهم يُحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ومن يوق شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون "[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال : لا، فقالوا : أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا"[٤].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:**{يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}**: أي من أكرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، وقوله: " ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا" قال ابن كثير رحمه الله: أي ولا يجدون في أنفسهم حسدا للمهاجرين

---

(١) رواه الشيخان.
(٢) رواه البخارى.
(٣) الحشر: ٩.
(٤) البخاري.

فيما فضلهم الله به، من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة، وقوله:**{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}**[1].

قال القرطبي: الإيثار هوتقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة، أي يؤثرون على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم لا عن غنى بل مع احتياجهم إليها.

وقال رحمه الله: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال.

ومن الأمثال السائرة: والجود بالنفس أقصى غاية الجود، هذا الحب لا لصنيعة سبقت من المهاجرين إليهم، وإنما الإيمان بالله الذي وحد بين قلوبهم، وهوالحب في الله الذي جمع بينهم، ففتحوا قلوبهم لإخوانهم في الدين، قبل أن يفتحوا لهم منازلهم.

٣) ومن هذه الصور المشرقة للمحبة الصادقة:

ما رواه القرطبي في "تفسيره" عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه، آه، فأشار إليّ ابن عمي أن أنطلق إليه، فإذا هوهشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فسمع أخر يقول آه، آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا هوقد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هوقد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هوقد مات.

آفات الصحبة:

بعد ذكر فضل المحبة في الله عز وجل والأخوة فيه، ومن تمام النصيحة التحذير من آفات الصحبة، ومنها:

(١) الحشر: ٩.

١) كثرة الزيارات:

فمن آفات الصحبة كثرة الزيارات والمجالس التي هي مجالس مؤانسة وقضاء وطر، أكثر منها مجالس ذكر وتذكير وتعاون على البر والتقوى، فيكون في هذه المجالس ضياع الأوقات وذهاب المروءات وقد يجرّ فضول الكلام إلى ما يغضب الملك العلام.

قال النبي ﷺ : **«ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا على مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة»** (١).

قال ابن القيم رحمه الله في " الفوائد":

الاجتماع بالإخوان قسمان:

١) أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيّع الوقت.

٢) الثاني : الاجتماع بهم على أسباب النجاة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات :

١ - إحداها : تزيّن بعضهم لبعض.

٢ - الثانية : الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

٣ - أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح فمن طاب لقاحه طابت ثمرته وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات، وعكس ذلك.

---

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي والألباني في الصحيحة.

٢) الإفراط في الحب والبغض:

ومن آفاتها الإفراط في الحب والبغض :

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أسلم لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا، قلت: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما.

وقال أبوالأسود الدؤلي:

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا ::: فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباين ::: فإنك لا تدري متى أنت راجع

والمقصود الاقتصاد في الحب والبغض، فإنّ الإسراف في الحب داع إلى التقصير، وكذلك البغض، فعسى أن يصير الحبيب بغيضا، والبغيض حبيبا، فلا تكن مسرفا في الحب فتندم، ولا في البغض فتأسف، لأن القلب يتقلب فيندم أو يستحي.

قال بعض الحكماء: ولا تكن في الإخاء مكثرا، ثم تكون فيه مدبرا، فيعرف سرفك في الإكثار، بجفائك في الإدبار، ويخشى مع ذلك مع فرط المحبة أن يوافقه على باطل، أويقصر معه في واجب النصيحة لله عزّ وجل، وقد تنقلب هذه المحبة إلى بغض مفرط، ويخشى عند ذلك إفشاء الأسرار، وترك العدل والإنصاف.

وعن الحسن قال : أحبوا هونا وأبغضوا هونا، فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا.

٣) مخالطة المحبة شيء من هوى النفس:

ما كان لله دام واتّصل ::: وما كان لغير الله انقطع وانفصل

ومن آفاتها أن يخالط هذه المحبة التي هي لله عز وجل وفي الله عز وجل شيء من هوى النفس، فبدلا من أن يحب في أخيه طاعته لله عز وجل والتزامه بالشرع، يحبه

لملاحة صورة أولمنفعة كإصلاح دنيا، وبدلا من أن يرجوبهذه المحبة ما عند الله عز وجل، ويتقرّب بها إليه، يرجوبها استئناسا بشخصه، أوتحقيقا لغرضه، وهذه المحبة سرعان ما تزول بزوال سببها، أو بشيء من الجفاء، فإنه ما كان لله بقى، كما يقال :

قال الله عز وجل :**{الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ}**[1].

وقال حاكيا عن خليله أنه قال لقومه :**{إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ}**[2].

فنسأل الله أن يجعل محبتنا لمن نحبه خالصة لوجهه الكريم، ومقربة إليه وإلى داره دار السلام والنعيم المقيم، وأن تكون عونا لنا على طاعته، ودفعا لنا عن معصيته.

٤) الاستكثار من الإخوان:

ومن آفاتها الاستكثار من الإخوان، حتى يعجز عن القيام بحقوقهم ومواساتهم عند حاجتهم واضطرارهم.

قال في تنبيه المغترين : من أخلاق السلف رضي الله عنهم : أنهم لا يتخذون من الإخوان إلا من علموا من نفوسهم الوفاء بحقه، فإنّ أخاك إذا لم توف بحقه كان فارغ القلب منك.

وقال ابن حزم رحمه الله في "مداواة النفوس" : ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء، فإنّ ذلك فضيلة تامة مركبة، لأنهم لا يكتسبون إلا بالحلم والجود والصبر والوفاء والاستضلاع والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعلم العلم وكل حال محمودة، ولكن إذا حصلت عيوب الاستكثار منهم، وصعوبة الحال في إرضائهم، والغرر في مشاركتهم، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم، فإن غدرت بهم أوأسلمتهم لُوِّمت وذممت، وإن وفيت أضررت بنفسك، وربما هلكت

---

(١) الزّخرف: ١٧.

(٢) العنكبوت: ٢٥.

فيكون السرور بهم، لا يفي بالحزن الممضّ من أجلهم ".

وقال عمروبن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء.

وقال ابن الرومي:

عــــدوّك مــــن صـــــديقك مســــتفاد ::: فـــلا تســـتكثرنّ مـــن الصـــحاب
فـــإن الـــداء أكثـــر مـــا تـــراه ::: يكـــون مـــن الطعـــام أوالشـــراب

٥) كشف الستر:

ومن آفاتها : كشف الستر عن الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات، فإنّ الإنسان لا يخلوفي دينه ودنياه من عورات، والأولى سترها، كما مدح الله عزّ وجلّ المستترين فقال :**{يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ}**(١).

وقال الشاعر :

ولا عـــار إن زالـــت عـــن الحـــرّ نعمـــة ::: ولكـــــن عـــــارا أن يـــــزول التّجمّـــــل

وعن الحسن قال : أردت الحجّ فسمع ثابت البناني بذلك، وكان أيضا من أولياء الله فقال : بلغني أنك تريد الحجّ، فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن : ويحك، دعنا نتعاشر بستر الله علينا، إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه قال الشيخ /أحمد فريد : ويتأكد ذلك في حق من تصدى لوعظ الناس، فلا يكثر من صحبتهم ومخالطتهم في فضول المباحات، حتى ينتفعوا بوعظه، ويتمتع بستر الله عليه، مما يكره عليه الناس من ذنوبه وعيوبه.

٦) هذه الآفة خاصة بصحبة الأغنياء:

ومن آفات صحبة الأغنياء إزدراء نعمة الله عليه وتحريك الطمع والحرص في قلبه وقد لا يتيسّر له فلا ينال إلا الغم بذلك، وإنّ من نظر إلى زهرة الحياة الدنيا وزينتها تحرّك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال، فيتأذى بذلك، ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله

---

(١) البقرة: ٢٧٣.

تعالى :**{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ}**[1].

وقال ﷺ : **«انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»** [2].

قال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء، فلم أزل مغموما، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي، ودابة أفره من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت.

٧) الاستئناس بالناس:

ومن آفات الصحبة : الاشتغال بالإخوان عن تفريغ القلب للفكر والاستئناس بالله عز وجل الذي هوأول مطلوب القلوب وأعظم سبب لسعادتها ونجاتها وقد قيل : الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوذاته عن الفضيلة، فيكثر حينئذ ملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة، ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة[3].

* * * * *

---

(١) طه: ١٣١.

(٢) رواه مسلم والبخاري بمعناه.

(٣) المحبة فى الله /موقع صيد الفوائد.

المبحث الثاني:

المحاسبة

الجهاد في سبيل الله المطلب الثاني: محاسبة النفس ومخالفتها؛

وذلك بالأمور الثمانية الآتية:

١ - محاسبتها على ما منحها الله تعالى من النعم العظيمة التي توجب عليها شكره والبعد عن معصيته. إن نعم الله سبحانه وتعالى على عبده لا يحصيها إلا هو سبحانه.

فمنه تعالى كانت نعمة خلق هذا الإنسان وإيجاده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر كما بين لـه طريق الخير والشر، وحثه على سلوك الأولى وحذره من الثانية. قال تعالى:**{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}**(١).

ومنه سبحانه نعمة الرزق حيث سخر لـه السموات والأرض والنباتات والحيوانات في البر والبحر، ومنحه الأدوات التي تعينه على تناول ذلك الرزق - المنفصلة عنه كالآلات الزراعية وآلات الصيد وآلات الطهي وغيرها - والمتصلة به، وهي جوارحه وأجهزة جسمه كاليدين والرجلين والجهاز الهضمي والجهاز الدموي والجهاز التنفسي والجهاز الإخراجي وغيرها، كما قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ}**(٢).

وقال تعالى:**{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}**(٣)

---

(١) الإنسان: ١ - ٣.

(٢) الانفطار: ٦ - ٨.

(٣) النازعات: ٢٧ - ٣٣.

وقد شمل ذلك وغيره من نعم الله التي لا تحصى قولــه تعالـى:**{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}**(١) وقولـه:**{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}**(٢) وأعظم نعمة على الإنسان إنزال الكتب وإرسال الرسل لهدايته وبيــان الهـدى والضــلال لـــه ودعوتـــه إلـى الهـدى وتحـذيره مـن الضـلال، كمــا قــال تعالى:**{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}**(٣).

٢ - تذكير النفس بأن الله تعالى لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء وأن كل شـيء يعمله العبد فإنه محصًى عليه مكتوبٌ يحاسب عليه يوم القيامة، كما قال تعـالى:**{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}**(٤).

وقال:**{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}**(٥).

وقال تعالى:**{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}**(٦) وقال تعالى:**{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}**(٧).

وفي حديث جبريل: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» (٨).

---

(١) النحل: ٥٣.
(٢) إبراهيم: ٣٤.
(٣) النحل: ٣٦.
(٤) ق: ١٦ - ١٨.
(٥) الانفطار: ١٠ - ١٢.
(٦) المجادلة: ٦.
(٧) الزلزلة: ٧ - ٨.
(٨) البخاري رقم ٥٠.

اتق الله في كل مكان لأنه تعالى حاضر: ولهذا أمر الرسول اتق الله حيثما كنت[١].

٣ - تذكير النفس بالموت، وبأهوال يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وفيه تكشف الأسرار وتوزن الأعمال، فمن غلبت حسناته فاز ونجى، ومن غلبت سيئاته خسر وندم، ولات ساعة مندم، قال تعالى:**{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}**[٢] وقال تعالى:**{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}**[٣].

وقال:**{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى}**[٤].

ويجب كذلك أن ينبهها من غفلتها وإعراضها ولعبها ولهوها وظلمها، بأن قيام الساعة كذلك قريب وهو أمر يجب أن يعد له العدة، كما قال تعالى:**{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}**[٥].

وعليه أن يصف لها أهوال هذا اليوم فيطلعها على مثل قوله تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}**[٦].

وعليه دائماً أن يوقظها من غفلتها بأن الموت على الرقاب فيجب أن يعد له العدة قبل أن يدهمه وهو على سخط الله تعالى، وقد أعذر الله إليها بما أعطاها من الفسحة في

---

(١) الترمذي / حديث حسن صحيح، جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ١٣٦.
(٢) الانفطار: ١ - ٥.
(٣) القارعة: ٦ - ١١.
(٤) النازعات: ٣٤ - ٤١.
(٥) الأنبياء: ١ - ٣.
(٦) الحج: ١ - ٢.

العمر كما قال تعالى:**{أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ}**[١].

وقال تعالى:**{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}**[٢].

وقال:**{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ}**[٣].

وبقوله ﷺ، في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **«يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف إذنيه»** [٤]. وقوله في حديث أبي هريرة: **«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»** [٥].

وكذلك يذكرها بالقبر ووحشته وعذابه الذي لا ينجو منه إلا صاحب العمل الصالح، ويذكر لها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ – لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً»**[٦].

وهذا يدعو المؤمن أن يذهب بنفسه إلى القبور فيزورها ليتذكر الحياة وابتلاءه فيها والموت وما بعده، كما قال الرسول ﷺ : **«نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»** [٧] وفي رواية في غير مسلم: **«فإن زيارتها تذكرة»** [٨].

---

(١) فاطر: ٣٧.
(٢) الأنبياء: ٣٤ - ٣٥.
(٣) التكاثر: ١ - ٢.
(٤) البخاري.
(٥) البخاري.
(٦) البخاري.
(٧) مسلم.
(٨) أبو داود.

«فزوروا القبور فإنها تذكركم بالموت» [1].

٤ – توجيه النفس إلى الاقتداء بأهل القدوة الحسنة:

وهم أصحاب السمو والرفعة الذين ارتفعت نفوسهم عن كل ما يخالف أمر الله من شهوات الدنيا وسفاسفها وملذاتها، حباً لله وطمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه. حتى يكون ممن تشمله رحمة الله ومغفرته، إذ يحقق بذلك محبة الله ومحبة رسوله وعباده الصالحين، والمرء مع من أحب، فإن أحب أهل الكفر والفسوق والعصيان فهو معهم في الدنيا والآخرة، وإن أحب أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين كان معهم في الدنيا والآخرة.

ألا ترى أن المسلم يجب أن يقرأ الفاتحة في كل ركعة يصليها لله فرضاً كانت أو نفلاً. وهو يدعو فيها بهذا الدعاء:**{اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}**[2] فمن هدي إلى صراط الله المستقيم مع المنعم عليهم، كان معهم يوم القيامة حيث يمر على الصراط مثلهم أو قريباً منهم، ومن ترك هذا السبيل واتبع سبلاً أخرى متفرقة، كان مع أهل تلك ا لسبل، وهم المغضوب عليهم والضالون.

وتذكير النفس بهذا الأمر من أعظم الدواعي لتزكيتها وتطهيرها وإعدادها للجهاد في سبيل الله.

قال ابن تيمية رحمه الله:

ومن هذا الباب - أي مما تستلزمه محبة الله ورسوله - ما استفاض عنه ﷺ من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي ﷺ قال: **«المرء مع من أحب»** [3] وفي رواية أنه سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم - أي ولما يعمل بأعمالهم - فقال:

---

(١) أبو داود.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) مسلم: ٢٣٢/٤.

«المرء مع من أحب».

قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يجعلني الله معهم وإن لم أعمل عملهم.

وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريباً من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه إذا كان المحب قادراً عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة.

وحب النبي وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، مع العلم بالمضاد، ولهذا قال تعالى:**{لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}**(1) والموادة من أعمال القلوب.

وليذكر المسلم نفسه بقصة يوسف عليه السلام التي يتضح بها التطبيق العملي لقول الرسول ﷺ : **«المرء مع من أحب»**. فقد توافرت كل دواعي الإغراء والترغيب لوقوعه في معصية الله، ثم كل وسائل التهديد والترهيب.

ومع ذلك كان مع من أحب وهو الله سبحانه وتعالى - فلم تستهوه دواعي الإغراء والترغيب، ولم تخضعه وسائل التهديد والترهيب، بل لجأ إلى ربه مستغيثاً به فأغاثه قال:**{رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}**(2).

ولا يقال إن هذه المنزلة لا يبلغها إلا الأنبياء لأنهم معصومون، فإن الذي يقتدي بالأنبياء في مجاهدة نفسه وصبره ودعاء ربه واستعانته به يوفقه الله ويعينه، ويحول بينه

---

(1) مجموع الفتاوى: (١٠/٧٥٢) والآية في سورة المجادلة ٢٢.

(2) يوسف: ٣٣، ٣٤.

وبين معصية الله وييسر لــه تزكية نفسه. وفي هذا تذكر قصة الثلاثة أهل الغار الذين فرج الله عنهم بتوسلهم إليه بأحسن أعمالهم التي تقربوا بها إليه مخلصين.

ومنهم ذلك الرجل الذي اجتهد في الوقوع في المعصية حتى تمكن منها فلما ذُكِّر بالله ذَكَر وخاف وترك لله: (وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة، قال ففرج عنهم الثلثين)[1]، فليقتد المؤمن في مجاهدة نفسه بعباد الله الصالحين حتى يكون في ركبهم.

٥- تذكير النفس بمعنى الحرية الحقة ومعنى الرق والعبودية المذلين.

لأن النفس دائماً تحب أن تنطلق في ميادين شهواتها، وتكره أن يقيدها أحد عن تلك الشهوات - مهما كانت - وتظن أن في ذلك حريتها، وأن في تقييدها عبودية وخضوعاً لمن يقيدها عن شهواتها، وهي لا تريد الخضوع لأحد، وإنما تريد الحرية الكاملة، ولم يمر زمان من الأزمان - فيما يظهر اشتهر فيه النداء بالحرية، وإن كان الناس ينطلقون في كل الأزمنة وراء شهواتهم كما يشاءون، وذلك يكثر ويقل حسب تربية الناس وتوجيه قادتهم - لم يمر زمان مثل هذا الزمان انتشرت فيه الدعوة إلى الحرية - بهذا اللفظ -والسبب في ذلك أن أعداء الله ممن يحبون إشاعة الفاحشة وتدنيس النفوس وبعدها عن الله تعالى، فسروا لها الحرية بعكس معناها والعبودية - كذلك - بعكس معناها، وعندما يسوء الإدراك والتصور يسوء السلوك والتصرف.

ففسر أعداء الله الحرية بأنها الانطلاق الكامل من كل قيد - حتى ولو كان هذا القيد صادراً من خالق السموات والأرض - وبنوا على ذلك بأن للإنسان أن يغشى كل ما تشتهيه نفسه وتهواه مالاً أو جنساً، أو منصباً أو غير ذلك، ولــه أن يدوس على حريات

---

(١) البخاري.

الناس كلهم ما دام يستطيع الوصول إلى بغيته وكل واحد عليه أن يباري غيره فمن عزَّ بزَّ ومن غلب استلب، وتسمية الأشياء بغير أسمائها للتضليل ليست جديدة، وإن اختلفت أساليبها ووسائلها.

ألا ترى هذه العبارة الخبيثة التي أطلقها إبليس لإغراء آدم وتحريضه على معصية الله:**{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى}**(١) وعلى الرغم من ترغيب الله وتحذيره لآدم فإن قلب الحقائق عمل فيه عمله:**{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}**(٢).

ولقد كذب عدو الله - الشيطان - وكذب أتباعه الكفرة الفجرة، فليس ما زعموه حرية بحرية، بل إنه الرق لا لجهة واحدة، بل لجهات لا تحصى ولا تعد إلا إذا أحصيت شهوات النفس وملذاتها التي يشتهيها ويهواها البشر، ومن يستطيع أن يحصي ذلك غير الخالق؟

فإن الإنسان لا يهوى شيئاً من الملذات، جنساً أو مالاً أو جاهاً أو غيرها، إلا ريثما يمله ويهوى غيره من جنسه، وهكذا يظل طول عمره وهو يهوى شيئاً ويمله، ويهوى غيره ويمله، فتبقى نفسه في طمع وهلع، طمع في ما تهوى ولم تحصل عليه، وهلع من مفارقة ما حصلت عليه أن يذهب من بين يديها.

والذي يهواه الإنسان يهواه غيره فينافسه فيه، وقد يرغب في شيء ويكره الآخر حصول ذلك الراغب عليه، فيقف ضده ويحول بينه وبينه، والنفس في كل ذلك أسيرة رقيقة لتلك الأشياء كلها حصلت عليها أو لم تحصل.

والحرية الحقة إنما هي حرية من حقق عبوديته لله وحده، فأطاعه في أوامره وازدجر عن نواهيه، ولو كره الناس منه طاعة ربه وازدجاره عن معاصيه، بل ولو كرهت نفسه ذلك.

---

(١) طه: ١٢٠.
(٢) طه: ١٢١.

عندئذٍ فقط يكون حراً لا تخضع نفسه لمال ولا لجنس ولا لمنصب أو جاه، ولا لشيء إلا لله الخالق الذي لا يستحق أحد غيره الخضوع المطلق والحب المطلق والطاعة المطلقة، وها هو القرآن كلام الله يصور ذ لك أبين تصوير ويوضحه أعظم توضيح.

قال تعالى:**{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}**(١) كما بين الرسول ﷺ أن الرق والأسر أن تصير النفس مستعبدة للملذات والشهوات كما قال: **«تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم»** (٢).

واقرأ هذه الجمل لأحد عمالقة الحرية، وهو يبين معناها ومعنى الأسر والرق بياناً شافياً وهو ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال: "فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبداً متيماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب. وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

فإن المسلم لو أسره كافر واسترقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر، فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ولو كان في الظاهر ملك الناس.

فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ : **«ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»** (٣) وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة.

---

(١) الزمر: ٢٩.
(٢) البخاري.
(٣) البخاري.

فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يداني فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها مستعبداً لها، اجتمع لـه من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى،

فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً، ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه"[١].

فالذي يسترق قلبه لغير الله، بل قل الذي لا تخلص عبوديته لله يكثر أسياده الذين يتشاكسون فيه، ويصير كل واحد منهم يأمره بتنفيذ ما ينهاه عنه الآخر، فهل تراه قادراً على تنفيذ أمر وضده في وقت واحد.

ولقد تعمق ابن تيمية - رحمه الله - في معنى الحرية والعبودية فأبان أن قادة الشعوب الذين لا يتمتعون بالحرية الحقيقية هم عبيد لعبيدهم وخدمهم، فقال - رحمه الله - :

وكذلك طالب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والتحقيق أن كلاهما - كذا - فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله. وإن كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر"[٢].

وإن مجاهدة الإنسان نفسه على إدراك هذا المعنى للحرية والعبودية معينة لـه عليها، في خضم جموع البشرية الضالة المضلة، واقرأ هذه القطعة التالية لأحد عمالقة

---

(١) ابن تيمية مجموع الفتاوى: ١٨٦/١٠.

(٢) الفتاوى ١٨٩/١٠.

الحرية في هذا العصر، وهو سيد قطب - رحمه الله - قال: "ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة، ويمضي مع نزواته الخليعة، ويلصق بالوحل والطين حاسباً أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود، وتعز في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال، ولا يبقى إلا الْمَشْرَع الآسن وإلا الوحل والطين، وينظر المؤمن مِن علٍ إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين، وهو مفرد وحيد، فلا يهم ولا يحزن ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف الطاهر وينغمس في الحمأة وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين"(١).

وبين سيد قطب أن الذي ينحل من عبوديته لله يقع في أحط أنواع العبوديات المتعددة لغير الله، فقال: "إن العبودية لله وحده هي العاصم للعبودية من الهوى والعاصم من العبودية للعباد، وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه.

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى، يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم، فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع الإنسان من بين سائر الأنواع، وينحدرون في سلم الدواب، فإذا هم شر الدواب، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل، وإذا هم أسفل سافلين، بعد أن كانوا، كما خلقهم الله، في أحسن تقويم"(٢).

طهروا قلوبكم بالمحاسبة:

يقول تعالى:**{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**(البقرة).

قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب ﷺ فقال لهم الرسول ﷺ : «**قولوا: سمعنا وأطعنا**»، فقالوا ذلك... فألقى الله الإيمان في قلوبهم وأنزل سبحانه

---

(١) معالم في الطريق صفحة ١٦٥.

(٢) في ظلال القرآن ١٠/١٥٢١.

وتعالى:**{لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}** (١).

فنَسخت الآية التي قبلها تجاوز الله تعالى عن حديث النفس لأن القلوب ليست بأيدينا، وقال ﷺ : «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**» (٢).

فإياكم إخواني وأخواتي من المعاصي والذنوب؛ ولذلك وجب تصحيح النية في كل الأعمال لأن الكل محاسب على نيته. فقد قال ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.....**» (٣).

فلذا وجب علينا قبل أن ننام يوميا أن نجمع ونطرح ما لنا وما علينا في حصاد اليوم كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ". فالمحاسبة أمر عظيم يجب على كل مسلم فعله من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة.

فوائد المحاسبة ومصالحها:

أن المرء يطّلع على عيوب نفسه ويكتشف أشياء تدهشك ولا يفقه الرجل حتى يمقت نفسه ويحتقرها في جنب الله، وكان بعض السلف يقول في دعائه في عرفة (اللهم لا ترد الناس لأجلي)**!**، وكان محمد بن واسع يقول: (لو كان للذنوب ريح ماقدر أحد أن يجلس إليّ)**!**، مع أنه من كبار العباد في هذه الأمة، وقال يونس بن عُبيد: (إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة)**!**

وهذا حمّاد بن سلمة دخل على سفيان الثوري وهو يحتضر فقال: (يا أبا عبد الله أليس قد أمنت مما كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟**!**) قال: (يا أباسلمة أتطمع لمثلي أن ينجو من النار) قال: (إي والله إني لأرجو لك ذلك).

---

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) متفق عليه عن أبي هريرة.
(٣) رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب.

وقال جعفر بن زيد: (خرجنا في غزاة إلى كابل وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فصلوا ثم اضطجع فقلت: لأرمقنّ عمله، فالتمس غفلة الناس فانسلّ وثبا فدخل غيظة (مجموعة أشجار ملتفة) قريب منا، فدخلت على أثره فتوضأ ثم قام يصلي فجاء أسد حتى دنا منه فصعدت في شجرة فتراه التفت إليه أو عدّه جرو! فلما سجد قلت الآن يفترسه فجلس ثم سلّم ثم قال: (أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر)، فولّى وإن له زئيراً، فمازال كذلك يصلي حتى كان الصبح فجلس يحمد الله وقال: (اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يستحي أن يسألك الجنة)! ثم رجع وأصبح وكأنه بات على حشاياً، أما أنا فأصبح بي ما الله به عليم من هول ما رأيت!

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهم اغفر لي ظلمي وكفري)، فقال قائل: (يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما الكفر؟) قال: (إن الإنسان لظلوم كفّار)، فإذا تمعّن الإنسان حال السلف عرف حاله والبعد الشديد مابينه وبينهم.

إذاً ففي المحاسبة:

١- مقارنة حال بحال فينكشف التقصير العظيم.

٢- ومن التفكر في العيوب أن الإنسان ينظر في عمله ما دخل عليه فيه من العُجب والغرور فيرى نفس كاد أن يهلك ومهما عمل فهو مقصِّر.

٣- أن يخاف الله عزوجل.

٤- ومما يعين على المحاسبة استشعار رقابة الله على العبد وإطلاعه على خفاياه وأنه لا تخفى عليه خافية:**{وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}**. وقال تعالى:**{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}**.

٥- من الأشياء المهمة في المحاسبة التفكر في الأسئلة يوم القيامة وأن تعلم أنك مسئول يوم القيامة، ليس سؤال المذنبين فقط، فالله تعالى قال:**{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ}**، وإذا كان الصادقين سيسألهم الله عن صدقهم فما بالك بغيرهم؟!**{فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}** وحتى الرسل يُسألون..!!!

المبحث الثالث: الحيـاء

الحياء خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق كل ذي حق والحييّ - من البشر-.

هو الذي يعتريه تغير وانكسار خوفاً من أن يُعاب عليه بشيء، من الله أو من الناس، فالحياء عاطفة حية تترفع بها نفس الإنسان عن الخطايا، وتستشعر بها الغضاضة من سفاسف الأمور، ويُولد الحياء في الإنسان إذا عَلِم أن الله عز وجل ينظر إليه؛ لأن الحياء من الإيمان.

الحياء شعبة من الإيمان:

للإيمان شُعب كثيرة، ذكر عددها رسول الله ﷺ، لكنه ﷺ خصَّ الحياء منها بالذكر، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»[١]، وفي رواية أخرى قال ﷺ : «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**» [٢].

الحياء خُلقُ الإسلام:

قد يكون تخصيص الحياء بالذكر دون غيره من شعب الإيمان؛ لأنه أهم أخلاق الإسلام، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء**» [٣].

والحياء خُلقُ استرعى نظر الصحابة رضوان الله عليهم من أخلاقه ﷺ، فقد كان حياؤه ﷺ شديداً، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها[٤].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مالك بإسناد مرسل.

(٤) رواه البخاري.

الحياء ميزان الأعمال:

الحياء ميزان، وأصحاب الفِطر السليمة يعرفون صحة الأفعال بعدة موازين، منها ميزان الحياء، فتراهم لا يُقبِلون إلا على الأعمال التي لا تنال من حيائهم ويقبلونها، إنهم إن شاءوا أن يعملوا عملاً عرضوه على نفوسهم، فإن هم استحيوا منه لم يفعلوه، وإن لم يجدوا ما يستدعى الحياء منه فعلوه، أما مَنْ فقَدَ الحياء فهو يفعل ما يشاء ولا يبالي، فعن أبي مسعود عقبة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : **«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة: إذا لم تستح فافعل ما شئت»** (1).

الحياء خير كله:

وإذا كان هناك خُلقٌ هو خير كله، أو كله خير، فإنه الحياء، فعن عمران بن حُصين قال: قال رسول الله ﷺ : **«الحياء خير كله أو قال: الحياء كله خير»** (2).

والتخوف الملازم للحياء ليس جبناً، فالحييُ قد يُفضل أن يُراق دمه على أن يريق ماء وجهه، وهذه هي الشجاعة في قمة صورها، والخوف في هذه الحال ليس بنقيصة؛ لأنه خوف فقط على مكارم النفس ومحامدها أن تذهب ببهائها ووقارها الأوضاع المحرجة، إنه تخُوف يسامي الجراءة في مواطنها المحمودة أو يساويها.

الحياء زينة:

هناك أمور تضفي على الأشياء زينة إن هي اقترنت بها، ومن هذه الأمور الحياء، إنه يُزيِّن كل شيء كان فيه، فعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»** (3).

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه الترمذي.

التفريط في الحياء من أسباب الهلاك:

كان خوف سلفنا الصالح من التفريط في الحياء عظيماً، وشاع بينهم أن التفريط في الحياء سبب من أسباب الهلاك، إنه حلقة من سلسلة طويلة تجر حلقاتها بعضها بعضاً، في أولها نزعُ الحياء وفي آخرها التفريط في عهد الإسلام وتعاليمه.

حياء الرجل وحياء المرأة:

الحياء مطلوب للرجل ومطلوب للمرأة، فقد روي أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ : **«دعه، فإن الحياء من الإيمان»**[(١)].

لكن فطرة المرأة تجعل حياءها أشد؛ لذلك قد يخدشه ما هو أدق وأخف مما يخدش حياء الرجل، وإذا كان حياء الرجل يظهر عملياً في تجنبه المواقف التي قد تجر عليه العيب، فإن حياء المرأة أيضاً له مظاهر عملية تضاف إلى ذلك.. إن المرأة الحيية لا تحدق النظر فيمن تحادثه، وإذا ضحكت في حضور الغرباء فإنها تحرص على ألا يتجاوز ضحكها مستوى الابتسام، فلا تقهقه بصوتٍ عالٍ، كان ﷺ يفعل ذلك مع أنه رجل، فعن عبدالله بن الحارث بن جزء قال: ما كان ضَحِكُ رسول الله ﷺ إلا تبسماً[(٢)].

والمرأة إذا أرادت شراء زينتها الخاصة- من ملابس وغيرها- يمنعها حياؤها أن تشتري تلك الأشياء من رجل، وإنما تبحث عن امرأة مثلها تشتري منها.

الواجبات:

ما ذكرنا من مظاهر وأعمال مرتبطة بالحياء يجب أن تكون واجبات عملية شخصية محددة، فلنركز لمدة معينة على متابعتها ومراقبتها في أنفسنا؛ عسى أن نستوثق من تغلغل خلق الحياء في سلوكنا، فنحسب لأنفسنا: كم مرة تنبهتُ فغضضت بصري؟ وكم مرة سهوت فتماديت؟ ولتعاهد الله كل مسلمة أن لا يتجاوز ضحكها مستوى الابتسام

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وصححه.

دون صوت، خاصة في وجود الرجال الغرباء. ولا تنسى المسلمة مراعاة شراء خصوصيات زينتها، التي لا يطلع عليها إلا زوجها، من البائعات دون البائعين.

ولعل هذه الواجبات العملية تكون تربية وتدريباً للنفس طوال هذه الفترة، عسى أن نصل في وقت لاحق إلى أن يكون الحياء خُلقاً دائماً فينا ولنحفظ من الأحاديث الشريفة التي أوردناها ما استطعنا، ففي ذلك عون لنا في تأكيد هذه المعاني في نفوسنا، وسند لنا حين نريد تبليغ هذا الأمر للناس، وعلينا عندما ندعو غيرنا إلى هذا الخلق ألا نقتصر على أناس دون أناس، فلنؤد عن أنفسنا زكاة العلم وزكاة الخلق، بأن نهدي هذا المعنى لكل المسلمين والمسلمات[1].

ثمرة الحياء:

لما مرضت (فاطمة الزهراء) رضي الله عنها مرض الموت الذي توفيت فيه، دخلت عليها (أسماء بنت عميس) رضي الله عنها تعودها وتزورها فقالت (فاطمة) لـ (أسماء) والله إني لأستحي أن أخرج غدا (أي إذا مت) على الرجال جسمي من خلال هذا النعش!!

وكانت النعوش آنذاك عبارة عن خشبة مصفحة يوضع عليها الميت ثم يطرح على الجثة ثوب ولكنه كان يصف حجم الجسم، فقالت لها (أسماء) أو لا نصنع لك شيئاً رأيته في الحبشة؟!

فصنعت لها النعش المغطى من جوانبه بما يشبه الصندوق ودعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت على النعش ثوباً فضفاضا واسعا فكان لا يصف! فلما رأته (فاطمة) قالت لـ (أسماء): سترك الله كما سترتني!!

قال: (ابن عبد البر) عن فاطمة الزهراء: هي أول امرأة غطي نعشها في الإسلام على تلك الصفة!

---

(١) من كتاب في رياض الجنة.

بعد علمي بتلك القصة فكرت كثيراً فما أشد حياءها حتى بعد مماتها!

فلماذا تتبرج النساء؟

هل هي فطرة المرأة.. لا، فالأصل هو الحياء، ولو أدركت النساء مدى جمال ثوب الحياء، وروعة زينة التحلي به، وقوة تأثيره الباطني على الجوارح؛ لأيقنَّ أنه فعلاً كله خير، ولحافظن عليه حتى آخر رمق.. سبحان الله هو الرداء الأول الأساسي الرادع لكل ما هو مشين: «**إذا لم تستح فاصنع ما تشاء**».

وعندما نظرت في رداء المرأة الأوروبية وجدت أنه لا يخضع لشريعة أو قيم أو أعراف بل يخضع لمقاييس الفتنة وإبراز الجمال بل إن جسدها هذا ليس له حرمة بإرادتها فيتعرض لأكثر من يد تلمسه وتعبث به وهذا شيء جَدُّ طبيعي عندهم، عندها أدركت سبب عدم تواجد خلق الحياء عندهم، فعندما يفقد الجسد قيمته لا يهم مقدار العري الذي يظهره!

لكن ما بال فتياتنا هنا؟!

كلما شاهدت لباسهن الفاضح أو حجابهن المشوه أتألم للجاهلية التي يعشن بها وتذكرت تلك العجوز التي شاهدتها في الطابق الثاني في أحد البنوك والتي عندما طلبت منها الموظفة كشف وجهها لتطابقه مع الهوية قالت: أخشى أن أُكْشَف من الخارج!!

فأي تقوى وورع في قلب يخلو من الحياء؟!

واليوم وبمشاهدة اختلاط النساء مع الرجال في كثير من المؤسسات الخاصة والعامة ومرافقها إضافة لتبرجهن البشع، بل مجرد التعود على مشاهدة تلك الأمور ينزع من النفس الحياء رويداً رويداً، وما يؤلم أنه إن ذهب الحياء فلن يرجع أبدا، وإذا ذهب الحياء من القلب فليصنع ما يشاء...!!!!

* * * * *

المبحث الرابع:

التقـوى

التقوى شيء عظيم ومنزلة سامية وهي أساس الدين ولا حياة إلا بها بل إن الحياة بغيرها لا تُطاق بل هي أدنى من حياة البهائم فليس صلاحٌ للإنسان إلا بالتقوى، هي كنزٌ عزيز لئن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وخيرٍ كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنمٍ جسيم وملكٍ عظيم، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جُمِعَت فجُعِلَت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى..!

وتأمل ما في القرآن من ذكرها، فكم عُلِّق بها من خير، وكم وُعِد عليها من خير وثواب، وكم أضيف إليها من سعادة..!

هذه التقوى ظلالٌ طاب العيش فيها.. هذه التقوى حياة كريمة.. فما هي وما تعريفها وكيف تحصل التقوى وماهي ثمراتها وما درجاتها وماهي الأسباب المعينة عليها..؟

التقوى هي الاسم من التقى والمصدر الاتقاء وهي مأخوذة من مادة وقى فهي من الوقاية، وهي ما يحمي به الإنسان نفسه، وتدل على دفع شيء عن شيء لغيره، فالوقاية ما يقي الشيء، ووقاه الله السوء وقاية أي حفظه..

وأما المعنى الشرعي فقد ذكر العلماء في تعريفها عدة عبارات فمن ذلك قولهم..

أن تجعل بينك وبين ما حرم الله حاجباً وحاجزاً..

امتثال أوامر الله واجتناب النواهي فالمتقون هم الذين يراهم الله حيث أمرهم، ولا يقدمون على ما نهاهم عنه..

التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل..

التقوى أن يجعل المسلم بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه..

"وقد سأل عمر رضي الله عنه أُبي بن كعب فقال له: ما التقوى؟ فقال أُبي: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقاً فيه شوك؟ قال: نعم.. قال: مافعلت؟.. قال عمر: أشمّر عن ساقي وأنظر إلى مواضع قدمي وأقدم قدما وأؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة.. فقال أُبَي ابن كعب: تلك التقوى..! "، فهي تشمير للطاعة ونظر في الحلال والحرام وورع من الزلل ومخافة وخشية من الكبير المتعال سبحانه وتعالى..

التقوى هي أساس الدين، وبها يرتقى إلى مراتب اليقين، هي زاد القلوب والأرواح فبها تقتات وبه تتقوى وعليها تستند في الوصول والنجاة..

قال ابن رجب - رحمه الله -: أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه..

وسائل التقوى وثمراتها:

ومن الأسباب الباعثة على التقوى ما يلي:

١- كثرة العبادة: لقوله تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**.

٢- أداء العبادة على الوجه الأكمل: لقوله تعالى:**{فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى}**.

٣- الجدية في التعامل مع شرع الله تعالى: لقوله تعالى:**{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**.

٤- تطبيق الحدود الشرعية: بقوله تعالى:**{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**.

٥- إقامة شعائر الإسلام والتحلي بمكارم الأخلاق: لقوله تعالى:**{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**

وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.

٦- الصيام: لقوله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**.

٧- تعظيم شعائر الله: لقوله تعالى:**{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}**.

٨- العدل: لقوله تعالى:**{اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**.

٩- العفو: لقوله تعالى:**{وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**.

١٠- تعظيم الرسول ﷺ وتوقيره: لقوله تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}**، وذلك يشمل الرسول ﷺ حيا وميتا، ويكون عدم رفع الأصوات عليه ميتا باحترام سنته، وانتهاج طرقته، وعدم مجاوزة هديه إلى غيره من زبالات الأذهان ونخالات الأفكار والمذاهب والآراء.

كذلك جميع الطاعات من أسباب حصول التقوى، وجميع المعاصي من معوقات حصول التقوى، كما قال طلق بن حبيب رضي الله عنه: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله تخاف عقاب الله.

ثمرات وفوائد التقوى:

١- البشرى بما يسر في الدنيا والآخرة: لقوله تعالى:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}**.

٢- البشرى بالعون والنصرة: لقوله تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}**.

٣- التوفيق للعلم: لقوله تعالى:**{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}**.

٤- الهداية للصواب والتمييز بين الحق والباطل: لقوله تعالى:**{إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً}**.

٥- البشرى بتكفير الذنوب وتعظيم أجر المتقين: لقوله تعالى:**{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ له أَجْراً}**.

٦- البشرى بالمغفرة: لقوله تعالى:**{وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً}**.

٧- اليسر والسهولة في كل أمر: لقوله تعالى:**{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ له مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً}**.

٨- الخروج من الغم والمحنة: لقوله تعالى:**{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً}**.

٩- الرزق الواسع دون عناء أو مشقة: لقوله تعالى:**{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}**.

١٠ النجاة من العذاب والعقوبة: لقوله تعالى:**{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا}**.

١١- التزكية بالكرامة: لقوله تعالى:**{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**.

١٢- البشارة بالمحبة: لقوله تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}**.

١٣- حصول الفلاح: لقوله تعالى:**{وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**.

١٤- نيل الجزاء وعدم إضاعة العمل: لقوله تعالى:**{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}**.

١٥- القبول وعدم الرد: لقوله تعالى:**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}**.

١٦- الفوز بالجنة: لقوله تعالى:**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}**.

١٧- الأمن والمنزلة الرفيعة: لقوله تعالى:**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}**.

١٨- عز الفوقية على الخلق: لقوله تعالى:**{وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}**.

١٩- تنوع الجزاء وتعدد اللذات: لقوله تعالى:**{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً}**.

٢٠- القرب من الله تعالى يوم القيامة مع التمتع باللقاء والرؤية: لقوله تعالى:**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}**.

٢١ - ومن أهم ما يُكافأ به المتقي أنه يُعطى العلم النافع من جرّاء التقوى**{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**، فيعلمكم الحلال والحرام ومصالحكم وحفظ أموالكم وما أمركم وما نهاكم عنه ويعلمكم كل ما تحتاجون إليه، ومن أسباب نقصان العلم ونقص الحفظ وذهاب المسائل وعدم انفتاح النفس للعلم وعدم الحماسة للعلم؛ المعاصي فهي تصد النفس عن العلم. ومن أسباب تحصيل العلم وانفتاح الذهن والقلب والحماس له؛ التقوى.

٢٢ - البصيرة من أعظم ما يرزق به المتقي، فتكون له بصيرة وفرقان يفرّق به بين الحق والباطل وأن يكون له نور من ربّه يضيء دربه فيحذر الشر ويرجو الخير ويوفَّق**{إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً}**، الفرقان في اللغة الذي يفرّق بين الليل والنهار، كالصبح يفرق بين الحق والباطل.

٢٣ - محبة الله والملائكة للعبد، ومحبة الناس لهذا العبد، **{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}**، وإذا أحبه نادى جبريل أن يحبه، ويحبه أهل السماء ثم يحبه أهل الأرض، **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ}** أي مودة منه ومن الملائكة وفي قلوب العباد.

٢٤ - نصرة الله للمتقي وتأييده له وتسديده**{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}**، والمعيّة هذه معية نصرة وتأييد وتسديد، وهو سبحانه وتعالى أعطاها للأنبياء المتقين فقال لموسى وهارون**{لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}**، **{قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}** فهو معه فلا يخاف.

٢٥ - يرزق بركات من السموات والأرض، والبركة تكثير القليل، الكثرة، الزيادة، الخير، العافية، **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}**،

وهذا معناه أنه وسّع عليهم في الخير ويسّره لهم بسبب التقوى**{وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً}**.

٢٦ - البشرى.. سواء كانت ثناء من الخلق، أو رؤيا صالحة، من الملائكة عند الموت، **{أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}**. ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، فإن أثنى الناس عليه لعمل ما قصد إظهاره فإن هذا من عاجل بشرى المؤمن.

٢٧ - الحفظ من كيد الأعداء، فإن الإنسان لا يخلو من عدو حاسد**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}** فيدفع الله عنه شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال التقوى.

٢٨ -**{وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}**، فأرشد الله الآباء الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقوى في سائر شؤونهم لكي يحفظ أبناءهم، ويغاثون بالرعاية الإلهية بل يحفظ فروع الفروع..!، **{وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا}** ولكن هناك أمر مهم وهو**{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً}** فحفظ الله الأبناء بصلاح ذلك الأب.، يقول محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها والدويرات التي حولها فما يزالون في حفظ الله وستره..، قال ابن المسيب: يا بني إني لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أُحفَظ فيك وتلا الآية**{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً}**، طبعاً هو يصلي لله، وابن المسيب أفقه من أن يرجو على عمله فقط ثواباً دنيوياً ولكنه يرجو تبعاً للثواب الأخروي أمراً في الدنيا والله تعالى كريم يعطي أموراً في الدنيا والآخرة على العبادات.

٢٩ - التقوى سبب قبول العمل وهذا من أعظم الأشياء**{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}** أجاب بها الأخ الصالح أخاه الفاجر الذي قتله.

وكان بعض السلف يقول: لو أعلم أن الله تقبّل مني سجدة واحدة لتمنّيت الموت

٣٠ - التقوى سبب للنجاة من عذاب الدنيا**{وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}**.

٣١ - التقوى يُجعل للإنسان بها حلاوة وشرف وهيبة بين الخلق لأن الإنسان يحب أن تكون لـه مكانة بين الناس.

٣٢ - التقوى توصل إلى مرضاة الرب عز وجل وتكفير السيئات والنجاة من النار والفوز بالجنة وهذا هو قمة المطلوب وأعلى مراد المسلم أن الله عزوجل يدخله الجنة**{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً}**، والنجاة من النار**{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا}** يدخلهم الأنهار**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}**.

والدار الآخرة للمتقين يوم القيامة، ويجمع الإنسان بأحبابه إذا اتقى ربه**{الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ}**، وهؤلاء على سرر متقابلين كما قال الله**{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}** فيأتون إلى الجنة زمراً زمراً، مجموعات ووفود إلى الله تعالى مكرمين**{وَسِيقَ الَذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً}**.

وغير هذا كثير من فوائد وثمرات التقوى نتأملها فى كتاب الله تعالى فهذا على سبيل المثال لا الحصر.

كيف نكون أتقياء ؟

١- أن نحب الله أكثر من أي شيء.

٢- أن نستشعر مراقبة الله دائماً.

٣- أن نعلم عاقبة المعاصي.

٤- أن نتعلم كيف تقاوم هواك وتتغلب عليه.

٥- أن ندرك مكائد الشيطان ووساوسه.

وهذه الأشياء سهلة بالقول وصعبة في التطبيق..، فبعض الناس يغفل وينسى: **«اعبد الله كأنك تراه»..**

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل ::: خلوتُ ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ::: ولا أنّ ما يخفى عليه يغيبُ

وأما مسألة معرفة مافي الحرام من المفاسد والآلام فإن الإنسان يكفي أن يتأمل فيما حصل للكبار، وما حصل للأقوام السابقة، ما الذي أخرج الأبوين من الجنة؟ من دار النعيم واللذة والسرور إلى دار الآلام والأحزان..؟؛ المعصية..!.. فالحرام يترتب عليه مفاسد ومصائب..

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ باطنه وظاهره فجعله في أقبح صورة وبدّله بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجنّة ناراً تلظّى فهان على الله غاية الهوان وصار فاسقاً مجرماً قاد البشرية إلى كل فساد وشرّ؟؛ المعصية..!

ما الذي أغرق أهل الأرض جميعهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال..؟، ما الذي سلّط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم صرعى على سطح الأرض..؟، ما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطّعت قلوبهم في أجوافهم..؟، ما الذي رفع قرية سدود.. قرية قوم لوط.. حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأتبعها بحجارة وجعل مكانها شيئاً منتناً لا يكاد يوجد فيه حياة..؟،

وما الذي أرسل على قوم شعيب عذا ب الظُّلّة، لما صار فوق رؤوسهم أمطرهم ناراً تلظّى..؟، وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم تعرض عليها صباح مساء؟ فالأجساد للغرق والأرواح للحرق والموعد يوم القيامة..!

وكذلك فالإنسان لابد أن يتعلم كيف يغالب هواه وابتداءً من معالجة الخواطر، أول ما تأتي الخاطرة بالمعصية أو بالشر يطردها، وهذا هو العلاج الناجع؛ أن الإنسان يدافع الهوى والخاطرة ويتغلّب عليها، ولا بأس أن يفطم نفسه عن المعاصي ولو كان ذلك

شيئاً مكروهاً بالنسبة لـه، فالصبر على الحرام ليس سهلاً بل فيه ألم لكن يعقبه لذّة وراحة يوم الدنيا..

ولاشك أن هذا كما تقدم فيه غصّة في البداية لكن أحسن من الشوك والغسلين والضريع يوم القيامة والإنسان أحياناً يترك المعاصي شهامة ورجولة لو تأمل ما فيها من الخسّة..

وأغـضّ طرفـي إن بـدت لـي جـارتي ::: حتـــى يـــواري جـــارتي مأواهـــا

إذا كان هذا العربي قبل الإسلام يفاخر أنه يغض طرفه عن جارته فبعد الإسلام كيف يجب أن نكون..؟، إذا كان الفرد يمكن أن يترك بعض المعاصي خجلاً من الناس.. فما باله إذا فكر من جهة الله..؟ سيكون الترك أعظم..!

ثم يجب على المرء أن يعرف مكائد إبليس لكي يتقيه وإبليس لـه عدة طرق في إغواء الناس فينبغي أن ينظر فيها، كيف يشغله مثلاً بالمفضول عن الفاضل وهذا أنزل المراتب وكيف يبدأ به من الشرك أولاً..!

صفات المتقين:

١- ذكر الله من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب إيماناً جازماً**{هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}**.

٢- يعفون ويصفحون**{وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**.

٣- لا يقترفون الكبائر ولا يصرون على الصغائر، وإذا وقعوا في ذنب سارعوا إلى التوبة منه**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}** سارعوا مباشرة إلى التوبة والإنابة إذا أصابتهم صغيرة.

٤- يتحرون الصّدق في الأقوال والأعمال**{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**، الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدق به قيل هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.**{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**، هذا بيان أن المتقي يصدق.

٥- يعظمون شعائر الله**{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}**، وما معنى تعظيم شعائر الله؟؛ أن المرء يعظم حرمات ربه فلا ينتهكها، ويعظّم أوامر الله فيأتي بها على وجهها، ويأتي بأنفس الأشياء، فلو طُلِب منه هدي في الحج أو أضحية استسمنه واستحسنه وأتى به على أحسن وأنفس وأغلى ما يجد، هذا من تعظيم شعائر الله. وكان إشعار الهدي وهو تعليمه بعلامة حتى لا يؤخذ أو إذا ضاع يُعرف هذا ما يفعله الحاج من السنة.

٦- يتحرون العدل ويحكمون به**{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**. الآية أساساً في المشركين والمشركون يكرهون ويبغضُون لأجل شرك والكفر ومع ذلك أمرنا أن نعدل فيهم. وعلي بن أبي طالب لما اختصم مع يهودي، حكم عليه القاضي لما لم يأتِ ببينة، وسُلّمت الدرع لليهودي، فاندهش اليهودي كيف يُحكم له على أمير المؤمنين، والدرع كان لعلي رضي الله عنه ولم تكن له بيّنة، قال شهودي الحسن والحسين، قال لا تجوز شهادة الأبناء للأب، قال سيّدا شباب أهل الجنة، قال هذا في الجنّة..، فمن دهشة اليهودي مما رأى قاليا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، الدرع درعك، سقطت منك وأنت خارج إلى صفّين، فاختلستها. إذاً إذا رأى الكفار عدل المسلمين يمكن أن يسلموا.

٧- المتقين يتبعون سبيل الأنبياء والصادقين والمصلحين يكونون معهم، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}**، فأهل الصدق هم أصحاب المتقين وإخوانهم ورفقاءهم وأهل جلوسهم وروّاد منتدياتهم.

٨- يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس لأجل حديث **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**، تمام التقوى أن تتقي الله حتى تترك أحياناً ما ترى بعض الحلال خشية أن تكون حراماً، النبي ﷺ كان يرى تمرة فيريد أن يأكلها فيتركها لأنه يخشى أن تكون سقطت من تمر الصدقة. والورع يجب أن يكون ورعاً صحيحاً، فبعض الناس يفعلون الكبائر ثم يتورعون عن الأشياء اليسيرة..!. "

المبحث الخامس: الـورع

لغة: ورِع، يرِعُ، مأخوذ من مادة وَرَعَ التي تدل على الكفّ والانقباض عن ما لا ينبغي ويقال توّرع أي تحرّجَ، والورع التقوى.

اصطلاحا: ترك ما يريبك ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق وحمل النفس على الأحوط، والورع اجتناب الشبهات ومراقبة الخطرات.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الورع: "عمّا قد تُخَاف عاقبته وهو ما يًعلَم تحريمه وما يُشَك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله - فهذا قيدٌ مهم في الأشياء المشكوك فيها -، وكذلك الاحتيال بفعل ما يشك في وجوبه ولكن على هذا الوجه".

وعرف ابن القيم رحمه الله بقوله: " ترك مايُخشى ضرره في الآخرة".

الورع معشر الإخوة الكرام مصطلح نبوي شرعي؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ في وصيته لأبي هريرة رضي الله عنه: "كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأَقِلّ الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب"[(١)].

من حديث سعد أنه ﷺ قال: «**فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة وخير دينكم الورع**» [(٢)].

ففي هذه النصوص الصحيحة عنه ﷺ أطلق ﷺ فيها هذا اللفظ وهذا المصطلح، فهو إذن مصطلح شرعي نبوي، وإن كان ليس من شروط هذه المصطلحات أن ترد بنصها عن النبي ﷺ، فما دام المصطلح لا يعارض النصوص الشرعية فلا مشاحة في الاصطلاح.

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه الحاكم والطبراني في الأوسط.

أما الأدلة لـه على معنى الورع دون لفظه فهي أدلـة كثيرة في كتـاب الله وسنة نبيـه ﷺ، ومنها الحديث العظيم الجامع الذي جعله جمعٌ من أهل العلم أحد الدعائم التي يقوم عليها الإسلام، وهو حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الحلال بيّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»** (١).

والحديث مشهور في كتب السنة بروايات عدة، ويحفظه الصغير والكبير، وهو قاعدة في التورع مما يشتبه منه، مع أن معنى الورع - كما سيأتي - يأخذ مدى أكبر من هذا المدى ودائرة أوسع من هذه الدائرة، والتورع عن المشتبهات والبعد عنها ليس إلا باباً من أبواب الورع.

ومن الأدلة في هذا المعنى حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»** (٢).

وحين جاء وابصة بن معبد إلى النبي ﷺ فقال لـه ﷺ : **«جئت تسأل عن البر»**، فقال: نعم، قال لـه ﷺ : **«استفت قلبك؛ البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»** (٣)، وهذا الحديث فيه إيماء وإشارة إلى تلك الحساسية المرهفة التي يملكها عباد الله الصالحون؛ فصارت نفوسهم تطمئن إلى البر وترتاح إليه، وصارت نفوسهم تأنف من المعصية وإن أفتاها الناس وأفتوها، ولا شك أن هذا الحديث مع ما فيه من الدلالة على الأمر بالتورع مما حاك في الصدر وإتيان ما اطمأنت إليه النفس، فهو إشارة إلى حال الصالحين وحال قلوبهم التي ترى بنور الله سبحانه وتعالى؛ فتطمئن هذه القلوب للبر والهدى والتقى والصلاح، وتشعر باشمئزاز ونفور وتردد من الإثم وأسبابه، ولو أفتاها

---

(١) الأربعين النووية صفحة ٣٨/ النووى.

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه.

(٣) رواه أحمد والدارمي، ولـه شاهد عند الإمام أحمد من حديث ثعلبة.

الناس، وهذا المقياس في مسألة البر والإثم ليس إلا لعباد الله الصادقين، بل لعله أن يكون أمارة نختبر بها قلوبنا؛ فإن كانت تطمئن للبر والصلاح والتقوى وتشمئز من المعصية والسيئة وتنفر منها فهي قلوب صالحة بإذن الله، وإن كانت دون ذلك فهي بحاجة إلى تزكية وإصلاح.

وهو ليس خطاباً للمعرضين الذين علا الران على قلوبهم، فأصبحت نفوسهم مأسورة بهواها وشهواتها، فقلبه ونفسه إنما تطمئن لمعصية الله سبحانه وتعالى وإيذاء عباده المؤمنين المتقنين، بل كم من الناس انقلبت الموازين لديه فأصبحت السيئة حسنة والحسنة سيئة.

إذن فهذا المقياس إنما هو لأولئك الصالحين الذين توجهت قلوبهم لله سبحانه وتعالى فأصبح القلب لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله سبحانه وتعالى، ولا يتوجه إلا لله، وقبلته إلى الله عز وجل لا يفارقها؛ فكما أنه يستقبل القبلة في صلاته ويقف بين يدي الله عز وجل كل يوم خمس مرات فقلبه إنما قبلته لله لا يمكن أبداً أن يستقر في قلبه محبة غير الله أو التوجه له، أو أن يكون فيه إرادة تخالف أمر الله سبحانه وتعالى وشرعه، لهذا ارتقت هذه النفوس إلى هذا القدر ؟فصارت تطمئن للبر وتشمئز من الإثم؛ فمنحها الله عز وجل هذا النور وهذا الفرقان وفي آية أخرى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ}**.

أيها الورع انتبه...

١ – الورع منه واجب ومنه مستحب:

كثير من الناس حينما يطلق مصطلح الورع ينصرف ذهنه إلى دقائق الورع، والبعد عن المشتبهات؛ فيرى أن الورع ليس ضمن دائرة الواجبات إنما هو مقام للخاصة والصالحين، وليس واجباً على أحاد الناس.

قال شيخ الإسلام: " فأما الورع المشروع المستحب الذي بعث الله به محمداً ﷺ فهو اتقاء ما يخاف أن يكون سبباً للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح، ويدخل في ذلك

أداء الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب، وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام، وإن أدخلت فيه المكروهات قلت: يخاف أن تكون سبباً للنقص والعذاب، وأما الورع الواجب فهو اتقاء ما يكون سبباً للذم والعذاب، وهو فعل الواجب وترك المحرم، والفرق بينهما (أي بين الورع الواجب والمستحب) فيما اشتبه أمِن الواجب أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه"؟

٢ – أن ما لا ريب في حله ليس فيه ورع بل الورع فيه من التنطع:

قال رحمه الله: "وأمَّا ما لاريب في حله فليس تركه من الورع، وما لا ريب في سقوطه فليس فعله من الورع".

٣ – الورع يكون في الفعل كما هو في الترك:

وذلك أن البعض من الناس يعتقد أن الورع يكون في الترك فقط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لكن يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات: أحدها اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب، وهذا يُبتلى به كثيرٌ من المتدينين المتورعة، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم أو معاملة فاسدة، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه إما عيناً وإما كفاية وقد تعيَّنت عليه من صلة رحم وحق جار ومسكين وصاحب ويتيم وابن سبيل وحق مسلم وذي سلطان وذي علم، وعن أمر بمعروف ونهي عن منكر وعن الجهاد في سبيل الله إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه، أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى بل من جهة التكليف ونحو ذلك".

٤ – أن الورع إنما هو بأدلة الكتاب والسنة:

قال رحمه الله: "الجهة الثانية من الاعتقاد الفاسد: أنه إذا فعل الواجب والمشتبه وترك المحرم والمشتبه، فينبغي أن يكون اعتقاد الوجوب والتحريم بأدلة الكتاب والسنة وبالعلم لا بالهوى، وإلا فكثير من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك

مما يقوي تحريمها واشتباهها عنده،

ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة فتكون تلك الظنون مبناها على الورع الفاسد فيكون صاحبه ممن قال الله تعالى فيه:**{إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ}** ومن هذا الباب الورع الذي ذمه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: لما ترخص في أشياء فبلغه أن أقواما يتنزهون عنها. فقال: ما بال أقوام يتنزهون عن أشياء أترخص فيها؟ والله إني لأرجو أن أكون أعلمهم بالله وأخشاهم، وفي رواية أخشاهم وأعلمهم بحدودهم له وكذلك حديث صاحب القُبلة، ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلاَّ فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم".

٥ – الورع لا يكون إلا بالإخلاص:

قد تأتي الإنسان اعتبارات تدفع إلى الورع، فقد يكون لـه مقام واعتبار ويرى أنه مما ينبغي أن لا يليق بأمثاله أمام الناس، فيكون دافعه إلى ذلك مُراءاة الناس، وقد يكون دافعه حظ النفس أو هوى النفس، أو غيرها من الأمور؛ فالورع مثل سائر الأعمال الصالحة التي يتقرب فيها الإنسان إلى الله عز وجل لابد فيها من الإخلاص، قال شيخ الإسلام: "واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه ويكون ثواب إلا بفعل المأمور به من الإخلاص".

٦ – التدقيق في مسائل الورع للخاصة وليس لآحاد الناس:

قال الحافظ ابن رجب: "وههنا أمرٌ ينبغي التفطن لـه وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل لـه ذلك، بل ينكر عليه وهذا حال بعض المتكلفين المرائين يسلك هذا المسلك كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين وسمعت النبي ﷺ يقول: **«هما ريحانتاي في الدنيا»**.

ونقل بعض النقول عن بعض السلف هي أمثلة عن هذا النوع من ذلك، ثم قال: وسأل بشر بن الحارث عن رجل لـه زوجة وأمه تأمره بطلاقها، فقال: إن كان بر أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فيفعل، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل، وسُئِل الإمام أحمد رحمه الله عن رجل يشتري بقلاً ويشترط الخوصة - يعني التي يربط بها جزرة النقل - فقال أحمد: إيش هذه المسائل، قيل لـه إنه: إبراهيم بن أبي نعيم، قال: إن كان إبراهيم بن أبي نعيم فنعم، هذا يشبه ذلك، وإنما أنكر أحمد هذه المسائل ممن لا يشبه حاله وأما أهل التدقيق في الورع فيشبه حالهم هذا، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل في نفسه هذا الورع فإنه أمر من يشتري لـه سمنا فجاء به على ورقة فأمر برد الورقة إلى البائع، وكان أحمد لا يستمد من محابر أصحابه وإنما يخرج منه محبرة يستمد منها، واستأذنه رجل أن يكتب من محبرته فقال: اكتب فهذا ورع مظلم، واستأذنه آخر في ذلك فتبسم وقال: لم يبلغ ورعي ولا ورعك هذا، وهذا قاله على وجه التواضع، وإلاَّ فهو كان في نفسه يستعمل هذا الورع، وكان ينكره على من لم يصل إلى هذا المقام بل يتسامح في المكروهات الظاهرة ويقدم على الشبهات من غير توقف".

وهذا الأمر مهم أن نعيه ونحن نقرأ، ووردت بعض الروايات عن السلف في ورعهم حتى لا نقع في هذا الغلط الذي لـه آثار سلبية على نفوسنا؛ فنحن أحوج ما نكون إلى الورع الواجب، وأحوج ما نكون إلى اجتناب المحرمات الظاهرة الواضحة، وأحوج ما نكون إلى إصلاح قلوبنا، فإذا انشغلنا بهذه الدقائق تركت آثاراً على أنفسنا، منها أن تشعر أنفسنا بالزهو واحتقار الآخرين وأن الناس لا يتورعون، ومنها أن:

من فوائد الورع......!!!

١- اتقاء عذاب الرحمن وتحقيق راحة البال للمؤمن وطمأنينة النفس وهذه مسألة مهمة جداً.

٢- يكفّ عن الحرام.

٣- يبعده عن إشغال الوقت فيما لا يفيد.

٤- يجلب محبة الله لأن الله يحب المتورّعين.

٥- يفيد استجابة الدعاء، لأن الإنسان إذا طهّر مطعمه ومشربه وتورّع يرفع يديه فيجاب لـه الدعاء.

٦- مرضاة الرحمن وزيادة الحسنات.

٧- يتفاوت الناس في الدرجات في الجنة بتفاوتهم في الورع.

والمسلم إذا نقل قلبه من الدنيا فأسكنه في الآخرة وأقبل على القرآن الكريم انفتحت لـه الأبواب وكان فيمن يستطيع تحمّل هذا الورع، وهناك حلال محضٌ بيّن وحرام محضٌ ومسائل مشتبهة بينهما، فلبس القطن والكتان والصوف والزواج بعقد صحيح وأخذ المال من الميراث أو هبة من إنسان ماله حلال أو شراء شيء ببيع صحيح، أمور الحلال المحض واضحة، وأمور الحرام واضحة كالميتة والدم والخنزير والخمر ونكاح المحارم ولباس الحرير للرجال وأخذ الأموال المغصوبة والمسروقة والغش والرشوة، أما المشتبهات التي ينبغي للمرء المسلم أن يتورّع عنها مثل: ما اختلف في حلّه وحرمته، مثلاً البغل متولّد ما بين الحمير والخيل، جلود السباع ولو كانت مدبوغة، التورّق وهو أن تشتري شيء بالأقساط وتبيعه نقداً لتحصّل سيولة وبعض العلماء لم يجزه مع أن الراجح جوازه لكن المسألة مختلف فيها، ونحو هذا..

إذاً من أسباب الشبهة تنازع العلماء في شيء معين هل هو حلال أو حرام وكل طائفة لهم أدلتهم، ماترك النبي ﷺ حلالاً إلا بيّنه ولا حراماً إلا بيّنه ولكن بعض الناس يخفى عليهم بعض الحلال أو بعض الحرام ويتفاوتون في هذا ومن أسباب اختلاف العلماء فيه أنه ينقل في الشيء نصان أحدهما بالتحليل وأحدهما بالتحريم وقد يكون أحدهما صحيح والآخر ضعيف وأحدها ناسخ والآخر منسوخ فيأخذ كل طائفة من العلماء بنص من النصين فيحدث الاختلاف، أحياناً يكون الشيء فيه أمر فيقول بعضهم هذا للوجوب وبعضهم يقول هذا للاستحباب، والورع هو أن تقوم بهذا الأمر. جاء نهي

فقال بعض العلماء النهي للتحريم وقال بعضهم النهي للكراهة والورع أن تتركه.

والعلماء أنفسهم قد تشتبه عليهم أشياء فلا يفتون فيها أو يتوقفون عنها، ومن أمثلة الأشياء المشتبهة ما لايُعلَم له أصل ملكٍ كما يجده الإنسان في بيته فلا يدري أهو له أم لغيره، النبي ﷺ قال: «**إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها**»، ولكن من جهة التحريم والحل، فالأصل في المال الموجود في بيتك أنه لك، فجانب الحل أقوى، لكن إذا أردت الورع وتصدقت بهذا المال أحسن..

وكذلك فإن الشيء قد يجتمع فيه أحياناً سبب للحل وسبب للحرمة، فيتركه الإنسان فالنبي ﷺ علّمنا عن أمور الأصل فيها الحظر كالأبضاع ولحوم الحيوان فلا تحل إلا بيقين، ولو حصل تردد مثل اجتماع سبب حاضر ومبيح نبقى على الأصل فيها وهو التحريم فقال ﷺ في من أطلق سهماً على صيدٍ أو كلبه على صيدٍ فلما جاء ليمسك بالصيد وجد عنده كلباً آخر لا يدري الذي أمسك كلبه أو الكلب الآخر، فإذا كان الكلب المعلَّم يجوز صيده، ومعنى ذلك أن الصيد غير المعلَّم لا يجوز صيده، فماذا يفعل إذا وجد مع الفريسة كلباً آخر لايدري كلبه الذي صاد أو الكلب الآخر، وصل إلى الصيد الذي صاده وقع في الماء فلايدري هل قتل بالسهم أو قتل بالغرق، الأصل يجوز الأكل مادام السهم أو البندقية خرقت وخزقت وسمّى الله على البندقية وأطلق ولكن وقوع الطائر في الماء يجعله في ريبة هل موت الطائر بفعل الرمية التي رماها أم الغرق فيتركه.

لو جاء رجل لأرض أو سجادة وقال لنفسه هذا رجل لديه أبناء قد يكونون بالوا عليها، فأنا لن أصلي عليها، تورّع عن الصلاة عليها فما حكم هذا التورّع، هل هو شرعي أم لا؟، هذا تورع غير شرعي لأنه خالف الأصل بدون أي قرينة، والأصل في الأشياء الطهارة، فيكون هذا ورعاً فاسداً.

فسّر الإمام أحمد رحمه الله الشبهة بأنها منزلة بين الحلال والحرام - يعني الحلال المحض والحرام المحض - وقال من اتقاها فقد استبرأ لدينه، وفسرها تارة باختلاط الحلال والحرام.

ومن ضمن الأمثلة أيضاً معاملة من ماله مختلط، رجل يرابي ويبيع ويشتري، عنده حلال وحرام، فقال العلماء إذا كان أكثر ماله الحرام قال الإمام أحمد: ينبغي أن يجتنبه إلا أن يكون يسيراً أو لا يُعرَف، والحرام غير معيّن وليس معروفاً، فيجوز الأكل والورع تركه. وقال الزهري: لا بأس أن يُؤكل منه مالم يعرف أنه حرام بعينه. وقال سفيان: تركه أعجبُ إليّ. وقال الإمام أحمد في المال المشتبه حلاله بحرامه: إن كان المال كثيراً أخرج منه قدر الحرام وتصرّف في الباقي، وإن كان المال قليلاً اجتنبه كله، وهذا لأن القليل إذا تناول منه شيئاً فإنه تبعد معه السلامة من الحرام. ورخّص قومٌ من السلف في الأكل ممن يُعلَم في ماله حرام ولكن لا يُعلَم على التعيين ماهو الحرام، وهذه هي الخلاصة: يجوز معاملة من ماله مختلط إذا ما علمنا الحرام أين بالضبط والورع ألا يأخذ منه.

وكذلك فإن الاستبراء للدين مهم جداً في حياة الدين المسلم، والإنسان قد لا يشبع من الشبهة وقال الثوري رحمه الله في الرجل يجد في بيته الأفلس والدراهم: أحب إليّ أن يتنزّه عنها إذا لم يدري من أين هي.

ومن تمام التقوى أن يتقِ الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة، وقال الحسن: مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام، وقال الثوري: إنما سمّوا المتقين لأنهم اتقوا مالا يُتّقى. وقال ابن عمر: إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها. وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال وحتى يدع الإثم وما تشابه منه.

وكذلك فإن النبي ﷺ قد قال: **«الإثم ماحاك في الصدر وكرهت أن يطّلع عليه الناس»**، إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً فلم ينشرح

لـه الصدر ومع هذا فإنه عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه.

لكن الإنسان قد يقلق من أشياء لجهله فلينتبه من هذا وليسأل أهل العلم، وهنا تظهر أهمية الاستفتاء وسؤال أهل الذكر الثقات.

الصحابة تحرجوا من أن يأكلوا من اللحم الذي صاده أبو قتادة فالنبي ﷺ أكل، وفرّق العلماء بين ما صيد لأجله (لأجل المحرم) وما صاده الحلال لا لأجل المحرم فيجوز للمحرِم أن يأكل منه. لكن لو أن الشخص الحلال غير المحرم صاد لك أنت أيها المحرِم فلا تأكل. والمقصود أن سؤال أهل العلم الثقات مما يريح الإنسان فينبغي أن لا ينسى هذا وأن يكون على ذكر منه. دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت.

الإثم حوازّ القلوب تحز في القلوب والنفوس. وكذلك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة وكان بعض العلماء يعرفون الحديث الضعيف بأمور بقلوبهم وهذا ليس إلا للعلماء النقاد الكبار وأما طلبة العلم العاديين فلا يمكن أن يعرف ذلك بقلبه إلا فيما ندر.

وطلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد ادعى بعض الجهّال أن الحلال في الأرض انتهى، وبعضهم قال باقي الحشيش والكلأ في البر والأراضي التي ليس لها أحد ونهر الفرات؛ وهذا تضييق على عباد الله ومن الجهل وقلة العلم فإن النبي ﷺ قال هذه القاعدة المهمة جداً: **«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات»**، والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث ولكن بعضه أخبث من بعض، والإنسان المسلم قد يكون عنده الحلال معلوماً من قبل ثم يقع في شك فلا يلتفت لهذه الوسوسة إذا لم يكن لها دليل ولا قرينة وكذلك قد يكون يعرف الحرام من قبل فيأتي في نفسه وسوسة أن هذا ليس حراماً بدون علم ولا خبر ثقة أفتاه به أهل العلم فلا يلتفت إليه، وقد يعرف الإنسان الحل ويشك في المحرم فيكون الأصل الحل كما تقدم وهناك مثال يضربه بعض الفقهاء ويدل على قلة عقل من وقع فيه قال: اثنان وقفا فجاء طائر فاختلفا هل هذا غراب أم لا؟

فقال أحدهم عليه الطلاق أنه غراب، وقال الآخر عليه الطلاق أنه ليس بغراب، فلما أرادا أن يأتيا للتحقق طار الطائر ولم يدركاه، فصارت مشكلة فزوجة مَن طالق..!

فبعض الناس يفعل أشياء من قلة العقل، وفي هذه الحالة يقول العلماء: الأصل بقاء النكاح وحل المرأة للرجل، احتمال الطلاق وارد ومشكوك فيه. ولذلك فإن على الإنسان أن لا يورد نفسه في الموارد التي يتسبب بها في الحرج في نفسه وأن يقع في تعذيب النفس والشك، وقد يدخل الشك على بعض الناس في قضايا لا يشرع لهم أبداً السؤال فيها، فهل يجوز لإنسان دخل على بيت مسلم مستور مايعرف عنه أي ريبة، وُضِع له الطعام، أن يقول له: المال الذي اشتريت به هذا العشاء من أين أتيت به. هل هذا من الورع..؟!

وفي ذلك إيذاء للمسلم لأن سؤالك هذا اتهام له..! واتهام المسلم ووضعه في موضع الشك بدون قرينة ولا دليل ولا بينة لا يجوز وسوء ظن، وإيذاء المسلم للمسلم حرام.

أحياناً تأتي أشياء تستدعي التورع مثلاً إذا دخل حلال قليل في حرام كثير فعند ذلك تكون هذه القضية مما يدفع الإنسان إلى الورع فعلاً. كذلك إذا كانت القضية في الأبضاع واللحوم كما تقدم. مثلاً هناك امرأة ثقة وجئتَ لتخطب فتاة فقالت أنا أرضعتها أو أرضعت أختها، أنا متأكدة أني أرضعت إحدى الأختين، لا أدري أيتهما، فالورع أن تترك الزواج من كلتيهما. مثلاً اثنان ذبحا ذبيحتين، إحداها ذبحها هندوسي والأخرى ذبحها مسلم، جئت لتشتري وأنت تعلم ذلك ولكن لا تدري أيتهما التي ذبحها هذا وأيتهما التي ذبحها الآخر فلا تشتري.

مسألة اللحوم والأبضاع شديدة في الشرع ولذلك يحتاط فيها في أشياء أكثر من غيرها، ولكن بشرط أن لا يصل إلى الوسوسة أيضاً، فلو أن هذه ذبيحة مسلم لا يجوز لك أن تشك فيها. إذاً هناك وسوسة في هذه القضايا لا يجوز الالتفات إليها، وورع الموسوسين مثاله؛ قال ابن حجر في فتح الباري: "ورع الموسوسين كمن يمتنع من أكل الصيد خشية أن يكون الصيد كان لإنسان ثم أفلت منه، وكمن يترك شراء ما يحتاج إليه

من مجهول لا يدري أماله حلال أم حرام، وليست هناك علامة تدل على الثاني ".

هناك مسائل من الورع الدقيق لا تليق بكل الأشخاص.

قال ابن رجب رحمه الله: " وهاهنا أمر ينبغي التفطّن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع - فهذا لو دقق يقبل منه التدقيق -، أما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورّع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك بل ينكر عليه" كما قال ابن عمر لأهل العراق لما جاءوا يسألونه عن دم البعوض وفيهم ممن قتل الحسين بن علي رضي الله عنه، قالوا المحرم إذا قتل بعوضة يجوز أم عليه فدية، فقال: "يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين وقد قال ﷺ هما ريحانتاي من الجنة؟!! ".

وسُئِل الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلاً ويشترط الخوصة، فقال الإمام أحمد: ماهذه المسائل؟ قالوا: إنه إبراهيم بن أبي نعيم. فقال: إن كان إبراهيم بن أبي نعيم فنعم هذا يشبه ذاك (هو من كبار الزهاد العابدين). ولذلك لما جاء رجل إلى الإمام أحمد يقول إن أمه تأمره بطلاق زوجته، قال: إن كان برّ أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل..!

الخلاصة:

أن الورع منه دقائق لا تليق بأي أحد، بل ينكر على من تورع فيها إذا كان من أولئك الفسقة أو المتساهلين، وعلى أية حال فإن الورع هو من العبادات العظيمة وملاك الدين الورع، والفقية الورع الزاهد المقيم على سنة النبي ﷺ له أجره العظيم يوم الدين، والإنسان ينبغي أن يضع نفسه في الموضع الصحيح في مسألة الورع كما قال الأوزاعي: (كنا نمزح ونضحك فلما صرنا يُقتدى بنا خشيت أن لا يسعنا التبسُّم).

وهذا الورع يُتَعَلَّم، كما قال الضحّاك بن عثمان رحمه الله: (أدركت الناس وهم يتعلمون الورع وهم اليوم يتعلمون الكلام)، والإنسان إذا تورّع لن يعدم الحلال ولا يظن

أنه سيضيق على نفسه ضيقاً لا مخرج منه فإنه يلتمس الورع الشرعي مثلما تقدم.

* * * * *

المبحث السادس:

الإخبات

الخبت في اللغة: هو الأرض المنبسطة، والإخبات: أخبت إذا طأطأ حتى يساوى بالأرض، ففي هذا دليل على كمال الانقياد والإذعان:**{فَتُخْبِتَ له قُلُوبُهُمْ}** (١) فالإخبات هو عدم الاعتراض، فلو ارتفعت لكان فيها نوع من الاستكبار.

ولهذا يقولون في قلوب الكفار: إنها قلوب متكبرة جبارة، وكثيراً ما يصفهم الله بوصف الاستكبار؛ لأنهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعته والانقياد لأمره، فالاستكبار ضد الإخبات.

والإخبات في الشرع هو: الخضوع الكامل والمطلق، فكأنه التصق بالأرض، فليس لديه أي اعتراض على ما يأتي من عند الله تبارك وتعالى، فهو كما قال الله عز وجل:**{فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}**(٢).

والتسليم هو: حالة الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ في حديث جبريل العظيم المشهور، وهو: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** لأنه كما قال ابن القيم رحمه الله تحكيم رسول الله ﷺ في مقام الإسلام.

فمن لم يحكم رسول الله على قلبه ونفسه، ويجعل هواه تبعاً لما جاء به في أصل التحكيم؛ فإنه ليس بمؤمن ولا بمسلم، إذ التحكيم في مقام الإسلام هو كما قال:**{حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ}**(٣)، وانتفاء الحرج يكون في مقام الإيمان، فالإيمان درجة أعلى من درجة الإسلام، فالدرجة هذه أنه حكم وانتفى الحرج من قلبه فلا حرج فيما يحكم به رسول الله ﷺ.

---

(١) الحج: ٥٤.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) النساء: ٦٥.

والمقصود هو: ما جاء به عامة، أي: ما جاءنا من حكمه ﷺ، وهديه وسنته الظاهر منها والباطن، فنجعل كأنّ رسول الله ﷺ، بنفسه قائم بين أظهرنا، يقول: اعملوا كذا ولا تعملوا كذا.

فرسول الله ﷺ غاب بجسده، وأما دينه وسنته وهديه فهي بين أيدينا وحجته قائمة علينا، فلا بد من انتفاء الحرج هذا في مقام الإيمان.

وقفة مع قوله تعالى{وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ}.

كثير ما نقرأ آيات لكن هل وقفنا مع آياته؟

لكني الآن سأقف معكم عند قوله تعالى: (وبشر المخبتين).

ما معنى المخبتين؟

قال ابن القيم: " من منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإخبات "

والإخبات في اللغة: المكان المنخفض من الأرض.

والمراد بالمخبتين في الآية اختلف المفسرين فيه:

قال ابن عباس وقتادة: هم المتواضعون.

قال النخعي: المخلصون.

قال الأخفش: الخاشعون.

قال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم.

قال عمرو بن أوس: (الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا).

ورد لفظ (الإخبات) في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي؛ قوله تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**[1]

---

(١) هود: ٢٣.

وقولـه سبحانه:**{فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ}**[1] وقولـه عز من قائل:**{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}**[2] وكان من دعائه ﷺ : «**رب اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا**» [3]، وأيضًا قولـه ﷺ : «**اللهم إنَّا نسألك قلوبًا أوَّاهة مخبتة منيبة في سبيلك**» [4].

وأصل (الإخبات) في اللغة من الخَبْت، وهو المكان المنخفض والمطمئن من الأرض، ضد المُصعد والمرتفع؛ ثم استعير لمعنى التواضع، كأن المخبت سلك نفسه في الانخفاض، فأصبحت سهلة سمحة مطواعة؛ ويقال: فيه خِبْتة، أي: تواضع ودماثة.

وبناء على هذا الأصل اللغوي تفرع القول في معنى (الإخبات) فقالوا في معناه: هو الخشوع، والخضوع، والتواضع؛ يقال: أخبت لله، خشع؛ وأخبت، تواضع؛ وأخبت إلى ربه، أي: اطمأن إليه؛ وقد رُوي عن مجاهد في قولـه عز وجل:**{وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ}** قال: هم المطمئنون، وقيل: هم المتواضعون؛ والمراد بهم المؤمنون؛ لأن التواضع من شيمهم، كما أن التكبر من سمات المشركين، قال تعالى:**{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}**[5].

وقال المفسرون في تفسير قولـه تعالى:**{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}** أي: أطاعوا ربهم أحسن طاعة، وتواضعوا لأمره بامتثاله؛ وأيضًا فُسِّر قولـه تعالى:**{فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}** بأنه التواضع، أي: فيستقر الحق في قلوبهم فيخضعوا لـه، ويستسلموا لحكمه، كما قال تعالى في حق إبراهيم الخليل عليه السلام:**{قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}**[6].

---

(١) الحج: ٣٤.
(٢) الحج: ٥٤.
(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي.
(٤) رواه الحاكم.
(٥) غافر: ٣٥.
(٦) البقرة: ٢٦٠.

وكما ترى، فإن مصطلح (الإخبات) يفيد معنى الخشوع، والخضوع، والتواضع، كما يفيد معنى الهبوط، والنزول؛ وهو على ارتباط وثيق بهذه المعاني كلها، فيشترك معها في كثيرٍ من الدلالات اللغوية، وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفيًا بين كل واحدٍ منها، كما تفيد بذلك كتب الفروق اللغوية.

ولك أن تلاحظ - أخي القارئ الكريم - أن الآيات والأحاديث السابقة، والتي ذُكر فيها لفظ (الإخبات) أن هذا اللفظ قد جاء فيها مضافًا إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يأتِ في القرآن الكريم ذِكْرٌ لهذا اللفظ مضافًا لغير الله تعالى؛ بينما جاء لفظ (التراحم) و(الذل) وصفًا مضافًا للمؤمنين، قال تعالى:**{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}**[1] وقال جل علاه:**{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}**[2] ويمكن أن يُستفاد من هذا المَلْحَظ، أن مصطلح (الإخبات) ليس تواضعًا فحسب، وإنما هو تواضع مع انقياد؛ فـ (الإخبات) لله هو التواضع له سبحانه، وذلك يكون بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، وتعظيم شرعه، والذل والخضوع بين يديه، وتحكيم شرعه في مناحي الحياة كافة، مع القبول والتسليم بكل ما شرع.

وإذ تبين هذا، أمكن لنا أن نقول: إن التواضع المجرد، وإن كان فيه لين جانب وسهولة طبع، يفارق معنى (الإخبات) من جهة أن التواضع المجرد، تواضع غير مقرون بالانقياد، أما (الإخبات) فهو تواضع مقرون بالانقياد، وهو الذي امتدح الله به عباده المؤمنين.

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأن يجعلنا من الذين يجمعون بين القول والعمل في سلوكهم، ومن الذين وصفهم الله سبحانه بقوله:**{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}**.

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) المائدة: ٥٤.

ورد لفظ (الإخبات): في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي؛ قوله تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**[1].

وقوله سبحانه:**{فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ}**[2].

وقوله عز من قائل:**{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}**[3] وكان من دعائه ﷺ : «**رب اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا**» [4].

وأيضًا قوله ﷺ : «**اللهم إنَّا نسألك قلوبًا أوَّاهة مخبتة منيبة في سبيلك**» [5].

وأصل (الإخبات) في اللغة من الخَبْت، وهو المكان المنخفض والمطمئن من الأرض، ضد المُصعد والمرتفع؛ ثم استعير لمعنى التواضع، كأن المخبت سلك نفسه في الانخفاض، فأصبحت سهلة سمحة مطواعة؛ ويقال: فيه خِبْتة، أي: تواضع ودماثة.

وبناء على هذا الأصل اللغوي تفرع القول في معنى (الإخبات) فقالوا في معناه: هو الخشوع، والخضوع، والتواضع؛ يقال: أخبت لله، خشع؛ وأخبت، تواضع؛ وأخبت إلى ربه، أي: اطمأن إليه؛ وقد رُوي عن مجاهد في قوله عز وجل:**{وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ}** قال: هم المطمئنون، وقيل: هم المتواضعون؛ والمراد بهم المؤمنون؛ لأن التواضع من شيمهم، كما أن التكبر من سمات المشركين، قال تعالى:**{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}**[6].

---

(١) هود: ٢٣.
(٢) الحج: ٣٤.
(٣) الحج: ٥٤.
(٤) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي.
(٥) رواه الحاكم.
(٦) غافر: ٣٥.

وقال المفسرون في تفسير قوله تعالى:**{وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}** أي: أطاعوا ربهم أحسن طاعة، وتواضعوا لأمره بامتثاله؛ وأيضًا فُسِّر قوله تعالى:**{فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}** بأنه التواضع، أي: فيستقر الحق في قلوبهم فيخضعوا له، ويستسلموا لحكمه، كما قال تعالى في حق إبراهيم الخليل عليه السلام:**{قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}**[1].

وكما ترى، فإن مصطلح (الإخبات) يفيد معنى الخشوع، والخضوع، والتواضع، كما يفيد معنى الهبوط، والنزول؛ وهو على ارتباط وثيق بهذه المعاني كلها، فيشترك معها في كثيرٍ من الدلالات اللغوية، وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفيًا بين كل واحدٍ منها، كما تفيد بذلك كتب الفروق اللغوية.

فالآيات والأحاديث السابقة، والتي ذُكر فيها لفظ (الإخبات) أن هذا اللفظ قد جاء فيها مضافًا إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يأتِ في القرآن الكريم ذِكْرٌ لهذا اللفظ مضافًا لغير الله تعالى؛ بينما جاء لفظ (التراحم) و(الذل) وصفًا مضافًا للمؤمنين، قال تعالى:**{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}**[2] وقال جل علاه:**{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}**[3] ويمكن أن يُستفاد من هذا المَلْحَظ، أن مصطلح (الإخبات) ليس تواضعًا فحسب، وإنما هو تواضع مع انقياد، والإخبات لله هو التواضع له سبحانه، وذلك يكون بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، وتعظيم شرعه، والذل والخضوع بين يديه، وتحكيم شرعه في مناحي الحياة كافة، مع القبول والتسليم بكل ما شرع.

وإذ تبين هذا، أمكن لنا أن نقول: إن التواضع المجرد، وإن كان فيه لين جانب وسهولة طبع، يفارق معنى (الإخبات) من جهة أن التواضع المجرد، تواضع غير مقرون بالانقياد، أما (الإخبات) فهو تواضع مقرون بالانقياد، وهو الذي امتدح الله به عباده المؤمنين.

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا، وأن يجعلنا

---

(١) البقرة: ٢٦٠.
(٢) الفتح: ٢٩.
(٣) المائدة: ٥٤.

مـن الـذين يجمعـون بـين القـول والعمـل فـي سـلوكهم، ومـن الـذين وصـفهم الله سـبحانه بقوله:{**وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ**}.

ثمرات الإخبات:

يتخلص من التردد ويجعل الإنسان سائر إلـى ربـه فهو كالمـاء الـذي يـروي الإنسـان عند الظمأ فيجعله يجد في سيره.

* يحمى من اتباع شهواته والميل للكسل والراحة.

* لا يلتفت عند سيره بقلة السالكين طريقه بل يشعر بالأنس بالله.

* إذا تمكن الإخبات من قلبه أمن من الواردات التي قد ترد على قلبه لتفتنه.

* ترتفع همته فلا يلتفت لمدح المادحين أو ذمهم.

* بالإخبات تدوم لائمته لنفسه على ما كان مذموم من أخلاقه.

والثمرات كثيرة ذكرها ابن القيم في كتابه مدارج السالكين.

فما أجمل الإخبات لرب العالمين.

وما أجمل بالمسلم أن يكون متصفاً بالإخلاص، والخشية، ورقة القلب، والبعد عن الظلم.

ولكي نكون من المخبتين علينا السير بما ساروا عليه فقد ذكر الله أوصافهم في قولـه تعالى:{**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**}[(١)]".

من فوائد الإخبات:

١ - أول درجات الطمأنينة والثقة بالله وحسن الظن به.

٢ - للمخبت البُشرى من الله بالجنة.

٣ - الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

٤ - الإخبات يورث صاحبه العزة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

---

(١) الحج، آية ٣٥.

٥ - الإخبات يقي من الفتنة.

٦ - بالإخبات ترفع الهمة وتعلو النفس عن الرغبة في المدح أو الخشية من الذم.

٧ - بالإخبات يباشر القلب حلاوة الإيمان واليقين.

* * * * *

المبحث السابع:

الإنابـة

قـال تعـالى:**{وَأَنِيبُـوا إِلَـى رَبِّكُـمْ وَأَسْلِمُوا لـه}**[1] والإنابـة معناهـا قريـب مـن معنـى الإخبات، وأناب في اللغة معناه: عاد ورجع، فالإنابـة: أن يعود الإنسان ويرجع إلى الله رجوعـاً كلياً متجرداً خالصـاً لله تبـارك وتعـالى، فيرجـع عن كـل مـا لديـه مـن أهـواء، وشهوات، ودوافع، ونوازع ويجعل همه هو رضا الله تبارك وتعالى.

هل سبق لك إن حاسبت نفسك يوما على سلوك يغضب الله؟؟

هل حاولت يوما أن تحصي سيئاتك؟؟

هل تذكرت يوما ذنوبك؟؟ فحاولت أن تكفر عنها..؟؟ وكيف؟؟

هل ستصبر على حالك هكذا.. وأنت مثقل بالذنوب وهم الذنوب؟؟

وهل تظن أن الله تعالى غفر لك؟؟

قـال الله تعـالى**{وَأَنِيبُـوا إِلَـى رَبِّكُـمْ وَأَسْلِمُوا لَـهُ مِـن قَبْـلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُـمَّ لاَ تُنصَرُونَ}**.

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية".

.. فموضوع المحاسبه طويل ومتشعب..

لكن خطرت لي فكرة لمراقبة نفسي ومحاسبتها.. وكانت رائعه..

فأحببت أن أعرضها عليكم.. فقد تنال رضاكم.. وتجدون فيها الرضى عن النفس وتذكيرها بواجباتها كما ذكرتها بتجاوزاتها..

---

(١) الزمر: ٥٤.

الفكرة بسيطه جدا وهي عباره عن جدول أسبوعي متجدد أو شهري..

مقسم إلى خانات عموديه وأفقيه.

أول خانه عمودية أيام الشهر.

والتاليه.. مثلا.. سنة الفجر.. وتليها صلاة الفجر وبعدها أذكار الصباح.

إمكانكم إضافة ماشئتم.

فأنا وضعت الصلوات.. لأحاسب نفسي عن تأخيرها.

الأذكار الصباحية والمسائية لأنني كثيرا ما أنساها.

نأتي لآخر عمود.. وهو الجزاء.

أي أضع لنفسي الجزاء المناسب.. مثلا ركعتين كما في حديث الرسول ﷺ : **«مامن عبد يذنب ذنبا فيصلي ركعتين يسأل الله فيهما أن يغفر ذنبه إلا وغفر له»**.

أو الخيار الثاني وهو الصدقه.. وتعلمون.. فضل الصدقه.. والأحاديث التي ذكرت فضلها كثيرة.

أيضا.. لكم الحريه في وضع الجزاء المناسب.

المهم أحبتي أن لا تترك النفس تتمادى في المعاصي وننسيها أن هناك يوما تحاسب فيه أمام خالقها.. وأي حساب؟؟

يقول الله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}**.

* * * * *

المبحث الثامن:

الخشوع

قال تعالى:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}[1]. والخشوع هذا بمعنى الخشية أو قريب منه.

فأعمال القلب تتقارب؛ لأنها أعمال باطنة، فنجد - مثلاً - الوجل، والخوف، والخشية، والخشوع؛ متقاربة المعنى، ولكل واحد منها معنى، لكنها متقاربة في ذلك وكلها تدل في النهاية على كون هذا القلب خاضعاً وذليلاً للعزيز الجبار المتكبر الذي خلقه فسواه وعدله، وافترض عليه ما افترض، وشرع له ما شرع، وتعبده بما تعبد.

فإذاً الوجل والخوف والخشية والخشوع هي جملة من أعمال القلب لها دلائل، ويقابلها الرجاء والمحبة والرضا والفرح، فتتوازن النفس الإنسانية بين هذه الأربعة وتلك الأربعة، فيكون الإنسان حقاً قد جمع كل أعمال القلوب وأنواعاً من العبوديات التي يحبها الله تبارك وتعالى والتي لا يريد أن يقع أو يحصل بعضها ويترك ويهمل البعض الآخر.

فكر وتأمل:

كانت بدايته في الفجوروالعصيان، يقول هو عن نفسه : ما تركت ذنبا إلا فعلته.. وبقيت على ذلك عمرا أؤذي الناس وآخذ أموالهم حتى جاء يوم رأيت رجلا في السوق يشتري حلوى ويقول للبائع: اعطني وزدني فإن لي ثلاث بنات، وإن الرسول ﷺ بشر من يدخل البسمة على وجه بنات صغار بالجنة.

يقول فوقع في قلبي حب البنات فتمنيت أن أتزوج، وأنجب بنتا.

يقول: فاشتقت للزواج ولكن تساءلت: من يزوجني وأنا على فجوري هذا؟؟

---

(١) الحديد: ١٦.

فقللـت فـي فسـقي بعـض الشـيء.. وتزوجـت وأنجبـت بنتـا كمـا طلبـت مـن الله وأسميتها "فاطمة"..

أحببتهـا بشـدة وكلمـا كبـرت كلمـا قـوي إيمـاني وضـعف الفسـق والفجـور حتـى أصـبحت بنـت ثـلاث سـنوات ورغـم أننـي كنـت سـكيرا، إلا أننـي قللـت مـن الشـرب كثيرا..

إلى يوم كنت أشرب فيه فأزاحت بيديها الكأس عن فمي.

فشعرت أن يد الله هي التي أزاحته.

حتى حدث أمر عجيب..

فجأة..

ماتت فاطمة..

يقول: فرجعت أسوأ مما كنت من قبل..

لا أكاد استيقظ من الخمر..

ولم يكن لدي من الإيمان ما أصبر به..

حتـى جـاءت ليلـة، فقلـت: لأسـكرن الليلـة كمـا لـم أسـكر مـن قبـل.. فبقيـت أشـرب وأشرب حتى سقطت مغشيا علي فرأيت في المنام رؤية عجيبة..

رأيـت وكـأنني يـوم القيامـة والهـول عظـيم.. والبشـرية كلهـا محشـورة إلـى الله تعالى وقد دنت الشمس من الرؤوس.

فمـنهم مـن يصـل العـرق إلـى كعبيـه.. ومـنهم مـن يصـل إلـى ركبتيـه.. ومـنهم من يصل إلى رقبته.. ومنهم من يسبح في عرقه..

ثم بدأ النداء على أسماء البشر.. فلان بن فلان.. هلم للعرض على الجبار.

حتى سمعت اسمي ينادى للعرض على الجبار.. فاختفى البشر من حولي ووجدت نفسي لوحدي في موقف العرض والحساب..

وإذا بثعبان ضخم يأتي فاتحا فاه ليبتلعني.

فركضت.. وركضت حتى وجدت رجلا عجوزا فقلت أنقذني من هذا الثعبان.

فقال يا بني: أنا ضعيف ولا أستطيع إنقاذك ولكن اركض في هذا الاتجاه لعلك تنجو.

فركضت كثيرا حتى وجدت النار أمامي والثعبان خلفي.

فبقيت أبكي حتى رأيت الرجل العجوز يبكي من حالي.

فأشار لي في الاتجاه الآخر.. فكان جبل.. وعلى الجبل أطفال صغار.. هم من ماتوا وتركوا آباءهم وأمهاتهم في الدنيا.

فنادوا على ابنتي فاطمه.

يا فاطمه أدركي أباك.

فجاءت فاطمه.

فعرفتها وعرفتني وأخذتني بيدها اليمنى.. ودفعت الأفعى بيدها اليسرى.. وجلست في حجري كما كانت تفعل في الدنيا وأنا ارتعد..

فقلت: يا بنيتي ما هذا الثعبان العظيم؟

فقالت: هذا عملك السيئ.

فقلت: وما هذا الشيخ الكبير؟

قالت: هذا عملك الصالح.. أنت أضعفته حتى لم يستطع أن ينقذك، ولولا موتي لما وجدت من ينقذك في هذا اليوم.

ثم نادتني.. يا أبت

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ} (الحديد: ١٦).

فاستيقظت وأنا أقول... قد آن يا رب... قد آن يا رب... قد آن يا رب.

فقمت واغتسلت وركضت إلى المسجد فإذا أذان الفجر.. فدخلت المسجد والإمام يقرأ نفس الآية.

يقول.. ففهمت رسالة ربي.

وعلمت أنني إن لم أعد إليه الآن.. فقد لا يقبلني بعد اليوم.

هذه هي قصة توبة أحد كبار التابعين.. مالك بن دينار.

كانت تلك هي الرسالة الربانية لصلاح حال هذا التابعي الجليل.

* * * * *

المبحث التاسع:

التسليم

يقول:{**وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**}[1] وهذا التسليم هو الذي لا يخطر على البال معه أدنى اعتراض كما كان الصديق رضي الله عنه.

ففي صلح الحديبية كان الصديق رضي الله عنه هو الوحيد من بين الصحابة جميعاً الذي سلم في هذا ولم يعترض، أما ثاني رجل في هذه الأمة في الإيمان والدين، وهو عمر رضي الله عنه فقد أبى واعترض، وقال: يا رسول الله! ألسنا بالمؤمنين، وأليسوا بالكافرين، قال: «**بلى**»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟!

فكأن الشروط مجحفة وما سلم تسليماً، لكن ليس في ذلك رد لأمر رسول الله ﷺ، أو تقديم بين يدي الله ورسوله، وإنما ذلك غيرة منه على دين الله، وحرصاً منه على علو الدين وظهوره وتمكينه وانتصاره على أعدائه، فيرى أن هذه الشروط مجحفة للمسلمين - كما هو ظاهر الحال - فما سلم تسليماً بحيث لا يكون لديه أي ممانعة أو مدافعة أو منازعة، وإذا علمنا ذلك علمنا أهمية أعمال القلوب، وأن التزكية تحتاج إلى صبر ومصابرة ومثابرة ومجاهدة ومحاضن تربوية، وعمل ذاتي من المربي أو المزكي بنفسه ومن المجتمع أو الأمة، حتى تصلح هذه القلوب وتصلح هذه الحالة (حالة الإحسان).

ولهذا يقول عمر رضي الله عنه: "فأعتقت وتصدقت لذلك "، أي: أعتق وتصدق من أجل موقفه في ذلك اليوم، لأنه أنزله عن دائرة التسليم المطلق الذي فعله الصديق رضي الله عنه، وكان الصحابة مع عمر لكن لم يستطيعوا وليس فيهم جرأة عمر رضي الله عنه، فلما رأوا رسول الله ﷺ يحلق ويتحلل؛ عندها أذعنوا عملياً لمشورة أم المؤمنين رضي الله عنها.

---

(١) النساء: ٦٥.

والمقصود هنا أنه ينبغي للمسلم أن يقدر قدر كلام الله ورسوله ؛ بل ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد فإن كثيرا من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله ؛ يسلك مسلك من يجعل " التأويل " كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص وهذا خطأ ؛ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الإيمان به. فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وليس الاعتناء بمراده في أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس، فإذا كان النص الذي وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الرسول ؛ فكذلك النص الآخر الذي تأوله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه ؛ وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون اصطلاحه تغاير معناهما. وأما من يجعلهما بمعنى واحد كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين ؛ فالتأويل عندهم هو التفسير.

وأما " التأويل " في كلام الله ورسوله ؛ فله معنى ثالث غير معناه في اصطلاح المفسرين. وغير معناه في اصطلاح متأخري الفقهاء والأصوليين ؛ كما بسط في موضعه. والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان والإسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك ؛ فإنما يكون لترك واجب من ذلك المسمى ومن هذا قوله تعالى:**{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**[1] فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ؛ فمن تركها كان من أهل الوعيد لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها ؛ فهو معرض للوعيد.

---

(١) النساء: ٦٥.

ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول " في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه وعليهم كلهم إذا حكم بشيء ألا يجدوا في أنفسهم حرجا مما حكم ويسلموا تسليما.

قال تعالى:**{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً}**(١).

وقوله تعالى:**{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}**(٢).

وقوله قال تعالى:**{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ}**(٣) والحكمة وهي السنة وقال تعالى:**{وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}**(٤).

والدعاء إلى ما أنزل يستلزم الدعاء إلى الرسول، والدعاء إلى الرسول يستلزم الدعاء إلى ما أنزله الله، وهذا مثل طاعة الله والرسول ؛ فإنهما متلازمان فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن أطاع الله فقد أطاع الرسول. وكذلك قوله تعالى:**{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ}**(٥) فإنهما متلازمان ؛ فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى. فإن كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطئ ؛ فهو بمنزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطئ.

---

(١) النساء: ٦٠.
(٢) النساء: ٦١.
(٣) البقرة: ٢٣١.
(٤) النساء: ١١٣.
(٥) النساء: ١١٥.

المبحث العاشر:

علاج الحزن والاكتئاب من واقع القرآن والسنة

إن في القرآن والسنة الوقاية والعلاج لحالات الحزن والاكتئاب، وخاصة ما كان منها لأسباب خارجية، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده؛ إذ أنه - سبحانه - جعل القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين، وما عليهم سوى العودة إليه وإلى سنة المصطفى ليفوزوا بالسعادة والراحة في الدارين.

أولاً: العقيدة:

إن للعقيد أثرا كبيراً في الوقاية وعلاج الاكتئاب والعقيدة نسمع عنها كثيرًا، ولكن كثير من الناس لا يعلمون مدلول هذه الكلمة، وما مقتضاها، وما نتائجها.

والعقيدة لها أثر كبير على مشاعر الإنسان وسلوكه.

وسنستعرض بعض جوانبها، وأثر هذه الجوانب في الوقاية من الاكتئاب وعلاجه

أ – في القضاء والقدر

عقيدتنا نحن المسلمين في القضاء والقدر تمنعنا من الحزن الشديد؛ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال النبي ﷺ : **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»** [1].

فعندما يعلم الإنسان أن الأمور مفروغ منها ومكتوبة، فإنه لا يحزن، وكيف يحزن وهو يعلم بأن هؤلاء البشر الذين حوله لا يستطيعون أن يضروه ولا أن ينفعوه إلا بقدر الله؟ فلم القلق إذن، ولم الحزن الشديد.

---

(١) صحيح رواه الترمذي.

ب – الإيمان باليوم الآخر:

إن الذي يؤمن باليوم الآخر يعلم أن هذه الدنيا لا تساوي شيئًا؛ فهي قصيرة جداً.. وعندما يفقد عزيزًا يعرف أنه سيلتقي به في الآخرة، والذي يؤمن بالآخرة يتصور أن كل هذه الدنيا لا تساوي عند الله شيئاً بالنسبة للآخرة، فعندما يفقد جزءاً صغيراً من هذه الدنيا فإنه لا يحزن الحزن الشديد، ويتذكر قول رسول الله ﷺ : **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»** (١).

ج – الإيمان بأسماء الله وصفاته:

يعتقد بعض الناس أن الإيمان بالأسماء والصفات مسألة عقدية ذهنية مجردة؛ كأن نؤمن بأن الله هو الملك، وأنه الحكيم القادر الباسط المعطي... وغير ذلك، دون أن يكون لهذه الصفات والأسماء مدلول وأثر في حياة المسلم؛ ولذلك فهؤلاء لا يستفيدون من إيمانهم هذا الاستفادة المرجوة والحقّة.

والحق أن الإيمان بها ليس مجردًا، إنما له تأثير في واقع الإنسان؛ فالمسلم الذي يؤمن بأن الله هو الملك، يؤمن بأنه له - سبحانه - الحق في المنع والعطاء، فلا يعترض عليه والذي يؤمن بأن الله حكيم لا يقدر شيئًا إلا لحكمة - سواء أدركها الإنسان ذو العقل القاصر أم لم يدركها - هذا يتقبل الأحداث ويعلم أن فيها خيرًا له، وقد تخفى الحكمة أو بعضها على الناس وقد يكتشفونها أو يكتشفون بعضها في وقت لاحق.

د – مفهوم المسلم للمصائب والأحزان:

إنه مفهوم خاصٌ بالمسلمين، جديرٌ بأن يكتب بماء من الذهب، وأمّا الذين لا يعيشون هذا المفهوم فإن حياتهم تسير في نكد وضنك.

أمّا المسلم فإنه يؤمن بأن المصائب قد تكون علامة على محبة الله للعبد، ألم يقل رسول الله ﷺ : **«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»** (٢).

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أحمد / صحيح الجامع الصغير.

كما أنه يؤمن بأن الابتلاء يكون على قدر الإيمان، ويذكر الحديث رسول الله: **«أشد الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»** (١).

فكلما زاد الإيمان زاد الابتلاء، وكلما كان الابتلاء هيّناً، كان الإيمان على قدره.

ويشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ : **«فإن كان في دينه صلبة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه»** (٢).

ويؤمن المسلم أيضاً: بأنه بمجرد حصول المصيبة فإنه سيؤجر عليها - نهيك عن موضوع الصبر عليها - فرسولنا محمد ﷺ يقول: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولاهم ولا حزن، ولا أذى ولا غم؛ حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه»** (٣).

فإذا اعتقد المسلم هذا؛ فإنه يطمئن بإيمانه بالله، ويزداد توكله على الله واستسلامه لقدره.

فكيف إذا أضاف إلى ما سبق صبره على المصيبة؟ لا شك أن في الصبر على المصائب أجراً عظيماً عند الله سبحانه وتعالى... يقول الله - عز وجل -:**{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**(٤).

فالمؤمن في كل أحواله في خير.

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله قال: **«عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»** (٥).

---

(١) رواه الطبراني / صحيح الجامع الصغير.
(٢) صحيح الجامع الصغير.
(٣) رواه أحمد والشيخان.
(٤) سورة الزمر: ١٠.
(٥) أخرجه مسلم، في كتاب الزهد.

ثانيًا: (من العلاج): التقوى والعمل الصالح:

مما لا شك فيه أن تقوى الله - عز وجل - والعمل الصالح هما بذاتهما يشكلان وقاية للإنسان من الحزن والاكتئاب والضيق. يقول الله - عز وجل -:**{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**(١).

إذن ما هي الحياة الطيبة؟

أو ليست هي السعادة والطمأنينة؟ أي وربي، فكل الباحثين عن السعادة، وكل من تكلم عن الحياة الطيبة، لن يصلوا إليها إلا بالعمل الصالح، يقول إبراهيم بن أدهم - رحمه الله: (والله إننا لفي نعمة لو يعلم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف).

إذن: هي نعمة الإيمان والطمأنينة، إنها السعادة الحقيقة التي لم يجدها الكثيرون من الناس.

ثالثًا: الدعاء والتسبيح والصلاة:

والدعاء منه ما يكون وقائيًا، ومنه ما يكون علاجيًا فالدعاء الوقائي؛ كقوله عليه السلام: **«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال»** (٢).

والذي يؤمن بهذا الحديث وأمثاله ويعمل بها، والذي إذا أصابه هم فقرأها، فإن الله سبحانه سيزيل عنه الهم والحزن... ويقول سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام وقد ضاق صدره وحزن لكلام الكفار عليه:**{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ}**(٣). فتسبيح الله

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

(٢) رواه أحمد والشيخان عن أنس.

(٣) الحجر: ٩٧.

عز وجل من الأشياء التي تزيل الهم والحزن.

رابعًا: تقدير أسوا الاحتمالات والنظر إلى من هو أسوأ حالاً:

وهذه قضية يستعملها الأطباء النفسيون، ولكن نبينا وحبيبنا عليه السلام استخدمها قبلهم؛ كما في حديث خباب بن الأرت.. عندما كان الصحابة في مكة يضطهدون ويسامون العذاب الشديد على أيدي الكفار، فجاء خباب إلى رسول الله وكان متوسدًا بردة في ظل الكعبة، وقال له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال عليه السلام: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه.. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه؛ ولكنكم تستعجلون)[1].

فهذه طريقة في العلاج النفسي، إذا أتاك إنسان أصيب بمصيبة، فقل له: هناك أناس أصيبوا أكثر منك.

فمثلاً: إذا كان قد مات ولده في حادث، فيقال له: هناك أناس ماتت العائلة كلها، أو أن في الناس من ماتت زوجته وأولاده وفقد كل ممتلكاته.

وهذا يعني أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة فإنه ينبغي عليه أن ينظر إلى من هو أسوأ حالاً منه فيقول: الحمد لله؛ أنا بخير.. فالفقير ينظر إلى من هو أفقر منه فيدرك نعمة الله عليه، ويصلح هذا في أي أمر من الأمور الدنيوية.

خامساً: الواقعية والبعد عن نظرة الكمال الخالية:

إن هناك بعض الناس يكتئبون؛ لأنهم يفكرون خطأ.. وبالطبع فإن المكتئب يفكر بشكل خاطئ، ولكن المقصود من النظرية أن من الناس من يصبح مكتئباً بسبب الخطأ في التفكير وهذا أمر واقع أحياناً.. إذ أن لبعض الناس نظرة خيالية؛ فأحدهم يقول: أنا لا يمكن أن أكون سعيدًا إلا والناس الذين من حولي راضون عني والموظفون الذين معي

---

(١) رواه البخاري في علامات النبوة.

ينبغي أن يكونوا راضين عني؛ فهذا أمر غير واقعي؛ إذ لا بد من وجود أناس غير راضين عن هذا الشخص، وأناس راضين عنه، وهذا أمر واقعي يعيشه كل الناس، ولو أنه فكّر بواقعية وتذكر إن إرضاء الناس كلهم غاية لا تدرك، لكان قد عاش حياته مطمئنًا مرتاح البال من هذه الناحية وذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في كتاب (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة) حول موضوع حديث الرسول ﷺ : **«لا يكره مؤمن مؤمنة؛ إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»** [1].

وهذا الحديث فيه الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب وكل من بينك وبينه علاقة واتصال، وأنه ينبغي أن توطن نفسك على أنه لا بد أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه، فإذا وجدت ذلك فقارن بين هذا وبين ما يجب عليك، أو ما ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة وما فيه من المحاسن والمقاصد الخاصة والعامة، وبهذا الإغضاء عن المساوئ، وملاحظة المحاسن تدوم الصحبة والاتصال، وتتم الراحة وتحصل لك.

سادسًا: تقديم حسن الظن:

وهي نفس قضية: أن النظرة الإيجابية ينبغي أن تقدم على النظرة السلبية.. فالإنسان الذي يسئ الظن بالآخرين هو الذي يتضايق..

مثال ذلك: شخص مرّ على آخر يعرفه فلم يسلم عليه؛ فيبقى الآخر متضايقاً حزيناً متسائلاً: لماذا لم يسلم عليّ؟ لابد أنه يكرهني... أو كذا.. أو كذا... ويبدأ يسيء الظن؛ مما يؤدي به إلى حزن يوم أو يمين أو حتى أكثر، ولو أنه أحسن الظن منذ البداية وقال لنفسه: (ربما لم يرني) أو غير ذلك من الأعذار لما أصابه الحزن.

ولذا قال سبحانه وتعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}**[2].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الحجرات: ١٢.

فهذا الاجتناب لأجل راحتنا نحن.. إذن نحن الذين نطمئن إذا أحسنا الظن، مع ملاحظة أن إحسان الظن لا يعني القابلية للانخداع، كما جاء عن عمر رضي الله عنه.. يقول: (لست بالخب ولا الخب يخدعني) فهو ليس مكاراً ولا يخدع الناس، ولكنه أيضًا لا يخدع؛ إذ إنه منتبه تمامًا.. ولذلك فالأمر المرفوض: هو تقديم سوء الظن وتقديم الاستنباطات الاعتباطية.

سابعًا: كيف التصرف حيال أذى الناس:

والناس قد يؤذونك وخاصة بأقوالهم السيئة، فلا بد لك أن تعلم بأن هذا الأذى يضرهم ولا يضرك، إلا إذا أشغلت نفسك بأقوالهم فعندها ستتضايق، وإن أهملتها فستكون مرتاحًا. لماذا؟

لأن النبي عليه السلام يقول: أتدرون من المفلس؟ إن المفلس من أمتي: من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار [(١)].

فإذن: الذي يغتابني ويسبني ويتكلم علي، هو في الحقيقة يعطيني من حسناته ويحسن إلي، فجزاه الله خيرًا.. ولذلك ينبغي أن أشكره على هذا الأمر.. فإذا قال لك شخص كلامًا يؤذيك، فتركه واذهب، فهو الذي سيتضايق ويغتاظ**{قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ}**[(٢)].

ثامنًا: الأمل:

إن باب الأمل مفتوح وهذا يبعد الضيق والحزن عن الإنسان؛ وليتذكر الإنسان قوله سبحانه وتعالى:**{فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً}**[(٣)].

وهذا يعني أنه ما من عسر يأتي إلا ويأتي بعده اليسر.. ويقول سبحانه:**{سَيَجْعَلُ**

---

(١) رواه مسلم.
(٢) آل عمران: ١١٩.
(٣) الشرح: ٥، ٦.

اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً}[١].

فكلما اشتدت عليك الأمور فاعلم أن الفرج قد اقترب[٢]..

وأخيرا:

باقة من بهجة قلوب الأبرار:

١- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [٣].

وكذلك حين سئل ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، أو حمية، أو ليرى مقامه في صف القتال " أي ذلك في سبيل الله ؟ " فقال : «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

وقال تعالى في اختلاف الإنفاق بحسب النيات :**{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ}**[٤].

وقال :**{وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ}**[٥].

وهكذا جميع الأعمال.

والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص، حتى إن صاحب النية الصادقة - وخصوصا إذا اقترن بها ما يقدر عليه من العمل - يلتحق صاحبها بالعامل، قال تعالى :**{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ**

---

(١) الطلاق: ٧.

(٢) مقتبسه من كتاب: الحزن والاكتئاب في ضوء الكتاب والسنة تأليف د / عبد الله الخاطر رحمه الله تعالى.

(٣) متفق عليه.

(٤) البقرة: ٢٦٥.

(٥) النساء: ٣٨.

وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**}[1].

٢- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»** [2]، وزاد الترمذي والنسائي : **«والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»** [3].

ذكر في هذا الحديث كمال هذه الأسماء الجليلة التي رتب الله ورسوله عليها سعادة الدنيا والآخرة، وهي الإسلام والإيمان، والهجرة والجهاد. وذكر حدودها بكلام جامع شامل، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وذلك أن الإسلام الحقيقي : هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديته والقيام بحقوقه، وحقوق المسلمين. ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده. فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين. فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائما بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين ؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفسر المؤمن بأنه الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا دار في القلب وامتلأ به، أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها : رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه، وأمنوه على دمائهم وأموالهم، ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان، كما قال ﷺ : **«لا إيمان لمن لا أمانة له»**.

وفسره ﷺ الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي. وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله؛ فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقدام على المعاصي. والهجرة الخاصة التي هي

---

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) متفق عليه.

(٣) وزاد البيهقي: والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله.

الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام والسنة، جزء من هذه الهجرة، وليست واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة.

وفسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله؛ فإن النفس ميالة إلى الكسل عن الخيرات، أمارة بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب. وهذه هي الطاعات : امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة : من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلّه : مجاهدتها على قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله : من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئا إلا فعله، ولا من الشر إلا تركه..

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»** [1].

هذا حديث عظيم جمع فيه رسول الله ﷺ بين حق الله وحقوق العباد، فحق الله على عباده : أن يتقوه حق تقاته، فيتقوا سخطه وعذابه باجتناب المنهيات وأداء الواجبات.

وهذه الوصية هي وصية الله للأولين والآخرين، ووصية كل رسول لقومه أن يقول:**{اعبدوا الله واتقوه}**.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي.

وقد ذكر الله خصال التقوى في قوله تعالى :**{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}**(١).

وفي قوله :**{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}**(٢).

ثم ذكر خصال التقوى فقال :**{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}**(٣).

فوصف المتقين بالإيمان بأصوله وعقائده وأعماله الظاهرة والباطنة وبأداء العبادات البدنية والعبادات المالية، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وبالعفو عن الناس، واحتمال أذاهم، والإحسان إليهم، وبمبادرتهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بالاستغفار والتوبة، فأمر ﷺ ووصى بملازمة التقوى حيثما كان العبد في كل وقت وكل مكان، وكل حالة من أحواله، لأنه مضطر إلى التقوى غاية الاضطرار، لا يستغني عنها في كل حالة من أحواله.

ثم لما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق التقوى وواجباتها أمر ﷺ بما يدفع ذلك ويمحوه، وهو أن يتبع الحسنة السيئة " والحسنة " اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله تعالى: وأعظم الحسنات الدافعة للسيئات التوبة النصوح والاستغفار والإنابة إلى الله بذكره وحبه، وخوفه ورجائه، والطمع فيه وفي فضله كل وقت. ومن ذلك الكفارات المالية والبدنية التي حددها الشارع.

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) آل عمران: ١٣٣.

(٣) آل عمران: ١٣٤.

ومن الحسنات التي تدفع السيئات : العفو عن الناس، والإحسان إلى الخلق من الآدميين وغيرهم، وتفريج الكربات، والتيسير على المعسرين، وإزالة الضرر والمشقة عن جميع العالمين. قال تعالى :**{إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}**[1].

وقال ﷺ : «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**» وكم في النصوص من ترتيب المغفرة على كثير من الطاعات.

ومما يكفر الله به الخطايا : المصائب، فإنه لا يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها خطاياه. وهي إما فوات محبوب، أو حصول مكروه، بدني، أو قلبي، أو مالي، داخلي أو خارجي، لكن المصائب بغير فعل العبد. فلهذا أمره بما هو من فعله، وهو أن يتبع الحسنة السيئة.

ثم لما ذكر حق الله - وهو الوصية بالتقوى الجامعة لعقائد الدين وأعماله الباطنة والظاهرة - قال : «**وخالق الناس بخلق حسن**».

وأول الخلق الحسن : أن تكف عنهم أذاك من كل وجه، وتعفو عن مساوئهم وأذيتهم لك، ثم تعاملهم بالإحسان القولي والإحسان الفعلي وأخص ما يكون بالخلق الحسن : سعة الحلم على الناس، والصبر عليهم، وعدم الضجر منهم، وبشاشة الوجه، ولطف الكلام والقول الجميل المؤنس للجليس، المدخل عليه السرور، المزيل لوحشته ومشقة حشمته. وقد يحسن المزح أحيانا إذا كان فيه مصلحة، لكن لا ينبغي الإكثار منه، وإنما المزح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم.

ومن الخلق الحسن : أن تعامل كل أحد بما يليق به، ويناسب حاله من صغير وكبير، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل.

---

(١) هود: ١١٤.

فمن اتقى الله، وحقق تقواه، وخالق الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلق الحسن، فقد حاز الخير كله؛ لأنه قام بحق الله وحقوق العباد. ولأنه كان من المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«حق المسلم على المسلم ست»** قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: **«إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»** [١].

هذه الحقوق الستة من قام بها في حق المسلمين كان قيامه بغيرها أولى، وحصل له أداء هذه الواجبات والحقوق التي فيها الخير الكثير والأجر العظيم من الله.

الأولى : إذا لقيته فسلم عليه فإن السلام سبب للمحبة التي توجب الإيمان الذي يوجب دخول الجنة، كما قال ﷺ : **«والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؛ أفشوا السلام بينكم»** والسلام من محاسن الإسلام، فإن كل واحد من المتلاقين يدعو للآخر بالسلامة من الشرور، وبالرحمة والبركة الجالبة لكل خير، ويتبع ذلك من البشاشة وألفاظ التحية المناسبة ما يوجب التآلف والمحبة، ويزيل الوحشة والتقاطع.

فالسلام حق للمسلم، وعلى المسلم عليه رد التحية بمثلها أو أحسن منها، وخير الناس من بدأهم بالسلام.

الثانية : إذا دعاك فأجبه: **«حق المسلم على المسلم»** أي : دعاك لدعوة طعام أو شراب فاجبر خاطر أخيك الذي أدلى إليك وأكرمك بالدعوة، وأجبه لذلك إلا أن يكون لك عذر.

---

(١) رواه مسلم.

الثالثة: قولـه : **«وإذا استنصحك فانصح لـه»** أي : إذا استشـارك فـي عمـل مـن الأعمال : هل يعمله أم لا ؟ فانصح له بما تحبه لنفسك، فإن كان العمل نافعا من كل وجه فحثه على فعله، وإن كان مضرا فحذره منـه، وإن احتوى على نفع وضرر فاشرح لـه ذلك ووازن بين المصالح والمفاسد، وكذلك إذا شاورك على معاملـة أحد من النـاس أو تزويجه أو التزوج منه فابذل له محض نصيحتك، واعمل له من الرأي ما تعملـه لنفسك، وإياك أن تغشـه فـي شـيء من ذلك، فمن غش المسلمين فليس منهم، وقد ترك واجب النصيحة.

وهذه النصيحة واجبة مطلقا، ولكنها تتأكد إذا استنصحك وطلب منك الرأي النـافع، ولهذا قيده في هذه الحالـة التـي تتأكد، وقد تقدم شرح الحديث: **«الدين النصيحة»** بما يغني عن إعادة الكلام.

الرابعة: قوله : **«وإذا عطس فحمد الله فشمته»، «حق المسلم على المسلم»**" وذلك أن العطاس نعمة من الله، لخروج هذه الريح المحتقنة في أجزاء بدن الإنسان، يسر الله لهـا منفذا تخـرج منـه فيستريح العـاطس، فشـرع لـه أن يحمد الله علـى هذه النعمـة، وشـرع لأخيـه أن يقول لـه : " يرحمك الله وأمره أن يجيبه بقولـه : " يهديكم الله ويصلح بالكم " فمن لم يحمد الله لم يستحق التشميت، ولا يلومن إلا نفسـه، فهو الذي فوت على نفسه النعمتين : نعمة الحمد لله، ونعمة دعاء أخيه له المرتب على الحمد.

الخامسـة: قولــه : **«وإذا مـرض فعـده»** عيـادة المـريض مـن حقـوق المسـلم، وخصوصـا من لـه حق عليك متأكد، كالقريب والصـاحب ونحوهمـا، وهـي من أفضل الأعمال الصالحة، ومن عاد أخاه المسلم لم يزل يخوض الرحمة، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة، ومن عاده أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن عـاده آخر النهار صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وينبغي للعائد أن يدعو له بالشفاء، وينفس لـه، ويشرح خاطره بالبشارة بالعافية، ويذكره التوبة والإنابة إلى الله والوصية النافعة، ولا يطيل عنده الجلوس، بل بمقدار العيادة، إلا أن يؤثر المريض كثرة تردده وكثرة جلوسه عنده، فلكل مقام مقال.

السادسة: قوله : **«وإذا مات فاتبعه»** فإن من تبع جنازة حتى يصلي عليها فله قيراط من الأجر، فإن تبعها حتى تدفن فله قيراطان، واتباع الجنازة فيه حق لله، وحق للميت، وحق لأقاربه الأحياء.

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»** [١].

الإنزال هنا بمعنى : التقدير.

ففي هذا الحديث : إثبات القضاء والقدر، وإثبات الأسباب.

وقد تقدم أن هذا الأصل العظيم ثابت بالكتاب والسنة. ويؤيده العقل والفطرة. فالمنافع الدينية والدنيوية والمضار كلها بقضاء الله وتقديره، قد أحاط بها علما، وجرى بها قلمه، ونفذت بها مشيئته، ويسر العباد لفعل الأسباب التي توصلهم إلى المنافع والمضار، فكل ميسر لما خلق له : من مصالح الدين والدنيا، ومضارهما. والسعيد من يسره الله لأيسر الأمور وأقربها إلى رضوان الله، وأصلحها لدينه ودنياه، والشقي من انعكس عليه الأمر.

وعموم هذا الحديث يقتضي : أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها، تدفع ما لم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية، أو تخففه.

وفي هذا : الترغيب في تعلم طب الأبدان، كما يتعلم طب القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة. وجميع أصول الطب وتفاصيله، شرح لهذا الحديث؛ لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية. فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها.

وقد كان يظن كثير من الناس أن بعض الأمراض ليس له دواء، كالسل ونحوه، وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علمه، عرف الناس

---

(١) رواه البخاري.

مصداق هذا الحديث، وأنه على عمومه. وأصول الطب : تدبير الغذاء، بأن لا يأكل حتى تصدق الشهوة وينهضم الطعام السابق انهضاما تاما، ويتحرى الأنفع من الأغذية، وذلك بحسب حالة الأقطار والأشخاص والأحوال، ولا يمتلئ من الطعام امتلاء يضره مزاولته، والسعي في تهضيمه، بل الميزان قوله تعالى :**{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا}**[1].

ويستعمل الحمية عن جميع المؤذيات في مقدارها، أو في ذاتها، أو في وقتها. ثم إن أمكن الاستفراغ، وحصل به المقصود، من دون مباشرة الأدوية، فهو الأولى والأنفع. فإن اضطر إلى الدواء، استعمله بمقدار. وينبغي أن لا يتولى ذلك إلا عارف وطبيب حاذق.

واعلم أن طيب الهواء، ونظافة البدن والثياب، والبعد عن الروائح الخبيثة، خير عون على الصحة. وكذلك الرياضة المتوسطة. فإنها تقوي الأعضاء والأعصاب والأوتار، وتزيل الفضلات، وتهضم الأغذية الثقيلة، وتفاصيل الطب معروفة عند الأطباء. ولكن هذه الأصول التي ذكرناها يحتاج إليها كل أحد.

وصح عنه ﷺ : «**الشفاء في ثلاث : شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وفي الحبة السوداء شفاء من كل داء**». «**العود الهندي فيه سبعة أشفية، يسعط من العذرة، ويلد من ذات الجنب**»، «**الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء**»، (رخص في الرقية من العين والحمة والنملة)، «**وإذا استغسلتم من العين فاغسلوا**». (ونهى عن الدواء الخبيث)، (وأمر بخضاب الرجلين لوجعهما).

٥- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا ؟ فقال : «**إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**» [2].

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) رواه مسلم.

قد أخبر الله تعالى : أن النار مثوى المتكبرين، وفي هذا الحديث أنه : **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** فدل على أن الكبر موجب لدخول النار، ومانع من دخول الجنة.

وبهذا التفسير الجامع الذي ذكره النبي ﷺ يتضح هذا المعنى غاية الاتضاح، فإنه جعل الكبر نوعين :

كبر النوع الأول : على الحق، وهو رده وعدم قبوله، فكل من رد الحق فإنه مستكبر عنه بحسب ما رد من الحق. وذلك أنه فرض على العباد أن يخضعوا للحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

فالمتكبرون عن الانقياد للرسل بالكلية كفار مخلدون في النار؛ فإنه جاءهم الحق على أيدي الرسل مؤيدا بالآيات والبراهين. فقام الكبر في قلوبهم مانعا، فردوه. قال تعالى :**{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيه}**[1].

وأما المتكبرون عن الانقياد لبعض الحق الذي يخالف رأيهم وهواهم، فهم - وإن لم يكونوا كفارا - فإن معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم من الكبر. وما تأثروا به من الامتناع عن قبول الحق الذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به. ولهذا أجمع العلماء أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ، لم يحل له أن يعدل عنها لقول أحد، كائنا من كان.

فيجب على طالب العلم أن يعزم عزما جازما على تقديم قول الله وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد، وأن يكون أصله الذي يرجع إليه، وأساسه الذي يبني عليه، الاهتداء بهدي النبي ﷺ، والاجتهاد في معرفة مراده، واتباعه في ذلك، ظاهرا وباطنا.

فمتى وفق لهذا الأمر الجليل فقد وفق للخير، وصار خطؤه معفوا عنه ؛ لأن قصده العام اتباع الشرع. فالخطأ معذور فيه إذا فعل مستطاعه من الاستدلال والاجتهاد في معرفة الحق، وهذا هو المتواضع للحق.

---

(١) غافر: ٥٦.

وأما الكبر على الخلق - وهو النوع الثاني - : فهو غمطهم واحتقارهم وذلك ناشئ عن عجب الإنسان بنفسه، وتعاظمه عليهم. فالعجب بالنفس يحمل على التكبر على الخلق، واحتقارهم والاستهزاء بهم، وتنقيصهم بقوله وفعله. وقال رسول الله ﷺ : **«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»**.

ولما قال هذا الرجل : **«إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا»** وخشي أن يكون هذا من الكبر الذي جاء فيه الوعيد : بين له النبي ﷺ : أن هذا ليس من الكبر، إذا كان صاحبه منقادا للحق، متواضعا للخلق، وأنه من الجمال الذي يحبه الله ؛ فإنه تعالى جميل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، يحب الجمال الظاهري والجمال الباطني.

فالجمال الظاهر : كالنظافة في الجسد، والملبس، والمسكن، وتوابع ذلك.

والجمال الباطن : التجمل بمعاني الأخلاق ومحاسنها.

ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ : **«اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئ الأعمال والأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»**..

٦- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول : **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى»** [١] هذا الدعاء: **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى»** من أجمع الأدعية وأنفعها. وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن " الهدى " هو العلم النافع. " والتقى " العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة، ومعارف صادقة، فهي الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله، فهو التقى.

و(العفاف والغنى) يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم. والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية. وبذلك تتم سعادة

---

(١) رواه مسلم.

الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة.

فمن رزق الهدى والتقى، والعفاف والغنى، نال السعادتين، وحصل له كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب. والله أعلم.

٧- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»** [(١)].

قال الشيخ شمس الدين ابن القيم : أي لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه، بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة. انتهى.

أي فمن أخلص أعماله كلها لله، ونصح في أموره كلها لعباد الله، ولزم الجماعة بالائتلاف، وعدم الاختلاف، وصار قلبه صافيا نقيا، صار لله وليا، ومن كان بخلاف ذلك، امتلأ قلبه من كل آفة وشر، والله أعلم.

٨- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة»** [(٢)].

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق، وإرشاد نافع.

أما الخبر، فإنه ﷺ أخبر أن النص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل - أو مقارب الكمال - فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب، لم تكد تجدها، وهكذا الناس كثير، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو الوظائف

---

(١) رواه الترمذي والشافعي وغيرهما.

(٢) متفق عليه.

المهمة، لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياما صالحا، وهذا هو الواقع، فإن الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل سبب للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل.

وأما الإرشاد، فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه ﷺ إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

الوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها ولا تتم مصلحتهم إلا بها، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء، وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف بحسب الاستطاعة. قال الله تعالى :**{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}**(١).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر»** (٢).

وهذا الحديث أيضا يقتضي خبرا وإرشادا.

أما الخبر، فإنه ﷺ أخبر أنه في آخر الزمان يقل الخير وأسبابه، ويكثر الشر وأسبابه، وأنه عند ذلك يكون المتمسك بالدين من الناس أقل القليل، وهذا القليل في حالة شدة ومشقة عظيمة، كحالة القابض على الجمر، من قوة المعارضين، وكثرة الفتن المضلة، فتن الشبهات والشكوك والإلحاد، وفتن الشهوات وانصراف الخلق إلى الدنيا وانهماكهم فيها، ظاهرا وباطنا، وضعف الإيمان، وشدة التفرد لقلة المعين والمساعد.

ولكن المتمسك بدينه، القائم بدفع هذه المعارضات والعوائق التي لا يصمد لها إلا أهل البصيرة واليقين، وأهل الإيمان المتين، من أفضل الخلق، وأرفعهم عند الله درجة، وأعظمهم عنده قدرا.

---

(١) التغابن: ١٦.

(٢) رواه الترمذي.

وأما الإرشاد، فإنه إرشاد لأمته، أن يوطنوا أنفسهم على هذه الحالة، وأن يعرفوا أنه لا بد منها، وأن من اقتحم هذه العقبات، وصبر على دينه وإيمانه - مع هذه المعارضات - فإن له عند الله أعلى الدرجات، وسيعينه مولاه على ما يحبه ويرضاه، فإن المعونة على قدر المؤونة.

وما أشبه زماننا هذا بهذا الوصف الذي ذكره ﷺ، فإنه ما بقي من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سرا وعلنا للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات، جرفت بخبيث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشيوخ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق.

ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا، بحيث أصبحت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا، وتدمير الدين واحتقاره والاستهزاء بأهله، وبكل ما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشررها وشرورها قد شاهده العباد.

مع هذه الشرور المتراكمة، والأمواج المتلاطمة، والمزعجات الملمة، والفتن الحاضرة والمستقبلة المدلهمة - مع هذه الأمور وغيرها - تجد مصداق هذا الحديث.

ولكن مع ذلك، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصورا على الأسباب الظاهرة، بل يكون متلفتا في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل له بعد عسر يسرا، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات.

فالمؤمن من يقول في هذه الأحوال : " لا حول ولا قوة إلا بالله " و" حسبنا الله ونعم الوكيل. على الله توكلنا. اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى. وأنت المستعان. وبك المستغاث. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة. ويقنع باليسير، إذا لم يمكن الكثير. وبزوال بعض الشر وتخفيفه، إذا تعذر غير ذلك :**{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجًا}**(1)، **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}**(2)، **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ له مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}**(3).

* * * * *

---

(1) الطلاق: ٢.

(2) الطلاق: ٣.

(3) الطلاق: ٤.

وختاما

أحبتي: إن القلب المؤمن المنشغل بذكر الله يجعل صاحبه حيا عند ربه استنادا لقوله عز وجل:**{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}**[1].

ولقول النبي ﷺ : **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الميت والحي»**[2].

ذلك لأنه من استطاع كدح الشيطان فهو المهتد وحق له أن يفرح، فلما تلا الرسول ﷺ هذه الآية سئل: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل له: يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت[3] وهذا الحديث باب ندخل منه إلى علامات القلب السليم، كما بينت من خلال شرحي السابق، فسلامة الروح والوجدان أي القلب هي التي تجعل العبد يشتاق إلى دار الخلود، مستقبله الحقيقي، أو مسقط رأسه إن صح التعبير لأن الدار الآخرة لهي الحيوان، وهي التي يجب أن نعد لها رحالنا، كذلك يصبح المرء زهيدا في الدنيا عارفا أنه في دار غربة وليس أكثر من عابر سبيل، مر مرور الكرام على هذه الدار فأقام فيها إلى أن وافته المنية، لذلك فإن الاستعداد للموت علامة من العلامات، فيتأهب لها ويتزود لأجلها وإن خير الزاد التقوى فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.

والسؤال المطروح هنا هو: هل هناك قلب مريض إذن؟ وما هي أمراضه وكيف علاجها؟

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الطبري.

بالطبع نعم لهذا نقول أن القلوب المريضة موجودة حقا وزيادة على هذا فقد كثرت في هذا الزمان، فالأخلاق الخبيثة هي أمراض القلوب وأسقام النفوس، فالخلق الحسن كان خلق سيد المرسلين وخاتم النبيين:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** فقد كان خلقه عليه أفضل الصلاة والسلام - كما قالت عائشة رضي الله عنها - القرآن "كان خلقه القرآن"؛ ثم أنه إذا أصيب العبد بمرض في قلبه فإنه يحتاج إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم يبادر في علاجها وإصلاحها، فمن الممكن - على سبيل المثال - أن تكون الصحبة السيئة من بين تلك الأسباب، أما معالجتها فهو المراد بقوله تعالى:**{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}** وإهمالها هو المراد بالآية:**{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**؛ فأمراض القلوب إذن سوء الأخلاق والميل إلى الشهوات، وعلاماتها كثيرة، فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، ومن تعذر عليه فعله الخاص الذي خلق من أجله فهو مريض وكلنا نعرف أننا خلقنا من أجل شيء واحد وواحد فقط، نعم... لقد خلقنا لعبادة الله وحده لا شريك له فقد قال عز جاره وجل ثناؤه: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فالعمل عبادة، والطاعة عبادة، وتأسيس أسرة صالحة عبادة وكل خطواتنا يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وكما أنه من الأمراض من لا يدركها صاحبها فإن مرض القلب لا يعرفه صاحبه لذلك يغفل عنه، ومن تداركه فقد هدي، وعليه أن يذوق مرارة الدواء إذا أراد الشفاء ويتبرأ من الداء، وإن البلسم الفعال الكفيل بالعلاج هو الصبر، وما أدراك ما الصبر، فيصبر على الشهوات، ويصبر على الطاعات كما يصبر عند المصيبات، ومن وجد في نفسه صبرا فهنيئا له فقد وجد دواء لمرض كاد يصير عضالا لولا أن تداركه رحمة من الله، فمن أراد النجاح فلا نجاة إلا بالصبر ونشر الصلاح، وهذا الأخير لا يصدر إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها ويشتغل بعلاج الواحد تلو الآخر لأن كل واحد منا هو طبيب نفسه، فنسأل الله الكريم أن يسهل علاجنا ويجعلنا بذلك من عباده الصالحين ويكتبنا من المتقين.

أما إذا أردنا الوصول إلى القلب العمري ونملأ روحنا بالإيمان ونغذيها بالقرآن علينا أن نجاهد أنفسنا بالرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام لأن ذلك يكسر

الشهوات، قصر المنام فتصفو الإرادات، قلة الكلام للسلامة من الآفات، احتمال الآلام لبلوغ الغايات، ويصير القلب بعد ذلك نظيفا نوريا، خفيفا وروحانيا، يجول في ميدان الخيرات ويسير في مسالك الطاعات، فعلينا أن نتغلب على نفوسنا حتى لا نصبح أسرى في حب شهواتها محصورين في سجن هواها، وبهذه المقاومة نكون قد دربنا قلوبنا على الطاعة بهذه الحلول وروضنها كما تروض الخيول، وملأناها بذكر الله، وحبه والسعي لرضاه، وهذا هو القلب السليم ببساطة، أنعم به من قلب، نسأله تعالى السلامة من هذه الآفات، وأن يجعلنا هادين مهتدين كما يحب ويرضى.

ولابد أن نعلم يقيناً أن الله خلق كل عضو من أعضاء البدن لفعل خاص به فقد يمرض هذا العضو ويتعذر عليه فعل ما خُلق لــه فمثلاً قد تمرض اليد ويتعذر عليها البطش وقد تمرض العين ويتعذر عليها الإبصار فلا ترى؛ وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص الذي خلقه الله من أجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى بعبادته وطاعته والتلذذ بذكره وأن يؤثر ذلك على كل شهواته قال تعالى:**{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}**(الذاريات).

فالخلق لعلة ألا وهي العبادة لا الشرب ولا الأكل ولا التلذذ ولا الضياع في هذه الدنيا ولهذا ميزنا الله عن البهائم فلو عرف الإنسان كل شيء من صعود للقمر واختراعات وغيرها من علوم العصر الحديث التي نراها اليوم وتبهر العالم ولم يعرف خالقه ما عَرِف شيئا وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة ألا تؤثر الدنيا وما فيها على محبة الله فإذا أحببت شيئاً وجعلت حبه في قلبك أعظم من حبك الله تعالى وطاعته فأنت في قلبك مرض والعياذ بالله فعليك بطبيب عالمٍ رباني يعرف أصول أمراض القلوب فمثلاً داء البخل علاجه ببذل المال وإنفاقه فإذا أنفقت المال لحد التبذير فيكون التبذير داءا أيضاً ولكن الاعتدال كما بينا هو المطلوب وإذا أمسكت المال ولم تبذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك هو جانب البخل وهكذا.

ولنعلم جميعا أن من استوى على الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ولما كانت الاستقامة ليست بالسهلة ولا اليسيرة وجب على كل عبد

مؤمن بالله أن يدعوه سبعة عشر مرة في الفاتحة في صلواته اليومية اهدنا الصراط المستقيم [١].

فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ولكن لابد من الاجتهاد حتى لا تختلط الأمور على القلب والطريق الأمثل للاستقامة أن يعرض القلب على كتاب الله تكرارا ومرارا حتى يتبين لنا الطريق فهو النور الذي يبعث الحياة في القلوب قال تعالى:**{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياًّ وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ}** (يس).

وكذلك بالعمل الصالح والأخلاق الحسنة يسلم القلب وينجو من عذاب الله،

فكل الناس في خطر يوم القيامة إلا.... من أتى الله بقلب سليم،

فنسأله في علاه أن يلهمنا رشدنا فيصلح قلوبنا ويبصرنا عيوبنا ويوفقنا للقيام بذكره وشكره وحسن عبادته، وندعو فنقول:**{وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}** (الشعراء).

وختاماً نقول كما قال الرسول: يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا في طاعتك، اللهم طهر قلوبنا من الخطايا كما طهرت الثوب الأبيض من الدنس، اللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع وعين لا تدمع ونفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعاء لا يسمع، اللهم افتح مسامع قلوبنا لذكرك، وارزقنا طاعتك وطاعة رسولك وعملا بكتابك وصل اللهم وسلم وبارك على المصطفى وعلى آله وصحبه دائما أبدا.

تم بحمد الله تعالى،

* * * * *

---

(١) كتاب الإحياء للغزالي بتصرف.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إحياء علوم الدين للشيخ الغزالي.

الدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي من محاضرة: من أعمال القلوب (اليقين).

الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية -١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

ابن القيم الجوزية / أمراض القلوب وشفائها بتصرف شبكة مشكاة الإسلامى.

السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي - دار المعرفة - بيروت - بدون.

الشرح الكبير - عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي - تحقيق عبد الله.

إغاثة اللهفان، ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

أمراض اللسان والقلوب.. يس رشدى.

المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ط (دون تايخ) دار المعرفة، بيروت.

البداية والنهاية، الإمام عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط١ مكتبة المعارف، بيروت.

تفسير البيضاوي "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، الإمام ناصر الدين البيضاوي، (ت ٧٩١هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

تفسير أبو السعود / المكتبة الشاملة من الإنترنت.

تفسير الجلالين بتصرف.

تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٥هـ / ١٩٩٥م.

تفسير الظلال /سيد قطب.

تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، الإمام أبو عبدالله محمد الأنصاري

القرطبي، دار التوفيقية للنشر، القاهرة.

- تاج اللغة وصحاح العربية - إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت -الطبعة الثالثة - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م.

التوكل على الله.. حقيقته وفضله، وهل ينافي العمل؟ / منيرة بنت حمود البدراني/ بتصرف.

التفسير الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار المعرفة، بيروت ط٣، ١٣٩٨هـ.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

جامع العلوم والحكم لابن رجب.

الجامع الصحيح للامام مسلم ابن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)، ت ح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.

الجامع الصحيح للترمذي، الإمام محمد ابن عيسى الترمذي (ت٢٨٧هـ)، ت ح أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي.

الجامع الصحيح : محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم : د / محمد أديب البغا، ط: ١٤٠٧هـ دار ابن كثير، دمشق.

المحبة فى الله /موقع صيد الفوائد.

زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، سنة ١٣٩٩ هـ.

سنن الدارمي، الإمام أبو محمد عبدالله الدارمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الدار السلفية، الكويت، المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى.

- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني - بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العرب.
- سنن الدارمي، الإمام أبو محمد عبدالله الدارمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الدار السلفية، الكويت، المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى.

سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد ابن عثمان الذهبي، (ت ٧٤٨هـ)، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.

السنن الكبرى - أحمد بن الحسين البيهقي - دار المعرفة - بيروت - بدون.

السيرة النبوية لابن هشام / دار إحياء التراث العربى، بيروت ط١ / ١٤١٥.

شبكة مشكاة الاسلامى/ابن تيمة في مرض القلوب وشفائها.

الشرح الكبير - عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي - تحقيق عبد الله التركي - دار هجر - الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م.

المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ط (دون تايخ) دار المعرفة، بيروت.

صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

صحيح مسلم مع شرح النووي - مسلم بن الحجاج النيسابوري - دار الفكر - بيروت - بدون.

صفة الصفوة - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي - تحقيق محمود فاخوري - دار المعرفة -بيروت- الطبعة الرابعة -١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري، ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي.

- صحيح البخاري مع فتح الباري - محمد بن إسماعيل البخاري - دار الفكر - بيروت - بدون.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

فتح القدير للشوكانى / المكتبة الشاملة من الإنترنت.

كتاب كنز القناعة للشيخ د. محمد الركبان - دار القاسم بالرياض - الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

كتاب الحزن والاكتئاب في ضوء الكتاب والسنة تأليف د / عبد الله الخاطر رحمه الله تعالى.

كتاب الايمان، محمد ابن إسحاق ابن محمد ابن منده الأصبهاني (ت ٣٩٥هـ)، ت ح د/على الفقيهي، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ط١، ١٤٠١هـ.

كتاب القناعة/ ابن السني.

لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي - المكتبة الفيصلية- مكة المكرمة- دار صادر- بيروت- بدون.

كياب شفاء القلوب للشيخ/ مصطفى بن العدوي.

مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، ط الأولى ١٣٨١هـ.

مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)، مكتبة الصفا، القاهرة.

مسند الإمام أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ) المكتب الاسلامي، دار صابر للنشر، بيروت.

مختصر تفسير بن كثير، الإمام عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٨هـ.

مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

- إحياء علوم الدين للغزالي.
- محاضرة الشيخ سلمان العودة عن النية. المدخل لابن الحاج (١/ ٣).
- محمد المنجد/سلسلة أعمال القلوب / بتصرف.
- معالم في الطريق/سيد قطب.

* * * * *

الفهـرس

* * * * *